ستيفن رنسيمان

الحضارة البيزنطية

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد



اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد
شيخ المترجمين- القاهرة

الحضارة البيزنطية

شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

الحضارة البيزنطية

تأليف
ستيفن رنسيمان

ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

هذه ترجمة كتاب :

Byzantine Civilization

تأليف :

Steven Runciman

مكتبة

شيخ المترجمين

محتويات الكتاب العزيز توفيق جاويد

صفحة

كلمة المترجم للإصدارة الجديدة

يسرني أن أقدم لقراء العربية هذه الإصدارة الجديدة من كتاب الحضارة البيزنطية الذى اقترح أن تناط بى ترجمته إلى العربية أستاذنا الكبير محمد شفيق غربال - رحمه الله - وقد أحسنت الهيئة العامة للكتاب إذ قررت إعادة طبعه بعد أن مضى على طبعته الأولى نيف وثلاثون عاماً، لم يفقد الكتاب على طولها قيمته بل ظل محتفظا بالقشابة والفائدة والحداثة. ولاتزال المكتبة العربية ودارسو التاريخ يفتقدونه بعد أن نفدت طبعته الأولى وأنى لأعيد إهداءه إلى القراء مقدماً ثنائى العاطر على هيئة الكتاب، راجيا أن يتقبله طلاب الجامعات والعارفون بفضل بيزنطة منار العلم والثقافة والأدب اليونانى مدى قرون متتالية. ومن يمن الطالع أن ظهرت أمة العرب فارتضعت جميع قديم بيزنطة الإغريقى واحتفظت به مترجماً أو على صورته الأولى حتى جاء الأوان وامتدت يد أوربا تحمل عن العرب الشعلة.

وتلك سنُة الله فى خلقه.

ابريل ١٩٩٦

ع. ت جاويد
منطقة شيراتون المطار

تقديم الكتاب

للأستاذ محمد شفيق غربال

مؤلف هذا الكتاب فى صفة الحضارة البيزنطية ، ستيفن رانسيمان ، مؤرخ عظيم المكانة فى عالم الدراسات البيزنطية . كتب فيها هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ العربى ، وكتب فيما يتصل بها كتباً أخرى نالت تقدير الدارسين ، فله فى البلغار بحوث ، وله فى تاريخ الفرق الدينية دراسات ، وله فى بعض أحداث التاريخ الصقلى رسالة ممتعة (وصقلية فى جوانب من تاريخها تلحق بالعالم البيزنطى) . وله — أخيراً وليس آخراً — مؤلفه الضخم عن الحروب الصليبية — تدلك آثار رانسيمان هذه على تعدد جوانب الحضارة البيزنطية وعلى ما تقتضيه من العامل فيها من مؤهلات :— إجادة أكثر من لسان ، الاطلاع الحسن على الكثير من مسائل الخلاف ، النظر الشامل العميق فى أحوال شعوب مختلفة (صقالبة ، وفرس ، وأرمن ، وخزر ، وعرب ، وترك ، وفرنجة الخ) .

وناقلا الكتاب للغة العربية هما أيضاً لهما مقام ملحوظ فى عالم التعليم والتأليف . فأحدهما ، الأستاذ زكى على ، يرأس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ويعنى فيما يترجم باختيار ما يتعلق بمواضع الاتصال بين الهللينية فى أطوارها المختلفة والعربيـــة . وثانيهما ، الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد وكيل مدرسة مصر الجديدة الثانوية . ويعنى فيما يترجم بما يتعلق بالحضارات الإنسانية الكبرى لما تتضمن من معانى الانطلاق وانتصار الإنسان على الشدائد .

وموضوع الكتاب الحضارة البيزنطية — وهى حضارة مجتمع سميت دوله

بأسماء شتى : عند العرب دولة الروم وعند الفرنجة الدولة الأخيرة أو الدولة الإغريقية أو الدولة الرومانية الشرقية – وتعدد النعوت له دلالته .

وهذا المجتمع أحد مجتمعات ثلاثة تتكون من علاقاتها السلمية أو الحربية مادة تاريخ عصور حافلة من تاريخ الإنسانيـــة . هو المجتمع المسيحى الأرثوذكسى بدولته الرومية المتنصرة وبشعوبه الإغريقية والصليبية والشرقية من عربية وغير عربية – وهو وليد مجتمع أكبر : المجتمع الهللينى ورومية الأولى دولته العامة ، وللمجتمع الأرثوذكسى هذا شقيق : هو المجتمع المسيحى الغربى بشعوبه اللاتينية والتيوتونية وبأنظمته الموروثة عن رومية أو عن جماعات المتبربرين الذين وضعوا أيديهم على الولايات الرومانية فى غربى أوربا وبالرياسة الدينية لكرسى رومية ، وأما المجتمع الثالث فهو المجتمع الإسلامى بحيويته العجيبة التى بعثها فى شعوب قديمة وبالنجاح المنقطع النظير الذي أصاب فى بناء الحضارة من عناصر متباينة الأصول متباعدة المواطن . وهو وليد مجتمع أكبر ، مجاله آسيا الغربية ودولته العامة الإمبراطورية الفارسـية .

تقابلت المجتمعات الثلاثة فى حوض البحر المتوسط ، على أنها امتدت فى اتجاهات مختلفة شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً . فامتد المجتمع المسيحى الأرثوذكسى للروسيا والبلقان ، وعندما زالت دولته نهائياً على يد الترك العثمانيين فى منتصف القرن الخامس عشر بقى المجتمع ممثلا فى امتداداته (الروسيا والبلقان) ، ومن الروسيا اتسع نطاق المجتمع عبر آسيا للمحيط الهادى فى أقصى الشرق . وامتد المجتمع الإسلامى عبر الصحراء الإفريقية لما يليها جنوباً وعبر البحار الهنديه لجزائر المحيط فى جنوب شرقى آسيا ، كما امتد على الساحل الشرقى للقارة الإفريقية ، وامتد أيضاً فى أواسط آسيا إلى الهند وإلى الصين ، وامتد المجتمع المسيحى الغربى إلى شمالى أوربا وعبر المحيطات إلى العالم الجديد وإلى الأقطار المختلفة التى استعمرها الأوربيون .

وكان المجتمع المسيحى الأرثوذكسى أسبق المجتمعات الثلاثة مولداً وأسرعها نمواً ونضوجاً فكان لحضارته مقام المعلم . وكان لا بد لنا من أن نضع تحت نظر القارئ العربى صورة دقيقة لها . فتاريخ العرب – كما قال أحد المؤرخين اللبنانيين المحدثين ، الدكتور أسد رستم ، فى كتاب قيم له عن الروم – قال إن تاريخ العرب لا يفهم على وجهه الصحيح بدون الاطلاع على تاريخ الروم . وقد عرف العرب الأقدمون الكثير عن الروم ، ولكننا لا نعرف لواحد منهم دراسة منظمة ، فحق على العرب المحدثين أن يكون منهم من يعمل فى الدراسات البيزنطية ، وأهميتها لنا لاتقل عن أهميتها للتاريخ الأوربى بل قد تفوقها .

* * *

ولهذه الدراسات البيزنطية تاريخ طريف :

فى أيام عز دولة القسطنطينية وازدهار حضارتها اتجهت إليها نظرات الإعجاب من الغرب المتبربر . كما اتجهت إليها أطماع مغامريه . وزادت فرقة الشقاق الدينى أبناء الشرق والغرب نفوراً بعضهم من البعض الآخر ، وأهل الغرب فى عصر النهضة الأوربية حاضر الشرق الأوربى . ولم يهتم إلا بما يجده فى ذلك الشرق الأوربى من آثار الهللينية الكلاسيكية .

أخذ هذا يتغير بعض الشىء فى القرن السادس عشر . على أن الدراسة العلمية للتاريخ البيزنطى لم تبدأ إلا فى القرن السابع عشر ، فى عصر لويس الرابع عشر ، حينما حظيت الآداب برعاية الخاصة من الملوك والنبلاء وأصحاب المناصب . ومن العلماء الذين رسموا خطط الدراسة لأول مرة كان دى كانج المشهور (Du Cange – ١٦١٠ – ١٦٨٨) ، ودى كانج مؤرخ ولغوى وأثرى . كتب فى تاريخ بيزنطة مع عهد أباطرتها من الفرنجة (القرن الثالث عشر) وكتب فى خطط القسطنطينية ، ووضع معجما لإغريقية العصور الوسطى ونشر بعض كتابات المؤرخين الإغريق المتأخرين .

وحاق بهذه النهضة العلمية فى القرن الثامن عشر ما عطل نموها بل وعاد

بها القهقرى ، ذلك لأن القرن الثامن عشر — عصر الاستنارة — رأى فى بيزنطة ظلمة الخزانة والتعصب ، ندد فولتير بما سماه الإمبراطورية الإغريقية ولم ير فى سجلها إلا كل ما يخزى الإنسانية ، ندد بها أيضاً منتسكيه ولو أنه اعتبرها متممة لِمُلك الرومان ، ولو أنه أدرك أن بقاءها دهرا طويلا على الرغم من محاولات الفرس والعرب والفرنجة والبلقانيين تمزيقها جدير ببحث الباحثين ، وكان له فى ذلك آراء لها وزنها ، وندد بها جيبون فى تاريخه الكبير ولو أنه هو أيضاً وصل بينها وبين قياصر رومية . ونندد بها أيضاً هيجيل — وعندما اقترب نجم نابليون من الأفول وضيق عليه أعداؤه الخناق خطب أعضاء الهيئة التشريعية الفرنسية قائلا « أعينونى على إنقاذ فرنسا ولا تكونوا كأهل بيزنطة شغلتهم المماحكات الدينية التافهة عن الالتفات لآلات الحصار تدك أبواب المدينة واستحقوا بذلك أن يكونوا أضحوكة الأجيال المستقبلة » .

والعجيب فى أمر التنديد ببيزنطة أن رجال القرن الثامن عشر أقدموا عليه عن جهل تام بها وبأحوالها !

وقد شهد القرن التاسع عشر بعث الدراسة العلمية لبيزنطه — ومن روادها جورج فنلاى الذى كتب تاريخ الإغريق من تعصب الرومان على بلادهم إلى وقت انتهائه من تأليف الكتاب فى سنة ١٨٦٤ . وقد نشر الكتاب فى طبعة ثانية فى سنة ١٨٧٧ فى سبعة مجلدات . وهى الطبعة التى يعتمد عليها .

ويرجع اشتغال فنلاى بتاريخ الإغريق إلى تحمسه لهم فى قيامهم ضد الحكم التركى فانتقل لبلادهم ليعمل ما يستطيع لمساعدتهم فى حرب استقلالهم وطاب له المقام فيها فقضى فيها عمره كله ، وانتقل من حاضرهم لماضيهم ، فوضع فيه هذا المطول .

وعند فنلاى أن استعباد الإغريق بدأ بتغلب الرومان عليهم ، على أن ذلك الاستعباد لم يقض على مواهب الشعب ، لا هو ولا تغلب الترك

العثمانيين عليهم فيما بعد . على أن الدولة البيزنطية — وإن سميت رومانية — فهى دولة إغريقية قومية . وقد قسم فنلاى تاريخه فى ستة عصور : الأول فى الفتح الرومانى إلى القرن الثامن — أى إلى أيام لاوون الايسورى الذى أنشأ الدولة البيزنطية الأصلية — والثانى يبدأ بلاوون هـذا وينتهى بفتح الفرنجة للقسطنطينية فى الحرب الصليبية الرابعة فى ١٢٠٤ — وهنا يتفرع تاريخ الإغريق فروعاً . أحدها تاريخ الإغريق فى نيقية — وتاريخها يكوّن العصر الثالث — والفرع الثانى تاريخ سيادة الفرنجة فى القسطنطينية والبلقان فى بحر الأرخبيل ويمتد حتى زواله تماما على يد الترك العثمانيين ، وهذا هو العصر الرابع . والفرع الثالث هو امبراطورية طرابزون وكانت دولة إغريقية آسيوية امتد تاريخها قرنين ونصف قرن من الزمان واكتسبت أهميتها من موقعها التجارى ومواردها ، وهذا هو العصر الخامس . وأما العصر السادس فهو عهد السيادة التركية القـديمة من ١٤٥٣ إلى ١٨٢١ سنة بدء حرب الاستقلال .

وقد تأثر المؤرخون الإغريق المحدثون بفنلاى — فنظروا إلى الدولة البيزنطية كما لو كانت دولة إغريقية قومية .

ويشبه موقف طائفة من رجال الفكر الروسيين فى بيزنطة موقف الإغريق المحدثين بعض الشبه . ويرجع ذلك إلى أن بيزنطة هى معلمة الروسيا ، وأن القياصرة الروس كانوا يعتبرون أنفسهم خلفاء أباطرة القسطنطينية ، وكره ذلك الموقف طائفة أخرى من المفكرين الروسيين الذين أحبوا الابتعاد عن بيزنطة ما وسعهم ذلك ، وللأديب الروسى المشهور هرزن قول شبه فيه إحياء البيزنطية برفع غطاء التابوت عن جثة — فالبيزنطية فى نظره جثة يرعاها القساوسة يقومون على الموتى ويرعاها الخصيان مثال العقم . على أن الأمر انتقل فى الروسيا من دائرة الجدل هذا إلى يد العلماء الحقيقيين وكان فى طليعتهم ث . اسبنسكى . واشتهر من بيزنطيى الروس

المؤرخ فاسيليف ، واهتم بصفة خاصة بالعلاقات بين البيزنطيين والعرب .

هذا وإنا لا نستطيع فى هذا التقديم إلا الإشارة بكلمة أو بكلمتين لبعض بيزنطيي الغرب اشتهر منهم فى بريطانيا المؤرخ بيورى وكان أستاذاً بجامعة كمبردج وفكرته الأساسية اتصال التاريخ الرومانى إلى ١٤٥٣ سنة سقوط القسطنطينية وعنده أن النظرية الدستورية السليمة هي اعتبار الامبراطورية الرومانية دولة واحدة حتى إذا ما تعدد الأباطرة فى وقت واحد — هذا ومن رأيه أيضاً أنه يجوز للمؤرخ أن يصف الدولة التى كانت عاصمتها القسطنطينية بأنها الدولة الرومانية الشرقية ابتداء من تتويج شارلمان فقط أى من ديسمبر سنة ٨٠٠ — واشتهر منهم فى فرنسا شارل ديل وله اهتمام خاص بالجوانب الحضارية من بيزنطة وبالإدارة الإقليمية فى إيطاليا وفى شمال إفريقيا .

وبفضل جهود من ذكرنا من العلماء ومن لم نذكر تجمعت المادة التى استطاع رانسيمان أن يخرج منها الصورة الدقيقة التى رسمها فى هذا الكتاب للحضارة البيزنطية .

* * *

والعلاقة بين العرب والروم علاقة حرب دائمة لا تمنع التفاهم والتعاون .

فما طبيعة تلك العلاقة التى تفترض العمل مع زوال إحدى الأمتين ولكنها رسمت للحرب حدوداً تقف عندها ؟ وإذا لم تمنع الحرب وجود التعاون ، فلماذا لا تعترف الأمتان صراحة بوجوب إقامة سلم صريح ؟

افترضت الأمتان أن الحرب بينهما لا بد من دوامها إلى أن ترفرف على العالم راية واحدة ، فالحق عندهما حق واحد ولا يمكن التسليم نظرياً بإمكان وجود حقيق . كان هذا هو الغرض ولكن تحقيقه استحال .

انتصر العرب انتصارات رائعة وأقاموا دولتهم فى جل بقاع الروم والفرس ، فى فارس نفسها وفى العراق والشام ومصر والغرب والأندلس

ولكن بقيت راية الروم مرفوعة فى الأناضول والبلقان وإيطاليا ونفوذهم ممتد فى الروسيا لبحر بلطيق . وكان المفروض ، كما ذكرنا ، أن لا يضع العرب سلاحاً حتى تختفى تلك الراية . فلماذا لم يفعلوا ذلك ؟ ذلك لأنهم لم يستطيعوه ولأنهم أيضاً لم يرغبوا فيه . لم يستطيعوه لأن المُلْكَ الذى انتزعوه من الروم لم يخلص لهم تماماً فبقى رومياً فى أكثر مقوماته ، وبقيت لأكثر من بقوا مع دينهم من الرعايا صلات دينية ومذهبية بالقسطنطينية . وترتب على ذلك أن الاستعداد للحرب وإجراء الحرب تعرضا لعوامل إضعاف معنوى وحسى . وكان من الواضح أن الأمتين يعرضان مصالح خطيرة لرعاياهما للضياع إذا أصرتا على أن تجرى الحرب لنهايتها مهما تكن . هذا عن عدم استطاعة التقيد بمنطق الحرب الدائمة . أما عن عدم الرغبة فيها فقد يبدو أمراً غريباً مع حدوث الحرب فعلا — ونفسر هذا التناقض الظاهر بالقول بأن المرغوب فيه كان قدراً من الحرب يمثل فكرة الحرب الدائمة تمثيلا نظرياً ويحول دون استفحال أمر العدو . وفى الوقت نفسه لا يحول دون التعاون . ألا ننسى أن الروم من ناحيتهم والعرب من ناحيتهم يحولون دون نفوذ المتبربرين من الشمال أو من الجنوب إلى مناطق البحر المتوسط الرومية والعربية المتحضرة . وتعنى بهذا كله على الأمتين مواصلة نوع خاص من الحرب له حدود ولا يتخطاها إلا نادراً ثم يعود الأمر للتوازن المسلح . وكان ذلك التخطى للحدود التقليدية يحدث عادة نتيجة لاضطراب داخلى فى إحدى الدولتين أو نتيجة لوقوع السلطان فى يد مغتصب يعمل على أن يكسب أنصاراً برفع راية الجهاد الدينى وما إلى ذلك .

نظمت الدولتان العواصم والثغور والبنود — وقامت الغارات التى تقرنها الكتب العربية باسم الصوائف والشوتى — يتخلل هذا كله تبادل السفارات والتجارات وتبادل الأسرى أو المتداوَّهم وانتقال المخطوطات وأساليب

الفنون — وانعكست لهذا كله صور فى الأدب الشعبى العربى والرومى . على أن الأمر خرج شيئاً فشيئاً من يد العرب ومن يد الروم وانتقل إلى الترك من ناحية وإلى الفرنجة من ناحية أخرى — وتم بهذا تحول بارز فى التاريخ وينتهى به العصر الذى تصدق عليه صورة الحضارة البيزنطية على النحو الرائع الذى رسمه ستيفن رانسيمان فى هذا الكتاب .

محمد شفيق غربال

كلمة المترجم

قامت بيزنطة صنواً لروما ووريثاً لها ، وظلت بما قيض لها من مركز ممتاز بين الشرق والغرب - تتبوأ منزلة الصدارة فى إقليم البحر المتوسط ، نيّفاً وأحد عشر قرناً . فيها اجتمعت كل أسباب الحضارة ، وإليها أسلس كل علم أو فن معروف فى عصرها قياده ، ومنها انتشرت ألوية الثقافة وأعلام النور والعرفان جنباً إلى جنب ، وإليها بعد روما آل كل تهذيب ، وكل رقة ، وكل دماثة تهيأت للبشر .

وعاشت بيزنطة قروناً عديدة مسيطرة متحكمة فى حوض البحر المتوسط ، لا ينازعها سلطانها فيه منازع ، حتى انجابت غياهب الصحراء عن إشراق شمس الإسلام ، فاحتل العرب الرقعة الكبرى من ديار تلك الدولة ، حيث انتزعوا منها سورية ومصر وبرقة وشمال إفريقية ، وحمل كل من الشعبين العربى والبيزنطى مشعلا للحضارة : فبيزنطة فى جانب تحمل المشعل مطبوعاً بالطابع المسيحى ، والعرب فى الآخر ملوناً باللون الإسلامى ، بيد أن المشعلين سارا جنباً إلى جنب قائدين للحركة الفكرية والحضارية فى العالم ، وإن بزّ العرب بيزنطة فى هذا المضمار ، لما طبعوا عليه من رغبة فى الاستطلاع ، وإقبال على العرفان .

ولم تلبث بيزنطة طويلا حتى عاجلها القدر بالشعوب التركية الضارية من الجنوب ، والهونية والصقلبية المتبربرة من الشمال ، فأخذوا يناوشونها ، ويستنزفون دماءها ، ويقتلونها قتلا بطيئاً مستأنياً ، حتى قضى عليها الفاتح

العثمانى آخر الأمر . فقضى التركى بذلك على مشعل الحضارة البيزنطى ، ولم يمهل المشعل العربى إلا نيفاً وخمسين عاماً ، ثم أخمده بالضربة التى كالها للعرب فى مرج دابق .

وقد كان سرور المترجم عظيما حين اقترح السيد المؤرخ الكبير الأستاذ « محمد شفيق غربال » أن يناط به ترجمة هذا الكتاب « الحضارة البيزنطية » فقد أتاح له أن يدرس عن كثب ما يزدحم به عقله وعقل كل عربى فى هذا الأوان الذى صحت فيه نهضة العرب ويقظتهم — من البحث عن أصول الحضارات فى هذه الرقعة المباركة من العالم التى جعلها الله واسطة العقد بين أقاليم العالم ، ومعبراً للمدنية من الشرق إلى الغرب .

والمؤلف حجة ثقة فى دراسته ومادته ، وقد عالج موضوعه بغزارة وتدفق ، وبخاصة عندما تناول بالحديث فنون بيزنطة وآدابها ، حيث أفاض فيهما بما لا يدع مجالا لمستزيد ، كما أن الفصل الذى عقده عن علاقة بيزنطة بالدول المعاصرة لها فصل ممتع يعطى القارئ صورة حية لفضل بيزنطة وأثرها فى نشر الحضارة .

هذا ولا يسعنى — قبل أن أختم هذه الكلمة — إلا أن أتوجه بخالص الشكر إلى أستاذى الكبير « محمد شفيق غربال » على ما غمرنى به من توجيه كريم ، وعلى حسن ظنه بى ، إذ عهد إلىّ بترجمة هذا الكتاب ، وإذ تفضل — مشكوراً — بتقديمه إلى القراء .

وأخذاً برأيه الكريم راعيت فى تدوين الأسماء النطق الرومانى الأصيل ، الذى أخذ به الدكتور « أسد رستم » فى كتابه « الروم » .

وكدأبى فى كل ما نقلت إلى العربية أضفت إلى الكتاب الحواشى والشروح ، وذيلته بفهرس أبجدى ومعجم للمصطلحات ، وألحقت به

ثلاث خرائط للدولة البيزنطية فى عصور مختلفة من تاريخها ، تكرمت لجنة التأليف والترجمة والنشر بالإذن لنا بضمها إلى الكتاب مشكورة[1] .

ولا يفوتنى كذلك أن أوجه الشكر إلى الأستاذ « زكى على » أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة على معاونته الصادقة لى فى إخراج الكتاب : شكلا وموضوعاً ، فى أحسن صورة ممكنة .

والله نسأل أن ينفع به القارئ العربى ، وأن يوفقنا حتى نسهم بجهدنا المتواضع فى خدمة العلم والثقافة .

٢٣ يوليو ١٩٦١ ع . ش . جاويد

(١) وقد نقلت عن كتاب « الإمبراطورية البيزنطية » ترجمة الدكتور حسين مؤنس وزميله .

مقدمة الكتاب

الغرض من هـذا الكتاب إعطاء القارئ صورة عامة لحضارة الإمبراطورية الرومانية فى أثناء المدة التى كانت عاصمتها فيها مدينة القسطنطينية ، تلك الحضارة الإغريقية الرومانية المشربة بالطابع الشرقى التى أصبحت خير تسمية لها هى « البيزنطية » . وهى فترة طال بها الأمد ؛ حدثت فى أثناء قرونها الأحد عشر تغيرات كثيرة وتعديلات جمة . ومع ذلك فإنى حاولت أن أركز اهتمامى ما وسعنى الجهد على الصفات التى كان التاريخ البيزنطى يتميز بها طوال عصوره وحقبه . وقد حاولت وضع حجم الكتاب فى حيز معقول ، ومن ثم ألممت بنواح عديدة من الموضوع إلمامة الإيجاز الذى لا يتناسب وقدرها . فإن القانون البيزنطى والفن البيزنطى بوجه خاص قد عولجا معالجة لا تتناسب مطلقاً وأهميتهما . على أنك لا تكاد تتجاوز فى حالة ذلك القانون مرتبة النواحى العمومية الأولية حتى تجد نفسك غارقاً فى كثير من التفصيلات المعقدة ، وحتى تجد ذلك الفن بحراً محيطاً من الخصومات المتناحرة والأذواق المتشعبة تكون فيه حتى تلك العموميات نفسها محفوفة بالخطر الشديد . فلو أننا توخينا فى كلا الحالين عرضاً أوفى مما قدمنا لاستلزم الأمر صفحات أكثر مما يتسع له هذا الكتاب . بل الحق أننى حينما لاح للقارئ أنى أعمد إلى التركيز الشديد أحب أن أرجو نقادى أن يشملونى بالتسامح وأن يتذكروا أن زيادة السخاء هنا لم يكن لها من ثمرة إلا فرط التضييق هناك .

والغرض من الهوامش تزويد القارئ بمصادر التفصيلات الإيضاحية وإمداده بمجموعة موجزة من المراجع فى حينها المناسب . وقد استغنيت عن تلك الهوامش فى الفصل الثانى الذى أعالج فيه تاريخ الحقبة بصورة

عامة عارية من كل جنوح إلى خصومة جدلية . ثم إنى أعود فى نهاية الكتاب فأقدم أسماء المراجع العامة التى أراها أعود بالنفع كما أقدم قائمة برموز الاختصارات القليلة التى استخدمتها فى الهوامش .

وإنى لأقدم خالص شكرى للآنسة ر . ف . فوربس لما قدمته من عون فى إصلاح تجارب الكتاب .

س . ر
كلية ترينيتى بكمبردج
ديسمبر ١٩٣٢

الفصل الأول

تأسيس القسطنطينية

أسس مدينة بيزنطة ملاحون من ميجارا فى عام ٦٥٧ ق . م . فى الطرف الأقصى لأوربا ، وحيث ينفتح مضيق البوسفور على بحر مرمرة . ولم تكن هذه الشواطئ مجهولة لدى المستعمرين الإغريق . فقبل ذلك ببضع سنين كانت جماعة أخرى من الميجاريين أسست مدينة خلقيدونية على الشاطئ الأسيوى المقابل ، مكتسبين شهرة فى النهاية أصبحت مضرب الأمثال حيث أغفلوا الموقع الأفضل فى الجانب الآخر من المضيق . ومع ذلك فإنه حتى خلقيدونية نفسها أوتيت من المزايا ما لم تؤته إلا قلة ضئيلة من المدن من حيث موقعها على البوسفور .

يفصل أوربا عن جنوب غربى آسيا متسعان عظيمان من الماء هما البحر الأسود وبحر إيجة ؛ على أن تراقيا تبرز بين البحرين لتلتقى بآسيا الصغرى حتى لا يعود يفصل القارتين سوى مضيقان ضيقان ، هما البوسفور والهللسبونت (الدردنيل) وبحر مرمرة المغلق الذى تحوطه الأرض من جميع أقطاره . وعبور هذين المضيقين سهل يسير وإن كان عبور البوسفور أسهل قليلا من ناحية القارة الأسيوية ، وذلك لأن قصاده من المسافرين يتجنبون ارتقاء جبل أوليمبوس بإقليم بيثينيا وهو المسمى أيضاً جبل إيدا ، كما أن عبوره من أوربا أسهل كثيراً ، وذلك بسبب تلك الزاوية الحادة التى تبرز بها إلى الأمام منطقة الخرسونيز التراقية لتكون مضيق الهللسبونت . ولذا فإن الناس الذين يرحلون من إحدى القارتين إلى الأخرى يكاد يكون لا مندوحة لهم هم وما يحملون من تجارة من المرور بإحدى المدن القائمة على البوسفور : على حين أن السفن المتنقلة بين البحر الأسود وبحر إيجة والبحر المتوسط الذى يليه

لا بد لها من أن تُبحر بالقرب من مراسيه . ويقوم مضيق البوسفور عند ملتقى طريقين من أعظم طرق التجارة فى التاريخ .

ولم تكن خلقيدونية سيئة الموقع ، ومع ذلك فإن مؤسسيها عميت بصيرتهم عماية غريبة ، حيث فاتهم أن يدركوا ميزة فى الشاطئ الأوربى كانت تعوز الشاطئ الأسيوى . ذلك أنه قبل اتصال مياه البوسفور ببحر مرمرة مباشرة ، كان يمتد نحو الداخل إلى الشمال الغربى خليج فائق ممتاز يقارب طوله سبعة الأميال ، وهو معقوف كالمنجل أو القرن ويعرف فى التاريخ باسم القرن الذهبى . وكان يقوم بين القرن الذهبى وبحر مرمرة نتوء بارز من التلال يشبه فى شكله العام ما يقارب المثلث المتساوى الساقين وله قمة مفلطحة تواجه آسيا . فالمدينة التى تقام على مثل هذا النتوء البحرى لا تستمتع بمرفأ طبيعى تستطيع عمارة بحرية ضخمة أن ترسو فيه فى أمان تام فحسب ، بل وتستمتع أيضاً بحماية البحر لها من جميع النواحى إلا جهة واحدة . وكان العيب الوحيد هنا هو المناخ . ذلك أن ريحاً شمالية لا تكاد تتوقف كانت تهب هنا عبر البحر الأسود طوال الشتاء والربيع قادمة من السهوب الباردة المتجمدة ومنزلة أقسى أنواع البرد بالمستوطنين الذين ألفوا وديان بلاد اليونان التى تقيها الجبال لذعات القر فضلا عن مناقضتها التامة العظيمة للأصياف الحارة الرطبة المحتبسة الهواء التى تعقب الأشتية . وكانت هذه الريح الشمالية مجتمعة مع تيار البوسفور السائف جنوباً ، كثيراً ما تمنع السفن من الدوران حول القمة والوصول إلى القرن الذهبى .

ولعل ذلك المناخ القبيح هو الذى حال دون أن تصبح بيزنطة مدينة كبيرة مدة تقارب الألف سنة . وفضلا عن ذلك كان عبور التجارة الأسيوية إلى أوربا أيام عظمة بلاد الإغريق من أزمير أو إفيسوس أسرع لها وأدعى للاطمئنان عليها لما كانت عليه تراقيا من همجية . ولكن سرعان ما أدرك القوم أهميتها كموقع حصين . فكان الجميع يخطبون ودها فى أثناء حرب

البيلوبينيز لتسلطها على مدخل البحر الأسود الذى كانت أثينا تعتمد فى غذائها على حقول القمح الواقعة على شواطئه الشمالية . وأدرك كل من فيليب المقدونى وابنه الإسكندر أنها الباب الرئيسى الموصل إلى أسيا . ولكن عاد الأباطرة الرومان فاعتبروا قوتها الاستراتيجية مصدر تهديد لهم . فقضى قسبازيان على ما كان لها من امتيازات . وجردها سيفيروس من جميع تحصيناتها بعد أن صدت جيوشه سنتين ناصرت فى أثنائهما قضية پسكنيوس نيجر الخاسرة ؛ على أن كراكلا أمر بإعادة بنائها . وحذا جالينيوس حذو سيفيروس ، حتى لقد صار فى إمكان قراصنة القوط أن يعبروا المضايق بمنتهى الوقاحة إلى بحر إيجة . ولذا اضطر دقلديانوس أن يعيد بناء الأسوار مرة أخرى . على أن إمكانياتها الكاملة كموقع حصين لم تكتشف حتى شبت الحرب الليسينية الثانية فى ٣٢٢ — ٣٢٣ يوم أن جعلها ليسينيوس قطب الرحى فى حملته على قسطنطين . ثم قُضى على ليسينيوس عنـدما دُمر أسطوله فى مضيق الهللسبونت ، وهزم جيشه هزيمة نهائية فى خريسوبوليس ؛ وبعد استسلامه لم يعد هناك داع يدعو القلعة الحصينة أن تظل صامدة أية مدة أخرى . على أن خطة ليسنيوس الاستراتيجية استرعت نظر خصمه العظيم ؛ وفضلا عن ذلك أدرك قسطنطين وجود إمكانيات ومزايا أخرى كثيرة فى بيزنطة . فلم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أمر الإمبراطور المهندسين والمساحين فداروا حول المدينة وأرباضها وحتى بدأت عمليات البناء .

وكان أباطرة الرومان يحسون منذ أجيال عديدة حاجتهم الماسة إلى مركز إدارى جديد . فأما روما نفسها فأخذت تصبح غير موافقة لهم بما حوت من تقاليد جمهورية وسنن وسوابق لمجلس الشيوخ (السناتو) وبما تظهره من عدم إيمان بفكراتهم الشرقية الجديدة عن السيادة الملكية . هذا إلى أنها كانت بعيدة جداً من جبهتى الحدود اللتين كانتا لا تنفكان تستلفتان أنظارهم بصورة متزايدة ، وهما الحدود « الأرمنية السورية » وحدود الدانوب .

وقد جعل مكسيميان مدينة ميلانو مقراً لحكمه ؛ على حين انتقل دقلديانوس شرقاً وجعل نيقوميديا قصبة ملكه. وأخذت عواطف الحنين تتجاذب قسطنطين حول جعل مسقط رأسه نيش أو (نايسّوس Naïsus) حاضرته ، ثم شرع بعد ذلك في إعادة بناء مدينة طروادة. ولكن ما كاد نظره يوجه نحو بيزنطة ، حتى تجلت له مزاياها الفائقة. وعندئذ لم يعد ثمة مجال للتردد. وبدأت التحصينات في نوفمبر ٣٢٤ ، ولم تنقض خمس السنوات ونصف السنة حتى تم بناء العاصمة. وافتتحت المدينة بحفل عظيم رهيب أقيم في ١١ مايو ٣٣٠ برئاسة الإمبراطور وأطلق عليها اسم « روما الجديدة » ؛ ولكن الناس آثروا أن يطلقوا عليها اسم القسطنطينية تخليداً لذكرى مؤسسها.

لعل عام ٣٣٠ خير تاريخ تتخذ منه نقطة بداية التاريخ البيزنطي(١). على أن تأسيس القسطنطينية وإن كان أبعد أثراً بصورة لا حد لها ، إلا أنه لم يكن إلا شكلاً من أشكال الإصلاحات والتغييرات التي بدأت بالفعل في التحول التدريجي بإمبراطورية روما الوثنية إلى هذه الإمبراطورية التي نسميها البيزنطية. ذلك أن الإمبراطورية الرومانية كانت عند نهاية القرن الثالث الميلادي في حاجة ماسة إلى أوجه الإصلاح. وليس هذا موضع تفصيل أسباب تمزق العالم الروماني(٢). وموجز القول في هذا الصدد أن الدولة

---

(١) إن شئت الإلمام بإصلاحات دقلديانوس وقسطنطين فانظر بوجه خاص ستاين (Stein).

Geschichte des spärtrömischen Reiches, I passim ; Maurice, Numismatique Constantinienne, vol. II, introduction, and Constantin Le Grand, Leclerq, article on Constantine in Cabrol's Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne, 2262 — 96. Baynes, Constantine and the Christian Church in Brit Academy Papers, vol. XV (with full bibliography).

(٢) جاء ذكر هذه الأسباب في كتاب « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية » تأليف رستوفتزف وترجمة الأستاذين زكي علي ومحمد سليم سالم ص (٦٣٨ — ٦٥٠ من الترجمة العربية) ؛ انظر أيضاً Later Roman Empire تأليف بيوري ج١ ص ٣٠٢—٣١٢.

قد ران عليها ظل الفوضى والضعف الإدارى والمالى ، وانتقل شطر عظيم من السلطان فيها إلى أيدى ذوى الطموح من الجند ، وحلت بها طائفة جديدة من المخاطر على الحدود . وقديماً حصلت روما على ممتلكاتها الإمبراطورية بوساطة روح انتهازية استمرت تواصلها بصورة رائعة . وكانت كل ولاية يتم الاستيلاء عليها تُسترضى بأسرع ما يستطاع بالسماح لها بالاحتفاظ بكثير من الحقوق والعادات المحلية . وكانت عاقبة ذلك أن صارت كل ولاية تستلزم طرازاً مخالفاً من الإدارة . وقد زادت حالة الحكومة المركزية من أوجه التباين بين تلك الأقاليم ، فإن الحكومة الثنائية (Dyarchy) التى أعلنها أوغسطس فى كثير من الجلبة والضجيج والتى أصبح السناتو بمقتضاها يشاطر الإمبراطور السيادة وينفرد بالحكم فى بعض أقاليم معينة ، لم تزد الدولة إلا خبالا دون أن توجد أى كبح فعال لسلطة الإمبراطور . وكانت المالية مرآة صادقة تعكس ما ران على الدولة من اضطراب . فكانت الضرائب عالية ولكنها مختلفة وغير منتظمة ، كما أن نسبة عظيمة منها ظلت فى أيدى ملتزمى الضرائب . وكانت الثروة موزعة توزيعا غير متعادل . فكان فى إمكانك أن تجد كثيراً من أرباب الملايين ، ولكن كانت ولايات بأكملها مغرقة فى الفقر إلى الآذان . وفوق هذا ظلت الإمبراطورية تعانى طويلا من ميزانها التجارى غير المتعادل . ففى عهد پلينى نفسه كانت الواردات من الهند تتجاوز الصادرات بما يربى على ٦٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً ، ومن الصين بما يزيد على ٤٠٠,٠٠٠ من الجنيهات[١] ؛ ولم يصحح ذلك الوضع البتة . وقد ظلت العملة الإمبراطورية طوال عصر الإمبراطورية الأولى فى تناقص متواصل ، كما أن هبوطها أصبح سريعاً منذ حكم كراكلا : حتى لم يعد هناك فى النهاية عملة لا تحتوى على سبيكة سوى العملة النحاسية وحدها ، على

---

(١) انظر كتاب بيورى سالف الذكر .

حين تراءى الأمر فى النهاية بالعملة الفضية أن لم تعد تحتوى إلا على اثنين فى المئة من الفضة .

وكانت السلطات المدنية عاجزة مشلولة الأيدى بما يواجهها من ارتباك إدارى وقلق مالى مستمر . وكانت القوة الحقة الوحيدة فى قبضة قواد الجيش . وما كانت روما لتستطيع الاستغناء عن كتائبها . إذ لم يكن بد من حراسة التخوم الطويلة ؛ وكان رجال الشرطة لازمين للولايات التى كان الابتزاز الاقتصادى يؤجج فى يسر وسهولة أوار ما فطرت عليه من تمرد وصعوبة مراس . وكان لكل حاكم ولاية كتيبة تحت تصرفه ؛ بل لقد كانوا فى بعض الأحيان على رأس جيوش أعظم من ذلك . وربما لم يكن ذلك لينطوى على أدنى خطر لو كانت هناك حكومة مركزية قوية وقاعدة ثابتة لوراثة العرش الإمبراطورى . ولكن قلّ بين الأسر الإمبراطورية من امتد الملك فيها إلى الجيل الثالث ، حيث أخذ العرش يصبح بصورة متفاقمة الغنيمة التى يحصل عليها أقوى القواد العسكريين ، وكثر عدد القادة الطامحين الطامعين . ولم يكن ينقطع البتة إبان القرن الثالث وقوع إحدى الولايات فى قبضة مغتصب ، وقلما كانت الإمبراطورية فى الحق دولة موحدة .

ومما زاد فى خطورة الاضطراب فى القرن الثالث ظهور ضغط جديد على الحدود . فمنذ الأيام الأولى للإمبراطورية لم تكن التخوم الأسيوية الممتدة من أرمينية إلى بلاد العرب مصدراً إلا للقليل نسبياً من المتاعب . وكانت مملكة الأرشكيين البارثية فى حالة اضمحلال بطىء ، ولكن قامت ببلاد فارس منذ بواكير القرن الثالث أسرة مالكة جديدة ، هى أسرة الساسانيين المحبوبة من الشعب ذات النزعة القومية والزرادشتية العقيدة ، التى ظلت قروناً أربعة خصماً لروما ديدنه العدوان . فهزموا أربعة أباطرة فى القرن الثالث ، بل لقد أسروا الإمبراطور ڤاليريان ؛ ولاحت قوتهم كأنما هى فى ازدياد مستمر كل عام . وفى نفس الحين كانت التخوم الأوروبية فى

حاجة إلى المزيد من اليقظة . فمنذ أيام قيصر كان حاكم بلاد غالة يجد عسراً ومشقة فى صون حدود الرين من القبائل الجرمانية الغربية المتكاثرة النازلة وراءه ، والتى كانت مشوقة أن تنتشر من غاباتها التى تغل من نشاطها . فأما الآن فقد ظهر ضغط آخر على الدانوب . ذلك أن قبائل جرمانية شرقية هم القوط بنوع خاص كانوا يستقرون على ضفافه المقابلة ، وربما دفعتهم كل حركة جديدة أو هجرة على ما وراءهم من شعوب إلى عبور النهر . ولقد كانت المشكلة القوطية مصدر تهديد واضح ؛ كما أنه على الرغم من جهود أباطرة من أمثال كلوديوس الثانى ، لم يبد عليها أية بارقة تحسن .

ذلك هو الوضع السياسى الذى يقع فى خلفية صورة الحياة إبان القرن الثالث . أجل كانت معايير الحضارة لا تزال عالية ؛ وإن لم يجد الفقراء ولا الرقيق ولا العتقاء إلا أقل التحسن فى أحوالهم ، إلا من حيث أن الكثيرين منهم كانوا يعيشون على إحسانات الدولة ، على حين أن الطبقات الأوفر ثراء كانت تحظى بأسباب الرفاهية ووسائل الترف المادية التى تفوق كل ما شهده العالم حتى ذلك الحين . وكان الحكم الرومانى ينطوى فى كل أوان على برنامج من الأشغال العامة يتصف بالكفاية ؛ فكانت الحمامات والمعابد والموانى والطرق تزيد من مباهج الحياة . وكانت المواصلات سريعة وسهلة ومأمونة . بيد أن ألوان الرفاهية هذه جميعاً وهذا الأمان كله ، كانت معرضة لأحداث فجائية وطويلة الأمد قد تقطع عليها استمرار تيارها . وربما حدث فى أثناء الحروب الأهلية الكثيرة أن مواطنين مسالمين كانوا ينظرون فإذا هم يلقون شديد الإساءة على غرة ويجردون من أموالهم ، بل يعدمون . وقد أدى عدم استقرار الأحوال إلى يأس الناس من الدنيا وزوال كل غشاوة لانخداعهم فيها واغترارهم بها ، وهى الظاهرة الرئيسية فى ثقافة العصر .

وكانت الإمبراطورية مقسمة من الناحية الثقافية إلى شطرين . فكانت الولايات الممتدة من ولاية إلليريا (Illyricum) إلى الغرب تتحدث باللاتينية كلغة عامة شائعة الاستعمال ؛ وكانت اللغة فى الولايات الشرقية هى الإغريقية .

وكان الصدع حتى ذلك الحين ظاهرياً أكثر منه حقيقياً ؛ وظل الغرب إلى حين مصدر جميع ذوى الهمة والحل والربط تقريباً : الأباطرة ورجال السياسة ، وذلك على حين أن رجال الفكر فى الغرب كانوا يتبعون راية العالم الناطق بالإغريقية . ولم يكن للثقافة اللاتينية من قوة دفع خاصة بها إلا ببلاد إفريقية وغالة . فأما بقية الأجزاء فلم يكن اللاتين (اللاطين) يقدمون فيها إلا الأشغال العامة وإحساساً متعالياً بالقانون طُبع على صفحة الشرق بل دام به رغم اضطراب الأحوال . ولم تبرح حضارة الشرق هى الحضارة الهلينستية ، وهى خليط من روح بلاد الإغريق الكلاسيكية ومن الأفكار والتصورات الساميّة والإيرانية . بيد أن دور بلاد الإغريق الكلاسيكية انكمش حتى لم يعد إلا تراثاً قوياً من التقاليد أكثر منه قوة أساسية حيوية . ولم يكن فى الإمكان أن تعمر طويلا الفردية التى كانت ضرورة جوهرية للثقافة الهلينية — بعد ذهاب دولة المدينة وانصهار كل شىء حتى الممالك المقدونية فى إمبراطورية عالمية لم يكن الإغريقى يقوم بأى دور فى توجيهها . بيد أن الفن والآداب ظلت تتمسك بالنماذج الإغريقية القديمة أو بصورها البديعة المصنوعة فى روما لعهد أوغسطس . ولم يزد الفنان الآن إلا حباً مفرطاً للحجم الضخم ولأية تفاصيل تظهر كفايته وتضلعه فى الأصول الفنية . وكانت المعابد والتماثيل وقصائد الملاحم تفيض كلها — بما تجلى فيها من الفخامة والإحكام . ولم يكن يظهر من قصيد غنائى أو صورة ملونة تحتفظ بالطابع التلقائى إلا نادراً وبين فينة وأخرى ، وذلك فضلا عن نوع « الساتير (satire) » ، وهو التعبير الذاتى الطبيعى لعصر يائس رفعت غشاوة الخداع عن بصره . كان عالم الإمبراطورية الرومانية عالماً راقى التعليم متعشقاً للذوق والجمال ، بيد أن الحضارة العظيمة التى كان يُعجب بها ويحاكيها لم تكن إذ ذاك إلا التزاما وتبعة يتحملها ، وقد أخذت نسمات الخلاص تهب من جهة أخرى ، هى الشرق السورى .

ومنذ بواكير القرن الثالث كان فن العمارة قد أخذ يتنسم نسمات فخامة وروعة جديدة أصلها شرقى وروحها تلقائى . على أن الأقدار كتبت النصر للشرق على التقاليد الكلاسيكية لا بفضل فكراته عن الفخامة والجلال بقدر ما هو بفضل فكراته الروحانية الأصفى جوهراً . فإن جيلا بلغ به اليأس ورفعت عنه غشاوات الخداع ينقلب لا جرم إلى الدين متخذاً منه مهرباً مما يغشى الدنيا من التباسات . على أن الديانات القديمة ، من وثنية مرحة فى حياة الإغريق وعبادة للدولة عند روما قد فشلا جميعاً يوم صارت الدنيا مترعة بالرعب والخوف ويوم دب دبيب الاضمحلال الواضح فى عروق الدولة . وكانت لدى الشرق راحة وسلوان أعظم من هذا كله يستطيع تقديمها لمن شاء . ذلك أنه منذ أن اتصلت روما لأول مرة بالشرق تسربت إلى الغرب العقائد ذات الشعائر السرية الخاصة بإيزيس والأم العظيمة ، وأخذ أتباع تلك العقائد والمتشيعون لها يزدادون بالتدريج عدداً . وفى غمرات الطقوس السرية والرياضات التى تفرضها هاتان الربتان ، كان المتبرم بهذا العالم يخوض غمراتها ليصل إلى الحقيقة العليا . ولذا فإن هذه النّحل كانت أحب إلى قلوب الحصفاء البصيرين بأمور الدنيا والمكدودين المرهقين . على أن الجند وكل ذى همة من الرجال كانوا يفضلون عقيدة من أصل إيرانى هى الميثرائية ، عبادة أبوللون ، الشمس غير المقهورة . ولم يأت القرن الثالث حتى صارت الميثرائية منتشرة فى طول الإمبراطورية وعرضها ، ضامّة إلى هيئتها القوية غالبية الجيش الساحقة . وقد حُليت هى الأخرى بالفخامة والمراسم ، بيد أنها كانت أقل استسلاماً وسلبية . وبدلا من ذلك أوجدت إحساساً بالزمالة وحب النظام يصارع الإحساس بقلة الرجاء فى العالم وما يريم عليه من وحشة . بيد أن الميثرائية واجهها منافس أعظم منها وأكبر ، وهى ديانة بدأت فى خفية بفلسطين ، وكان اسمها المسيحية .

ولم يكن مستغرباً أن تكون النصرانية هى العقيدة الظافرة . فقد لقيت

رسالتها عند الناس قبولا أعظم وأوسع انتشاراً من أية عقيدة أخرى : فما تجدر ملاحظته أن الشرقي بما جبل عليه من صبر ظاهر إنما هو في الحقيقة إنسان نافد الصبر . ذلك أنه لعجزه عن تحمل الألم والحزن يلجأ على الفور إلى رفرف من أشياء أسمى وأنبل ويهرب من ذلك الإحساس الدنيوى . على حين أن الغربي من هؤلاء يلكز بقدمه مصدر الوخزات لأنه يؤلمه . فراحته إذن تكمن في الأمل وفي الاعتقاد بأن الأمر لن يدوم إلى الأبد . وكان الإغريقي الهلينستي في مركز وسط بين بين . فكانت روح التصوف (Mysticism) تكمن وراء عبادته للطبيعة ، كما أنه طُبع بالفطرة على حب الرمز والرمزية . وكان في إمكان المسيحية وحدها إشباع هذه التلهفات جميعاً . فالمسيحية تشجع التصوف (المستيقية) ، وتبشر بفلسفة للآخرة حافلة بالرجاء . وهى غنية برموزها ولها شعائر سامية شريفة . وفضلا عن ذلك فهي تروق الطبقات الدنيا بوجه خاص ، حيث تعلم الناس بأنه عند الله يكون العبد الرقيق صنواً للإمبراطور ، وتأمر بالمحبة الأخوية والزمالة بين الناس ؛ وحببتها هذه الرسالة إلى كل محب للبشر ؛ ولم تسبقها ديانة أخرى الى وضع الصدقات موضع التنفيذ العملى إلى هذا الحد . وكانت الكنيسة المسيحية منظمة تنظيما يدعو إلى الإعجاب . فإن زعماءها كانوا منذ أيام القديس بولس رجالا اتصفوا بالمقدرة والكفاية الإدارية . وكانت لها على منافستها الميثراثية ميزتان لا سبيل إلى قياس ذرعهما . أولاهما أنها كانت تسمح للنساء أن يلعبن دوراً بارزاً في حياتها . أجل إن المعلمين المستمسكين بسنة السلف ربما حزنوا وتناحوا بالثبور على التساوى التام بين الجنسين الذى يدعو إليه الزنادقة أتباع مذهب مونتانوس[1] ؛ غير أن النساء كان لهن على

---

(١) حركة مونتانوس : حركة زندقة مسيحية ظهرت أيام الكنيسة الأولى ، كان القصد منها محاولة الرجوع إلى بساطة المسيحية . وقد نشأت في فريجيا حوالى ١٥٦ على يد نبى يسمى مونتانوس ، وسرعان ما انتشرت بآسيا الصغرى وروما وقرطاجنة وبلاد الغال . (المترجم)

الدوام دور بارز فى تاريخها . فإنهن بتوليهن مناصب الشماسات أو رئاسة الأديرة[1] — شأنهن فى السنوات الأخيرة — كن يستطعن أن يصبحن أشخاصاً لهن قدر وأهمية . وذلك على حين كانت الميثراثية عقيدة للذكور فقط . ولسنا نجد بين أتباعها الناذرين لها حياتهم أى أثر للنساء . وكانت نقطة القوة العظيمة الثانية للمسيحية تكمن فى سماحها منذ أبكر أيامها للفلسفة الإغريقية أن تؤثر فيها أثرها . ولا شك أن هذا التأثير وهب اللاهوت المسيحى محتوى فكريا جعلها موضع القبول لدى رجال من أقدر وأعمق مفكرى ذلك الزمان . فإن الميثراثية والعقائد ذات الخفايا والأسرار لم يتهيأ لهما أن تنتجا رجالا من طراز الآباء المسيحيين الأول ، رجالا من أمثال أوريجين وإرينايوس وترتيليان وكليمان الإسكندرى ، وهم مفكرون لم يبزهم أحد إلا خلفاؤهم آباء القرن الرابع . ورغم حدوث الانشقاق (الصدع) فى الغرب والزندقات (الهرطقات) فى الشرق ، فإن الكنيسة المسيحية أخذت تصبح بسرعة أقوى هيئة بمفردها فى الإمبراطورية . أما الزندقات فلم يصل شىء منها حتى آنذاك إلى مرتبة الخطر المهدد . ولم يحدث قط أن « الأوغنسطية » وهى أقواهن جميعاً كان لها جمهور واسع الانتشار وسرعان ما انقسمت على نفسها طوائف صغرى وشيعا ، ومع أن «مانى » كان فى ذلك الحين ينتج خليطه العجيب من الأوغنسطية والثنائية الزرادشتية التى لقيت شيئاً من الرواج فى أثناء القرنين الرابع والخامس ، إلا أن مركز العقيدة المانوية كان يرقد على الحدود الفارسية .

ولا شك أن المسيحية قد أعانها فى أثناء تقدمها التدريجى أساطير قديسيها ومعجزاتها القوية الأسناد . ذلك أن أجيال ذلك الزمان كانت أجيالا تؤمن بالخرافات . فإن عصر العقل الذى عاش فيه القديس أوغسطين كان قصير

(1) الواقع أن أديرة الراهبات تسبق فى ظهورها أديرة الرهبان . وكانت بمصر عدة أديرة للراهبات فى القرن الثالث : انظر Early Mysticism in the Near East تأليف السيدة مرجريت سميث ص ٣٤ وما بعدها .

الأجل . على أن الناس كانوا يتحدثون إذ ذاك بالأعمال المدهشة التى أتاها أبولونيوس الطيانى كما يعتقدون فى حكايات من أمثال ما كان يرويه أبوليوس . ونفقت سوق العرافة والسحر إلى درجة عظيمة . ورفعت خرافة « مس الشياطين » حتى أصبحت علما . وعن هذه الأيام ، أيام الإمبراطورية القديمة ورث العالم جميع الخرافات التى جعلت الحضارة البيزنطية موضع احتقار مؤرخى القرن الثامن عشر ، وإن كتب لكثير من الخرافات التى كانت وثنية حتى آنذاك أن تلصق إلصاقاً بالكنيسة المسيحية . وحتى الفلسفة نفسها سارت فى الطريق الشعبى . وقد تأخرت الفلسفة الرواقية فى الغرب حتى أخرجت ماركوس أوريليوس قبل اضمحلالها وإدبارها ، فأما فى الشرق فإن مذهب الأفلاطونية الحديثة حافظ وحده على حيويته فترة من الزمن . ثم انتقلت الأفلاطونية الحديثة إلى يد فرفوريوس وأيامبليكوس ، فمسها السقم بما داخلها من شعوذة وسحر ، كما ران عليها شرك شامل . والحق أن تعاليم آباء الكنيسة الأول كانت فيما يحتمل أقرب إلى الأفلاطونية من تلك المذاهب التى كانت تُعرض على الناس فى مدارس الفلاسفة .

وفى ٢٨٤ انتقل الصولجان الإمبراطورى إلى يد أول رجل دولة عظيم ذى نزعة بنّاءة ظهر بالعالم الرومانى منذ عصر أوغسطس وهو دقلديانوس المولود بإلليريا . وكان دقلديانوس مدركا تمام الإدراك لحالة الإمبراطورية ، ولذا كرّس حكمه كله لتنفيذ برنامج إصلاحات بعيد الغاية والمدى . وكانت غاياته الأولى الرئيسية تقوم على إيجاد المركزية وإدخال التناسق إلى أداة الحكم ووضع الجيش تحت الهيمنة الفعالة للحكومة وإعادة ميزان الموقف المالى إلى نصابه بتثبيت عملة الإمبراطورية وتوطيد النظام كله برفع منزلة المنصب الإمبراطورى .

وقد كان يشمل الإمبراطورية على مر تاريخها الطويل نزوع إلى التناسق يتمثل فى انتشار المواطنية الرومانية شيئاً فشيئاً حتى شملت كل مولود حر من

رعايا الإمبراطورية وحتى اختفت فى النهاية آخر الولايات التى كان يحكمها السناتو . على أن الفوضى التى سبقت ارتقاء دقلديانوس العرش استوجبت قيام نظام جديد تماماً . وكان دقلديانوس يعد الإمبراطورية أضخم من أن يستطيع إمبراطور واحد أن يحكمها . وقد أحس القوم منذ أيام القياصرة الأول ضرورة وجود وزير يونانى وآخر لاتينى . ومضى دقلديانوس فى تنفيذ هذا التقسيم الأساسى إلى أبعد من ذلك . أجل لم ينشئ إمبراطوريتين ، بل أمر بأن يكون للإمبراطورية إمبراطوران اثنان ، يقيم أحدهما فى شطر من شطرى الإمبراطورية . ولكى يضمن انتقال العرش بسلام ، جعل لكل إمبراطور قيصراً يساعده ويكون وريثه بعد موته . وفى الحين نفسه أعيد تقسيم الولايات وتنظيمها . فقسمت الإمبراطورية إلى أربعة إيالات عظيمة هى : غالة وإيطاليا وإاليريا والشرق تحت حكم أربعة ولاة بريتوريين (Praetorian Prefects) كانوا أعلى موظفى الدولة منصباً ، وقد قسمت الإيالات إلى ولايات كبيرة تسمى الأقسام الإدارية (Dioceses) كان حاكمها يلقب عادة بلقب المندوب (Vicar) ، وهو خاضع لسلطان الوالى : وإن احتفظت الولايتان المسميتان ولاية آسيا وإفريقية بحاكم يلقب نائب القنصل له حق الاتصال المباشر بالإمبراطور . ولإدارة هذه الإمبراطورية بعد إعادة تنظيمها أنشئت شبكة من الوظائف المدنية الجديدة ، وخول الجهاز الإدارى سلطات جديدة .

وكانت أهم خصائص هذا الجهاز الإدارى الجديد انفصاله التام عن السلطات العسكرية . ولم تكن سلطاتهما تجتمع فى يد واحدة إلا فى مناطق معينة من الحدود ، وإن أمكن أن يكون الوالى نفسه فى البداية موظفاً عسكريا أو مدنياً . وأنشئ إلى جوار التنظيم المدنى نظام عسكرى ضخم ؛ وكان المرجو أن يحد فصل السلطات على هذا النحو من أطماع القواد عديمى الولاء . وفى الوقت عينه أنشأ دقلديانوس جيشاً إمبراطورياً سريع الحركة

يمكن المعاجلة بإنفاذه إلى أى جزء من أجزاء الإمبراطورية وقت الحرب أو الفتن .

ورُئى أن تصان الإمبراطورية بعد إدخال هذا الإصلاح بإنشاء نظام دقيق للطبقات . فقد اتبع دقلديانوس فكرة ارتآها لأول مرة الإمبراطور أوريليان ، فأمر بأن يتخذ كل ابنٍ حرفة أبيه لا يتزحزح عنها أبداً مهما كانت . ذلك أن ارتفاع شأن الأفراد اجتماعياً بلغ من الوفرة ، كما بلغ من سرعة جمع الناس للثروات وفقدانهم إياها ، أنه أحس أنه ما من سبيل للحفاظ على ثبات المجتمع وسنوح فرص جمع الضرائب والإيرادات إلا بمثل هذا التدقيق الشديد . وثمة ميزة أخرى، هى جمع الجند من طبقات المجتمع الوسطى . أما أعضاء الأسر النبيلة من طبقة مجلس الشيوخ ، الذين كانوا مصدر خطر من حيث ثرائهم فضلا عن تقاليدهم الأوليجركية ، فقد أقصوا بمنتهى العناية والدقة عن صفوف الجيش .

وكانت إصلاحات دقلديانوس القاضية بتثبيت العملة أقل نجاحاً . فلم يتهيأ له أن يعيد النقد إلى وضعه الذى كان عليه فى عهد أوغسطس . وكان الإفراط فى محاولاته إصدار عملة من ذات الوزن الكامل مؤدياً فى النهاية إلى ارتفاع فى الأسعار ، مما دعا إلى دهشته . ولمقاومة ذلك أصدر الإمبراطور مرسوم سنة ٣٠١ الشهير ، وبه ثُبِّتَ بغاية الشدة سعر كل سلعة على حدة . ولم يسفر هذا المرسوم عن أى نجاح . فترك لقسطنطين أن يوطد النقد فى الإمبراطورية ويقيمه على أسس ثابتة .

وكان أبقى إصلاحات دقلديانوس عمراً أبعدها عن إدراك الناس — وهو رعايته للعظمة الإمبراطورية واهتمامه بتقويتها . فلقد كانت فكرة ألوهية الملك من الأمور المتوطنة فى الشرق من أقدم العصور ، كما كانت بدعة رائجة فى أثناء عهد الملكيات الهللينستية . ولم يحدث قط أن آثارها زالت تماماً

من الولايات الشرقية للإمبراطورية ، فكان الإمبراطور يرث قدراً نسبياً من الألوهية . غير أن روما بما جبلت عليه من متوارث كرهها التقليدى للملوك لم تأخذ قط بهذه الفكرة . ولذا فإن أوغسطس حرص على ألا يقيم أى مظهر من مظاهر العظمة والأبهة . واكتفى بأن صار المواطن الأول فى الإمبراطورية ، أى أصبح إنسانا يسهل الوصول إليه وإن كان هام المكانة . وسرعان ما رئى أن من الخير للشعوب المحكومة أن تؤله الإمبراطور الراحل ، ولكن أقحاح الرومان استصوبوا الحديث الساخر الذى نطق به فسبازيان[1] وهو على فراش الموت . وعلى الرغم من الضراعة الخاصة التى طلبها دوميتيان أو هيليوجابالوس ، فإن الغرب ظل مستمسكاً بذلك الاتجاه . وكان احتمال موت الإمبراطور موت الفجاءة وهو احتمال لاح لأعين الناس أنه جزء لا يتجزأ من المنصب الإمبراطورى ، لا يزيد الإمبراطورأية مهابة . ورأى دقلديانوس أن سلطان الإمبراطور يكون أعظم كثيراً وتكون حياته أكثر أمناً لو أنه أصبح نصف إله .

وفى فارس أحاطت أسرة الساسانيين القريبة العهد بالملك آنذاك ، نفسها بهالة كثيفة من العظمة والجلال . وعنهم نقل دقلديانوس كثيراً من مراسمهم وثيابهم الرسمية . فلم يعد الإمبراطور يكثر من التنقل بين رعاياه . بل أخذ يعيش منعزلا فى بلاط قائم على المراسم ، على حين كان الخصيان ، وهم فئة من الناس كانوا يلقون الاحتقار والتحريم فى الأيام الخوالى — يقومون على شخصه . وكان على الرجال الذين يطلبون مقابلته أن ينطرحوا على الأرض أمامه ويقدموا له العبادة . وصار يلبس عند ذلك تاجاً وحذاءً قرمزياً وأثواباً ذات لون أرجوانى . وكان ذلك تطورا طبيعياً من ناحية ما . وكان القانون شيئاً مقدساً فى نظر الرومان أو يكاد ، والإمبراطور هو منذ عصور سحيقة مصدر القانون . ولكن روما استاءت من المظاهر الخارجية

(1) قال : « إنى أصبح ربا ، فيما أظن . « Ut puto, deus fio » .

الجديدة للاستبداد والأبهة الشرقية التي اتشح بها . على أن روما هي التي لاقت جزاء ما أظهرت من فتور إزاء ذلك لا الإمبراطور نفسه . فإن دقلديانوس ظل يحكم الشطر الشرقي من الإمبراطورية ابتداء من نيقوميديا بوصفه شبه إله معترفاً به من الجميع ، ولكن زميله الغربي مكسميان آثر أن يقيم في ميلانو .

وأضفى دقلديانوس على ألوهيته مظاهر الصدق الخارجية بأن ادعى الانتساب إلى « المشترى » (Jupiter) ملك الآلهة ، وبذلك يسّر السبيل لدخوله إلى البانثيون الروماني ، مثوى آلهة الرومان . واتخذ مكسميان لنفسه جداً محبوباً من الناس بدرجة أكبر وإن كان أقل قدراً هو هرقل . وحاول قنسطنطيوس ، قيصر الغرب ، أن يمزج عقيدته الميثرائية بعبادة الإمبراطور بأن أصبح سليل أبوللون ، إله الشمس .

بيد أنه كان هناك شطر كبير من المجتمع لم يستطع أن يقدم للأباطرة العبادة التي كانوا يطلبونها . ذلك أن المسيحيين بتفريقهم الواضح بين ما للقياصرة وما لله ، كانوا على أتم استعداد أن يكونوا مواطنين صالحين طالما أنهم كانوا غير مكرهين على تقديم العبادة للدولة . فأما عبادة كائن بشرى وإن كان هو الإمبراطور نفسه ، فأمر لا مراء أنهم لا يستسيغونه . وأحس دقلديانوس أنه لا يستطيع أن يسمح لأقوى هيئة دينية في البلاد أن تحقر عظمته . فحاول أخذهم بالقهر ، ولكنه قوبل بمقاومة ملؤها التعصب ؛ وبذلك بدأ الاضطهاد الأعظم . ولكن المسيحيين ظلوا على خلافهم مع الإمبراطور وخروجهم عليه . وبقى على الإمبراطور قسطنطين أن يجد الحل الذي يمزج بين قيصر وبين الله .

ولم تكد إمبراطورية دقلديانوس التي أدخلت عليها الإصلاحات تعمر بعد اعتزاله العرش في ٣٠٥ ، وبقيت نواحي إصلاحاته المختلفة عدا شيئاً جوهرياً واحداً . ذلك أنه جعل الإمبراطورية تعتمد على الإمبراطور ؛

بيد أن نظام الإمبراطورين وقيام نظام ثابت لوراثة العرش لا جدوى فيهما ما لم يكن المرشحون للمنصب الإمبراطوري رجالا ذوي عقول مستنيرة عالية خالية من كل أثر للتحاسد والارتياب. وكان لقب «قيصر» لقباً خطراً، فهو شديد السمو من ناحية، ولكنه ليس مع ذلك سامياً بالقدر الكافي. وسرعان ما ذوى واضمحل. وبدلا من ذلك، ما كادت تحل ٣١١ حتى كان بالبلاد أباطرة أربعة، هم ليكينيوس ومكسمين في الشرق ومكسنتيوس وقسطنطين بن قسطنطيوس في الغرب. وغني عن البيان أن مسرح الحوادث كان مهيأ للحرب الأهلية.

ونشبت الحرب في الغرب أولا. وكانت حملة قصيرة الأجل حافلة بالأحداث الزاكية، تقدمت من كولمار إلى حقل ساكسا روبرا بجوار القنطرة الملفيانية وبها أصبح قسطنطين سيدا للغرب. وفي السنة التالية قدم العون إلى ليكينيوس حتى دحر مكسمين وأصبح سيداً على الشرق. على أن قسطنطين وليكينيوس كانا من شدة الطمع بحيث لا يستطيعان التشارك في حكم الإمبراطورية. ولم تأت حربهما الأولى في ٣١٣ بأية نتيجة حاسمة، ولكن ليكينيوس ما لبث أن هزم في ٣٢٣ هزيمة ساحقة قرب خريسوبوليس، وبذا صار قسطنطين الإمبراطور الوحيد.

وبذلك انتهت بالفشل هيئة الحكم الإمبراطوري كما ابتدعها دقلديانوس. بيد أن عمله ظل حياً في نواح أخرى. فإن قسطنطين احتفظ بنظامه الإداري، كما أنه نجح حيث فشل دقلديانوس في تثبيت العملة. ذلك أن نظام العملة الرومانية القديم كان من المتعذر إعادته، على أن قسطنطين أنشأ معياراً ذهبيا هو الصولدي، وهو قطعة من سبائك الذهب أو الفضة مدموغة بخاتمه أكثر منها عملة، وإليها كانت تنسب وتربط عملة البلاد. وقام ذلك النظام بعمله خير قيام. واحتفظ الصولدي الإمبراطوري بقيمته ومركزه غير منازع مدة ثمانية قرون.

ومضى قسطنطين أيضاً فى تحسين وإصلاح جهود دقلديانوس فى رفع شأن مركز الإمبراطور والعمل على تأليهه . وبينما هو فى زحفه جنوبا على مكسنتيوس يوم كان مستقبله محفوفا بالأخطار ، شهد هو وجيشه بأكمله رؤيا . فإن صليبا براقا ظهر أمام نواظرهم فى السماء ، وقد سطرت عليه هذه العبارة « بهذا يكون النصر لكم : Hoc vinces » ؛ وفى تلك الليلة أكد المسيح الرؤيا فيما رأى الإمبراطور فى منامه من حلم . وتأثر قسطنطين أعمق التأثر واتخذ « اللاباروم Labarum » وهو الصليب ذو الرأس المعقوف شعاراً له ، وقاد جنده إلى النصر تحت ذلك اللواء .

وجاءت المعجزة فى إبانها . فإن الحلم أظهر فطنة سياسية . وكان قسطنطين قد بدأ سيرته تحت رعاية حميه مكسميان ، وكان آنذاك ينسب إلى آل هرقل . فلما اختلف مع مكسنتيوس عاد إلى الميثرائية ، عقيدة أسرته وأصبح ابناً لأبوللون . على أن مكسنتيوس شأن مكسمين فى الشرق اتبع سياسة شديدة المناهضة للنصرانية . لذا فقد وجب على خصمه أن يلتمس محالفة المسيحيين له . وربما لم يكن عدد المسيحيين إلا قرابة خمس سكان الإمبراطورية ، على أنهم كانوا فى حد ذاتهم أقوى الطوائف الدينية بها ، وكانوا من ثم حلفاء أعظم أهمية من أتباع الميثرائية : وإن كان اللاباروم على عظيم نفعه رمزاً يكاد يكون متمشياً مع الميثرائية أيضاً بدرجة معادلة .

ومهما يكن رأيه الخاص ، بعد معركة ساكسا روبرا ، فإنه يلوح محققا من عملات قسطنطين ومراسيمه أنه كان جانحاً إلى النصرانية . فمن قبل ذلك قام كنصير للمسيحية بالقضاء على مكسنتيوس . كما أنه هو وليكينيوس تقدما كنصيرين للمسيحية لقتال مكسمين الذى اضطهدها ، وأصدرا مرسوم ميلانو الشهير الصادر فى ٣١٣ الذى اعترف اعترافاً قانونيا كاملا بالمجتمع النصرانى . على أن ليكينيوس ظل على وثنيته كما أن قسطنطين لم يتخل

عن مناصرته للمسيحية عند ما هاجمه هو أيضا . والمسيحية وقسطنطين مدينان أحدهما للآخر دينا متبادلا .

ففى ٣٢٥ ظهر قسطنطين بمظهر راعى النصرانية على نحو جديد . فإن الكنيسة انقسمت فئتين بسبب الخلاف الذى شجر بين آريوس القسيس الإسكندرى ورئيسه الأسقف حول طبيعة إلٰهية المسيح . وأخذ قسطنطين على نفسه دعوة أساقفة الكنيسة إلى الاجتماع فى نيقية بالمجلس الكبير الذى يسمى فى التاريخ باسم أول مجلس مسكونى (عالمى) للكنيسة ؛ وهناك اجتمع الآباء برئاسته وقرروا أن رأى آريوس خاطئ . فكان مجلس نيقية الأول ذاك هاما لا لأنه قام بصوغ دستور المبادئ المسيحية فحسب ، بل لأنه كذلك كان أول مثال على رئاسة القيصر للعقيدة المسيحية . وكان قسطنطين يقصد أن تكون الكنيسة المسيحية كنيسة للدولة يكون الإمبراطور رئيسها ؛ ولم تعترض على ذلك المسيحية اعترافا منها بفضله .

وبذا لاح أن الخصومة القديمة الناشبة بين الكنيسة والدولة قد انتهت . فقد أصبح الإمبراطور رئيسا للدولة المسيحية . ولم تعد به حاجة إذ ذاك لادعاء النسب إلى هرقل أو أبوللون ؛ فقد حصل على قداسة جديدة تمحو عنه كل خطاياه . وكان دم منافسيه وابنه بل حتى دم زوجته يلطخ يديه . ولكنه كان فى نظر العالم « نظير الرسل Isapostolos »[1] والرسول الثالث عشر . وزادت كرامته الروحية قوة بما أظهرته أمه هيلينا من همة فى أعمال الحفر والتنقيب ، وهى الأمَة البثينية السابقة لقسطنطيوس . فإن قسطنطين أرسلها إلى بيت المقدس ، وهناك استطاعت بفضل بعض المعجزات التى أعانتها والتى يندر فى هذه الأيام حصول العلماء الأثريين على أمثالها ، أن تجد

---

(١) كلمة يونانية (ἰσαπόστολος) معناها النظير لأحد الرسل أو المعاصر له وهو لقب ويمنح فى الكنيسة اليونانية للأساقفة الذين رسمهم الرسل أو الشخصيات البارزة فى عصور الكنيسة الأولى . (المراجع)

قع الأصلي نفسه للمكان الذى صلب فيــه المسيح واستخرجت من
ن الأرض الصليب الحقيقي نفسه وصليبي اللصين والحربة والاسفنجة
اج الشوك وجميع ما صحب آلام الصلب من آثار . واهتز عالم المسيحية
ة هائلة لذلك الاكتشاف ودوت أرجاؤه إجلالا للمجد الخالد الذى أُسبغ
ن أم الإمبراطور . وأصبح اسما قسطنطين وهيلينا – بل ولا يزالان – أعظم
سماء توقيراً فى تاريخ الإمبراطورية المسيحية .

ولكن بقى هناك عمل مُعين آخر لا بد من تنفيذه لإكمال تغيير
مبراطورية مظهراً ومخبراً . وكان ذلك هو تأسيس القسطنطينية . ذلك أنه
وجب أن تكون للإمبراطورية عاصمة جديدة فى الشرق ، تكون مساوية
وما فى كل شيء عدا العمر والقدم ، وتكون سيدة لروما من حيث
ونها منذ البداية مدينة مسيحية . وكانت قيمة إنشاء عاصمة جديدة ظاهرة
يان . وكان انتخاب الموقع ينطوى على النبوغ والعبقرية . فمن الطبيعى أن
زج فيها جميع عناصر الإمبراطورية بعد إصلاحها : اليونان منها وروما
لشرق النصرانى .

وقد أقيمت القسطنطينية على شواطئ ناطقة باليونانية كما كانت تضم
ن دفتيها مدينة يونانية قديمة . بيد أن قسطنطين بذل جهوداً أخرى ليؤكد
رحها الهللينية . فإنه قرر أن يجعل من عاصمته مركزاً للفن والعلوم . فبنى
دور الكتب الحافلة بالمخطوطات الإغريقية ؛ وفضلا عن ذلك ملأ شوارعها
يادينها ومتاحفها بالكنوز الفنية المنقولة من كل أرجاء الشرق اليونانى .
لواطن من أبناء القسطنطينية الذى كان يسير كل يوم فى شوارع مدينته لم
ن ليستطيع ألبتة نسيان مجد تراثه الهللينى الغابر .

على أنها كانت مدينة رومانية أيضا . فقد انقضى أكثر من قرنين
بلاط وشطر عظيم من سكانها ينطقون باللاتينية ؛ وكانت اللاتينية لا تزال

لغة المتعلمين والتعليم بالمنطقة الداخلية من البلقان . ورغبة أن يجمع قسطنطين بالمدينة سكانا يفدون إليها من كل أرجاء الإمبراطورية ، منح دهماء المدينة امتياز الخبز المجانى والألعاب المجانية اللذين كان دهماء روما يستمتعون بهما ؛ وحُملت الطبقات العليا فيما تقول الأسطورة ، على نقل مقامها إلى ضفاف البوسفور بما مُنحت من قصور تماثل بالضبط دورهم فى روما . كان لا بد أن تكون القسطنطينية روما جديدة . وقد ظل اسم « روما الجديدة التى هى القسطنطينية » — اسمها الرسمى حتى النهاية . وظل مواطنوها على الدوام روماناً (Rômaioi) . وكان أعظم ما أسهمت به روما للإمبراطورية الجديدة نظرياتها الإدارية وتقاليدها العسكرية وقانونها . على أن أهالى القسطنطينية كانوا يعدون أنفسهم روماناً بالجنسية ، حتى بعد أن لم يعد أحد يسمع اللاتينية على ضفاف البوسفور بزمن مديد وبعد أن لم يكد يبقى بها أى أثر للدم الإيطالى . وحتى فى القرن الثانى عشر نفسه كان من دواعى الفخر لدى الأرستقراطية أن أسلافهم قد وفدوا على المدينة مع قسطنطين[1] .

وكان العنصر الثالث هو الشرق المسيحى . وقد وجدت القسطنطينية لتكون مدينة مسيحية . أجل سمح لمعابد بيزنطة القديمة أن تظل قائمة أمداً قليلا ، بل لقد يبدو أن بعضها أقيم خصيصاً لمصلحة الوثنيين المشتغلين بتشييد المدينة[2] ، على ألا يبنى شىء منها بعد إتمام بناء المدينة . فالشرق بما جبل عليه من نزعات دينية تصوفية غزا العالم الرومانى فعلا وعلمه أن يعد الملك مقدساً . وقدم قسطنطين احترامه وولاءه « لإلهة الحظ (Tyché) » بالمدينة ، كما أنه أقام عموداً ضخما لأبوللون غُيّر فيه وجه التمثال فصار يحمل صورته ؛ وهناك كان يقوم وقد أسبغت عليه كل صفات الرب الشمس ليعبده الوثنى

---

(١) ينقل نيقيفور بريينيوس هذا الادعاء عن آل دوقاس (Ducae) (N. Bryennius, 13)

(٢) Maurice, op. cit. II , LXXV

والميراثى والمسيحى على السواء . كانت المسيحية عقيدة شرقية . وكانت الفلسفة الإغريقية قد صاغتها فى قالب تسيغه أوربا ، بيد أنها ظلت من حيث الجوهر ساميّة (Semitic) الأفكار . وكان المواطن من سكان القسطنطينية شديد الوعى لتراثه اليونانى والرومانى ، بيد أن نظرته الأساسية فى الحياة كانت مختلفة تماماً . فإن مسرته بالعالم كانت أقل وإكبابه على حقائق الخلود وصدقه أشد . ودعته هذه الحالة العقلية أن يكون أسهل إساغة للأفكار الواردة من الشرق منه لتلك الواردة من الغرب ؛ وما تاريخ الإمبراطورية البيزنطية إلا قصة تروى تسرب الأفكار الشرقية إلى التقاليد الإغريقية الرومانية واصطباغ تلك التقاليد بها ، وصدى ما يجرى من رد فعل دورى بينهما . وذلك أنه على الرغم من كل شىء ظلت التقاليد الإغريقية الرومانية حية حتى النهاية . وقد بلغ الأمر أن سكان القسطنطينية كانوا حتى فى القرن الخامس عشر نفسه يتناقشون فى طبيعة حضارتهم . كانوا هم الرومان (Rômaioi) ، فهل هم هللينيون كذلك ؟ لقد أجابهم عن ذلك السؤال آخر مواطن عظيم فى الإمبراطورية وهو چورچ سكولاريوس جناديوس حيث قال : « إنى وإن كنت هالينيا لغة ، إلا أنى لا أستطيع أن أقول إنى كنت هالينياً ، وذلك لأن عقيدتى ليست عقيدة الهللينين . وإنى لأحب أن أشتق اسمى من عقيدتى ، ولو سألنى أى إنسان ماذا أنا ، لأجبته : مسيحى . . . ومع أن أبى كان يسكن تساليا فإنى لا أدعو نفسى تسالياً بل بيزنطياً وذلك لأنى من أهل بيزنطة[١] » . وربما جاز لنا أن نأخذ برأى چورچ اسكولاريوس جناديوس ، ونسمى الحضارة المكونة من تلكم العناصر بيزنطية ، وربما جاز لنا أن نبحث عن بداية نشأتها فى الحفل الذى أقيم فى ١١ مايو ٣٣٠ ، يوم كرس الإمبراطور المدينة العظيمة « روما الجديدة التى هى القسطنطينية » للثالوث المقدس ولمريم البتول .

---

(١) Gennadius, Disputatio contra Judaeum, ed. Jahn, 2.

الفصل الثانى

خلاصة تاريخية[1]

دامت الإمبراطورية المستصلحة التى استهلت عهدها فى الحادى عشر من مايو ٣٣٠ ، ألفاً ومائتين وثلاثة وعشرين عاماً وثمانية عشر يوماً . وفى كل هذه القرون الطويلة ظل عامل واحد ثابتاً لا يتغير فى كل أرجاء أوربا الدائمة التغير : هو أن إمبراطوراً رومانياً كان يحكم فى القسطنطينية حكم العظمة الأوتوقراطية . وكان الإمبراطور فى تلك الإمبراطورية المحور الذى يدور عليه كل شىء . لذا فمن الطبيعى والمناسب إلى أقصى حد أن يقسم تاريخها حسب الأسر المالكة التى تعاقبت على العرش . كانت تلك الأسر قصيرة الأجل فى البداية ، حيث لم تكن تبلغ حسب العادة الرومانية إلا الجيل الثالث فقط . على أن القرون الثمانية الأخيرة تخللها كلها تقريباً حكم خمس أسر عظيمة ، هى الأسرة الهرقلية والإيسورية والمقدونية وآل كومنين وآل پاليولوچى .

وليس القرن الرابع إلا مقدمة تمهد للتاريخ البيزنطى . فإن القسطنطينية لم تصبح فى أثنائه مركز الإمبراطورية الذى لا يستغنى عنه . ذلك أن قنسطنطيوس وإن أضاف إلى مبانيها الكثير ، قلما أقام بها . ولم يزرها يوفيانوس (چوفيان) مطلقاً . كما أن المسيحية الأورثوذكسية لم يتم لها النصر

---

(١) خير المختصرات فى هذا الصدد : Gelzer, Byzantinischen Kaisergeschichte in Krumbacher, Geschichte der Byzantinischen Litteratur (الطبعة الثانية) ؛ Diehl, Histoire de L'Empire Byzantin ؛ وأطول منها قليلا Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin (أحدثها) ؛ Gfrörer, Byzantinsche Geschichte ؛ Kulakovski, Byzantine History (باللغة الروسية) ؛ ثم فصول فى Cambridge Medieval History, vols. 1,2 and 4

المطلق ، فقد كان لا يزال من الممكن ليوليانوس (چوليان) أن ينقلب إلى الوثنية ، وإن أظهرت تلك التجربة أن الوثنية قوة نجمها فى أفول . وعلى الرغم من مجمع نيقية كان الذى عَمَّدَ قسطنطين مسيحيا وهو على فراش الموت أسقف من أتباع آريوس ، وذلك على حين لم يكن خافياً أن قنسطنطيوس ووالنس (ڤالنز) كانا يحبوان مذهب آريوس بعطف لا شك فيه .

قضى قسطنطين الأكبر نحبه فى ٣٣٧ ، بعد أن أمضى سنواته الأخيرة فى سلام هيأ له الفرصة لمواصلة إعادة التنظيم . وخلفه على العرش أبناؤه الثلاثة مجتمعين ، وهم قسطنطين الثانى وقنسطنطيوس الثانى وقسطنس (قنستانز) الأول . وكان الإخوة ميالين إلى الخلاف والشقاق بطبعهم ، على أن قسطنطين وقسطنس ما لبثا أن توفيا حوالى ٣٥٠ ، وانفرد قسطنديوس (قنسطنطيوس) بالسلطة العليا غير منازع فى ٣٥١ حتى وفاته بعد ذلك بعشر سنوات — بعد أن هزم ماجننتيوس المغتصب الأعظم . وفى أثناء تلك السنوات أخذ الخطر يحدق أكثر فأكثر بمركز الإمبراطورية الخارجى . فإن الخطر الفارسى تواصل ، كما أن ضغط القبائل الجرمانية على نهرى الرين والدانوب أصبح أقوى وأشد ، وكان ذلك بوجه خاص بسبب ظهور شعب جديد زاحف من منغوليا هو الهون فى السهوب القاصية . وعند نهر الرين قضى يوليانوس (چوليان) ابن عم قنسطنطيوس على غزو چرمانى ، وأخذ السرور بمجامع أفئدة جنده وضاقوا عند ذلك ذرعاً بقنسطنطيوس فنادوا به إمبراطوراً فى ٣٦٠ . على أن قنسطنطيوس توفى قبل تفشى الثورة فى البلاد وخلفه على العرش يوليانوس دون سفك للدماء .

وقد اكتسب يوليانوس شهرة خالدة بكفره وارتداده إلى الوثنية . على أن حركته انتهت بالإخفاق . فإن العالم لم يكن يريد ألبتة شِركَتَه المصطبغ بالمذهب الفكرى ، إذ كانت المسيحية أنسب له . ثم إن نشاطه العسكرى انتهى هو أيضاً بالفشل . فإنه حاول غزو فارس ، ولكنه أمعن فى زحفه

وبالغ فى تقدمه ثم مات فى أثناء تراجعه تراجعاً لقى فيه عناءً رهيباً فى صيف ٣٦٣ . وبادر الجيش إلى انتخاب جندى مسيحى يسمى يوڤيانوس (جوڤيان) ، وقّع مع فارس معاهدة مشينة تقضى بالسلم بينهما لمدة ثلاثين عاماً ، وتنازل بمقتضاها عن أربع مقاطعات (ساترابيات)[1] وعن سيادته على أرمينية . وفى أوائل الربيع التالى مات يوڤيانوس .

وعند وفاة يوڤيانوس نادى الجيش بالقائد والنتنيان (ڤالنتنيان) إمبراطوراً ، على أنه فضل أن يحكم الدولة من الغرب وترك أخاه وتابعه الخاضع والنس (ڤالنز) كإمبراطور شريك له فى الشرق . وقد كان حكم والنس نقطة تحول كبرى فى التاريخ الأوربى . فإنه هو نفسه وإن كان معتدلاً ولم يحرم حظه من الكفاية ، إلا أنه كان مكروهاً من الناس كزنديق من أتباع آريوس ، ولذا واجهته فتن متواصلة ؛ ولكن مأزقاً حرجاً أحاق به فى ٣٧٦ ، عندما استطاع القوط الغربيون وقد كبسهم الهون من الخلف أن يحصلوا على إذن منه بالاستقرار داخل حدود الإمبراطورية ، وعبرت جموع الشعب كله نهر الدانوب . وكانت تلك بداية غزوات البرابرة . ولم يكلل استقرارهم هناك بالنجاح ؛ إذ سرعان ما تشاجر القوط مع موظفى الإمبراطور وزحفوا على القسطنطينية . وعندئذ خرج والنس لملاقاتهم رافضاً أن يتمهل حتى يتلقى المدد الذى أرسله إليه الإمبراطور الغربى جراتيان بن والنتنيان ، ومن ثم لقى الهزيمة والموت قرب أدرنة (٣٧٨) .

على أن هذه الكارثة أنزلت بالغرب ضرراً أكبر من الذى نزل بالشرق . واختار جراتيان خلفاً لعمه رجلا أسبانياً هو ثيودوسيوس ، الذى أسمته الأجيال اللاحقة العارفة بصنيعه ثيودوسيوس الأكبر . فإن معاملته اللبقة هدأت من ثائرة القوط وجعلت منهم إلى حين خُداماً نافعين للدولة . كما أنه

---

(١) الساترابية هى الولاية من الولايات عند الفرس فى تلك الأيام ويحكمها ساتراب . (المترجم)

كان أرثوذكسيا متحمسا أنزل على الوثنيين والزنادقة جام النكال وضروب الحرمان من الأهلية القانونية . ثم عمد فى المجلس المسكونى الثانى الذى عقد بالقسطنطينية فى ٣٨١ ، إلى فرض الوحدة بالقوة على العالم المسيحى . وفى ٣٨٧ عقد مع فارس معاهدة جديدة مرضية اقتسم وإياهم أرمينية بمقتضاها . وفى ٣٩٢ ضم إليه الغرب بعد وفاة جراتيان وموت أخيه والنتنيان الثانى ومغتصب اسمه يوچينيوس ، ولآخر مرة فى التاريخ حكم رجـل واحد الشقة المترامية الممتدة من بريطانيا إلى الفرات . ثم توفى فى ٣٩٥ تاركا الإمبراطورية لولديه ، فكان الشرق من نصيب أركاديوس والغرب لهونوريوس . وكان حكم ثيودوسيوس مؤذنا ببداية حقبة جديدة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية . ذلك أنها أصبحت الإمبراطورية الأرثوذكسية . وبموته انفصل الشرق عن الغرب إلى الأبد .

وشهد القرن الخامس اضمحلال الإمبراطورية فى الغرب ، وقد هدّتها وحطمتها غزوات البرابرة : فلم يحدث قط بعد تنازل رمولوس أوغسطولوس فى ٤٧٦ وموت يوليوس نيبوس فى ٤٨٠ أن أحداً فى الغرب حمل لقب الإمبراطور . على أن الإمبراطورية فى الشرق كان حظها خيراً من ذلك ، فإنها وقد قوت أركانها جهود ثيودوسيوس الأكبر وأعماله وكانت لها عاصمة منيعة تعصمها من كل عدوان ، كانت تبدو أقوى من أن يجرؤ البرابرة على مهاجمتها . أجل عبر القوط الغربيون والهون ثم القوط الشرقيون نهر الدانوب كلٌ بدوره ، على أن كل فريق كان لا يلبث فى النهاية أن يؤثر أن يلتمس حظه فى الغرب ، ولم يكن لهذه الغزوات فى الغرب أى أثر كبير على حسن حال الشرق ورفاهيته من الناحية المادية ، حتى انتهى الأمر فى ٤٣٩ بأن استقر الوندال بإفريقية وطاب لهم المقام وأنزلوا إلى البحر أسطولا من قرطاجنة ، وبذلك قضوا على احتكار الرومان للبحر . فاضطرت موانى البحر المتوسط التى ألفت الأمن على نفسها منذ قرونٍ أن تشيد الاستحكامات ، وبذا نشأت أمام القسطنطينية مشكلة وندالية لا بد لها من مواجهتها .

وعلى الرغم من كثير من لحظات الحرج فقد أمكن تحويل وجهة البرابرة إلى نواحٍ أخرى فى عهد الأسرة الثيودوسية : آركاديوس (٤٩٥ — ٤٠٨) وثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) الذى كانت أخته پولخيرية وزوجها الأسمى مرقيانوس (٤٥٠ — ٤٥٧) يتوليان الحكم فعلا إبان عهده الطويل . فأما إمكان تحقيق ذلك فأمر يرجع إلى حد كبير إلى دبلوماسية ثيودوسيوس الأول ، الذى ظهر أن صلحه مع فارس كان صلحاً دائماً . على أن ذلك الأمن دُفع فيه ثمن باهظ ؛ ذلك أن الذين كانوا يدافعون عن الإمبراطورية ضد البرابرة كانوا أيضاً مرتزقة من البرابرة مع قادتهم . وعند وفاة مرقيانوس كان قائد آلانى من أتباع آريوس اسمه أسبار أقوى شخص فى الإمبراطورية . ولكن زندقته وأصله الأجنبى حالا بينه وبين العرش ، ولذا عيّنَ لمنصب الإمبراطورية ضابطاً فى جيشه من داكيا اسمه لاوون (ليو) . ولم يوفق لاوون الأول (٤٥٧ — ٤٧٤) إلا إلى تخليص الإمبراطورية من جندها القوطيين باللجوء إلى جنده الأسيويين ، وبخاصة الإيسوريين من آسيا الصغرى ، حيث سمى قائدهم تاراسيكودسا باسم زينون وزوّجه من ابنته أريادنة . وعند موته ولى العرش ابنهما الطفل لاوون الثانى لبضعة أشهر قليلة ، ثم مات تاركاً الإمبراطورية لوالده زينون . وكان زينون (٤٧٤ — ٤٩١) يحكم وقد ولى عهد الأباطرة الغربيين وأصبحوا فى عداد الدارجين . على أنه كان من الناحية الرسمية يتولى الهيمنة على الإمبراطورية بأكملها ، ومع أن أودواكر ومن بعده ثيودوريك القوطى الشرقى كانا نائبيه من الناحية الاسمية ، فإنه لم يحاول البتة أن يمارس أية سلطة فى الغرب . ولما أن مات زينون ، عينت أرملته أريادنة خلفا له نبيلا ثرياً يسمى أنسطاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) ، وكان لميله الفطرى إلى الاقتصاد فضل كبير فى إرجاع مالية البلاد إلى نصابها بعد أن طال إهمالها فى المدة الأخيرة . وبموته انتهت الأسرة اللاوونية .

وفضلا عن البرابرة كان للإمبراطورية مصادر قلق وهم أخرى . وكانت تلك الفترة ذات أهمية حيوية فى تاريخ المسيحية الشرقية ؛ فقد انقضى ردح من الزمان اشتجرت فيه المنافسة بين الكرازتين العظيمتين بالإسكندرية وأنطاكية ؛ وزادت غيرة الإسكندرية بسبب البطريركية الجديدة بالقسطنطينية التى أعطيت الرياسة عليها فى المجلس المسكونى الثانى . وقد نشب خلاف عند بداية القرن بين ثيوفيلوس الإسكندرى ويوحنا كريسوستوم [فم الذهب] من القسطنطينية — كاد يفضى إلى ما يشبه الصدع بين الكنيستين . وكان النصر نصيب ثيوفيلوس ، وإن انتقم كريسوستوم لنفسه فيما بعد . وحدث فى أثناء العقد الرابع من القرن أن الإسكندرية عادت إلى مواصلة الهجوم برئاسة البطريرك كيرلس (كيريل Cyril) . فقد ادعوا أن نسطوريوس الأنطاكى بطريرك القسطنطينية ، قد زل فوقع فى الزندقة حيث فرق بين الرب وبين الإنسان فى شخص المسيح . وانضمت الأسرة الإمبراطورية والكرسى الرومانى إلى رأى كيرلس (كيريل) ، وأدين المذهب النسطورى فى المجمع المسكونى الثالث الذى عقد بإفيسوس فى ٤٣٢ . ولكن خصومه لم يقفوا عند هذا الحد ؛ حيث أذاع قسيس (أرشمندريت) مغمور اسمه أوطيخا (يوتيخس) مبدأ ينص على وحدة طبيعة المسيح اعترفت به المدرسة الإسكندرانية . ورغبة فى البت فى المسألة جمع الإمبراطور مرقيانوس المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية فى ٤٥١ . وكان مرقيانوس شغوفاً من الناحية السياسية أن يكون على علاقة طيبة مع روما . وكان البابا ليو العظيم يعارض تلك الحركة بشدة . وعندئذ أدين بضغط من الإمبراطور مذهب أوطيخا أى مذهب وحدة طبيعة المسيح (Monophysitism) وعُدّ زندقة من الزندقات .

وكان مجلس خلقيدونية نقطة التحول فى تاريخ الإمبراطورية بمصر وسوريا . وكانت نظرية وحدة طبيعة المسيح تناسب المزاج الشرقى ، وسرعان

ما انتشرت فى كل أرجاء الولايات الكنائس المعتنقة لمذهب وحدة الطبيعة ذاك ، وقد وحدتها جميعاً معارضتها لمجمع خلقيدونية . هذا إلى أن تلك الزندقة صارت نقطة التجمع للكثيرين من أهالى الولايات الذين فى صدورهم غل من السلطة المركزية للإمبراطورية ؛ فكانت وسيلة التعبير عن النزعات القومية والانفصالية . وكان من ثمار تلك المرارة التى بذرت بذورها فى خلقيدونية ، تلك الفتوح العربية السهلة التى تمت بمصر وسوريا بعد ذلك بقرنين . ورفضت الكنيسة الأرمنية أيضاً مراسيم خلقيدونية ، وإن كانت اعتراضاتها دستورية أكثر منها اعتقادية . بل إن القسطنطينية نفسها كانت زاخرة بالعدد الجم من الهراطقة (الزنادقة) .

وتراجع أباطرة الأسرة اللاوونية عن موقفهم بخلقيدونية . وأصدر زينون رسالة عنوانها كتاب الاتحاد (Henoticon) وهى محاولة جريئة للتسوية السلمية ولكنها لم ترض أحدا وأحدثت شقاقا مع روما لم يحاول أنسطاسيوس رأبه لأنه كان يؤمن علناً بمذهب وحدة الطبيعة للمسيح . ولكن الجنوب الشرقى ظل مع ذلك غير راض .

وفى الوقت عينه كانت الوثنية قد خمدت أنفاسها . فإن ثيودوسيوس الثانى فى ٤٣١ قد أنزل بالوثنيين ضروباً أخرى من التعجيز السياسى والحرمان من الحقوق ، حتى إذا وافت ٤٣٨ ادعى أن لم يبق منهم أحد فى الإمبراطورية .

ولم تزل القسطنطينية تنمو طوال القرن حجماً وتزداد ثراء . إذ بلغ من شدة امتداد المدينة خارج أسوار القسطنطينية ، أن اضطر نائب الملك أنثيميوس فى عهد ثيودوسيوس الثانى أن يبتنى أسواراً جديدة من بحر مرمرة إلى القرن الذهبى ، تبعد حوالى ميلين غرباً من السور القديم لكى يدخل فيها تلك الضواحى ، على حين حدث فى ٤٣٩ أن الوالى قورش (كيروس) شاد أسواراً بحرية تتصل بالأسوار البرية الجديدة ، ولم يلبث التحصن بأجمعه

أن رمم بعد إحدى الزلازل في ٤٤٧ . وتم العمل في ستين يوماً بسبب الخوف من غزو الهون للبلاد . وفضلا عن ذلك كان من ميزات قورش الأخرى ومآثره العظيمة — وهو شاعر مصرى — أن كان أول وال للمدينة يصدر الأوامر باللغة اليونانية دون اللاتينية .

ويتسلط شخص يوستنيانوس (چستنيان) على القرن السادس . فقد حدثت عند وفاة أنسطاسيوس مؤامرة مرية غير شريفة انتهت برفع جندى أمى من إلليريا اسمه يوستينوس (چستن) إلى العرش . وأحضر يوستينوس معه إلى البلاط ابن أخيه يوستنيانوس (چستنيان) الذى ما لبث حتى أخذ يعمل فعلا كنائب للملك ، حتى إذا مات يوستينوس في ٥٢٧ تبوأ هو العرش . وكان حكم يوستنيانوس (٥٢٧ — ٥٦٥) لا جرم الذروة التى تسنمتها الإمبراطورية الرومانية المسيحية . ذلك أن ممالك البرابرة في الغرب قد وقعت باستثناء مملكة الغالة الفرنجية — في حالة من التدلّي المبكر السريع . وأخذ يوستنيانوس على عاتقه استرداد إفريقية من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين بل حتى أسبانيا من القوط الغربيين . ونشبت الحرب مع فارس مرة ثانية ، ولذا لم تفتأ جيوشه أن تركز جهودها في الشرق . على أنه تمكن من مواصلة الحفاظ على الجبهة الشرقية بفضل مهارة قائديه بليساريوس ونارسيس ومهارة ديبلوماسييه ؛ كما تمكن من فتح إفريقية وأجزاء من أسبانيا ، فضلا عن أن المقاومة الطويلة التى أبداها القوط الشرقيون بإيطاليا قد قضى عليها . وبذا عاد البحر المتوسط فأصبح من جديد بحيرة رومانية . ووجه يوستنيانوس التفاته أيضاً للشئون الداخلية . فنظمت الإدارة وأحكم زمامها وشُدِّدت نظمها ، على أنه كان فوق ذلك على درجة أكبر من الكفاية كمشرع . فإنه قام منذ بداية حكمه بموازنة نصوص القوانين الرومانية وتنقيحها وأصدر قانونه العظيم في (٥٣٣) ، وهو أثر خالد في الفقه التشريعى ؛ وظل بقية حكمه يواصل إضافة الملاحق القانونية الجديدة (Novels) لاستكمال

أى نقص يذلهر . على أن الإمبراطور فضلا عن كونه فاتحاً وأنه مصدر التشريع والقانون ، لا بد أن تتجسد فيه كذلك مظاهر العظمة والجلال . ومن أجل بلوغ هذه الغاية بذل يوستنيانوس جهداً عظيماً فى سبيل تجميل عاصمته وجعلها على درجة عالية من الفخامة والروعة . كان فى ميله الشديد إلى الإنشاء والبناء جليداً لا يكاد يمسه كلال ، وهو الذى أمر ببناء أعظم درة نصر حازها فن العمارة فى العالم إلى اليوم وهى آياصوفيا ، كنيسة الحكمة المقدسة ، وهى المعبد الذى جعل يوستنيانوس يفاخر بأنه فاق ذلك الملك المشرع الآخر — سليمان الحكيم .

وقد ظل يوستنيانوس يتلقى فى كل أعماله حتى ٥٤٨ معاونة أبرز نساء زمانه وأنبههن ذكراً ، وهى زوجته ثيودورا الممثلة السابقة . فإن شجاعتها وصفاء ذهنها وعدم تمسكها بالمثل كانت عوناً له لا يقدر بثمن ، بل إن قوتها كانت تفوق قوته هو وسلطانه . على أنهما اختلفا فى سياستهما إزاء مسألة واحدة فقط . ذلك أن ثيودورا كانت تؤمن بوحدة طبيعة المسيح ، فاستخدمت كل نفوذ لها لتحقيق النصر لعقيدتها الكافرة . ولكنها لم توفق ، على أن أتباع مذهب وحدة طبيعة المسيح ظلوا ما عاشت يحظون بظل الاطمئنان الذى يضفيه عليهم حمايتها لهم وتشجيعها إياهم . ولو أن أحداً أخذ بوصيتها وإرادتها فلربما ظلت مصر وسوريا على ولائهما للإمبراطورية . ولكن يوستنيانوس بما له من مطامع فى الغرب خشى أن يجر على نفسه استياء الغرب السلفى العقيدة ، هذا إلى أنه كان يعد نفسه من رجال اللاهوت ولم يُقنعه مذهب وحدة طبيعة المسيح . ولكنه كان يرجو أن يجد وسيلة للتوفيق يستطيع فرضها على عالم المسيحية بأكمله . فاتفق هو وثيودورا على أنه ينبغى لكل إنسان حتى البطاركة والباباوات أنفسهم أن يتبعوا نظرية الإمبراطور فى اللاهوت . وكانت نتيجة ذلك أن البابا ڤيجيليوس الذى جرؤ على اعتبار نفسه ممثل الأرثوذكسية ومتجسدها ، عوقب بالسجن مدة طويلة

بالقسطنطينية ، أقر فى أثنائها أولا بما أملته عليه ثيودورا ثم عاد فأقر يوستنيانوس على آرائه . بيد أن يوستنيانوس لم يطلق العنان لهواه كلاهوتى إلا بعد وفاة ثيودورا وأنتج صيغاً لقانون الإيمان رأى أنها لا بد أن تحوز رضا أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح دون أن تخرق مراسيم مجلس خلقيدونية . وفى ٥٥٣ استنكر المجلس المسكونى الخامس بأمر من يوستنيانوس الكفر المستتر الذى أقرته المجتمعات الكنسية الثلاثة التى أنشأها هو نفسه بطريقة مفتعلة قبل ذلك ببضع سنوات ، وأتم إذلال البابوية . ولكن محاولته التقرب من الزنادقة كان لها وقع سيئ فى النفوس ، فإنهم أبوا أن يُعدلوا صيغة عقيدتهم الملحدة مفضلين على ذلك الاضطهاد . ولم يزل الإمبراطور يتعمق فى خوضه فى دقائق مذهب صورة المسيح وخفاياه ، أثناء بحثه عن حل ، وهو يزداد فى كل آن اقتناعاً بصحة سياسة ثيودورا إن لم يكن بصحة عقيدتها . وأخيراً وقع هو نفسه فى ٥٦٥ فى شرك ضلالة وهرطقة لا شك فيها ، ومات فى تلك السنة وقد دمغته الغالبية الساحقة من رعاياه بميسم الهرطقة التى مصيرها جهنم .

وقد كانت سياسة يوستنيانوس الدينية قد وضعت الإمبراطور إلى حين معين على الأقل موضع الدكتاتور من الناحية اللاهوتية وأوجدت سابقة من السيادة العليا الدينية للإمبراطور Caesaropapism لمن شاء فيما بعد احتذاء ومحاكاة من الأباطرة المعنيين باللاهوت . على أن تلك السياسة فشلت فى أداء غرضها الرئيسى . فإن الولايات الشرقية ظلت منحرفة النفس منه وظل الغرب يستريبه . وربما لم يصل عدم رضا الناس إلى حد الخطر ، لولا أن سكان المقاطعات بل حتى فى الواقع جميع مواطنى الإمبراطورية كان لديهم سبب للتذمر والشكوى أنكى وأمرّ ؛ فالضرائب بلغت حداً يفوق كل احتمال . وذلك أن أمجاد حكم يوستنيانوس وفتوحه الخارجية ومبانيه العظيمة كانت فادحة النفقات كما كانت غير مثمرة إطلاقاً من الناحية المالية . وسرعان

ما استنفد ما اكتنزه أنسطاسيوس من أموال . واضطر يوستنيانوس إلى أن يتخذ من الوزراء كل من أوتى فى ابتزاز المال أعظم الكفاية مهما خالفت طرائقهم شرعة الأمانة والنزاهة . حتى لقد حدث فى وقت مبكر جداً هو عام ٥٣٢ ، أن ما وهبه وزيراه المحظيان لديه وهما تريبونيان المشرع ويوحنا القبدوقى من مواهب مشئومة أثارت فتن النيقا الشهيرة التى تمخضت عن إحراق المدينة عن آخرها وأوشكت أن تودى بعرش الإمبراطور إلى الهاوية لولا ثبات الإمبراطورة وحزمها . غير أن يوحنا المبغّض إلى الناس ظل فى دست الوزارة حتى عام ٥٤١ يوم ضاق صدر ثيودورا به نهائياً فقذفت به ، ولكن من خلفوه فى المنصب لم يكونوا أقل منه جورا . وفى سنى حكمه الأخيرة ساهمت الطبيعة فى زيادة الصعاب التى واجهت حكومة يوستنيانوس فمن زلازل إلى سلسلة من المجاعات ثم الطاعون الكبير سنة ٥٤٤ — كل هذا زاد فى إنقاص موارد الإيرادات . أجل حدث فى أثناء العقود الأولى للقرن انتعاش فى الرخاء التجارى ، كما أن يوستنيانوس نفسه بذل الشىء الكثير لتنمية التجارة والنهوض بها . ولكن ذلك كله جهد قُضى عليه وهو بعد فى أكمامه لم يتفتح . فإن فوائده لم يُسمح لها قط أن تثمر ثمارها ، وذلك لأن جباة الضرائب هبطوا على الناس سراعاً . وكان سكان الإمبراطورية يزدادون على الأيام إرهاقاً وامتعاضاً .

وقد أنجز يوستنيانوس الشىء الكثير من الأعمال الفذة . فإنه زين الدنيا بصنوف الجمال كما أعطى العالم أبدع ما حصل عليه من مجموعة قوانين ، كما أن فتوحه أنعشت الحضارة الرومانية فى الغرب ، هذا إلى أن توليه السلطة الروحية وهو الإمبراطور أنقذت خلفاءه الشرقيين من تجدد حادثة كانوسا[1] .

---

(١) كانوسا : قلعة بقرب ريجيو إميليا بإيطاليا . وبها وقف الإمبراطور هنرى الرابع تائبا نادما طالبا صفح البابا جريجورى السابع فى ١٠٧٧ ، على ما عارضه فى مسألة تعيين رجال الدين . (المترجم)

ولكن ذلك علم الناس درسين مريرين فى الأخلاق : هما أنه لا سبيل إلى صلح بين الشرق والغرب ، وأن حسن الإدارة المالية أُس كل نجاح فى الحكم . ولما أن حاد يوستنيانوس عن هاتين القاعدتين أنزل بالإمبراطورية ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه .

وحدث بمحض الصدفة أن اعترى اللاتينية فى أثناء حكمه مزيد من التدهور . أجل كان هو نفسه ينطق باللاتينية كما أن مجموعة قوانينه صدرت باللاتينية . ولكن لو غضضنا النظر عن ذلك لم نجد أى أدب لاتينى يصدر عن بلاطه ، هذا إلى أن الملاحق القانونية الجديدة (Novels) صدرت باليونانية .

وخلف يوستنيانوس على العرش ابن أخيه يوستينوس الثانى الذى كان متزوجاً من صوفيا ابنة أخت ثيودورا . وعبثاً حاول الزوجان أن يطاولا سلفيهما العظيمين . فقد حدث فى الشرق أن دمغت الحرب مع فارس بميسم النوازل الكارثة ؛ كما أن قبيلة جديدة من البرابرة الآفار انقضت على الإمبراطورية من الشمال ؛ كما أن قبيلة أخرى فى الغرب هى اللومبارد غزت إيطاليا التى ران عليها الإعياء والخمود . ولم يلبث عقل يوستينوس أن انهار إزاء ذلك الجهد المضنى . واشترت صوفيا السلم مع فارس بالمال ، وانتقت قائداً هو طيبريوس ليخلف زوجها فى العرش . وأطافت بيوستينوس فى ٥٧٤ فترة وجيزة من صفاء العقل ، فتبنى طيبريوس وتوّجه قيصراً . ولم يلبث طيبريوس فى ٥٧٨ أن خلفه على العرش إمبراطوراً للبلاد[1] .

وبدأت بعهد طيبريوس حقبة جديدة . ذلك أن النزعة الاستعمارية لبيت يوستينوس (چستن) تحطمت . ورأى طيبريوس أن الشرق أولى بأن يُنقذ من التحطم . ولذا ترك معظم إيطاليا للومبارد . ومن ثم تراجع نائب الإمبراطور إلى عاصمته رافنا (رابينا) وراء المستنقعات التى لا يمكن اختراقها ، واحتفظت الدولة بخط الساحل الجنوبى . وفازت روما بما يشبه

(١) توّجه يوستينوس قبل موته بثمانية أيام .

الاستقلال تحت ظل البابوات ، وإن لم ينفك قوميسير (مندوب) إمبراطورى يقيم فيها بقصر القياصرة . وفى الوقت عينه هوت أسبانيا الإمبراطورية دون أن يحس بها أحد وسقطت فى يد القوط الغربيين . واصطنع طيبريوس التسامح إزاء المراطقة ، وركز همه فى إبعاد الفرس والآفار . وراح يبذل محاولة جريئة لاسترجاع الروح المعنوية العامة ، فأرجأ للناس ضرائب سنة ، والظاهر أنه حاول أن يستخدم تأييد الناس له فى مناهضة أرستقراطية روما الاستعمارية . على أنه مات فى ٥٨٢ دون أن يتمكن من إنجاز ما همّ به من أعمال ، وقد ترك الآفار منتصرين فى جهة الدانوب والصقالبة ينهالون على الإمبراطورية من حواليهم . واتبع خلفه وزوج ابنته موريقيوس (٥٨٢ — ٦٠٢) السياسة نفسها . فصد الآفار وانتصر على الفرس ؛ وحاول أن يضع الإمبراطورية فى حالة دفاعية أفضل بإعطاء العسكريين سلطاناً أكبر فى إدارة المقاطعات ؛ والتزمت الدولة جانب الاقتصاد الصارم فانصلحت الأحوال المالية الإمبراطورية إلى حد ما . ولكن نزعته الواقعية الصارمة أرهقت رعاياه إرهاقاً عظيما . فإن جنده وقد أنقصت أعطياتهم لم يستطيعوا تحمل الأعباء الشديدة المطلوبة منهم . لذا شق الجيش عصا الطاعة فى ٦٠٢ . وقتل موريقيوس ، وأصبح فوقاس زعيم الجند إمبراطوراً بدلا منه .

وكان حكم فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) كابوساً رهيباً من الفوضى الهدامة والظلم الممزق للدولة ، والغزوات الخارجية والثورات والفتن الداخلية : حتى أقلع فى النهاية هرقل ابن حاكم ولاية إفريقية إلى القسطنطينية كمنقذ للبلاد ، وأنشأ أسرة مالكة دامت خمسة أجيال .

وبتولى هرقل الحكم تتحول وجهة الإمبراطورية الرومانية نهائياً شطر الناحية البيزنطية البحت . وقد ريّمت عليها حرب قاتلة طويلة الأمد مع فارس ، حرب كانت وأيم الحق حملة صليبية لا شك فيها وقتالا بين الدولتين

حتى الموت . وقام الفرس فى حدثانها بنهب بيت المقدس وغزو مصر ، وأوشكوا أن يستولوا بمساعدة الآفار على القسطنطينية نفسها ؛ ولكن مملكة الساسانيين سحقت فى النهاية إلى الأبد (٦٢٨) . وفى نفس الحين تقريباً أخذ الانهيار يدب إلى مملكة الآفار ، ونشر هرقل سيادته على الصقالبة الذين كانوا يملأون آنئذ شبه جزيرة البلقان . ولكن الحروب كانت باهظة النفقة منهكة لقوى الدولة ، وقاست المقاطعات المؤمنة بمذهب وحدة طبيعة المسيح أشد العناء بوجه خاص . وحاول هرقل ككل أسلافه من قبله أن يفوز بصداقة المؤمنين بوحدة الطبيعة بتسوية لاهوتية يعقدها . فتبنى الفكرة القائلة بأن للمسيح طاقة واحدة فقط أو على كل حال إرادة واحدة فقط . على أن « فكرة وحدة الإرادة » (Monotheletism) هذه وإن لقيت بعض النجاح بالقسطنطينية ، بل ساهم فى تأييدها البابا هونوريوس الأول ، لم ترض أتباع مذهب وحدة الطبيعة . فإن ما كان واقعاً بهم من مظالم سياسية وما يملأ نفوسهم من كراهية مقيمة لمراسيم خلقيدونية جعلتهم متذمرين على الدوام ؛ ومهما يكن من شيء فإن إصلاح الحال جاء بعد فوات الأوان . ففى ٦٣٦ وهى نفس السنة التى وقع فيها الإمبراطور الوثيقة المحتوية على الاعتراف الجديد (Ekthesis) . وقعت معركة بسوريا أفقدت الإمبراطورية تلك الولاية إلى الأبد .

حدث فى بواكير القرن أن قبائل المنطقة الوسطى ببلاد العرب فازت بالوحدة السياسية والإلهام الدينى على يد رجل اسمه محمد . وكان جدب بلادهم يضطرهم بين الفينة والفينة إلى التوسع الدوريّ ، والآن وقد صارت لهم هذه القوة الجديدة وهذه الحمية المتوقدة انفجروا كالمرجل على العالم المتحضر . ففى ٦٣٤ غزوا فلسطين لأول مرة . وفى ٦٣٦ شتتوا بمعركة عند نهر (اليرموق) اليرموك الجيش العظيم الذى تمكن هرقل من جمعه من شتى أرجاء إمبراطوريته المكدودة ، وبذلك أصبحت سوريا بأكملها تحت رحمتهم .

وفى ٦٣٧ سحقوا بالقادسية جيوش الساسانيين ، وما لبثوا بعد ذلك بأربع سنوات أن قضوا نهائياً على مملكة فارس بمعركة نهاوند. وفى ٦٣٨ سلمت لهم بيت المقدس . ثم غزوا مصر فى ٦٤١ . ولم يحاول أهلها الزنادقة المضطهدون المرهقون بالضرائب أن يحافظوا على سيادة الإمبراطور . لذا رحب الناس فى سوريا ومصر على السواء بتغير السيد ، معتبرين عقيدة الإسلام الدينية أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية . ولم تقاوم العرب غير الإسكندرية وحدها . ولكن لم يلبث ذلك الحصن الحصين للهللينية أن سقط نهائياً فى ٦٤٧ ، وإن جعلت مكتباتها وقوداً للنيران[1] . وقد نقصت رقعة الإمبراطورية عند وفاة هرقل فى (٦٤١) ، فأصبحت فضلا عن مواقع أمامية قليلة منعزلة — قاصرة على آسيا الصغرى وساحل شبه جزيرة البلقان وولاية إفريقية وصقلية . وكانت هذه المناطق باستثناء إفريقية تجعل من الدولة وحدة ذاتية ناطقة باليونانية . كما تجعل منها وحدة ذاتية تعتمد دينياً على بطريركية القسطنطينية . وكانت نتيجة بتر الولايات الكبيرة المتزندقة تخفيف متاعب الإمبراطورية . ولكن المستقبل كان قاتماً تماماً .

وكانت السنوات التى عقبت وفاة هرقل أحلك أيام التاريخ البيزنطى[2] . فإن تهديد العرب للدولة لم يقف عند حد . وكان جعل جبال طوروس على الدوام الحد الشمالى لتوسعهم يستدعى تجميع طاقات الإمبراطورية كلها . فإن العرب ما انفكوا على الدوام يعبرون تلك الجبال ليعيثوا بآسيا الصغرى نهباً . كما أنهم بنوا عمارة بحرية . وفى ٦٧٣ نزلوا على بحر مرمرة واستقروا هناك وظلوا كل عام حتى ٦٧٧ يغيرون على أسوار القسطنطينية . وكانوا فى مطلع القرن التالى يرسمون خطة حملة عظيمة ليكيلوا للإمبراطورية ضربة قاضية بالاستيلاء على عاصمتها . على أنهم أخذوا يتوسعون غرباً فى نفس

---

(١) الثابت قطعا أن العرب لم يحرقوا هذه المكتبة . (المترجم)

(٢) وحتى تواريخ الأحداث وضبطها يشوبها الشك إلى حد ما .

الحين . وفى ٦٧٠ شرعوا يهاجمون ولاية إفريقية ، وسقطت قرطاجنه أيديهم فى ٦٩٧ . ومن هنا تحركوا نحو أسبانيا . وكان الصقالبة يحدثون ببلاد البلقان اضطراباً لا آخر له . حتى لقد اضطر القديس ديمتريوس أن يظهر بمعجزة لإنقاذ مدينة (تيسالونيكة) من هجماتهم أكثر من مرة . وفى ٦٧٩ دخل المسرح عنصر جديد من عناصر الفوضى هو غزو جنوب الدانوب على يد قبيلة هونية شديدة المراس فى القتال تسمى البلغار واستقرارهم هنالك . وقد ظل أباطرة الأسرة الهرقلية يناصرون مذهب وحدة الإرادة إلى حين ، ثم داروا على أعقابهم ودعوا إلى اجتماع المجلس المسكونى السادس بالقسطنطينية فى ٦٨٠ لكى يستنكر تلك الزندقة . والتأم بعد ذلك مجمع إضافى ملحق بالأول هو « مجمع ترولو المقدس » واتخذ قراراً ظل إلى الأبد دستور الكنيسة البيزنطية وقاعدتها الأساسية .

وأباطرة أسرة هرقل وإن كانوا جميعاً رجالا ذوى مواهب ، إلا أن أحداً منهم لم يكن كفئاً لتحمل أعباء الحكم الفادحة فى تلك الأيام . وقد ترك هرقل عرشه لابنيه قسطنطين الثالث وهرقليون ، على أن محاولة مارتينة أم الأخير (وهى بنت أخت زوجها) تولى الحكم فى البلاد كانت عاقبتها الفشل . وتوفى قسطنطين بعد أشهر قليلة وسرعان ماسقط هرقليون بعده بمدة وجيزة ؛ وعقبه فى الملك قسطنس الثانى (ابن قسطنطين) (٦٤١ – ٦٦٨) . وقضى قسطنس معظم أيام حكمه فى الحرب مع العرب . وانتهى الأمر بقسطنس أن يئس من إنقاذ الشرق وذهب ليقيم فى صقلية ، ولعله كان يقصد فيما يظهر أن يعيد الحكم الإمبراطورى إلى نصابه بإيطاليا ويجعل روما عاصمته . غير أنه قتل بسيراقوزة قبل أن تبلغ خطته النضج . وكان حكم ابنه قسطنطين الرابع الملقب بالملتحى (٦٦٨ – ٦٨٥) (پوجوناتوس) ، حافلا هو أيضاً بالحروب . على أنه على الجملة واصل الدفاع عن الإمبراطورية ، وإن سمح بغزوات البلغار بسبب إصابته بالنقرس . وكان

خليفة قسطنطين هو ابنه الصغير يوستنيانوس الثانى ، وهو طاغية ذكى الفؤاد لا يمكن الاعتماد عليه متقلب الأهواء محب لسفك الدماء . فبعد عشر سنوات من حكمه الظالم ثارت القسطنطينية عليه وجدعت أنفه ونفته إلى « خيرْسون » ببلاد القرم . بيد أنه فر من سجنه ، وبعد انقضاء عشرة أعوام من المغامرة أمضاها بين البرابرة ، عاد إلى القسطنطينية بمساعدة البلغار . وكان جندى اسمه « لاونديوس » يحكم هناك من ٦٩٥ إلى ٦٩٨ ، حين حل محله بحار اسمـــه « أبسيار » تلقب باسم طيبريوس الثالث ، وسقط بمجرد عودة يوستنيانوس إلى الظهور . على أن طغيان يوستنيانوس لم تعرف له عند ذاك حدود يقف عندها ، وعندئذ خشى أهل « خيرْسون » الذين سجنوه من قبل شر انتقامه منهم ، فشقوا عليه عصا الطاعة بقيادة قائد يسمى باردانس أو فيليبيكوس البردانى ، وقد نجح فى ٧١١ فى إنزال يوستنيانوس عن عرشه وإعدام أفراد أسرته . ومع ذلك فإن فيليبيكوس كان رجلا متراخياً بطبعه فى كل شىء ما عدا الهرطقة — فإنه كان يؤمن بحرارة بمذهب وحدة الإرادة عند المسيح . وبعد سنتين أسقطته إحدى مؤامرات القصر وخلفه فى الملك موظف مدنى اسمه أرتميوس اتخذ لقب أنسطاسيوس الثانى . وقد وقعت الإمبراطورية بين براثن الفوضى ، وكان العرب متسلطين على آسيا الصغرى . ولكنْ محاولة أنسطاسيوس إرجاع القوة إلى الجيش أفقدته محبة الناس له . وثارت إحدى فرق الجيش ثورة وضعت التاج على رأس مغمور من جباة الضرائب غير راغب فى الملك ، هو ثيودوسيوس الثالث (٧١٦) . وكان جلياً أن ثيودوسيوس كان غير قادر على معالجة الموقف . وفى السنة التالية ، وفى مواجهة لتهديد العرب ، تقدم لتولى العرش أعظم قائد بالإمبراطورية ، وهو لاوون (ليو) الملقب بالإيسورى ، دون أن يلقى معارضة تذكر .

وكأنما ناطت الأقدار بالأباطرة الإيسوريين إنقاذ الإمبراطورية من العرب واستكمال تحويلها إلى خير صورة لهيئة دفاعية شهدها عالم المسيحية حتى

آنذاك . وقد تهيأ للإمبراطور لاوون الثالث (٧١٧ — ٧٤٠) أن يفوز بصون العاصمة صوناً كللّ بالنصر فى أثناء حصار العرب الكبير لها فى ٧١٧ — ٧١٨ ، كما كُتب له أن يردهم على أعقابهم فى سنواته الأخيرة حتى حدود طوروس . ثم وجه اهتمامه إلى الإدارة فأصلح المالية وطور نظام الألوية أو المقاطعات الحربية بالثغور (Themes)[١] ؛ فكانت كل مقاطعة أو لواء توضع تحت سلطان حاكم عسكرى ، كانت طريقته فى الحكم موضع المراقبة التامة مع ذلك من القسطنطينية . ويكاد يكون أجدر منه بالإعجاب ابنه قسطنطين الخامس الذى تطاول الناس عليه بإطلاقهم اسم كابالينوس أو كوبرونيموس[٢] (٧٤٠ — ٧٧٥) أى الاسطبلى أو الزبلى . فقد أفضت مهارته فى القيادة ولباقته فى الديبلوماسية إلى سحق البلغار إلى حين ، كما كرر من جديد سيرة نجاح أبيه ضد العرب ، وأعانه على ذلك اضمحلال الخلافة الأموية . وكان لهمته فى الشئون المالية والإدارية الفضل فى إتمام ما بدأه أبوه من عمل . ولكن الوالد والابن جميعاً صارا الشخصيتين المرذولتين فى التاريخ البيزنطى بسبب سياستهما الدينية .

وفى ٧٢٦ أصدر لاوون الثالث مرسوماً ينص على منع عبادة الصور والتماثيل وأتبعه بتدمير عام لجميع الأيقونات التى تمثل المسيح والقديسين . وربما كان دافعه الأصلى لاهوتياً ؛ على أن الحركة سرعان ما اكتسبت أساساً سياسياً قامت عليه ، كهجوم موجه إلى الكنيسة — وإلى الأديرة بوجه خاص ، وهى التى كان امتلاكها للصور المقدسة يزيد من قوتها النامية المتزايدة . وصارت هذه الناحية المناهضة للرهبنة والرهبان صريحة صراحة قاطعة فى

---

(١) كان الروم يطلقون لفظة ثيما على اللواء أى المجموعة من فرق الجند وعلى المقاطعة التى تحتلها تلك الفرق ولا تزال بعض الدول العربية تستخدم لفظة اللواء للدلالة أيضا على المقاطعة وقد استخدمناها هنا للدلالة على المعنيين . (المترجم)

(٢) أى صبى الاسطبل أو المستدعى من الروث .

عهد قسطنطين الخامس الذى كان هو نفسه رجل لاهوت ، له نزعات إلحادية توحيدية (Unitarian) . وكان الرهبان على رأس جبهة عباد الصور (Iconodules) . وأوتيت عملية تحطيم الصور (Iconoclasm) قدراً معيناً من النجاح بآسيا الصغرى وبين الجند الذين كان يغلب عليهم العنصر الآسيوى ؛ ولكنها لقيت مقاومة حامية الوطيس وبخاصة فى أرض أوربا . وحدثت بالقسطنطينية فتن وثورات كما حدث عصيان عظيم يوم تولية قسطنطين الخامس العرش . وبلغ من شدة كراهية الناس لها بإيطاليا أن اللومبارد لم يجدوا أدنى مقاومة يوم اجتاحوا رابينا (رافنا) آخر الأقاليم الإمبراطورية هناك ، حتى لم يبق للإمبراطور فى عام ٧٥١ أى شىء شمال كالابريا . وأدت الحركة إلى شقاق مع البابوية كانت له نتائج بعيدة المدى . فقد راح البابوات ينشدون فى الفرنجة حلفاء جُدداً لهم ، على حين فقدت الإمبراطورية آخر ما بقى لها من المصلحة وبواعث الاهتمام فى الناحية اللاتينية وأصبحت كلا متكاملا ناطقاً باليونانية الصرفة .

وتولى الحكم بعد قسطنطين الخامس ولده لاوون الرابع الملقب بالخزرى (Chazar) لأن أمه كانت أميرة من ذلك الجنس التركى . ولم يحكم إلا خمس سنوات (٧٧٥ — ٧٨٠) ، وخلفه ولده قسطنطين السادس وهو بعد فى العاشرة من عمره ، تحت وصاية والدته الإمبراطورة ، وهى إيرينة الآثينية ، وبديهى أن إيرينة — وهى الأوربية — كانت ممن يعبدون الأيقونات (الصور) ، ولذا فإنها تصالحت مع روما فى ٧٨٧ ودعت المجلس المسكونى السادس إلى الاجتماع فى نيقية لإعادة عبادة الصور . وابتهجت الكنيسة وجموع الكتلة الكبرى من العامة بهذه الإعادة ، ولكن الجند الآسيويين استاءوا منها : فضلا عن أنهم كبر عليهم أن تحكمهم امرأة وخاصة وقوة العرب فى انتعاش فى حكم خلفاء بغداد العباسيين . ولكن الإمبراطور الصغير لم يوهب القدرة على الوقوف فى وجه أمه ، كما أن خلقه ومسلكه لم يكن يبعث الناس على احترامه .

وفى ٧٩٧ ، وبعد سلسلة طويلة من الخلافات ، قبضت إيرينة فى النهاية على ابنها وسملت عينيه وانفردت بالحكم خمس سنوات (٧٩٧ – ٨٠٢) . وفى أثناء هذا الحكم النسائى توج البابا ليون شرلمان الأعظم إمبراطوراً على الغرب .

وجاءت فى أعقاب الأسرة الإيسورية فترة من أباطرة قصيرى العهود تميز عهدهم بقيام الثورات ؛ ولما كانت الهيئة العسكرية استردت قوتها ، فإن عملية تحطيم الصور عادت إلى الظهور من جديد . وعزل إيرينة صاحب خزانتها نيقيفوروس الأول (٨٠٢ – ٨١١) ، وكان مالياً ممتازاً ولكنه كان جندياً هاوياً هزيل الكفاية ، خسر جزيرة إقريطس (كريت) للقراصنة العرب[1] واضطر أن يواجه تجدداً مفاجئاً ألمّ بقوة البلغار وحروباً جديدة شنها عليه العرب . وقتل نيقيفوروس فى معركة دارت رحاها بينه وبين كروم (Krum) أمير البلغار ؛ كما جرح ابنه ووريثه استوراقيوس جرحاً بليغاً مميتاً قضى عليه بعد ذلك ببضعة أشهر ، وعقبه فى العرش زوج أخته ميخائيل الأول رانجاب (٨١١ – ٨١٣) وهو ثرى من المدنيين . وسقط ميخائيل الأول فى أثناء فتنة عسكرية دبرها قائده الخائن لاوون ، وهو من الأرمن . وفى أثناء حكم لاوون الخامس (٨١٣ – ٨٢٠) أعيد تحطيم الصور إلى نصابه بوصفه حركة سياسية مناهضة لرجال الدين لا حركة لاهوتية . ولكن لاوون قتله فى ٨٢٠ جندى آخر يسمى ميخائيل ، وهو فريجى من عمورية (أموريوم) .

دامت الأسرة المالكة العمورية أو الفريجية التى أسسها ميخائيل الثانى ما يقارب نصف القرن . وكان ميخائيل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩) من المتحمسين لتحطيم الصور كما أنه ضاعف فى سخط حزب الكنيسة عليه

---

(١) القراصنة العرب : امتلأ البحر المتوسط فى تلك العصور بقراصنة من جميع الجنسيات ولعل العرب كانوا أقلهم عددا . (المترجم)

باتخاذه إحدى الراهبات زوجة ثانية له وهى يوفروسينة (Euphrosyne) ابنة قسطنطين السادس . وعقبه ابنه ثيوفيلوس (٨٢٩ – ٨٤٢) ، وهو من محطمى الصور كأبيه ، وإن كان أقل تطرفاً . كان صاحب تدبير وحسن إدارة كما كان متحمساً فى رعايته للثقافة ، وشهد حكمه نهضة فى العلوم الدنيوية ورقياً فى الفخامة الفنية ، حيث تأثر تأثراً عظيما بحضارة العباسيين فى بغداد . ومع ذلك فإن حروبه مع العرب لم تكن تكلل بالنجاح دائماً . وبعد وفاته فى ٨٤٢ صارت أرملته ثيودورا وصية على العرش على ولدهما الصغير ميخائيل الثالث . وكانت ثيودورا كالإمبراطورة إيرينة الوصية السابقة من عباد الصور ، فأعادت عبادة الصور فى ٨٤٣ ، وأبهجت بذلك أفئدة الغالبية الساحقة من رعاياها . وعاد السلام الدينى فضلا عن الإنشاء والتعمير السياسى الذى قام به الإيسوريون وثيوفيلوس – عاد على الإمبراطورية بفترة جديدة من الرفاهية والرخاء . على أن حكم ثيودورا المقترن بالحكمة ورجاحة العقل عقبه فى ٨٥٦ تبذير وإسراف ، تردى فيه ميخائيل الذى اكتسب من عاداته لقب السكير . على أنه اختار لنفسه مستشاراً كفئاً هو عمه بارداس ، ثم آخر هو العبد الفتى باسيليوس ؛ ولم يلبث الأخير فى النهاية بعد أن تسبب فى مقتل بارداس ، أن قتل فى ٨٦٧ مولاه وولى نعمته واستولى على مقاليد السلطة الإمبراطورية . وحدث شقاق آخر مع روما فى أثناء حكم ميخائيل الثالث تولد عن التضارب بين أطماع البابا نيقولاوس الأعظم والبطريرك فوتيوس ، وهو شقاق زاد من أواره اعتناق البلغار للمسيحية هم وصقالبة وسط أوربا .

وفى عهد باسيليوس الأول وسلالته وهم المعروفون عادة باسم الأسرة المقدونية (٨٦٧ – ١٠٥٧) وإن انطوى الاسم على شىء من التضليل[١] ، بلغت الإمبراطورية ذروة مجدها فى العصور الوسطى . وكان التنظيم الداخلى

(١) ولد باسيليوس بمقاطعة مقدونيا قرب أدرنة . وكان يدعى أنه أرمنى الأصل .

للإمبراطورية من القوة بحيث مكن الأباطرة من الاستمتاع ببرنامج توسع وفتوح ، وذلك على حين أفضى استتباب النظام إلى درجة أحسن إلى زيادة فى التجارة سرعان ما استفادت منها القسطنطينية . وكان باسيليوس الأول (٨٦٧ – ٨٨٦) قائداً مقتدراً : ففى عهد قيادته انكفأ تيار الحروب مع العرب أخيراً وأصبح فى صالح الإمبراطورية ، وإن كانت النتائج فى البداية ضئيلة . وفى الغرب كان العرب اجتاحوا فى الآونة الأخيرة صقلية وجنوب إيطاليا . وترك باسيليوس إيطاليا للمقادير ، بيد أن قائده نيقيفوروس فوقاس أعاد السلطة الإمبراطورية بجنوبى إيطاليا إلى درجة من القوة لم تعرف منذ ثلاثة قرون . على أن أحداً لم يواصل فى عهد ابنه لاوون[1] السادس (٨٨٦ – ٩١٢) الملقب بالحكيم إتمام هذه الفتوح العسكرية . وشبت مع البلغار حرب لم يحالفها التوفيق ؛ وكان نهب سالونيك كارثة أعظم ، وهى ثانية مدن الإمبراطورية قدراً ، على يد قراصنة العرب الذين هبطوا عليها من إقريطش فى ٩٠١ . واتبع كل من باسيليوس وابنه لاوون سياسة داخلية واحدة تهدف إلى تقوية حقوق الملكية وامتيازاتها ومقاومة نزعات الاستقلال التى أظهرها البطريقان فوتيوس ونيقولاوس مستيقوس . ولكى يسُلاّ نفسيهما من أتباع مذهب تحطيم الصور المكروهين ، بدأ باسيليوس وأكمل من بعده لاوون تجميعاً جديداً للقوانين حيث أصدرا بذلك مجموعة قوانين تعرف باسم باسيليكا (Basilica) ، وهى التى ظلت معمولا بها حتى نهاية الإمبراطورية . وأثار لاوون لنفسه المتاعب بإقدامه على الزواج ضعف العدد الذى كان القانون الدينى يسمح به طلباً لوريث ذكر ؛ إذ لم تنجب له الوريث الذكر إلا زوجته الرابعة . ونجح لاوون فى تقرير شرعية الغلام ، على الرغم من معارضة رجال الدين (الإكليروس) ، ولكنه لم يكد يموت حتى استنكرت الكنيسة رسميا إسرافه فى الزواج .

---

(١) وكانت أبوة لاوون موضع الشك . فإن أمه كانت خليلة لميخائيل الثالث .

وخلف لاوون على العرش أخوه الإسكندر (٩١٢ – ٩١٣) : الذى ظل يتولى منصب الإمبراطور الشريك (Co-Emperor) منذ مطلع شبابه. وكان يحكم إذ ذاك بالاشتراك مع قسطنطين السابع (ابن لاوون) – وهو الملقب بورفير وجنيتوس ، « أى المولود بالمخدع الفرفيرى »[1] . وعندما توفى الإسكندر بعد سنة من المظالم وسوء الحكم وبعد سنة أخرى من سوء الحكم تحت مجلس وصاية تسلط عليه البطريرك نيقولاوس مستيقوس ، استولت على مقاليد السلطة زوية (Zoe) (٩١٤ – ٩١٩) أم قسطنطين السابع . وفى نفس الحين غزا البلغار الإمبراطورية بقيادة قيصرهم سمعان (سيمون) . وبذلت زوية محاولات قوية للإيقاع بهم باءت بالإخفاق التام وأفضت إلى سقوطها . وتولى العرش مكانها أمير بحرها (الأميرال) رومانوس ليكابينوس ، الذى تبوأ العرش ورفع نفسه إلى مرتبة الأسبقية على قسطنطين وزوجه من ابنته . وأحسن رومانوس الأول (٩١٩ – ٩٤٤) حكم الإمبراطورية . فأبرم مع البلغار صلحاً مرضياً ؛ كما أن قائده يوحنا قراقوس دفع بالإمبراطورية فى طريق جديد من الفتوح الرائعة فى الشرق التى تواصلت إبان مئة السنة التالية . بيد أن محاولة رومانوس تكوين أسرة مالكة أخفقت . وإن توج ثلاثة من أبنائه . فإنهم عادوا فى النهاية فعزلوه ، ولكن لم يكد ينقضى شهر واحد على سقوطه حتى صارت مقاليد الحكم كلها فى يد قسطنطين السابع .

وتواصلت الفتوح الشرقية فى عهد كل من قسطنطين السابع (٩٤٥ – ٩٥٩) وابنه رومانوس الثانى (٩٥٩ – ٩٦٣) . واستردت إقريطش بل أخذت حلب[2] نفسها من العرب إلى حين على يد القائد نيقيفوروس فوقاس وهو حفيد نيقيفوروس قائد باسيليوس الأول . وعندما توفى رومانوس

(١) انظر فى شأن هذه الكنية ص ٧٠ من الأصل – والفرفير كما يقول محيط المحيط للبستانى هو لون يجمع بين الزرقة والحمرة (المترجم) .

(٢) وكان ذلك فى عهد سيف الدولة ، صديق المتنبى الشاعر . (المترجم) .

الثانى تاركاً ولدين صغيرين هما باسيليوس الثانى (٩٦٣ — ١٠٢٥) وقسطنطين الثامن[1] (٩٦٣ — ١٠٢٨) ، تزوجت أرملته الوصية المؤقتة الإمبراطورة ثيوفانو من نيقيفوروس فوقاس ، فاستولى على التاج . وقد توج حكم نيقيفوروس بأكاليل المجد باسترداد قيليقية وقبرص ومدينة أنطاكية العظيمة ، بيد أنه قتل فى ٩٦٩ بإغضاء من زوجته على يد ابن عمه يوحنا تزيمسكيس (جيمسكى) الذى حل محله . وكان يوحنا الأول (٩٦٩ — ٩٧٦) قائداً مقتدراً كسلفه ، فتح نصف بلغاريا وهزم جيشاً روسيّاً زاحفاً وسير جيوشه حتى بلغت أرباض بيت المقدس وبغداد . حتى إذا توفى تُرك باسيليوس الثانى قابضاً على السلطة العليا .

نظم الإيسوريون الإمبراطورية كوحدة دفاعية ، وكانت نتيجة ذلك أن حصلت الهيئة العسكرية على سلطات ضخمة . وكان قادة الجيش فى أثناء الحروب يؤخذون من الأرستقراطية مالكة الأراضى الزراعية . وفى نفس الحين أتاح الأمن المتزايد الذى كانت تنعم به الإمبراطورية قيمة جديدة للأرض كمصدر للثروة . وكانت نتيجة ذلك أن القوة التى استمدتها الأسرات الكبرى كمالكة مزارع أولا وكجند ثانياً ، قد بدأت تجعل منهم مصدر تهديد للحكومة المركزية . غير أن كلا من رومانوس الأول وقسطنطين السابع قد تكهن بذلك وسنّ القوانين التى تحرم الإكثار من امتلاك الأراضى الزراعية . وأظهرت الفتنة التى أحدثتها أسرة فوقاس (Phocae) مدى المتاعب التى تستطيع أن تحدثها للإمبراطور أسرة كبيرة واحدة . وفى أثناء السنوات العشر الأولى للحكم الشخصى لباسيليوس الثانى تجلى الخطر بأوضح مظهر من الثورات المتشابكة التى قام بها بارداس فوقاس وبارداس اسكليروس . وكان الحظ

---

(١) ويلقب أحياناً بالتاسع وذلك لأن رومانوس الأول توج ابنا له تحت لقب قسطنطين الثامن .

إلى حد كبير هو السبب فى انتصار باسيليوس فى النهاية ، بيد أنه انتهزها فرصة ليضرب الأرستقراطية ضربة شديدة . وقد تم إخمادها إلى حين بفضل نشاطه وهمته . وبعد هذا النصر قضى باسيليوس معظم أيام حياته مقاتلا ببلاد البلقان ، وإن استمرأ الاستمتاع ببضع حملات لتوسيع حدود الإمبراطورية فى الشرق . وانتعشت قوة البلغار أثناء ثورات أسرة بارداس ، وكان قيصرهم صموئيل يحكم من الجبال المقدونية المستقلة المنيعة، إمبراطورية تمتد من الناحية الأخرى إلى البحر الأسود . وعبثاً حاول باسيليوس فى ٩٨١ كبح جماحهم . وظل من ٩٩٦ إلى ١٠١٨ يقاتلهم بلا انقطاع تقريباً ، حتى أخضعهم فى النهاية إخضاعا تاما ، وعندئذ عادت شبه الجزيرة بأجمعها من الدانوب شمالا إلى أقصى الجنوب فدخلت فى طاعة الإمبراطور ، ومن ثم أطلق عليه رعاياه الشاكرون له صنيعه اسم جلاد (ذابح) البلغار (Bulgar - octonus) . وفى نفس الحين امتلأت الخزانة الإمبراطورية بالأموال نتيجة لتفانيه فى الاقتصاد والتقشف ، بعد أن نضبت إلى حد ما بسبب الحروب الطائلة النفقات التى خاضها أسلافه . حتى إذا وافت نهاية حكم باسيليوس كانت الدولة بلغت من سعة الرقعة ما لم تبلغه منذ أيام هرقل ، وأوتيت من الرخاء والثراء ما لم تصل إليه قط .

وبموت باسيليوس بدأ الاضمحلال يدب فى أوصال الدولة . فحكم أخوه قسطنطين الثامن مدة ثلاث سنين حكماً لا جدوى فيه (١٠٢٥ — ١٠٢٨) ، ثم توفى تاركاً ثلاث بنات مكتهلات هن : يودوكيا ، وهى راهبة شوّه الجدرى وجهها وزُويّة وثيودورا . وحكم الإمبراطورية فى أثناء العشرات التالية من السنين أزواج زُويّة وأحظياؤها المستمتعون بحمايتها . وأول هؤلاء وهو رومانوس الثالث أرجيروس (١٠٢٨ — ١٠٣٤) كان

شخصية محترمة ، ولكنه مبذر ومغرور وضعيف . وبعد موته فى ظروف مريبة سارعت زُويْة إلى الزواج من شاب بافلاغونى جميل الصورة حكم سبع سنوات (١٠٣٤ – ١٠٤١) تحت اسم ميخائيل الرابع . وكان ميخائيل ذا كفاية وقوة شكيمة – فأخمد بنجاح ثورة بلغارية خطيرة ، ولكنه كان مصاباً بالصرع . واضطره سوء حالته الصحية المتواصل أن يكون مجرد نهاز للفرص . واقتنعت زوية عند وفاته بضرورة تبنى ابن أخيه ميخائيل وتتويجه ، وهو المكنى بالشماع (Calfat or Chandler) نسبة إلى صنعة أبيه . وكانت لدى ميخائيل الخامس خطط للإصلاح تنطوى فيما تنطوى عليه ، على إسقاط زُوية ،صاحبة الفضل عليه . ولكن الأسرة المالكة كانت مع ذلك محبوبة بحيث لا يستطيع أن يتغلب عليها صانع شموع . لذا ثار العامة بالقسطنطينية وخلعوا ميخائيل وأقروا فى العرش زوية وأختها ثيودورا (١٠٤٢) كسيدتين للبلاد تنفردان بالحكم . ولكن دبيب الغيرة دب بين الأختين ، ورغبة فى إضعاف سلطة ثيودورا تزوجت زوية من شيخ خليع هو قسطنطين مونوماكوس . ولم يكن قسطنطين التاسع هذا عديم الكفاية ، ولكنه كان كسولا وفاسداً ، لم يفعل شيئاً ليوقف نمو قوة الكنيسة المتزايدة وسلطان الأرستقراطية النامى . فأخذ البطريق ميخائيل كريولاريوس يتصرف تصرف « بابا » للشرق أو كاد ، وفى ١٠٥٤ أخذ يتحايل ويداور لفصل الكنائس الشرقية نهائياً عن روما . وزادت رقعة الإمبراطورية اتساعاً فى عهد قسطنطين بضم أرمينية المستقلة إلى حوزتها ، ولكن حدث فى الوقت ذاته أن المغامرين النورمان شرعوا يجتاحــون إيطاليا البيزنطية وصقلية[1] ، وأخفقت محاولات الجيوش الإمبراطورية فى المحافظة على هاتين

---

(١) استولى العرب على صقلية فى أخريات القرن التاسع ، ولكن الإمبراطورية عادت فاستردتها لنصف استرداد فى مستهل الحادى عشر .

الولايتين . وعندما حانت منية قسطنطين فى ١٠٥٤ (بعد أن توفيت زوية فى ١٠٥٠) استولت ثيودورا العجوز على مقاليد الحكم بمفردها وحكمت البلاد سنتين بحزم مدهش . وفى ١٠٥٦ قضى على الأسرة المقدونية .

لقد شهدت هذه السنوات الثقافة البيزنطية تتسنم ذرى لم تتهيأ لها قبل ذلك أبداً . ولو وجهنا أنظارنا إلى شخص بسللوس وهو مؤرخ وفيلسوف ومن ساسة البلاط ، وإنسان ذكى ماهر وعالم ضليع محب للاستطلاع ، وإن حرم الضمير الوازع وكان من الكلبيين وإن كان مع ذلك متديناً — لشهدنا فى شخصه تلك الثقافة متسمة بأخص خصائصها المميزة . على أن الرخاء والثراء قلبا فى نفس الحين ميزان الهيئة العسكرية الصارمة الآخذة بمذهب المركزية للإمبراطورية . وكان أن أطلق انتهاء الأسرة المالكة العظيمة عوامل التفرقة والتمزيق من عقالها . فمرت بالبلاد من ١٠٥٦ إلى ١٠٨١ فترة من الفوضى اقتتلت فيها على السلطة كل من الكنيسة وهيئة الموظفين المدنية الحاكمة مع الأرستقراطية العسكرية من ملاك الأراضى . ومن سوء الحظ أن اتفق حدوث هذه الفوضى مع هجمات أعداء وافدين حديثاً أخذوا يغيرون على الحدود الشرقية والغربية . فأتم النورمان فتحهم لجنوب إيطاليا باستيلائهم على بارى فى ١٠٧١ ثم عبروا البحر الأدرياتى إلى سواحل البلقان . وتجمع الأتراك السلجوقيون على حدود أرمينية وقد أخذوا يستعدون لفتح آسيا الصغرى . وفى الوقت عينه أخذ نمو قوة الجمهوريات الإيطالية البحرية فى إحداث ذلك الانقلاب فى الجغرافيا التجارية الذى بلغ أوج ذروته بالحروب الصليبية والذى ضرب الزعامة التجارية للقسطنطينية ضربة قاصمة .

وقد عينت ثيودورا قبل وفاتها خلفاً لها وهو مدنى مسن اسمه ميخائيل ستراتيوتيكوس ؛ ولكن ميخائيل السادس هذا خلعه الحزب العسكرى بعد سنة من الزمان بقيادة الشريف إسحق كومنينوس . وحكم إسحق الأول سنتين ؛ ثم تنازل على غير انتظار عن العرش لوزير ماليته قسطنطين دوقاس ،

وهو أرستقراطى متحالف مع الكنيسة وهيئة الموظفين المركزية المدنية الحاكمة بدلا من أن يضلع مع العسكريين . وحدا الاقتصاد والخوف من الثورات العسكرية بقسطنطين العاشر (١٠٥٩ - ١٠٦٧) أن يخفض من عدد الجيش ويفسد من نظامه فى نفس هذه اللحظة غير المواتية . وبعد وفاته مخلفاً ابناً صغيراً هو ميخائيل السابع ، غيرت أرملته يودوكيا مكرمبوليتيسا سياسته ، وسلمت نفسها والعرش لقائد من قواد الجيش هو رومانوس الرابع ديوجينيس . وأعاد رومانوس النظام إلى نصابه فى الجيش ، على أنه خرج فى ١٠٧١ لملاقاة زحف سريع عظيم للسلجوق على أرمينية . ولقيت الإمبراطورية بفضل تراخيه العسكرى وإهماله فى معركة منزيكرت (ملاذجرد) كارثة لم يقدر لها أن تفيق منها قط . وجدير بنا أن نذكر أن ١٠٧١ وهى سنة سقوط بارى ومعركة منزيكرت هى نقطة التحول فى التاريخ البيزنطى .

أُسر رومانوس الرابع فى منزيكرت . وما إن نمت أخبار المعركة إلى العاصمة ، حتى وضع ميخائيل السابع وقد شب من فوره عن الطوق - يده على مقاليد السلطة وحكم البلاد محاولا دون جدوى إعادة النظام وكبح جماح النبلاء وطرد الأتراك . وفى نفس الحين اجتاح الأتراك آسيا الصغرى بأكملها وأظهروا عزماً أكيداً على الاستقرار بها واستيطانها . وكانوا شعباً بدائياً مدمراً محباً للرعى وغير متعود على الزراعة . فحيثما حلوا توقفت الزراعة ، وتخربت الطرق وعقود سقايات الماء (aqueducts) . وزاد من صعوبة استرداد آسيا الصغرى كثيراً على الإمبراطورية اضمحلالها ذاك على يد هؤلاء القوم وتحولها بغاية السرعة إلى صحراء جرداء : على حين أدى ضياع تلك الولاية إلى حرمان الإمبراطورية من المصدر الرئيسى لتزويدها بالجند ومن المورد الأساسى للحبوب . فلم يكن مفر من أن يعاد تنظيم مسألة إمداد البلاد بالأغذية والجند ، واستلزم الحال زيادة الاعتماد يوماً بعد يوم على الجند المرتزقة الأجانب . وتفاقم الخطب المالى .

وفى ١٠٧٨ أجبر ميخائيل السابع على التنازل عن العرش لجندى اسمه نيقيفورس الثالث بوتانياتس (١٠٧٨ – ١٠٨١) ؛ ولكن عزله هو نفسه جندى أقدر منه كثيراً هو ألكسيوس كومنينوس ابن أخى إسحق الأول ، وقد استطاع بعقده قرانه فى الوقت المناسب أن يحصل على تحالف حزب دوقاس المدنى وإياه . وأنقـذ ألكسيوس الأول (١٠٨١ – ١١١٨) الإمبراطورية . أجل إنه اضطر أن يواصل القتال باستمرار فى كل جبهة ؛ ولكن حروبه وديبلوماسيته الماهرة أبعدت النورمان عن بلاد البلقان ، وردت الغزاة البرابرة عن الشمال وأوقفت السلاجقة فى موقف حرج . وفى ١٠٩٦ وضعت الحركة المسماة بالحروب الصليبية على عاتق الإمبراطور مشاكل جديدة . فإن الصليبيين وإن كان دافع الكتلة العظمى فيهم دينياً ، إلا أنهم كانوا تحت قيادة رجال سياسة يشتهون السيادة على القسطنطينية اشتهاءهم للأرض المقدسة بالضبط ، وتمكن ألكسيوس من إحسان التصرف فى الموقف . فاستخدم الجيوش الصليبية فى استرداد الأرض له من السلاجقة ، وبخاصة عاصمتهم نيقية ، ثم عاد فبعث بالغربيين قُدُماً ليهددوا جناح الإسلام . حتى إذا ترامت الحروب الصليبية فى النهاية إلى فتح طريق مباشر للتجارة من سوريا إلى الغرب ، عاد ذلك على الإمبراطورية بأضرار بالغة لا يمكن تقديرها من الناحية التجارية ؛ كما أن الديبلوماسية الماكرة التى استمرأها كل من الطرفين زادت من تفاقم الاحتكاك بين الإمبراطورية وبين الغرب اللاتينى ، وهو احتكاك زاد فى تأكيده من قبل الانقسام الدينى . ولكن الصليبيين كانوا قد خدموا عندئذ أهداف ألكسيوس وأبلغوه أغراضه . على أن خلاص المدينة قد شُرى بثمن باهظ ؛ فإن الثمن المالى كان أفدح مما تستطيع الإمبراطورية تحمله . إذ أن مساعدة السفائن البندقية قد ابتيعت مقابل امتيازات تجارية ، ورفعت الضرائب ، حتى أصبحت عبئاً بلغ من فداحته أن جعل حكم السلجوقيين أنفسهم يبـدو أقل جوراً . واضطر

ألكسيوس أن يعبث قليلا بعملة الدولة . فإن النقد الإمبراطورى — عاد بعد محافظته على قيمته طوال جميع الاضطرابات التى حفلت بها قرون سبعة انقضت ، ففقد مركزه بوصفه وسيلة التبادل الوحيدة التى يعتمد عليها . فلم تعد القسطنطينية المركز المالى للعالم بعد ذلك .

وفى حكم يوحنا الثانى (١١١٨ — ١١٤٣) ابن ألكسيوس وهو إمبراطور مقتدر لم تكد بوادر الاضمحلال تتجلى بل ظلت متوارية عن الأنظار . واسترد يوحنا بحملاته العسكرية أراضى أخرى من السلاجقة كما أدخل الرهبة فى قلوب الصليبيين ؛ ومع أن الدولة سحبت ما منحته للأجانب من امتيازات ، إلا أن نفقاتها ظلت عالية لا يستطاع تخفيضها . ودب فى الدولة انحلال أسوأ وأنكى ، توارى وراء مظهر براق إبان حكم عمانوئيل الأول (١١٤٣ — ١١٨٠) ابن يوحنا . فقد استهوت الأفكار الغربية لب عمانوئيل ، كما أنه شرع يعتمد على الأسلحة الغربية ويتكل بوجه خاص على سفن الجمهوريات الإيطالية . بيد أن ذلك العون البحرى كان معناه إضافة ألوان أخرى من التسامح والامتيازات فى المسائل التجارية ؛ وطالبت جنوة وبيزا بكل امتياز منحته الدولة للبندقية وحصلتا عليه . وظلت القسطنطينية حتى النهاية مصنعاً عظيماً لأدوات الترف فى العالم ، ولكن إيرادات الجمارك بها ذوت كما أن تجارتها الخارجية وراء البحار اختفت . ومن جهة أخرى لاح فى الأفق فى أثناء حكم يوحنا والسنوات الأولى من عهد عمانوئيل أنه قد يكون فى الإمكان استرداد أسيا الصغرى من السلاجقة نهائياً ؛ غير أن هزيمة عمانوئيل الكبرى بموقعة مريو كفالوم فى ١١٧٦ ، وهى كارثة شبهها الإمبراطور نفسه بحق بكارثة منزيكرت — كان معناها أن الأتراك لا بد أن يستقروا بها إلى الأبد .

وأفضت وصاية أرملة عمانوئيل اللاتينية ، مارية الأنطاكية (١١٨٠ — ١١٨٣) على ابنها ألكسيوس الثانى إلى نشر الفوضى أطنابها فى البلاد .

واستولى على زمام السلطة فى ١١٨٣ ابن عمه أندرونيكوس كومنينوس ، وسرعان ما دبر مقتل الإمبراطور الشاب . وكان حكم أندرونيكوس الأول (١١٨٣ – ١١٨٥) ينطوى على حركة مضادة للاتين . إذ اقترن توليه العرش بمذبحة عظيمة أُعمل فيها القتل فى التجار الإيطاليين بالقسطنطينية ، كما أنه سحب جميع الامتيازات . وكانت إدارته للمقاطعات تتصف بالكفاية والعدالة المثالية ، ولكن استبداده التعسفى بالقسطنطينية أثار عليه فيها الأعداء ، كما أن انتقام الغربيين المتوقع زاد من الصعوبات التى تواجهه . ففى ١١٨٥ شبت فى العاصمة فتن أدت إلى خلعه عن عرشه وحل محله فيه قريب يمت إليه بصلة من بعيد هو اسحق أنجيلوس .

وكان حكم آل أنجيلوس وهم اسحق الثانى (١١٨٥ – ١١٩٥) وأخوه ألكسيوس الثالث الذى خلعه وخلفه (١١٩٥ – ١٢٠٣) قصة محزنة من الضعف والخور ومن انتشار مزيد من الفوضى والفقر فى الإمبراطورية ومن منح الإيطاليين المزيد من الامتيازات . وحصلت بلغاريا على استقلالها ؛ وأعلنت قبرص العصيان . وانتهى الأمر فى ١٢٠٣ بأن حملة صليبية هدفها الغزاة فى البلاد المقدسة تمكن البنادقة بجشعهم تحويل وجهتها إلى القسطنطينية . وكان ظهورها هناك مدعاة لإعادة اسحق الثانى وابنه ألكسيوس الرابع إلى العرش لفترة من الزمان ، وهما اللذان نُصبا عليه من قبل بأمر البندقية ، ولكن اندلعت فى ١٢٠٤ فتنة أتاحت للصليبيين الحجج للاستيلاء على المدينة ونهبها .

ومن العسير علينا المبالغة فى الأثر الذى أحدثه نهب القسطنطينية فى الحضارة الأوربية . فإن كنوز المدينة والكتب والآثار الفنية التى احتفظ بها منذ دهور سحيقة ، قد بددت جميعاً ودمر معظمها . ثم إن الإمبراطورية تلك الحصن العظيم المنيع لعالم المسيحية قد قُصمت كدولة ، كما أن تنظيمها الشديد المركزية دمر وقضى عليه . واضطرت الولايات والمقاطعات إلى

التحول عن الدولة لتنقذ نفسها . وكانت ثمرة جريمة الصليبيين تمهيد السبيل وتسهيل الأمر أمام الفتح العثمانى .

واقتسمت الأسلاب كل من البندقية وأمراء اللاتين . وأقيم بالقسطنطينية إمبراطور لاتينى . وأخذ الاوردة اللاتين يجتاحون شبه الجزيرة اليونانية ذهاباً وغدواً ، وهم ينشرون حالة قلقة من الرومانتيكية فى تلك الولاية الطويلة العهد بالهدوء والاستقرار . واستولت البندقية على بعض الجزر وابتنت المستعمرات على طول الشاطئ وحصلت من الامتيازات ما اقتنصت به تجارة الشرق جمعاء ، بيد أن محاولتها الاستيلاء على الإمبراطورية بأكملها باءت بالفشل . فإن شطر آسيا الصغرى التابع للإمبراطورية ظل فى قبضة رجال ينطقون باليونانية . وأنشأ ثيودوروس لاسكارس زوج ابنة ألكسيوس الثالث بمدينة نيقية بلاطاً ما لبث أن أصبح المركز الرئيسى للإمبراطورية فى المنفى . وأعلن شخص من أسرة كومنينوس استقلاله بطرابيزون ، كما أعلن الاستقلال أيضاً فى إبيروس أحد أفراد أسرة انجيلوس ، وسرعان ما انتزع سلانيك من سادتها اللاتينيين . وتنازعت هذه الإمبراطوريات التى أقامت نفسها بنفسها حول ادعائهن بأنهن يمثلن الإمبراطورية الرومانية فى المنفى ، ولكن إمبراطورية نيقيا كانت هى التى يعترف بها الجميع بوجه عام كما أنها هى التى فازت بالنصر فى النهاية . وسقطت إمبراطورية سلانيك على يد إمبراطورية نيقية فى ١٢٤٦ وأخضعت أسرة أنجيلوس لإمارة إبيروس الاستبدادية التى اعترفت فى النهاية بسيادة الإمبراطور . وظلت إمبراطورية طرابيزون غير مقهورة حتى قضى عليها الأتراك العثمانيون فى ١٤٦١ ؛ بيد أن كومنينوس الأعظم لم يستطع وقد أصبح منعزلا فى أقصى الشرق يفصله عن بقية الدولة النيقيون والسلاجقة ، أن يقنع أحداً بادعائه أنه هو الإمبراطور الممثل للكنيسة العالمية .

وكان النصر الذى أحرزته نيقية فى هــــذه المنافسة راجعاً إلى علو حظ

أباطرتها من الكفاية . فإن ثيودوروس الأول لاسكارس (١٢٠٤ — ١٢٢٢) وزوج ابنته يوحنا الثالث ڤاتاتزيس (١٢٢٢ — ١٢٥٤) نظما الإمبراطورية حتى أصبحت دولة مثمرة وذات كفاية وكان كل منهما جندياً عظيماً ودبلوماسياً بلغ الذروة فى الكياسة والتدبير . وفى حكم ابن يوحنا الثالث وهو ثيودوروس الثانى (١٢٥٤ — ١٢٥٨) وهو إنسان ذكى الفؤاد ولكنه مريض وسقيم ، ظلت الإمبراطورية فى نمو متواصل رغم تذمر الأرستقراطية الذين كان يضطهدهم . فلما خلفه فى العرش ابنه الطفل يوحنا الرابع (١٢٣٨ — ١٢٥٩) شقت الأرستقراطية عصا الطاعة وقتلت جاورجيوس موزالين (الوصى) عميله الوضيع المولد الذى عينه فى وصيته ، وسلموا زمام السلطان لأبرز عضو فيهم ، وهو ميخائيل باليولوجوس . ولكن الأمر لم يكن ينطوى إلا على تغيير السيد فقط . فإن ميخائيل اغتصب التاج فى يوم عيد رأس السنة ١٢٥٩ ، وسرعان ما سُملت عينا الإمبراطور الصبى بعد ذلك بقليل .

وفى نفس الحين أخـــذت الإمبراطورية اللاتينية أى « إمبراطورية رومانيا » بالقسطنطينية تغوص فى دركات الفقر والانحلال ، فإن بُلْدوين الفلاندرى أول أباطرتها كان أقل الناس كفاية للمنصب والعبء الملقى على عاتقه . وقد نظمت الإمبراطورية على أسس إقطاعية دقيقة ، ولم يزد هو إلا قليلا عن منزلة البارون الأول بين أقرانه . ومع ذلك فلعله كان يستطيع أن يحظى بتأييد رعاياه ضد تابعيه (الفصلاء Vassals)[1] لولا أنه نفرهم منه بإرغامهم على قبول الكنيسة اللاتينية البغيضة إليهم . وفى ١٢٠٥ قُتل بلدوين فى حرب شبت بينه وبين البلغار . وكان أخوه وخليفته هنرى (١٢٠٥ — ١٢١٦) أكثر ميلا إلى استمالة جانب اليونان (الروم) ، ولذا لاح إلى حين

---

(١) التابعون (الفصلاء Vassals) جمع تابع أو فَصّل وهو فى النظام الإقطاعى من يأخذ أرضاً من سيد فوقه ويقدم إليه الولاء والطاعة وبعض الخدمات العسكرية والمدنية . (المترجم)

إبان حكمه - أن الإمبراطورية اللاتينية ربما جاز أن تنبعث من جديد كدولة . ولكن ذلك كان شيئاً فات أوانه كثيراً ؛ فإن اليونان تعلموا أن يلتمسوا الحرية الدينية فى نيقيا . وكان اللوردة اللاتين والبنادقة وهم الذين خرجوا ابتغاء مصلحتهم الذاتية - عديمى النفع كدعامات تعتمد عليها الإمبراطورية ، وسرعان ما تدهورت بعد وفاته . وخلفه على العرش اخته يولندة وزوجها بطرس من كورتناى . على أن بطرس ما لبث أن قتل فى إبيروس فى ١٢١٧ قبل أن يصل إلى القسطنطينية على الإطلاق . وحكمت يولندة البلاد سنتين (١٢١٧ - ١٢١٩) ثم تنازلت عن سلطانها لابنها الثانى روبرت (حيث رفضها الأكبر بحكمة) . وخلع روبرت من العرش فى ١٢٢٨ لقلة كفايته وخلفه أخوه بلدوين الثانى تحت وصاية ملك بيت المقدس السابق يوحنا البريانى (١٢٢٥ - ١٢٣٧) ، وهو شيخ أوتى نصيباً من شهامة الفروسية يفوق نصيبه من العقل . وقد اقتُرح قبل ذلك أن تمنح الوصاية للملك بلغاريا لضمان الحصول على مساعدته ضد اليونان ؛ ولكن رجال الدين اللاتين لم يستطيعوا أن يطبقوا فكرة وجود وصى على العرش خارج عليهم دينياً ، وحالوا دون تنفيذ الفكرة . وفى حكم بلدوين الثانى زادت محنة إمبراطورية رومانيا وبالاً . وقضى معظم مدة حكمه يجوب أقطار الغرب ملتمساً مساعدتها . ولم يكن لديه مال كما أنه رهن سقوف قصره وآثاره وابنه لدى البنادقة . وكان سكان القسطنطينية يهجرونها باستمرار بسبب الفقر والمجاعة . فكان من رحمة الأقدار أن شقت جند ميخائيل باليولوجوس فى ١٢٦١ طريقها إلى داخل المدينة قتالا ، وهرع بلدوين والبطريق اللاتينى والحاكم (podesta) البندقى إلى الميناء وأقلعوا إلى الغرب .

ولكن كيف السبيل إلى إصلاح ما لا سبيل إلى إصلاحه . فإن ميخائيل دخل مدينة نصف مخربة مهجورة من سكانها . وكان استردادها عملا ثمينا

إذ أن أحداً فى الشرق الأوسط لا يستطيع أن يقبل السماح لأعدائه بالاستيلاء على القسطنطينية ، وكانت عودة مجيدة أعادت الهيبة للإمبراطورية . ولكنها وضعت بين يديه مشكلات ونفقات لا قبل له بتحملها . وكان الجنويون له حلفاء ؛ ولا بد من دفع الثمن لهم امتيازات تجارية أنقصت من إيرادات الإمبراطورية . ووجد اللاتين فى شخص شارل صاحب آنجو نصيراً لهم يرجى أن يكون منتقما لما أصابهم ، وهو آنذاك ملك الصقليتين[1] ؛ ولم يكن بد من التغلب على مداوراته بالقيام بحركة تظاهر بالرغبة فى الاتحاد مع الكنيسة اللاتينية ، وهى حركة أثارت حتى رعايا الإمبراطور دون أن توقف شارل عما هو ماض فيه . وقد أخذت عملة الإمبراطورية فى الهبوط من جديد بعد أن ثبتها اقتصاد أباطرة نيقيا ؛ ولما أن كان ميخائيل عاجزاً عن الوفاء بتنفيذ نظام دفع أعطيات جند الحدود (الثغور) بمنحهم الأراضى المعفاة من الضرائب ، فإنه ألغى هذا النوع من الأملاك بآسيا ، وبذا أضعف قوته الدفاعية . وعند وفاة ميخائيل فى ١٢٨٢ أظهرت الإمبراطورية عقم بعثها سياسيا . وكان العمل الكبير الإيجابى الوحيد فى حكمه عدا الاستيلاء على العاصمة هو الذى تم بمنطقة البيلوبونيز ، التى عاد فيها انتصار بيلاجونيا ١٢٥٩ على الدولة بسقوط قلاع ميسترا ومونقاسيا ومايتا الخطيرة الشأن فى قبضة الإمبراطور .

وشهد الحكم الطويل لولده أندرونيكوس الثانى (١٢٨٢ — ١٣٢٨) تدهوراً بطيئاً يسرى فى أوصال الدولة . واتفق آنذاك أن مذبحة الغسبار الصقلية[2] (The Sicilian Vespers) قضت على سلطان شارل من آنجو ، وبذا استطاع أندرونيكوس وهو فى أمان تام أن يقطع المفاوضات التى دارت

---

(١) الصقليتان : هما صقلية ونابلى وكانت تجمعهما مملكة واحدة بهذا الاسم . (المترجم)

(٢) مذبحة الغسبار الصقلية (The Sicilian Vespers) هى التى أعمل فيها الناس الذبح بصقلية فى حكامهم الفرنسيين ١٢٨٢ . (المترجم)

حول مسألة توحيد الكنيسة . على أن تهديداً جديداً أخذ خطره يزداد فى الشرق . فإن غزوات المغول لآسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر اجتلبت فى إثرها قبائل تركية جديدة . وكانت إحدى هذه القبائل تنزل على حدود الإمبراطورية وقد أخذ ينظمها فى أثناء الفترة الأخيرة من القرن الثالث عشر ويحيلها إلى قوة لها نزعة عسكرية ذات بأس رئيسها عثمان ، الذى سميت على اسمه باسم الأتراك العثمانيين (العثمانلى) . والواقع أنه بعد إلغاء ميخائيل لنظام الجند النازلين على الثغور ، لم تعد قوات أندرونيكوس العسكرية قادرة على معالجة أمرهم والوقوف فى وجههم . ولذلك اضطر أن يعتمد على المرتزقة الأجانب ، وقد عمد فى لحظة من لحظات الطيش والحماقة إلى استئجار جماعة من المغامرين يسمون بالجماعة القطلونية الكبرى (١٣٠٢) . ولكنهم سرعان ما انقلبوا على أوليائهم ودافعى أعطياتهم ، وحاصروا القسطنطينية سنتين كاملتين (١٣٠٥ — ١٣٠٧) وأدخلوا الترك إلى أوربا (١٣٠٨) ، ثم انسحبوا فى النهاية فأعملوا السلب فى مقدونيا وما يحكمه الفرنجة من بلاد اليونان . وفى نفس الحين ظهر فى أوربا أن إمبراطورية آسن البلغارية وإمبراطورية أورش (Uroš) الصربية كانتا مصدراً للخطر الدائم . فأما من الناحية الداخلية فإن الحكم وإن كان جم النشاط من الناحية الثقافية إلا أنه كان قصة طويلة من الارتباك المالى والثورات . فقد ظل أندرونيكوس من ١٣٢١ إلى ١٣٢٨ يقاتل حفيده ووريثه أندرونيكوس الثالث ، ولم يستتب السلم فى البلاد إلا بعد وفاة الإمبراطور الشيخ .

وتواصلت القصة نفسها فى عهد أندرونيكوس الثالث (١٣٢٨ — ١٣٤١) . وكان الأتراك العثمانيون فتحوا بروسا فى ١٣٢٦ ؛ ولم يلبثوا أن استولوا فى ١٣٢٩ على نيقية وأردفوها فى ١٣٣٧ بنيقوميدية . وبلغت الإمبراطورية الصربية فى عهد استيفن دوشان (١٣٣١ — ١٣٥٥) ذروة قوتها واتساعها وأخذت تهدد القسطنطينية . وتمخضت وفاة أندرونيكوس

معقباً طفلا هو يوحنا الخامس، عن اندلاع نار الحرب الأهلية فى البلاد والنزاع على الوصاية على العرش بين الإمبراطورة الأم آنى من سافويا والمغتصب يوحنا السادس كانتاكيوزينوس . وفاز الأخير بالنصر فى ١٣٤٧ ، وهو رجل ذكى ألمعى اضطر أن يكون انتهازياً ، ثم سقط صريعاً فى ميدان القتال (١٣٥٥) أمام أندرونيكوس الرابع ابن يوحنا الخامس . وعاد يوحنا الخامس فى (١٣٧٩) ، ثم عزله فى (١٣٩٠) حفيده يوحنا السابع ، ولكنه عاد إلى العرش ومات ملكاً فى (١٣٩١) . وطفقت الأمور تزداد سوءاً . حقاً إنه حدث بإقليم المورة (البيلوبونيز) أن الإمبراطور استرد شبه الجزيرة بالتدريج من الفرنجة ، فأما فى غير هذا الموضع فكان الأمر على خلاف ذلك تماماً . وكان جلياً آنذاك أن الهلكة والتدمير سيكونان على يد الترك لا محالة . فإنهم شرعوا منذ (١٣٥٦) يستقرون على الأراضى الأوربية . ثم استولوا فى (١٣٥٧) على مدينة أدرنة وما لبثوا حتى جعلوها عاصمتهم . ثم دارت رحى معركتى الماريتزا (١٣٧١) — وكوزوفو (١٣٨٩) فأصبحت بلغاريا وصربيا فى قبضة أيديهم . ولما وافت (١٣٩٠) إذا بسلطانهم يمتد إلى الدانوب ، ولم تبق للإمبراطورية سوى القسطنطينية وثيسالونيكة وبلاد المورة (البيلوبونيز) واستبدادية (Despotate) مدينة ميسترا .

وكان يوحنا الخامس قد جاب أرجاء إيطاليا يلتمس العون ، حتى قبضت عليه البندقية وحبسته رهينة لما عليه من دين . على أن أوربا الغربية ما عتمت حتى أخذت تحس فى عهد ابنه وخليفته عمانوئيل الثانى بالخطر المقبل ، وأرسلت جيشاً إلى بلاد البلقان . ولكن ذلك الجيش قضى عليه الأتراك عند نيقوبوليس فى (١٣٩٦) . وفى (١٣٩٧) حاصر الأتراك القسطنطينية ، ولكن لم تحن ساعتها بعد . فإن تيمور التترى هاجم الأتراك من الشرق ، وفى (١٤٠٢) هزم المغول السلطان وأسروه قرب أنقرة . وهنا سنحت

أطيب الفرص لطرد الأتراك من أوربا . بيد أن الإمبراطورية لم توهب القوة الكافية لذلك ، كما أن الصربيين كانوا يخونونها ، هذا إلى أن الغرب أبى التعاون معها . وما وافت (١٤١٣) حتى تمزقت إمبراطورية تيمور بددا وحتى استرد الأتراك كل ممتلكاتهم وقوتهم . وفى الحين نفسه انطلق عمانوئيل كما فعل أبوه من قبل باحثاً عن حلفاء فى الغرب ، حتى لقد بلغ باريس ولندن دون جدوى .

وصان عمانوئيل ما بقى فى الحكم — الإمبراطورية من كل سوء بما وهب من لباقة وما اجتمعت عليه قلوب رعيته من محبة له وما كان له فى البلاط التركى من مكانة ، ولكنه ما لبث حتى نزل عن الحكم فى ١٤٢٠ لابنه يوحنا الثامن ، ثم توفى بعد ذلك بخمس سنوات . وفى ١٤٢٢ استفز يوحنا الأتراك ودفعهم إلى القيام بمحاولة لفتح القسطنطينية ، ولكن عصياناً شب فجعل السلطان يرفع الحصار عنها . وفى ١٤٢٣ عمد حاكم سلانيك وقد خشى من قيام الأتراك بمهاجمة مدينته ، إلى بيع المدينة للبنادقة ؛ على أن الهجوم التركى جاء بعد ذلك بسبع سنين وكلل بالنجاح . وسافر يوحنا الثامن إلى إيطاليا عملا منه بتقاليد أسرته يحدوه الرجاء : وهناك فى ١٤٣٩ وفى مجلس فلورنسا طالب بسلطته الإمبراطورية أمام اتحاد الكنائس ، وهو اتحاد لم تكن تعترف به الغالبية العظمى من رعاياه . ومكافأة له على موقفه غزت البلقان حملة غربية جديدة ، فسحقها الترك عند وارنة (Varna) (١٤٤٤) .

وتوفى يوحنا فى ١٤٤٨ ، وتخلفه أخوه قسطنطين الحادى عشر على عرش الإمبراطورية المحتومة المصير . وجاءت النهاية القاضية فى ١٤٥٣ . فبعد دفاع دام سبعة أسابيع وران عليه اليأس وانقطاع الرجاء واتسم بمظاهر البطولة والبسالة سقطت المدينة فى ٢٩ مايو بأيدى المسلمين . وفى ١٤٦٠ اجتاح الترك البيلوبونيز (المورة) . ولم يلبثوا فى ١٤٦٠ حتى أخمدوا أنفاس إمبراطورية آل كومنين بطرابيزون . وهنا صار المزج بين روما الإمبراطورية وبلاد الإغريق المسيحية فى ذمة الماضى الذى لا سبيل إلى رده .

الفصل الثالث

الدستور الإمبراطوري وحكم القانون

إن دوام الإمبراطورية البيزنطية إحدى عشرة مائة من السنين إنما يعود إلى الفضائل التي تميز بها دستورها ونظامها الإداري . وقل من الدول ما نُظم بطريقة شديدة الموافقة لزمانه وما وُجِّه بمزيد العناية للحيلولة دون بقاء السلطة في قبضة عديمي الكفاية . ولم يكن ذلك التنظيم ثمرة وعي متعمد لشخص واحد أو لحظة واحدة من الزمان ، بل كان في جوهره ميراثاً انتقل من الماضي الروماني ، ولكنه ظل يكيف ويستكمل على الدوام على كر القرون حتى يتناسب ومتطلباتها المتغيرة[1] .

وكان الحكم في الإمبراطورية أوتوقراطيا مطلقاً . فإن الحكم الثنائي (dyarchy) الذي أقامه أُغسطس جاعلا من السناتو شريكاً له لم يدم طويلا : أجل إن آخر آثاره لم تزُل من الدولة إلا في نهاية القرن التاسع ، ولكن الواقع أن الإمبراطور ظل يحكم البلاد بمفرده منذ أيام دقلديانوس . فكان هو السلطة العليا القصوى في البلاد . وكان يستطيع تعيين جميع الوزراء وعزلهم بمطلق إرادته ؛ وكانت بيده مقاليد التصرف المطلق في الشئون المالية ؛ وكان التشريع في يده وحده ؛ وهو القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية بالإمبراطورية . وهو فوق ذلك رئيس الكنيسة والقسيس الأعلى للإمبراطورية . وكانت سياسته ونزواته هي التي تصوغ مصير الملايين من رعاياه . وكان لقبه إبان صدر الإمبراطورية هو : الإمبراطور (Imperator)

---

(١) انظر مقالة بيوري بعنوان : « دستور الدولة الرومانية المتأخرة » في كتاب « مقالات مختارة Selected Essays » الذي جمعه تمبرلي ص ٩٩ فما بعدها .

أو أُغسطس . وظل لقب أُغسطس ملازماً له حتى النهاية نفسها ، ولكن لقب إمبراطور بما له من إشارة ومدلول عسكرى ما لبث أن حل محله رويداً رويداً مع زيادة اصطباغ الإمبراطورية بالطابع الشرقى ، لقب « أوتوقراطور » (Autocrator) بكل ما يتضمنه اللفظ من معنى الحكم المطلق . ولكن الاسم الذى صار يطلق على الإمبراطور منذ أيام هرقل هو باسيليوس ، وهو الاسم الإغريقى القديم الدال على المالك ، ذلك الاسم الذى لم يعد يطلق فى العهد الأخير إلا على ملك الحبشة كلما تذكره الناس ، كما كان يطلق على المنافس العظيم للإمبراطور ونظيره فى الحكم المطلق : ملك فارس الساسانى — ومما له دلالته أن لقب باسيليوس يظهر مقترناً باسم الإمبراطور لأول مرة فى ٦٢٩ ، بعد هزيمة الفرس النهائية مباشرة[1] .

ومع أنه لم تكن هناك حدود دستورية تحد من سلطة الإمبراطور ، إلا أن أوتوقراطيته ، (سلطته الاستبدادية) كانت محدودة مع ذلك . فإنه كان يعترف على الدوام بما عليه من التزام أن يحترم القوانين الرئيسية للشعب الرومانى[2] . كما أنه كانت تكمن فى أعماق الأنفس الفكرة القائلة بأن السيادة للشعب ، وكل ما فى الأمر أن الشعب فوض سلطته للإمبراطور . ويذكر يوستنيانوس (چستنيان) صراحة فى « قانونه الخاص بسلطان الحكم » (Lex De Imperio) أن الشعب نقل سيادته للإمبراطور[3] . وليس محتملا أن ذلك القانون كان معروفاً تماماً فيما يلى ذلك من قرون ، ولكن الفكرة ظلت مع ذلك كامنة فى الأنفس إلى الأبد . ألا ترى إلى الإمبراطور المحتضر ستوراقيوس فى ٨١١ كيف هدد وقد تنازعته الخلافات بين زوجته وشقيقته

(١) انظر كتاب « أصول الألقاب الإمبراطورية البيزنطية » تأليف بريهييه مج ١٥ ص ١٦١ فما بعدها وبخاصة ١٧١ — ١٧٢ .

(٢) انظر مثلا : Digest, 1, iii, 31; Basilica, II, vi, 1

(٣) انظر بيورى فى الكتاب السالف الذكر ص ١١٢ .

على وراثة العرش أن يرد الإمبراطورية إلى الشعب – فيؤسس ديموقراطية مسيحية – بيد أن ذلك المشروع غير عملى تماماً[1] .. على أن السيادة القصوى النهائية للشعب استطاعت فعلا أن تعبر عن نفسها . فإن العرش كان فى المقام الأول انتخابياً ؛ وكان هناك من ناحية ثانية ما أسماه مُومسن[2] باسم « الحق الشرعى فى الثورة » ، وهو حق لم يخش أن يعبر عنه ويطالب به البطريرك نيقولاوس مستيقوس فى القرن العاشر[3] .

وكان من لهم حق انتخاب الإمبراطور هم السناتو والجيش وشعب القسطنطينية . فلم يكن مفر من أن يُنادى كل من هذه الهيئات بكل إمبراطور ثم يمارس شعيرة التتويج . وعندئذ يصير حكمه مطلقاً ما دام مستوجباً لرضا الناس ؛ على أنه إن أظهر أنه غير مقتدر جاز لأى واحدة من السلطات الثلاثة الناخبة أن تُعلن بدلا منه إمبراطوراً جديداً . وكان الذى يقوم بذلك عادة هو الجيش أو فريق من الجيش ، كما حدث فى حالة فوقاس ولاوون (ليو) الإيسورى ولاوون الأرمنى ، وغيرهم كثير على مر التاريخ البيزنطى ؛ وإذا استطاع الإمبراطور المعين على هذا النحو أن يحمل السناتو وشعب القسطنطينية على قبوله أصبح اغتصابه للعرش قانونياً . ومع ذلك فربما حدث أحياناً أن يعزل الإمبراطور نتيجة لمؤامرة فى البلاط . ففى هذه الحالة يتآمر المغتصب حتى يظهر أمام الناس بمظهر مرشح السناتو ويجعل القوات المعسكرة بالقسطنطينية تنادى به إمبراطوراً بأسرع ما يمكن ، كما حدث فى حالة نيقيفوروس الأول أو ميخائيل الأول . فإن خلا عرش الإمبراطورية فى زمن السلم ، فإن مجلس الشيوخ هو الذى كان يتولى فى العادة الإعلان

---

(١) ثيوفانيز ٤٩٢ .

(٢) مومسن (١٨١٧ – ١٩٠٣) أحد عظماء مؤرخى الألمان فى الدراسات التاريخية الكلاسيكية . (المترجم)

(٣) Nicholas Mysticus, Epistolae, M.P.G , vol. cxi, 210.

عن تنصيب الإمبراطور الجديد ، ولكن السناتو فى مثل هذه الحالات كان يعمل على الدوام كآلة طيّعة فى يد أحد القواد أو أحد الأحزاب ، كما حدث فى ٤٥٧ يوم عين لاوون الأول بأمر من أسپار[١] . ومع ذلك كان يحدث بين حين وآخر أن أهالى القسطنطينية كانوا يعالجون الأمور بأنفسهم . فإن ارتفاع صيحة الناس بالاستياء فى ٩٤٤ هى التى رفعت قسطنطين السابع إلى العرش[٢] . وكان « الشعب » هو الذى جرّ ثيودورا فى ١٠٤٢ من ديرها لتحكم جنباً إلى جنب مع أختها زوية[٣] . وفى ١١٨٥ أسفرت الفتن الشعبية عن خلع أندرونيكوس الأول عن عرشه وأقامت فى مكانه إسحق أنجيلوس[٤] .

على أن مبدأ الانتخاب كان فى الواقع يخضع لتعديل أساسى واحد . فكان من صميم حقوق الإمبراطور فى الولاية والسلطان أنه يستطيع أن يضم إليه بحق الاختيار أباطرة آخرين . وبذلك لا تتعرض الإمبراطورية مطلقاً لحدوث فترة « شغور » فى تولى العرش[٥] . وكان لا بد للناخبين من أن يعلنوا موافقتهم الرسمية بالهتاف ، غير أن الناخبين لم يضنوا يوماً بإعطاء موافقتهم . وقد تولت الغالبية العظمى من الأباطرة العرش لأنها كانت قد توجت من قبل فى حياة سلفها ؛ ومما زاد فى المحافظة على تسلسل حلقات الحكم أنه كان من المظنون أنه فى حالة غياب الإمبراطور ، يكون فى إمكان الإمبراطورة أن تتصرف فى شئون الملك . ولم يكن هناك حد يحد من عدد الأباطرة الذين قد يتعاصرون . فكانوا خمسة فى عهد رومانوس الأول .

---

(١) مالالاس ٣٦٩ .

(٢) ليودبراند نشرة بكر : انتابودوسيس (Antapodosis) ١٤٢ .

(٣) بسيلوس « كرونوجرافيا » طبعة رينولد ﺟ ١ ص ١٠١ وما بعدها .

(٤) نيقيطاس خونياتس ص ٤٤٨ فما بعدها .

(٥) فترة الشغور هى الفترة التى يخلو فيها العرش من ملك .   (المترجم)

وطالب الجيش فى عهد قسطنطين الرابع بثلاثة ، معتقداً فى تقوى تبعث على الإعجاب بأن الإمبراطور ينبغى أن يحذو حذو ربه[1] وهو نموذجه الأعلى المحتذى !! على أن إمبراطوراً واحداً فقط هو الذى يمارس السلطة وهو الأوتوقراطور الملك (باسيليوس)[2] المتربع على العرش . فأما الآخرون فهم شركاء خاملون كالشريك المرفوع ســواء[3] ، فإذا ما تولى « الأوتوقراطى » خلفه على السلطة الإمبراطورية بصــورة آلية بحتة من يليه فى الأسبقية والأقدمية . وبذلك صار فى الإمكان توطيد قدم الأسر المالكة التى كانت تدوم ما دام ممثلها كفئاً للحكم — بل حتى أكثر من ذلك . ألا ترى إلى حالة الإمبراطورة زوية كيف تظهر بأجلى بيان أن محبة الناس للأسرة كان فى الإمكان أن تنمو فى ظل هذه الملكية الانتخابية حتى مع أن موضع تلك المحبة كان غير جدير بها بغاية الجلاء .

على أنه لم يكن بد من أن يتوج[4] الإمبراطور بعد انتخابه أو ضمه بالاختيار . وكان ذلك التتويج يضفى على سلطته إقراراً دينياً بحيث يستطيع حقاً أن يؤدى عمله بوصفه نائب الله فى هذه الدنيا . وقد انتقلت إليهم فكرة التاج والتتويج عن الفرس الذين كان كبير الكهنة المجوس يتوج ملكهم . على أن الذى حدث هنا هو أن دقلديانوس عندما اقتبس تلك العادة وهو صاحب وظيفة « الحبر الأعظم » (Pontifex Maximus) استغنى عن معونة

---

(١) ثيوفانيز ٣٥٢ .

(٢) تظهر تلك العبارة لأول مرة فى (Cleterologium) تأليف فيلوثيــوس وفى (De Ceremoniis) تأليف قسطنطين بورفيروجنتوس حـ ١ ص ٧١٢ .

(٣) الشريك المرفوع : هو شريك يستثمر ماله فى عمل من الأعمال ، ولكنه لا يقوم بأى دور فى إدارته ؛ والمؤلف هنا يستعمل هذا الاصطلاح الاقتصادى على سبيل المجاز . (المترجم)

(٤) انظر Das Byzantinische Krönungsrecht, B.Z. vol. 7, 611, sqq. تأليف سيكل (Sickel) .

الكاهن ، وحذا خلفاؤه المسيحيون حذوه . وكان يقوم بمراسم التتويج أحد البارزين من ممثلى الناخبين . وقد توّج والى المدينة والتنيانوس (ڤالنتنيان) الأول . وأخيراً أخذ الناس يشعرون رويداً رويداً بأن بطريرك القسطنطينية أحق الناس بالقيام بهذا التمثيل ، لأنه يتولى أعلى منصب بعد التاج . والبطريرك[١] هو الذى توج ماركيان على الأرجح كما توج لاوون الأول بوجه التحقيق . ومنذ تلك اللحظة أصبح ذلك هو السنّة المرعية – وكان الاستثناء الوحيد هو الإمبراطور الأخير قسطنطين الحادى عشر ، غير أن حالته كانت غير عادية تماماً ، لأنه تُوج فى ميسترا[٢] . على أن البطريرك كان فى جميع الحالات يعمل بوصفه أبرز مواطن فى الإمبراطورية لا بوصفه قسيساً . أجل إن فوقاس كان أول إمبراطور توج بإحدى الكنائس[٣] . ونتيجة لذلك كان الإمبراطور الأصلى يتولى التتويج إذا كان المتوّج إمبراطوراً شريكاً ، وإن جاز أن يحضر البطريق الحفل ، وخاصة إن كان الإمبراطور الأصلى قاصراً[٤] . وربما طالب البطريق الإمبراطور بين حين وآخر ببعض المنح والامتيازات قبل قبوله تتويجه . على أنه كان فى مثل تلك الحالة يقوم بعمله رسميا كممثل للشعب . وكان كل ما بيده من سلاح شرعى يشهره على العاهل هو تهديده بالحرْم ، ومع ذلك فإن شرعية الحرْم نفسها كانت موضع الشك . ومع ذلك فإنهم كانوا يطالبون الإمبراطور قبل تتويجه أحياناً بأن يقطع على نفسه بعض الوعود . وقد ألزم أنسطاسيوس الذى كانت عقيدته الأرثوذكسية محل شك أن يضمن كتابةً المحافظة على الترتيبات الكنسية القائمة وألا ينزل بأعدائه السابقين أى انتقام . كما أن من عقبه من

---

(١) بيورى بالكتاب السابق ذكره ، ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق بالموضع نفسه .

(٣) سيموكتّا ، ٣٢٤ .

(٤) قسطنطين بورفيروجنتوس بالمرجع المذكور ، حـ ١ ص ١٩١ فما بعدها ؛ كدرينوس حـ ٢ ص ٢٩٦ .

الأباطرة الذين اشتهروا بالهرطقة كانوا يجبرون على إعلان تصريحات مماثلة[1] . وفى عهد أسرة باليولوجوس كانت هناك يمين مرعية للتتويج كان الأباطرة يقسمونها . وكانوا يعدون بمراعاة ما تقرره المجالس الكنسية العامة والرعاية لمختلف سنن الكنيسة وشعائرها المعمول بها وأن يحكموا بالعدل والرفق ويلعنوا كل ما تلعنه الكنيسة[2] . وقد صار من المحال بعد القرن الخامس أن يتولى العرش الإمبراطورى شخص اشتهر بالزندقة .

وظل التتويج منذ القرن السابع يتم فى كنيسة آياصوفيا ويشهده رجال السناتو وممثلو الجيش والشعب الذين كانوا يهتفون للإمبراطور الجديد داخل الكنيسة وخارجها . وكان قبل ذلك يتم فى « الهبدومون » (Hebdomon) خارج المدينة . وكانت مراسم الاحتفال التى دبج لها قسطنطين السابع[3] وصفاً ضافياً ، تتبع هى نفسها فى عهد آل باليولوجوس مع تعديلات طفيفة ، وهم الذين أدخلوا عادة غريبة هى المسح بالزيت[4] . وربما أضيفت فى بعض الأحيان مراسم إضافية لتقوية حقوق القُصّر . ففى يوم الجمعة الحزينة وهو اليوم السابق لتتويجه ألزم ولاة الألوية (المقاطعات الحربية themes) والوزراء وجميع أعضاء مجلس الشيوخ ومن فى مرتبتهم وجميع الجند الموجودين بالعاصمة وممثلو جميع طبقات المواطنين وبخاصة نقابات العمال ، ألزموا بأداء يمين ولاء مغلّظة للإمبراطور الغلام ، قسطنطين السادس[5] .

---

(١) كتاب بيورى المذكور ، ١١٤ .

(٢) كوديتوس : De Officiis, 87 .

(٣) قسطنطين بورفيروجنتوس بالموضع نفسه .

(٤) عن مسألة المسح بالزيت انظر « التتويج البيزنطى » بقلم برايتان فى مجلة الدراسات الدينية Journal of Theological Studies مج ٢ ص ٣٨٣ – ٣٨٥ وانظر أيضاً كتاب سيكل المذكور آنفاً ٥٤٧ – ٥٤٨ .

(٥) ثيوفانيز ، ٤٤٩ .

وكان القوم يحسون أن التتويج يمنح الإمبراطور مكانته كشبه إله ، وكنائب لله جلت قدرته . وكان الإمبراطور يشعر شعوراً قوياً أنه رأس الكنيسة المسيحية ، كتب لاوون الإيسورى للبابا يقول : « إنى إمبراطور وقسيس » ، وادعى أنه الوكيل « الذى أمره الله أن يُطعم قطيعه كما أطعم بطرس أمير الرسل قطيعه » ؛ ووافق البابا على ذلك ما دام الإمبراطور مقيما على مذهب السلف القويم[١] وجرت العادة فى أيام باسيليوس الأول بحلق شعر ابن الإمبراطور ووريثه بعد مولده بمدة وجيزة كأنما يراد رسمه قسيساً[٢] . وحصل يوستنيانوس الأول على حق الإمبراطور فى إصدار التصريحات المذهبية الدينية ؛ وكان من وظيفته بالفعل أن يرأس مجالس الكنيسة أو ينيب بدلا منه[٣] رئيساً لها . وكان البطريق فى واقع الأمر هو مرشحه الذى يدين له بالتعيين . وحتى البابوات أنفسهم كانوا ما بقى للإمبراطور نائب إمبراطورى براڤنا ، لا ينتخبون إلا بعد الحصول على إذن ذلك النائب[٤] ، وقد أفضى مركز الإمبراطور كرئيس دينى أن يُعتَد أنه تلقى الإمبراطورية من الله ، حيث يقول باسيليوس الأول لوريثه لاوون السادس[٥] « إنك حصلت على التاج من الله عن يدى » . وليس معنى ذلك أن القانون الخاص بسلطان الحكم (Lex De Imperio) قد أغفل فى زوايا النسيان . فإن الناس كانوا لا يزالون هم الناخبين ويستطيعون سحب الإمبراطورية منه ؛ بيد أن الشعب كان هو الدولة المسيحية . وكان الإمبراطور

---

(١) مانسى : (Concilia) مج ١٢ ، ٩٧٦ ؛ وانظر (Ecloga) ترجمة فريشفيلد ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) انظر قسطنطين بورفيروچنتوس بالمصدر السابق ص ٦٢٠ — ٦٢٢ .

(٣) انظر Die Verhaltnisse von. Staat u. Kirche in Byzanz, H.Z. تأليف جلزر ، سلسلة جديدة مج ٥٠ ص ١٩٣ وما بعدها .

(٤) انظر Liber Pontificalis ج ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٥) Basil 1, Paraenesis ad Leonem, M.P.G. مج ١٠٧ ع ٣٢ .

يستمد قوته كممثل للدولة المسيحية كما كان بحكم تتويجه يعين قسيساً أعظم لها . فكان من أجل ذلك يستطيع أن يدعى وله كل مبررات دعواه أن له اتصالا مباشراً بالله مصدر السلطات جميعاً . وكانت الفكرة متسقة مع النزعات الدينية الصوفية[1] للعصر ، ولم يفكر أحد فى الإمبراطورية فى تخليها . وكان من الضرورى وللإمبراطور هذا المركز ، أن يحافظ على مهابته ومكانته عالية . فلا بد لكل إنسان من الانبطاح على الأرض فى حضرته حتى السفراء الأجانب أنفسهم . وربما عُزل الإمبراطور فى نهاية الأمر ولكن جريمة التآمر على اغتيال عظمته (Lèse- majesté) تظل حتى تحين تلك اللحظة جريمة خطيرة جداً . فإن الخادمة التى بصقت بالصدفة السيئة من نافذة عليا على نعش الإمبراطورة يودوكسيا وهو يمر من القصر إلى مقره الأخير أعدمت فوق نفس القبر[2] (٤١٢) ، وكانت الرغبة فى زيادة هذه المهابة قوة هى السبب فى تطور تلك المراسم الرسمية التى لا عداد لها والتى وصفها قسطنطين السابع ، والتى من أجلها أيضاً أهاب أباطرة أذكياء من أمثال ثيوفيلوس بالفن والعلم أن يعاوناه ، ومن ثم أصبح يتربع على عرش يعلو صُعداً إلى السقف وتحيط به الطيور المغردة والأسود ذات الزئير وهى مصنوعة من خالص الذهب[3] .

وغنى عن البيان أن هذه المراسم الكثيرة وجميع الأعمال التى لا بد للإمبراطور من الإشراف عليها بوصفه رئيساً للكنيسة والدولة ، كانت

---

(١) النزعات الدينية الصوفية أى المستيقية (Mysticism) : وهى المذهب القائل بأن العلم بالحقيقة القصوى وبالإله لا يحصل عليه إلا بالفطانة (Intuition) المباشرة وبخاصة بطريق تركيز العقل على الجوهر الإلهى والاستغراق التام فيه ، وهو الجوهر الذى يفضى بطريق الوجد (extacy) إلى الرؤيا الكاشفة لكل حجاب . (المترجم)

(٢) انظر نيقيفوروس فى مؤلفه (Breviarum) ص ٧ .

(٣) انظر الوصف الوارد فى متن هذا الكتاب بالباب الثالث من الفصل السادس .

تشغله تماماً وتجعل من الضروري له أن يكون نشيطاً ومراعياً لضميره . ولم يكن الخصيان لاثقين جثمانياً لتولى المنصب الإمبراطورى ؛ كما أن أى إنسان أصيب بالعمى كان يعد غير قادر على تولى الحكم ، وإن عاد إسحق أنجيلوس إلى الحكم كفيفاً . وربما أصبح غلام إمبراطوراً أوحد ، ولكن كان يعين عليه فى تلك الحالة وصى . وربما لاح للقوم أن العبء فوق احتمال النساء ، خاصة وأن المرأة لم يكن يمكن من الناحية النظرية أن تكون قسيساً ولا من الناحية العملية أن تقود جيشاً . ومع ذلك فلم يكن ثمة عائق من الناحية الدستورية يحول دون تولى المرأة السلطة الأوتوقراطيـــة . وكان مركز الإمبراطورة الملقبة بأوغسطة[1] غير مألوف بالنسبة للأفكار العصرية . ذلك أن وجود رفيقة أنثى من الإناث مع الإمبراطور لم يكن منه بد لأغراض المراسم ومستلزماتها[2] ، ولكن لم يكن من الضرورى أن تكون الإمبراطورة زوجة للإمبراطور . وكان لا بد لها أن تتوج تتويجاً خاصاً وتتلقى هتاف التصديق والموافقة : وإن كان الاحتفال يتم بالقصر وليس بالكنيسة ما لم تتوج مع الإمبراطور . وكانت زوجة الإمبراطور ترفع على الدوام دون أى استثناء تقريباً إلى منصب الإمبراطورة عند زواجها أو عند ارتقائه العرش ؛ على أن عدد الإمبراطورات كان غير محدد . وربما ضم بعض قريبات الإمبراطور . فإن پولكريا شقيقة ثيودوسيوس الثانى توجت فى عهد مبكر من حكم شقيقها . وتوّج ثيوفيلوس ولاوون السادس بناتهما[3] ، كما أن ألكسيوس الأول توج أمه[4] . وكان التتويج يخول للإمبراطورة نصيباً فى الولاية والسيادة . بل إنها كانت تقوم فعلا بنصيب فى الحكم .

---

(١) كان لقب أوغسطا هو اللقب الرسمى دائما ، وإن أصبح لقب الملكة (باسيلسّا) هو اللقب العامى المألوف منذ القرن السابع .

(٢) انظر ثيوفانيز كونتنياتوس ص ٣٦٤ .

(٣) انظر ثيوفانيز كونتنياتوس ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٤) لم نحصل فى أى مرجع عن وصف واقعى للتتويج . بيد أنها كانت تحمل لقب أوغسطه

وكانت ثيودورا تحضر مجالس يوستنيانوس ، وإن كانت تعتذر عن التحدث فى تلك المجالس[1] . فإن لم يكن هناك إمبراطور أُودعت السلطة الإمبراطورية (Imperium) بأجمعها فى يدها ، وكانت تستطيع أن تعين وريث العرش . وهكذا عيَّنت بلشيرية (پولكريا) مرقيانوس كما عيَّنت أريادنة أنسطاسيوس ؛ ومن هنا كان أزواج « زُوية » المتعاقبون يستمدون حقوقهم ؛ وكانت سيادة الإمبراطورة تتجلى أيضا فى حالة الوصاية على العرش . فإن كان الإمبراطور غير قادر على تولى الحكم بسبب حداثة سنه أو مرضه ولم يكن هناك أباطرة آخرون ، كانت للإمبراطورة الولاية التامة كإجراء عادى . فإن بلشيرية (پولكريا) حكمت بالنيابة عن أخيها الصغير ، كما أن صوفيا حكمت عن زوجها المخبول ، يوستينوس (چستين) الثانى[2] حتى عين على البلاد قيصر : وعلى مدى تاريخ الإمبراطورية كله ، كانت الإمبراطورة الأم تُعيَّن وصية إن كانت على قيد الحياة فى مدة وضع ابنها الإمبراطور الطفل تحت الوصاية بكاملها أو فى جزء منها . وماذا يكون الحال إن لم يكن هناك إمبراطور ولم تشأ الإمبراطورة أن تختار واحداً ؟ إن الموقف كان يصبح عند ذاك غير مضمون . فإن إيرينة صممت على تولى الحكم بمفردها بعد أن خلعت ولدها وسملت عينيه . وكان تصرفها هذا بدعة أو تكاد ، رئى من الخير أن يطلقوا عليها فى المستندات الرسمية اسم إيرينة الإمبراطور[3] ؛ على أن تصرفها لم يلق أية معارضة دستورية : ولكنها سقطت فى النهاية بسبب سوء حالتها الصحية لا بسبب أنوثتها . وقد رامت ابنة عمها ، المسماة ثيوفانو وهى زوجة الإمبراطور ستوراقيوس أن تخلف

---

(١) انظر De Bello Persico تأليف بروكوبيوس (طبعة لويب) حـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) انظر بيورى "Later Roman Empire" من أركاديوس إلى إيرينة حـ ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) بالتذكير لا بالتأنيث ، انظر (Irene Pistos Basileus) تأليف Zachariae von Lingenthal فى Jus Graeco-Romanum ف ٣ ص ٥٥ .

زوجها على العرش ولكنها أخفقت . على أننا نجد فى ١٠٤٢ إمبراطورتين هما زُوية وثيودورا وهما تتوليان الحكم والسيادة مشتركتين ، وهذه هى الحالة الفريدة التى تقاسم فيها اثنان الحكم الأوتوقراطى المطلق . ولكن عندما عينت زوية للدولة إمبراطوراً ، تخلت السيدتان له عن السيادة بصورة آلية . على أن ثيودورا ما لبثت أن عادت بعد وفاته إلى كامل سلطاتها واستطاعت أن تعين خلفها وهى على فراش الموت . ولم يحدث ألبتة أن عهود الحكم النسائى هذه اعتبرت غير شرعية يوماً ما .

ولكن إذا كانت الإمبراطورة الحاكمة أو الإمبراطورة الوصية غير كفء لمنصبها فإن الثورة كفيلة بإزاحتها من الطريق . فقد سقطت إيرينة عندما عجزت فى النهاية عن الهيمنة على وزرائها ، كما سقطت الوصية زوية كاربوبسينا عندما تمخضت تدبيراتها السياسية عن كارثة . وكان القوم يبتكرون حلا بارعاً فى حالة كالسالفة الذكر تعم فيها البلاد أزمة مستحكمة فى أثناء وجود إمبراطور تحت الوصاية . وكان بعض الأباطرة يعينون وهم على فراش الموت مجالس وصاية على أولادهم . فإن ثيوفيلوس عين اثنين من الموظفين للعمل مع ثيودورا ، كما عين الإسكندر سبعة أوصياء برئاسة البطريق[1] . غير أن مثل تلك المجالس لم تأت بثمرة مرضية . ومنذ القرن العاشر أصبحت العادة الغالبة أثناء مدة الوصاية أن يحتل العرش قائد أو أمير بحر قوى كإمبراطور وصى مستمتعاً بكامل السلطات الأوتوقراطية المطلقة والأسبقية ، وإن احتفظ بحقوق الإمبراطور الشرعى . وكان الإمبراطور الوصى يضفى على نفسه صفة الشرعية إلى حـد ما بمصاهرة الأسرة الإمبراطورية . وقد زوج رومانوس ليكابينوس وهو أول هؤلاء الأباطرة الأوصـياء ابنته من الإمبراطور ، وهو مثال احتذاه يوحنا كانتاكيزينوس كما أن كلا من نيقيفوروس فوقاس ورومانوس ديوجينيس تزوج من أرملة سلفه ، التى

---

(١) ثيوفانيز كونتنياتوس ص ٣٨٠ .

استطاع كل منهما بمعاونتها الحصول على العرش . وأوشك يوحنا تزيمسكيس أن يفعل ذلك أيضاً ، لولا أن احتجت الكنيسة لأن السيدة كانت ثيوفانو شريكته فى مقتل نيقيفوروس فوقاس – لذا تزوج عمة الإمبراطور بدلا منها . وكان القوم يقبلون مثل هذه الاغتصابات وإن عدوها مؤقتة . وعندما حاول بيت ليكابينى وبيت كانتا كيوزينى أن يؤسسا أسراً مالكة ، قضى عدم استحسان جمهور الشعب على المشروعين ؛ حيث شعروا بأن الإمبراطور الشرعى وهو بورفيروجنتوس أى المولود فى غرفة الأرجوان التى تم للإمبراطورة فيها وضعه ، – له حقوق لا يجوز تجاهلها . ولم تكن السلطات الدستورية لأصحاب حق الانتخاب للمنصب الإمبراطورى ، وهم : – السناتو والجيش والشعب ، لتتوارى تماماً عن الأنظار عند انتخاب الإمبراطور . فكان للجيش بالضرورة نفوذ ضخم وفعال . على أن كلا من السناتو والشعب ورث عن الماضى حقوقاً نظرية يغشاها الإبهام ، كان لها فى أثناء القرون الأولى للإمبراطورية صدى معلوم ومعنى محدد .

وكان أهل القسطنطينية مقسمين منذ عهد لا نعرفه إلى أقسام أو أحياء (ديمات)[1] (demes) أربعة ، تسمى بالأزرق والأخضر والأبيض والأحمر ؛ وما لبث الإثنان الأخيران أن اندمجا فى الاثنين الأولين . وخير ما توصف به هذه الديمات أن يقال إنها هيئات بلدية تحكم نفسها حكماً ذاتياً ، وكانت فوق هذا مقسمة إلى هيئتين مدنية وعسكرية ، وكانت الهيئة الأولى تسمى هيئة الخدمة المدنية (Politicals) ويحكمها ديمارخوس أى محافظ حى

---

(١) عن الأقسام (الديمات) انظر بيورى فى الملحق ١٠ لجيبون "Decline & Fall" مج ٤ ص ٥٣١ وما بعده وانظر لنفس المؤلف فى كتابه "Later Roman Empire" – ١ ص ٨٤ وما بعدها ، و – ٢ ص ٢ ومابعدها ؛ وانظر بوجه خاص كتاب "Circus Factions & Demes in Constantinople" أى أحزاب السرك والأحياء بالقسطنطينية – تأليف أصبنسكى (بالروسية) مج ١ ص ١ وما بعدها .

(Demarch) . وكانت الثانية تسمى « بالپيراتين » أى الحرس المرابط (Peratics) ويحكمها ديموقراط (Democrat) . ولعل « رجال الهيئة المدنية » كانوا يشرفون على الأعباء المدنية كالعناية بالحدائق العـامة أو اتخاذ الاحتياطات ضد الحرائق ، ومن المحقق أن الپيراتين كان ينتظر منهم أن يقوموا بأعمال حرس المدينة المرابط . وقد وقع سرك (Circus) القسطنطينية فى يوم من الأيام فى يد الأقسام (الديمات) ، كما أن جميع برامج السرك كانت تتحول إلى برامج منافسات بين أنصار الزرق والخضر الذين استحوذ كل منهما على هيئات ضخمة من لاعبى السرك ، فى حين كان أهل المدينة المولعة بالسرك ينحازون جميعاً إلى هذا الجانب أو ذاك . وأصبحت الأقسام (Demes) بوصفها الهيئات التى عن طريقها تعبر المدينة عن نفسها ، — قوية قوة مفرطة قرب نهاية القرن الخامس ، كما أنها كثيراً ما كانت فى أثناء القرن السادس تهدد الدولة . ومن حسن الحظ أن الخضر والزرق كانا يتبادلان الغيرة والحسد ويتخذان آراء متباينة ومتنافسة . مثال ذلك أن الخضر كانوا يناصرون مذهب وحدة طبيعة المسـيح معارضة منهم لعقيدة الزرق الأرثوذكسية . من أجل ذلك صار من أيسر الأمور على الإمبراطور الذى كان تواقاً على الدوام للقضاء على الهيئات التى لا سلطان له عليها ، أن يثير إحداهما على الأخرى . ولكنهما كانتا تتحدان أحياناً . فإنهما بالتضامن مع الجيش أصرتا على تولية چستين الأول على العرش . وفى ٥٣٢ وحدت بينهما الضرائب الفادحة والمكوس البلدية الثقيلة التى فرضها يوستنيانوس فقامتا باضطرابات النيقا (Nika Riots) . وحاول يوستينوس الثانى وقد وقع فى أيدى الأرستقراطية أن يخضعهما ، بيد أن طيبريوس رأى أن الأحكم أن يشجعهما ويغريهما بالأرستقراطية . وكان السبب الأكبر فى سقوط موريقيوس أنه كدرهم حين حاول أن يفرض أعباء عسكرية أخرى على الپيراتين . ويتجلى مركزهم الدستورى من الطريقة التى يضطر يوستنيانوس

إلى التفاوض معهم بها رسمياً والإصغاء إلى آرائهم فى حلبة السباق . وقد اضمحلت قوة الأقسام فى أثناء القرن السابع ، حتى إذا ارتقى الإيسوريون العرش أصبحت جماعات الخدمة المدنية هيئات اسمية صرفة تستخدم فى تمثيل الشعب فى الحفلات الرسمية . وكان محافظا الزرق والخضر يظهران كموظفين بلا عمل فى سلك موظفى البلاط . ومن الناحية الأخرى صار البيراتيون نواة حرس القصر وحامية المدينة الذين كان يتألف منهم الجيش الإمبراطورى المقابل لجيش المقاطعات . وباضمحلال الأقسام (Demes) فقد أهل القسطنطينية وسيلتهم الدستورية الوحيدة للتعبير عن أنفسهم . ولم تعد لهم منذ ذلك الحين من طريق للإعراب عن رغباتهم إلا الفتن والقلاقل .

على أن السناتو من الناحية الأخرى لم يختف تمام الاختفاء من القسطنطينية ، وإن بلغ أوج ازدهاره بها فى أثناء القرنين السادس والسابع[1] . ولم يكن سناتو القسطنطينية يوماً ما مماثلا لسناتو روما القديم ، وإن حدث فى ٣٥٩ أنه مُنح الامتيازات التى كان يستمتع بها السناتو الرومانى — وبذا أصبح صاحب حق رسمى فى الانتخاب — إلا أنه ظل مخالفاً فى تكوينه وعارياً من تقاليد السناتو الآخر . وكان اسمه نفسه أقل توقيرا فى أنفس الناس ؛ فلم تكن ترجمة اسمه باليونانية جيروسيا (Gerousia) أى مجلس المسنين بل الجمعية العامة (Sugkletos) . وكان سناتو القسطنطينية يتكون من جميع أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين الذين هم فوق مستوى معين ثم من ذرياتهم . فكأنه كان بذلك هيئة غير محددة الشكل تجمع بين ذوى النفوذ وأهل الثراء وأرباب المراكز ذات المسئولية فى الإمبراطورية .

وكانت السلطات الفعلية للسناتو غير محددة . وكان أعضاء طبقة رجال

---

(١) انظر "Later Roman Empire" تأليف بيورى ـ ١ ص ١٢ وما بعدها ؛ وانظر بكلر : « انّا كومنينا » ص ٢٧٤-٢٧٦ ؛ وانظر : Le Sénat et Le Peuple Byzantine, تأليف ديل Diehl فى مجلة (Byzantion) مج ١ ص ٢٠١ وما بعدها .

السناتو يستمتعون بحقوق ومزايا معينة ، ينص عليها القانون الروماني القديم فضلا عن أن يوستنيانوس أكدها في غالب الأمر . ورغبة في المحافظة على منزلتهم وما لهم من احترام حُرم عليهم الزواج من الممثلات إلى أن خطب يوستنيانوس الممثلة الكوميدية ثيودورا ، فحمل عمه يوستينوس الأول على إبطال تلك السنة . على أن الواقع أن سلطان السناتو كان ينحصر في أنه هيئة شبه دستورية تعبر عن آراء أغنى عناصر الدولة وأقواها . وهو بهذا الوضع كان يبدو عندما يكون الإمبراطور ضعيفاً أشد سلطات الإمبراطورية خطورة . وقد برزت أهميته بوجه خاص في أخريات القرن السادس والقرن السابع . فكان يوستينوس الثاني ألعوبة في يديه . وكان هرقل الذي فاز بالعرش بوصفه مرشحه يعامله باحترام كبير . فإنه عندما خرج إلى حرب فارس خلف من ورائه ابنه البالغ عشر سنوات نائباً للملك تحت وصاية البطريق وأحد أعضاء السناتو الذي كان أيضاً والحق يقال بمثابة كبير دواوين الموظفين (Magister officiorum)[1] : على حين حدث في ٦١٤ أن بعثة إمبراطورية إلى فارس أرسلت باسم السناتو بفكرة أن ذلك يكون له نصيب من الوزن والقدر أكثر مما لو كانت باسم الإمبراطور[2] . وبعد ذلك ببضع سنين شكر قسطنس السناتو رسمياً على مساعدته له ضد الإمبراطورة مارتينه وسأله التعاون معه مستقبلا[3] . بيد أن المجلس اضمحل سلطانه في نهاية القرن السابع . وكان استبداد يوستنيانوس الثاني وطغيانه موجهين ضده إلى حد كبير . ومع أن انتصار لاوون الإيسورى كان يمثل انتصار الأرستقراطية ، فإن لاوون نفسه كإمبراطور لم يكن ليطيق أى تدخل من السناتو ــ لذا أخذت سلطاته تبطل حتى ألغاها في النهاية لاوون السادس ، الذى لم يكن

---

(١) ثيوفانيز ، ٣٠٣ .

(٢) انظر Chronicon Paschale ، ٧٠٦ وما بعدها .

(٣) ثيوفانيز ، ٣٤٢ .

حين فعل ذلك إلا مجيزاً بالقانون الحالة القائمة فعلا[1] . على أنه هو نفسه ظل قائماً كهيئة يستطيع الإمبراطور استدعاءها لتكون على أفعاله شاهداً له مكانته . وهكذا حدث أن ثيودورا عندما تنازلت عن الوصاية فى ٨٥٦ استدعت السناتو ليشهد مدى امتلاء خزانة الدولة ساعة تركتها ، كما أن باسيليوس الأول عندما تولى الحكم بعد ذلك بإحدى عشرة سنة ، فتح الخزانة مرة ثانية بحضرة السناتو ليشهده على خلوها[2] . وظل السناتو حتى نهاية الإمبراطورية نفسها يشهد كل حادثة هامة تقريباً تحدث بالقسطنطينية كمقابلة رومانوس الأول مع سمعان (سيميون) البلغارى[3]. وكان ألكسيوس الأول يستشيره أحياناً فى بعض شئون السياسة[4] . وكان تصديقه الرسمى يُطلب فى الاحتفال بالتتويج : على حين أن عبارة « الانضمام إلى صفوف أعضاء السناتو » ظلت العبارة العادية التى تصف بلوغ أحد أبناء النبلاء سن الرشد[5]. غير أن أهميته السياسية لم ترتفع مرة ثانية أبداً . وكانت الأرستقراطية الجديدة فى القرن الحادى عشر أرستقراطية عسكرية أكثر منها أى شىء آخر كما كانت تفضل العمل عن طريق الجيش .

على أنه كان هناك مع ذلك قوة تكبح السلطان الدستورى للإمبراطور ، قوة أقوى كثيراً وأطول عمراً من كل من السناتو أو الديمات ، وكانت تلك القوة هى القانون[6] . وكان الإمبراطور مصدر كل قانون ، ومع ذلك ،

---

(١) انظر لاوون السادس – "Novella" – رقم ٤٧ .

(٢) انظر ثيوفانيز كونتيهنانوس ، ١٧١ ، ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ٤٠٧ .

(٤) انظر أنّا كومنينا – "Alexiad" ترجمة داوز ٣٦٣ .

(٥) المرجع نفسه السالف الذكر ، ٨٢ .

(٦) انظر "Gesch. des. Griech-Rom. Rechts" تأليف Zachariae von Lingenthal ؛ وانظر "Diritto Bizantino" تأليف سيكليانو فيلانيوفا (Siciliano

فن عجيب المفارقات أن القانون ظل شيئاً أعلى منه . ولما لم تكن أية سلطة بشرية بمستطيعة أن تستدعيه لتقديم الحساب على أعماله ، فإن أغابيتوس حرض يوستنيانوس أن يكون أكثر حذراً وحرصاً فى مراعاة القوانين[1] . وأعلن لاوون الإيسورى أن من واجب الإمبراطور المحافظة على الأشياء التى أوضحتها الكتب المنزلة وقرارات المجامع الكنسية والقانون الرومانى[2] ؛ كما أن باسيليوس الأول اعترف بولاية القانون بعبارات أقوى من ذلك أو تكاد[3] .

وكان أمراً لا مناص منه ، والقانون يحتل مثل هذا المركز الجليل الشأن ، أن يقنن بغاية العناية والوضوح . وقد بدأت بعهد دقلديانوس حقبة من التقنين . وحوالى عام ٣٠٠ قام على التعاقب مُشرّعان هما جريجوريوس (جريجورى) وهرموچنيانوس بتجميع تشريعات القرن السابق لهما . وبعد ذلك بقرن واحد شرع ثيودوسيوس الثانى فى عمل تقنين عام للقانون الرومانى برمته . ولكنه لم يتجاوز ألبتة فعلا مرتبة إصدار سلسلة من الدساتير الإمبراطورية لم تغطّ مع ذلك إلا شطراً صغيراً نسبياً من الموضوع . وأخيراً أزعج يوستنيانوس ما يوجد بكثير من القوانين القائمة من تكرارات ومتناقضات وغموض وما لحق بعضها من هجر وإهمال ، فصمم على إعادة تنظيم المجموعة بكاملها . فأصدر أمره يساعده فى ذلك باقتدار تام الكويستور تريبونيان القانونى ، بتعيين عشرة مندوبين ليستخلصوا بأسرع ما فى مستطاعهم قانوناً يضم التشريع القائم . وقد صدر ذلك القانون فى ٥٢٩ . ثم عُين بعد ذلك

---

(١) انظر مقال أغابيتوس عن البابا فى الرسائل (Epistolae) ، M. P. G. مج ٦٦ ص ٣٨ — ٤٠ .

(٢) الإكلوغة (Ecloga) عند ليونكلافيوس فى Juris Graeco-Romani ١ — ص ٨٣ — ٨٤ .

(٣) انظر ديباجة الأحكام « Basilica » (أعنى الأوامر الإمبراطورية) .

ستة عشر مندوباً ليجمعوا من الألفى (٢٠٠٠) مؤلَّف التى ألفها عظماء مشرعى الماضى ، كل فقرة لا تزال تتمشى مع روح الحاضر ويمكن أن تعود عليه بنفع ، وبهـذا أيضاً تحفظ لكل العصور التالية آراء أعظم الأثبات[1] فى الأسس القانونية التى أقيمت عليها الدولة الرومانية . وصدر هذا المصنف الهائل المسمى بالموجز (Digest) فى ٥٣٣ ، وظل المرجع الأعلى فى جميع المسائل القانونية . وفى نفس الحين نُشر للدارسين فى تلك السنة نفسها مختصر للتداول يحتوى على آخر مظاهر التشريع الإمبراطورى ؛ وعُملت فى ٥٣٤ نسخة جديدة ومنقحة من مجموعة يوستنيانوس القانونية . ورغم ذلك كله لم يفتر نشاطه التشريعى . فإنه نشر منذ ٥٣٤ إلى نهاية حكمه سلسلة مطولة من القوانين التكميلية أسماها : القوانين المستجدة (Novellae) . بيد أن الواقع أن القانون الرومانى أصبح عند نهاية حكمه منقحاً تنقيحاً تاماً ومتمشياً مع أحدث التطورات .

إن القانون الذى نشره يوستنيانوس لم يبرح هو القانون الرومانى . فإنه حتى تنقيحاته له كانت فى روحها رومانية وليست مسيحية . ولا أدل على ذلك من الاحتفاظ بكل من الطلاق والرق على الرغم من عداء الكنيسة لهما . ذلك أن يوستنيانوس كان يرى أن يتخذ : « الإنسانية وسداد البديهة والمنفعة العامة » رائداً له وهادياً ؛ هذا إلى أن « الإنسانية » وحدها كانت شيئاً عملياً فى جوهره . وقد ألغى يوستنيانوس حق التسليم فى الولد فى نظير الضرر (Noxae deditio) وهو الذى يبيح للوالدين أن يبيعوا أطفالهم تعويضاً عما ألحقوه بأى إنسان من ضرر ، وذلك لأنه : « بناءً على الرأى العادل للمجتمع العصرى لا بد أن تنبذ ظهرياً أى خشونة وقسوة من هذا النوع » ؛ ثم إن حقوق المرأة التى حسّنها يوستنيانوس بوجه خاص : كحق الزوجة

---

(١) ورد فى المنجد قوله : « الأثبات ثقات القوم والمفرد ثبت ويقال فلان ثبت من الأثبات » . (المترجم)

فى الحصول من زوجها على أملاك تعادل صداقها وحق الأرملة فى الوصاية على أطفالها ، وهى تحسينات أضيفت إلى النظام الرومانى القديم ، إنما وضعت تمشياً مع روح الإمبراطورة ثيودورا لا روح القديس بولس . ومما يشهد بالإعظام العجيب لقداسة القانون الرومانى عند البيزنطيين ، أنهم رغم تقواهم وتدينهم إلى درجة التعصب ، انقضى وقت طويل قبل أن يسمحوا بأن يتأثر تأثراً جدياً برغبات الكنيسة المسيحية .

وزاد يوستنيانوس من قوة عمله القانونى بإصلاح مدارس الحقوق . فإن كثيراً من المدارس كانت أُغلقت . وشعر القوم بأنه ما من سبيل لتحقق السلطات من مواصلة الاحتفاظ بالمستوى اللازم لدرجة القانون وشهادته إلا بتركيز تعليم القانون فى جامعات القسطنطينية وبيروت والإسكندرية . ولم تنقض بضع عشرات من السنين على ذلك حتى أفضت الفتوح العربية إلى قصر الدراسات القانونية فعلا على العاصمة وحدها .

وكان يوستنيانوس يهدف أن تكون إصلاحاته التشريعية من الكمال والاستيفاء بحيث لا يكون هناك أى مجال أو ضرورة لأى شروح أو تعقيبات . على أن تحريمه للشروح لم يُقيض له أن يُنفذ مع ذلك ، ولذا فالظاهر أن مؤلفات قانونية عديدة كُتبت فى القرن التالى . غير أن قانونه المدنى ظل مستعملا أو معمولا به حتى عهد لاوون الإيسورى . وكان لاوون الإيسورى رجلا تقيا ، أدت به تقواه فى فلك اللاهوت إلى التورط فى زندقة تحطيم الصور ؛ كما أنها أدت به فى فلك القانون إلى طبعه بأجمعه بالطابع الإنسانى . وحدث فى أثناء القرن السابع الكثير الفتن أن دراسة القانون توقفت ، وكان ثمة مجال لقانون جديد . ففى ٧٣٩ أصدر لاوون إكلوغته (Ecloga) التى قال إن الهدف منها هو إدخال المبادئ المسيحية إلى القانون .

وقد تجلى أثر النصرانية فى القانون الجنائى بتقييد عام لعقوبة الإعدام

وإحلال عقوبة تقطيع الأوصال محلها[1] . وتجلت آثارها فى القانون المدنى بما أصدرت من قوانين الزواج بوجه خاص . فلم يعد يُعترف إلا بالزيجات المسيحية وحدها ؛ وأُنقصت أسباب الطلاق إلى أربعة [2] ، وإن لم يُبلغ نهائيا كما رغبت الكنيسة ، كما أن درجات تحريم زواج الأقارب رُفعت من أربع إلى ست : وحُرم أبناء عمومة الدرجة الثانية من التزاوج . وفضلا عن ذلك زادت الإكلوغة أحوال النساء تحسينا ؛ فصار للزوجة نصيب معادل لنصيب الزوج فى أملاكهما المشتركة وفى الوصاية على أطفالها ، فى حين زاد الأطفال تحرراً من السلطة الأبوية (Patria Potestas) وحصلت الكنيسة على حق الهيمنة على الوصاية على اليتامى . .

وفى نفس ذلك الوقت تقريبا ظهرت كتب ثلاثة مختصرة متداولة بصفة غير رسمية تتناول فروعا إضافية من القانون وهى : القانون العسكرى والقانون البحرى أو الرودسى وقانون الزراع ، وكلها توضح عادات الزمان المرعية ومستلزماته .

وجاءت الفترة العظيمة الثانية للنشاط التشريعى عقب اعتلاء باسيليوس المقدونى العرش . فإن باسيليوس رغبة منـــه فى نقض أى أمر أبرمه الإيسوريون المكروهون من الناس وفى إضعاف الكنيسة فى الحين نفسه ، أعد عدته للعودة إلى قانون يوستنيانوس . فأصدر فى أوائل عهده كتابا مختصرا هو القانون الميسر «Procheiros Nomos» ليحل محل الإكلوغة حتى يُعد مندوبوه قانونا جديدا وافيا ؛ ثم إذا هو بعد قليل يُتم تصنيف ومراجعة كتيب مختصر هو الإباناجوجة (Epanagoge) ، الذى لم يقدر له

(١) انظر بعدُ الفصل الثامن .

(٢) وهى زنا الزوجة وعنة الزوج جنسيا ومحاولة أحد الزوجين قتل الآخر والإصابة بالبرص ، انظر الإكلوغة ترجمة فرشفيلد ص ٧٨ — ٧٩ .

مع ذلك أن يتم ولا حتى أن يصدر . وكان أن تُرك عبء إصدار القانون المعدل بأكمله لابنه لاوون السادس فى الأوامر الإمبراطورية (Basilica) التى ظلت منذ ذلك الحين المرجع فى القانون الإمبراطورى وإن أكملها لاوون بكثير من القوانين المستجدة (Novellae) .

كان التشريع فى عهد البيت المقدونى عودة واعية إلى يوستنيانوس . على أن الواقع أن الشيء الكثير مما تم فى عهد أسرة الإيسوريين من عمل ظل قائما . وتجلى فى القانون الجنائى تطور آخر جديد فى روح الاعتدال بدرجة نسبية . أما من حيث القانون المدنى فإن حقوق الزوج والوالد وإن بعثت من جديد بعثا جزئيا إلا أنها فى الواقع العملى احتفظت بما احتوته الإكلوغة من تنظيمات للأسرة . وكان باسيليوس فى هذا المقام أقل ميلا الى الأخذ برغبات الكنيسة ؛ فسحب الأيتام من تحت رعايتها ، كما يسر على الناس الشبح المرعب لديها وهو الطلاق وجعله أسهل منالا .

ولم يصدر بعد الأوامر الإمبراطورية (الباسيليكا) أى قانون جديد . ولم يعد يعاون المشرعين فى عملهم إلا سلسلة من الخلاصات الموجزة التى بدأت بإكلوغة القوانين (Ecloga Legum) الوافية المشوقة التى صدرت فى ٩٢٠ ، — وبلغت ذروتها بتلك المجموعة المشوشة السيئة التصنيف المسماة (Hexabiblion) أى الكتب الست التى جمعها هارمينوبولس وصدرت حوالى ١٣٤٥ . وكانت الجهود التشريعية للأباطرة تتألف من إجراءات متفرقة موجهة فى أغلبها ضد كبار أصحاب الأراضى أو صادرة لمصلحة الكنيسة أو ضدها . لقد أخذت الكنيسة فى النهاية تظهر أثرها المحسوس فى القانون . وقد استطاعت فى أثناء حكم الإمبراطور لاوون السادس نفسه أن تتغلب عليه فى مسألة تكرار الزواج [١] . وأباح لها قسطنطين السابع الحصول على ثلث أملاك من

---

(١) الرسالة البابوية الخاصة بالزواج (Tomus Unionis) وهى الصادرة فى ٩٢١ تحرم الزيجات الرابعة ، كما أنها فسّقت الزيجة الرابعة للإمبراطور لاوون . ثيوفانيز قونتينيواتوس ص ٣٩٨ .

مات كلالة (أى من غير عقب) بلا وصيـــة . وباءت بالفشل كل جهود نيقيفوروس الثانى فى سبيل تحديد ما توهب من هبات والتضييق عليها . وفى عهد آل كومنينى فازت محاكمها بحق النظر فى عدد أكبر من القضايا ، وزاد الميل إلى توسيع مجال التشريع الكنسى . وكانت عاقبة ذلك أن زاد الإقبال على دراسة القانون الكنسى . ومن قبل ذلك ظهرت مجموعة القوانين المعروفة باسم (Syntagma) ، وهى تضم القانون الكنسى المنسوب إلى فوطيوس ، غير أن العمل العظيم فى ذلك الموضوع كان تفاسير القوانين الكنسية (Exegesis Canonum) وهو الذى وضعه بلسامون ، بطريق أنطاكية فى عهد عمانوئيل الأول وقد صدر قرابة ١١٧٥ . وقد ظل هذا «المؤلَّف» طويلا — شأن الأوامر الإمبراطورية (الباسيليكا) — بل لا يزال إلى اليوم ، المرجع الثقة ببلاد الشرق ؛ وعقبته هو أيضا سلسلة من الملخصات الموجزة ، وليس منها ماله أهمية كبرى إلا مجموعة القوانين الكنسية (Syntagma Canonum) التى ألفها الراهب ماثيوبلاستارس ، وكتبت فى ١٣٣٥[1] .

وكانت المعرفة بالقانون تعد شيئاً ضرورياً لكل موظف من موظفى الإمبراطورية . غير أن وسائل تيسير الحصول على تلك المعرفة لم تكن متوافرة دائماً . ولسنا ندرى كم عاشت مدارس الحقوق التى أنشأها يوستنيانوس ولا مقدار ما كان يُعلم من قانون بالجامعة التى أنشأها بارداس فى القرن التاسع . وحدث فى أثناء القرن الحادى عشر ، يوم بلغت العلوم البيزنطية أوج قمتها ، أن الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس وجد المعارف القانونية من الضآلة ، بحيث لم يجد مناصاً من إنشاء مدرسة خاصة للحقوق فى ١٠٤٥ ، كانت تزود طلابها بدراسة وتعليم فائق ممتاز ؛ والراجح أنها بقيت حتى ١٢٠٤[2] . ولسنا نعلم شيئاً عن وسائل تيسير دراسة الحقوق فى عهد آل باليولوجوس .

---

(١) انظر «Juris Graeco - Romani» تأليف ليونكلافيوس ج ١ ص ١ فما بعدها .
(٢) انظر بعدُ الفصل التاسع .

وكان القانون الرومانى البيزنطى فى تغير مستمر ؛ ولا شك أن مواطنى الإمبراطورية كثيراً ما كانوا يجهلون كلا من الفكرات الجوهرية فيه وما كان يطرأ عليه من تعديلات ، أو يسيئون فهمهما . ولكنه (أى القانون) ظل مع ذلك جزءاً جوهرياً من الدستور الإمبراطورى ، وهو السلطة الوحيدة التى ينبغى للإمبراطور نفسه أن ينحنى لها احتراماً . بل الواقع أن المحاكم القانونية العادية كانت تحظى بالأسبقية على البلاط الإمبراطورى . فإن عضو السناتو الذى تغدى مع الإمبراطور يوستينوس الثانى بدلا من الحضور تلبية لداعى القضاء فى المحكمة ، حكم عليه بالجلد جزاء له على تمرده[1] . وحدث فى أثناء القرن الرابع عشر أن أندرونيكوس الشاب استدعى للمحاكمة كثائر أمام جده الإمبراطور الشيخ ، فاستدر عطف جميع النظارة بالتماسه أن يحاكم بمقتضى القانون[2] : ذلك الشىء الذى يخرج عن منالة يد الإمبراطور .

وكان الدستور الإمبراطورى الذى ينص على أن الإمبراطور ينتخبه السناتو والجيش وشعب القسطنطينية ليكون نائب الله على شريطة أن يحكم وفق القانون الرومانى ، — كان غير منطقى ولا واف ولا مستكمل من كثير من النواحى ، ولكن كان يمتاز بميزة عليا فائقة وجوهرية هى أنه كان مطبقاً . وأدل دليل عظيم جدير بالإعجاب على كفايته أنه بينما ظهر فى الغرب عدد لا يحصى من الكتاب للبحث فى المشكلات العويصة المتعلقة بالكنيسة والدولة وبالأباطرة والملوك والبابوات وما يقوم بينهم من علاقات ، فإن بيزنطة ظلت قروناً بأكملها دون أن تنتج عالماً واحداً بالنظريات السياسية . وكان الدستور يقوم بأجل الخدمات فيما يحتاج إليه الأمر من مناقشات فقهية . ولم يحدث إلا فى السنوات الأخيرة للإمبراطورية يوم كان واضحاً أنها

---

(١) كدرينوس ج ١ ص ٦٨٢ .
(٢) كانتاكيوزينوس ، ١ ، ٦٩ .

تلفظ آخر أنفاسها أن قام علماء النظريات السياسية بعرض الخطط لإصلاح ما فسد من شئون العالم ، حيث أخذ متحمسة سلانيك يضعون الخطة لإنشاء دولة مدينة تجمع فيما يلوح بين المثل العليا الثيوقراطية[1] السارية بجبل أثوس وبين ما جرى به العرف من الممارسات التجارية الخاصة بالجمهوريات الإيطالية ، وحيث حلم جيستوس بليثون بأن يقيم فى شبه جزيرة البيلوبونيز دولة تستهدى فى حياتها بالأفلاطونية وبأمجاد بلاد الإغريق القديمة .

---

(١) الثيوقراطية : ضرب من الحكومة يكون فيه الله الولى الأعلى للدولة ، وتكون قوانينها الشرائع والأوامر الإلهية لا قوانين البشر ، ويكون رجال الكهنوت فيها بالضرورة هم الموظفون القائمون على خدمة الولى الأعلى المحتجب عن الأعين . (المترجم)

الفصل الرابع

النظام الإدارى[1]

كانت واجبات الإمبراطور تستغرق وقته إلى أتم حد . فكان عليه فى كل يوم تقريباً احتفال لا بد له من حضوره ، فمن عيد للكنيسة إلى استقبال أحد السفراء أو تعيين أحد الوزراء أوزيارة رسمية لحلبة السباق (الهيبودروم) . وكان مضطراً فيما بين ذلك إلى التباحث مع وزرائه وموظفيه وتولى رياسة مجالسه . وجرت عادته أيضاً أن يتولى قيادة جيشه بنفسه ؛ مثال ذلك أن قسطنطين الخامس ونيقيفوروس الثانى كانا يخرجان فى كل صيف للحملة على أحد التخوم . وقل جداً والحق يقال من لم يحاول من الأباطرة أن يكون جندياً . ومن ثم لم يكن لدى الإمبراطور إلا النزر اليسير من الوقت لمسراته الخاصة . فإن هو فكر شأن ميخائيل الثالث أن يستمتع بحياته لم يلبث أن يفقد سلطانه على الإدارة ويسقط . وعمد لاوون السادس وابنه قسطنطين السابع وكلاهما غير جنـدى ، إلى كتابة عدة كتب وهما متربعان على العرش ؛ على أننا لا نستطيع أن نحدد نصيب وزرائهما وموظفيهما من العمل فى هذه الكتب. وكان من العسير على الإمبراطور مغادرة القسطنطينية . فإن كيكومينوس الذى كتب فى القرن الحادى عشر رسالة نُصح للإمبراطور حَسَّنَ له فيها السفر وتفقد ممتلكاته[2] . ولكن الواقع أنه لم يكن يملك الوقت ؛ هذا إلى أن القسطنطينية كان بيدها من التحكم فى الإمبراطورية بأكملها ما يجعل من الحماقة

---

(١) انظر بيورى : «Later Roman Empire» ج ٢ ص ٣٣٤ – ٣٤٨ ؛ والمؤلف نفسه : « النظام الإدارى الإمبراطورى فى القرن التاسع » (وثائق إضافية خاصة نشرتها الأكاديمية البريطانية ، ١) – وهو أهم ما كتب فى هذا الموضوع .

(٢) كيكومينوس ، نشره ڤاسيليڤسكى « Noutheteticos » ، ١٠١ .

مغادرتها إلا على رأس أحد الجيوش . ويلاحظ كيكومينوس فى موضع آخر من الرسالة أن الإمبراطور الذى بيده القسطنطينية ينتصر دائماً فى الحرب الأهلية[١] .

ومن الناحية العملية كان يساعد الإمبراطور فى قراراته الرئيسية مجلس صغير ، وهو ضرب من لجنة فرعية غير رسمية من السناتو . وقد نراها أحياناً تعمل ، كما حدث فى ذلك الاجتماع الشهير الذى عقد فى أثناء اضطرابات « النيقا » يوم أنقذت خطبة ألقتها ثيودورا العرش ليوستينيانوس[٢]، أو يوم حدث فى ٨١٢ أن ميخائيل رانجاب تباحث فى ذلك المجلس ما إذا كان ينبغى له أن يعلن الحرب على بلغاريا بسبب هجوم البلغار على مسمبريا . وفى ذلك المجلس يبدو أن جميع الخطباء كانوا من رجال الأكليروس : البطريرك ومطرانا نيقية وكزيكوس وكاهن الدير باستوديوم[٣] .

كان الإمبراطور على رأس كل شىء . وكان يليه جميع أعيان الإمبراطورية وموظفوها مرتبين ترتيباً دقيقاً حسب منزلتهم . وكان بالإمبراطورية ألقاب كما هو الشأن بإنجلترة اليوم تمنح حاملها أسبقية فى المجتمع ولا تُحمّله واجبات ، على أنها لم تكن مع ذلك ألقابا وراثية ؛ وذلك على حين أن معظم الوظائف الكبرى بالدولة كانت تحمل معها رتبة معينة . على أن بعض ألقاب التشريف هذه كان فى الإمكان شراؤها علناً ثم يصير لصاحبها الحق فى مرتب معين لأنها فى الواقع ضرب من الضمان الحكومى . وكانت الرتب والوظائف تتغير على كر القرون التى عاشتها الإمبراطورية ؛ وليس لدينا إلا ثلاثة بيانات كاملة عنها ، أحدها من القرن الخامس وعنوانه (Notitia Dignitatum) ، والثانى يرجع إلى بواكير القرن العاشر وهو (Cleterologium) من تأليف

---

(١) كيكومينوس ، نشره ڤاسيليفسكى « Strategicon » ، ٧٤ .

(٢) بروكوبيوس بالموضع السابق .

(٣) ثيوفانيز ٤٩٨ ؛ ثيوفانيز كونتنيواتوس ، ١٣ .

فيلوثيوس والثالث يرجع إلى القرن الرابع عشر وهو الخاص بالوظائف (De Officiis) وينسب خطأً إلى كودينوس . ومن هذه البيانات ومن مراجع أخرى أقل دقة وردت فى مصادر أخرى يمكن استنباط فكرة إجمالية عن النظام الإدارى الإمبراطورى ، وإن لم نستطع أن نتتبع بالتفصيل التغيرات والتطورات المتنوعة . وكانت النزعة الغالبة على الإمبراطورية كل عصورها هى جعل الوظائف الرسمية مناصب شرف مع اطراد صبغ الإدارة بالصباغ البيروقراطى : على حين أن الألقاب بعد أن زيد عددها على هذا النحو أخذت تهبط رويداً رويداً فى ميزان الأسبقية وتطلب الأمر إنشاء ألقاب جديدة من فوقها .

ولم يكن أعضاء الأسرة الإمبراطورية يتقلدون مناصب من هذا النوع ؛ حيث كان يحد من سلطانهم نفوذهم غير الرسمي — ذلك النفوذ الذى حذر كيكومينوس إمبراطوره[1] من أخطاره . وقلما كان ينتفع بهم فى الإدارة إلا كجند ؛ على أنهم كانوا يمنحون عادة ألقاباً عالية . وكان ولى العهد يُتوج إمبراطوراً على الدوام وبدون استثناء تقريباً فى حياة سلفه ، وإن كان دقلديانوس أراد له فى الأصل أن يحمل لقب قيصر . على أن ذلك اللقب ما لبث بالتدريج أن أصبح أقل تحديداً . وكان القيصر يُتوج ولكن لم يكن على تاجه صليب ، كما أن منزلته كانت دون منزلة البطريق[2] . ومن هنا كانت المرتبة مناسبة لأمير سامى المقام من الدم المالك أو وصى على العرش أو حتى وارث حالى[3] . انظر كيف حمل طيبريوس لقب قيصر[4] فى أثناء قوامته على يوستينوس الثانى الإمبراطور المجنـــون ، وكيف عين هرقل

(١) كيكومينوس « Noutheteticos » ٩٨ — ٩٩ .

(٢) انظر فيلوثيوس بمقال بيورى « النظام الإدارى الإمبراطورى » ، ١٤٥ .

(٣) الوارث الحالى : هو صاحب الحق فى الإرث ما لم يعقب المورث قبل وفاته أو يظهر وارث أحق بالإرث . (المترجم)

(٤) بيورى المصدر نفسه ، ٣٦ .

وقسطنطين الخامس ابنيهما الثانى والثالث فى منصب القيصر ، ولعلهما كانا ينظران فى ذلك إلى توليهما العرش بسلام إذا توفى أخوهما الأكبر الرقيق الجسم المعتل الصحة[1] ، وانظر كيف منح ثيوفيلوس نفس اللقب لزوج ابنته ألكسيوس موسيلى ؛ ذلك أنه لم يكن قد وُلد له حتى ذلك الحين ابن ، وكان ينوى نية واضحة أن يتخذ من ألكسيوس وريثاً له . غير أن مارية زوجة ألكسيوس توفيت فهجر الدنيا إلى أحد الأديرة ؛ ولذا فإن ثيوفيلوس توج ثكلا ابنته الثانية إمبراطورة ، على أمل أن يخلفه فى العرش من يتزوجها مستقبلا . ومع ذلك ولد ابنه ميخائيل فى آخره المطاف[2] . وخلع ميخائيل على عمه بارداس ، وهو الوصى الفعلى عليه — لقب القيصر ، واتخذ رومانوس ليكابينوس هذا اللقب كخطوة أولى إلى العرش ، ومنحه نيقيفوروس فوقاس لأبيه المُسِن"[3] . وهبط مركز اللقب درجة فى عهد ألكسيوس الأول ، حيث حل محله فى الأسبقية لقب جديد هو السباستوقراتور (أى الحاكم الجليل) (Sebastocrator) . وكان أعلى لقب يحمله أمير فى عهد أسرة باليولوجوس هو المستبد[4] Despot) ، وهو لقب كان له مع ذلك فى العادة دلالة وأهمية إقليمية . على حين أصبح لقب قيصر فى المرتبة الثالثة . أما الألقاب الأخرى التى احتفظ بها لأقارب الإمبراطور حتى أيام آل كومنين فهى لقب أنبل النبلاء (Nobilissimus) ولقب عميد القصر (Curopalates) ومع ذلك فإن اللقب الأخير منحه لاوون السادس كلقب وراثى لملك أيبيريا ، ثم أبيح حمله لأشخاص من غير الدم الملكى فى القرن الحادى عشر[5] .

---

(١) المصدر نفسه بنفس الموضع .

(٢) انظر بيورى « Eastern Roman Empire » ، ٤٦٥ — ٤٦٨ .

(٣) چنيسيوس ، ٩٧ ؛ ثيوفانيز كونتنيواتوس ، ٣٩٧ ؛ ليون دياكونوس ، ٤٩ .

(٤) كودينوس « De Officiis » ، ٦ .

(٥) انظر « النظام الإدارى الإمبراطورى » ، لبيورى ، ٣٣ — ٣٥ .

وابتدع ألكسيوس الأول ألقاباً جديدة ، تقع دون لقب قيصر وهى : سباستوس (أى الجليل) ولقب بروتوسباستوس (أى الجليل الأول) ولقب بانهيپرسباستوس[١] (أى الجليل الأعلى) : على حين أن أصهار الإمبراطور ذوى الطموح كانوا يستطيعون الحصـــول على لقب أبى الملك[٢] (Basileopator) . وكان يُسمح لحملة هذه الألقاب وزوجاتهم أن يتناولوا الطعام على المائدة الإمبراطورية ، وهو أيضاً شأن كبيرة الوصيفات (Zoste Patricia) التى كانت فى العادة عضواً من الأسرة الملكية فيما يلوح[٣]. والظاهر أن كنية « بورفيروجنيتوس » التى كانت تمنح لأطفال الإمبراطورة التى كانت تضع مولودها على الدوام فى المخدع الأرجوانى بالقصر ، لم تكن تحمل معها أية مرتبة رسمية ، وإن كانت منزلتها هائلة .

وكان أعلى لقب[٤] مباح للجميع إبان قرون عديدة هو لقب بطريقى (Patrician) ، وهو رتبة أنشأها قسطنطين الأكبر وجعلها ذات نطاق محدود جداً . ولم تلبث أعداد البطريقيين أن تزايدت شيئاً فشيئاً ؛ وأعطى عدد معين منهم الأسبقية بوصف كونهم بطارقة أنثيباتيين (Anthypati Patricians) ، ثم ظهر عند القرن العاشر لقب أعلى هو الماجستر (Magister) . على أن أولئك السادة (magistri) تزايدوا كثيراً ، واستحدث نيقيفوروس الثانى من فوقهم لقب[٥] برويدروس (Proedrus) وفى القرن العاشر كان هناك من دون

---

(١) أنّا كومنينا ، ٧٨ – ٧٩ .

(٢) ثيوفانيز كونتنيواتوس ٣٥٧ – ٣٩٤ .

(٣) وكانت فى عهد ثيوفيلوس هى أم الأمبراطورة ؛ نفس المؤلف ص ٩٠ .

(٤) عن الألقاب ، انظر بيورى ، الكتاب السالف الذكر ٢٠ – ٣٦ ؛ ١٢١ – ١٢٤ .

(٥) انظر ديل (Diehl) فى مقاله بعنوان "Le Titre de Proèdre" فى مجموعة البحوث المقدمة تكريما لشلومبرجر (Melanges Schlumberger) جزء أول ١٠٥ وما بعدها .

لقب البطريقي أحد عشر لقباً آخر . على أن معظم هذه الألقاب اندثرت قبل عصر آل باليولوجوس ، حيث كانت الألقاب المستعملة آنذاك أسماء قديمة للوظائف . ويحدثنا التاريخ أنها كلها تقريباً كانت تصحبها أعباء وأعمال ولكنها أصبحت آنذاك ألقاباً بحتة مجردة من تلك الأعمال[١] . وكان للخصيان ألقاب خاصة يحتفظ لهم بها دون غيرهم . فإذا تساوى اثنان فى اللقب كانت للخصى الأسبقية . وهكذا كان الخصى البطريقى يعلو البطريقى العادى[٢] . واختص الخصيان فى القرن العاشر بثمانية ألقاب . وكان لكل لقب شاراته الخاصة ، فكان لحامل لقب اسباثاريوس (Spatharius) مثلاً سيف مقبضه من الذهب ، وكان للبطريقى لوحة منقوشة من العاج وللماچستر قميص أبيض مزركش بالذهب[٣] .

وكان ترتيب الأسبقية معقداً وذلك لأن الوظائف كانت تنطوى على رتب هى والألقاب سواء بسواء . وقد قسمت الإمبراطورية فى القرن الرابع إلى إيالات أربعة فسيحة يحكمها الولاة البريطوريون . وهم أعلى موظفى الدولة مقاماً ، وكانوا يستمتعون بسلطات نائب الملك ، وفى يدهم سلطات مطلقة من النواحى الإدارية والمالية والقضائية . بل لقد كان من حقهم أن يضعوا التشريعات فى بعض الأمور الصغرى . وكان تعيين حكام المقاطعات وعزلهم من اختصاصهم ، وإن كان ذلك خاضعاً لموافقة الإمبراطور ، كما كان من اختصاصهم تنظيم ما تحت أيديهم من الأقسام الإدارية والمقاطعات التى كانت تنقسم إليها الولايات الموضوعة تحت هيمنتهم ، وإن كان الإمبراطور هو الذى يشرف على حاكمى ولايتى إفريقية وآسيا اللذين يحمل كل منهما لقب بروقنصل وربما اتصل الإمبراطور مباشرة بوكلائه المندوبين

---

(١) كوردينوس (Codinus) عن الوظائف (De Officiis) ، ٣٥ وفى مواضع أخرى .

(٢) فيلوثيوس ، ١٤٦ .

(٣) بيورى ، الكتاب السالف الذكر .

الڤيكارين (Vicars) وهم حكام الأقسام الإدارية . على أنهم لم يكن لهم مع ذلك أى سلطان على الجيش . وإن تحتم على ضباط الجيش العسكريين أن يحنوا الركبة أمامهم عند دخولهم عليهم[1] . وكانت كل من العاصمتين روما والقسطنطينية تحت إشراف والٍ للمدينة وهو منصب مدنى قطعاً ويلى فى الرتبة الولاة البريطوريين . كما أنه مسئول عن الشرطة والأمن بالمدينة وضبط النظام بها وتوزيع جرايات الخبز المجانية . فأما فى البلاط نفسه وحول شخص الإمبراطور . فكان هناك الوزير الأعلى للقضاء . وكويستور القصر المقدس ووزيرا المالية الرئيسيان وهما كوند الهبات المقدسة الذى يدير الإيرادات والمصروفات العامة وكوند الأملاك الخاصة ، والذى كان اختصاصه كما يدل عليه اسمه إمارة الأملاك الشخصية الهائلة الخاصة بالإمبراطور . على أن الوزير الأكبر فى البلاط كان رئيس دواوين الموظفين (Magister Officii) ، وهو رئيس سلك الوظائف المدنية كله ومدير بريد الدولة والمهيمن على المخابرات وكبير إدارة المراسم الإمبراطورية . كما أنه وزير خارجية الإمبراطورية ، بوصفه الوزير المسئول عن استقبال السفراء . وكان الإمبراطور يحيط شخصه بعدد من السكرتيرين الوزراء وهم وزراء الدولة (Magistri Scriniorum) ، الذين كان رئيس الدواوين (Magister Officii) يزودهم بالكتبة من دواوينه المختلفة . والظاهر أن الخصيان كانوا لا يستخدمون حتى آنذاك إلا فى خدمة الإمبراطور . وقد قُدر عدد الموظفين المدنيين الموجودين بإقليم إلليريا والشرق (أعنى الإمبراطورية التى تُحكم من القسطنطينية) بنحو عشرة آلاف فى القرن الخامس . وكان للجيش نظامه المنفصل تحت إشراف رؤساء الجند (Magistri Militum) فكان هناك خمسة من هؤلاء الرؤساء بالإمبراطورية الشرقية فى عهد ثيودوسيوس الأول .

---

(١) نفس المؤلف فى كتابه (Later Roman Empire) جـ ١ ص ٢٥ وما بعدها

غير أن هذا النظام الإدارى المبكر لم يدم طويلا . فإن غزوات البرابرة إبان القرن الخامس حددت من رقعة الإمبراطورية ، على حين أن توزيع الثروة بين المقاطعات تغير . وحاول يوستنيانوس إعادة تنظيم أداة الحكم ، فإن الحكومة أصيبت ببالغ الفساد . واستخدمت فى المقاطعات فى أثناء القرن الخامس الطريقة المعروفة بحق الانتخاب (Suffragia) حيث كان حاكم المقاطعة يشترى منصبه بمال كان يذهب بعضه للإمبراطور ويذهب بعضه الآخر للوالى البريطورى . وعندئذ كان يعود فيعوض نفسه بما هو فوق الكفاية مما يقتنص من الضرائب المحلية . وما عتم يوستنيانوس أن ألغى بيع الوظائف بتحريض من ثيودورا ومنح كل حاكم مرتبا كان يتحتم عليه أن يعيش عليه . وأعيد تنفيذ القانون الذى يُحتم عليه البقاء بمقاطعته خمسين يوماً بعد التخلى عن منصبه للإجابة على ما يوجه إليه من تهم ، وأصبح موظف يسمى حامى المدينة (Defensor Civitatis) ينتخب محلياً ليكون شبه كابح لغلوائه وليقوم بالنظر فى صغار القضايا . وقسمت الولايات تقسيما جديداً فى ٥٣٦ – ٥٣٧ . وأنشئ نظام عجيب يربط بين المقاطعات الغنية والفقيرة ، حتى تسدد الأولى بعضن ما على الثانية . وهكذا ضُمت كاريا وجزر سيكلاديس وقبرص فى وحدة واحدة مع أقاليم مويسيا الدنيا وإسكيذيا التى عاث فيها البرابرة فساداً شديداً . ولم يستحدث يوستنيانوس أى شىء من شأنه إيجاد التناسق فى نوع المعاملة بين المقاطعات . فمثلا منح حكام بونتيكا (بسبب كثرة اللصوص بها) وقبدوقية (بسبب اتساع رقعة أملاك الإمبراطور بها) سلطات تأديبية خاصة . ومن ناحية أخرى لم يكن القانون المحلى (كقانون الأرمن مثلا) يلقى تشجيعاً – ولعل مرد ذلك من ناحية جزئية نص القانون الأرمنى على وجوب وراثة الابن الأكبر لجميع أملاك أبيه ، على حين أن الأباطرة كانوا يميلون إلى تقسيم الضياع الواسعة . وقد اتبع يوستنيانوس سنة دقلديانوس التى تقضى بربط الناس بمهنة آبائهم

وبخاصة ما يتصل منها بالأرض[1] . بل بلغ به الأمر أن عين موظفاً خاصاً هو الكويستور (Quaestor) كانت مهمته العمل على ألا يدخل القسطنطينية أى شخص من المقاطعات إلا وله عمل ، وأن كل عاطل كسول بالمدينة يكلف بالعمل فى مخابز الدولة أو مصانعها[2] . ومن الأعمال المظهرية وإن كانت أقل أهمية إلغاء يوستنيانوس لمنصب القنصلية . ذلك أنه جرت العادة منذ الأيام الأولى للإمبراطورية بتعيين قنصلين سنوياً ، وكان فى ذلك استمرار اسمىّ للنظام الجمهورى العتيق ؛ على أن تلك الوظيفة كانت رتبة شرف وتستدعى النفقة الطائلة . وكانت السنة لا تزال حسب العادة القديمة تسمى بأسماء القناصل . وكان كل ما ينبغى عليهم عمله هو توزيع الصـــدقات (Largesse) ودفع نفقات الألعاب والمشاهد العامة . فكان القنصل من هؤلاء يتكلف فى سنة توليه منصبه حوالى (٩٠,٠٠٠) تسعين ألفاً من الجنيهات؛ وكانت الخزانة الإمبراطورية تضطر إلى التسديد فى جميع الحالات دون استثناء نظراً لأن ذلك المبلغ الباهظ كان فوق احتمال أى فرد بمفرده . وحاول يوستنيانوس أن يجعل بذل الصدقات اختيارياً ، ولكن أحداً لم يكن ليجرؤ أن يوصم بالبخل ، وهكذا فإنه لم يعد يعين قناصل[3] بعد ٥٤٢ . وظل الناس بضع عشرات من السنين يؤرخون سنواتهم بعهد آخر قنصل ، على أن يوستنيانوس انتهج شرعة جديدة للتأريخ بعام تولية الإمبراطور — ولعله نقل ذلك النظام عن الوندال — وبسنة ربط الضرائب ، أى دورة الخمسة عشر عاماً التى بدأها دقلديانوس بقصد تقدير الضرائب . ومنذ تلك اللحظة صار التأريخ بمراسيم ربط الضرائب (Indiction) يستخدم فى كل عصور تاريخ الإمبراطورية . ولكن حدث فيا بعد أن السنة التقويمية العالمية

(١) بيورى بالمصدر نفسه ج ٢ ص ٣٥٠ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٧ .

(٣) المرجع نفسه ج ٢ ، ص ٣٤٦ فيا بعدها .

(Annus Mundi) (التي تذهب إلى أن خلق العالم تم فى ٥٥٠٨ ق . م .) أخذت تُستخدم إلى جانب سنة تولية[1] الإمبراطور الحكم أو بدلا منها .

وقد استلزمت الاضطرابات التي مرت بالإمبراطورية فى أواخر القرن السادس والقرن السابع ضرورة إيجاد تنظيم جديد لها . وكانت فكرة منح السلطات العسكرية لحكام المقاطعات تداعب عقل يوستنيانوس من قبل . فإنه عندما أعاد فتح إفريقية عين عليها رجلا يجمع بين سلطات سيد الجند (Magister Militum) وحاكم الولاية . ووضع إيطاليا تحت سلطان نائب الملك بلقب حاكم (Exarch) ، وسرعان ما أصبح هذا الوالى موظفاً عسكرياً له سلطات مدنية . ولكن تعيين مثل هؤلاء الموظفين الذين يجمعون بين السلطتين لم يكن يتم إلا فى حالة المقاطعات المعرضة لخطر الحرب أو الغزو . غير أن الحروب مع الفرس والعرب فى أثناء القرن السابع أظهرت أنه ما من مقاطعة واحدة كانت بمنجاة من الخطر ؛ ولذا فإن آسيا الصغرى نفسها وهى قلب الإمبراطورية النابض لم يكن بد من أن توضع فى حالة دفاع متواصل . وصار من المألوف إنزال ألوية معينة من الجند أى ثيماتا (themata) بصفة دائمة فى أقاليم معينة . وكان قائد اللواء يمنح سلطات مدنية على سكان الناحية . ثم تحول الاسم رويداً رويداً فأصبحت الأقاليم نفسها تعرف فى مجموعها باسم ثيماتا (Themata ، themes) ، أى الألوية بمعنى المناطق العسكرية وصارت كل منها تحمل اسم فرقتها الخاصة النازلة بها .[2] وهكذا كانت هناك عند نهاية

---

(١) بيورى بالمرجع السابق ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) من نظام الألوية أى المناطق العسكرية (الثيمات) ، انظر "Die Genesis der Byzant. Themenverfassung" لجلزر ؛ وانظر "Sketch of Byz. History" تأليف أسبنسكى (بالروسية) ، ١٤٤ — ١٥٢ ؛ وانظر "Studien zur Gesch. des Byzant. Reiches" تأليف اشتاين ، ١١٧ — ١٤٠ ؛ وانظر "Arabic Lists of the Byzantine Themes" تأليف بروكس فى مجلة Journal of Hell. Studies ، مجلد ٢١ .

القرن السابع مناطق مترامية بآسيا الصغرى تعرف باسم اللواء العسكرى البوكلليرى (Bucellarii) واللواء الأناضولى واللواء الأوبسكى واللواء التراقى وهكذا دواليك ، تسمية لها بأسماء الفرق البوكلليرية والأناضولية والأبسيكية والتراقية . وارتفع لاوون الإيسورى بالنظام إلى مرتبة الإحكام ، حيث قسم ألوية الثغور الآسيوية إلى أقسام أصغر وطبق الفكرة فى أوربا . ولما لم تكن هذه الألوية الأخيرة قائمة على أساس الفرق العسكرية (أعنى الألوية) ، فقد أطلقت عليها أسماء جغرافية : وإن حدث أحياناً أن تمخضت التطورات التاريخية عن خطأ جغرافى ؛ وهكذا زحزح اللواء المقدونى بسبب الغزوات البلغارية إلى المنطقة المحيطة بأدرنة ، على حين أن الألوية بمقدونيا نفسها ، وقد أنشئت بعد ذلك بقليل — كانت تسمى باسم ألوية (ثيمات) تيسالونيكية وإستر ايمون ؛ كما أن كالابريا [1] كانت تسمى فى القرن العاشر باسم اللواء الصقلى ، وذلك لأنها كانت جزءاً من صقلية قبل غزو العرب لهذه الجزيرة . وعندما تمخضت فتوح القرنين التاسع والعاشر عن إضافة أراض جديدة إلى الإمبراطورية ، كانت الألوية (المقاطعات الحربية) تنشأ لتواجه المطالب الجديدة.

وفى نهاية القرن التاسع ، يوم أصبح فى أيدينا وصف فيلوثيوس للتنظيم الإمبراطورى وقائمتان من تصنيف العرب تحويان أسماء ألوية الثغور ، كان هناك خمسة وعشرون لواء مقسمة إلى طائفتين : شرقية وغربية . وكانت الأولى مكونة من الألوية (المقاطعات العسكرية) الآسيوية وتضم تراقيا و « مقدونيا » ، ولكن يستنزل منها ما يسمى باسم الألوية (الثيمات) البحرية ، وهى مقاطعتا كيبرهايوت وساموس البحريتان على ساحل بحر إيجة ، وكانت الطائفة الثانية مكونة من الألوية الأخرى الأوربية بما فى ذلك الألوية البحرية وهى خيرصون (أى بلاد القرم) ودالماتيا و « صقلية » . وكان قواد (Strategi) الطائفة الأولى يتناولون من الحكومة المركزية راتباً ثابتاً ، ولهم مرتبة تعلو مراتب الطائفة الأخرى التى كان أصحابها يتناولون

---

(١) كالابريا هى نصف إيطاليا الجنوبى الشبيه بشكل الحذاء والمجاور لصقلية . (المترجم)

مرتباتهم من الضرائب المحلية . وكانت للقائد العسكرى (strategus) لمنطقة خيرصون مرتبة خاصة تفرد بها(١) . وكان رئيسهم جميعا هو قائد لواء الأناضول ، الذى خلفت وظيفته وظيفة سيد الجند العام (Magister Militum) للشرق . وكانت له على الدوام مرتبة وأسبقية خاصة ، وكان أثناء القرن الثامن ثم أوائل التاسع صاحب المنصب العسكرى الرئيسى . وكانت كل فرقة عسكرية مقسمة إلى أقسام ثانوية اثنين أو ثلاثة تسمى التورمات (Tourmai) أى الآلايات ، كما قسمت هذه إلى ثلاثة أجزاء أى كتائب (Moirai أو Drouggoi) . وكان ديوان القائد العام يحتوى على إحدى عشرة طبقة من الموظفين لمساعدته فى شئون الحكم المدنية والعسكرية . وكانت سلطاته فى المسائل المحلية تكاد تكون مطلقة لا حد لها ، بيد أنه كان يُعين فى منصبه أو يجرد من رتبته حسب مزاج الإمبراطور وهواه ، وكان فى الإمكان تقديم الشكاوى ضده ، فى حين أن صاحب الخزانة (Chartularius) الموجود فى ديوانه الذى كان يدفع الأعطيات لجميع الجند والموظفين ، كان هو وجباة الضرائب باللواء (بالمنطقة العسكرية) يتلقيان الأوامر رأسا من الحكومة المركزية . وفضلا عن ذلك فإن القضايا ذات الأهمية كانت تنظر فى العاصمة . وكان فى الإمكان إرسال قواد إضافيين يسمون باسم «ek prôsôpôn» إلى أى مكان فى أثناء الطوارئ الماسة(٢) .

ومع أن المقاطعات كانت تُحكم حكماً عسكريا ، إلا أن الحكومة المركزية ظلت مدنية . فإن الضباط العسكريين بالحكومة المركزية : الدومستقيون (Domestics) والقواد (Stratarchs) لم يكن لهم أى نصيب فى الإدارة . وكانت الإدارة المدنية تحت هيمنة طبقتين عظيمتين من الموظفين هما القضاة

(١) كان أدناهم رتبة (فيلوثيوس ، ١٤٧) ؛ انظر "De Administrando Imperio" لقسطنطين بورفيروجنتوس ١٧٨ – ١٧٩ ، ٢٤٤ ع ع .

(٢) انظر بيورى : "Imp. Administ. System" ص ٣٩ – ٤٧ .

(Kritai)والكتاب(Secretikoi)[1]. وكان رئيس الدواوين(Magister Officii) قد توارى من زمن بعيد : ولم يبق له من شيء يشهد بما كان له في الماضي من عظمة إلا لقب أجوف هو الماچستر أو الرئيس . وكان أهم شخصية هيئة القضاة هو والى (Prefect) المدينة وهو الإبرخوس أو الحاكم[2] (Eparchos) . وكان هذا المنصب قديماً قدم القسطنطينية نفسها ، وكان صاحبه يحظى دائماً بأسبقية عالية . وهو أحد المناصب القليلة التى لم يكن يجوز للخصيان توليها . وكان الوالى أعلى فرد في المدينة بعد الإمبراطور ، وكان يُعين عادة نائبا للإمبراطور على المدينة أثناء غياب العاهل . وهو المسئول عن القانون والنظام . وكان ديوانه ينقسم إلى قسمين قسم يتولاه محكِّم (Symponus) ، بيده ضبط شئون النقابات والإشراف على تنفيذ مختلف التعليمات واللوائح التجارية والواجبات المدنية الملقاة على عاتق السكان ، وقسم يتولاه مستشار دار الوالى "Logothete of the Praetorium" الذى كان موكلاً بشئون القضاء والسجون . وكان كل من القسمين مزوداً بهيئة من الموظفين كافية ومنوعة . وكان يساعد والى المدينة في عمله الكويستور[3] ، الذى كان يجمع بين وظيفة الكويستور باختصاصها القديم وبين نظيره في عهد جستنيان . وكانت بعض اختصاصاته تشريعية حيث كان يعد مشروعات القوانين الجديدة ، كما كان رئيساً لمحكمة الاستئناف في القضايا المقامة ضد الحكام والنبلاء ، كما كان من ناحية أخرى الوكيل العام للشعب وعليه ختم الوصايا وفضها وتولى تنفيذها والإشراف على إدارة أملاك القُصَّر . وتبعا لاختصاصه هذا ، كانت قضايا التزوير تقع تحت سلطته القانونية ، وكان عليه أيضا أن يجد عملا لكل عاطل قادر على

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٩ — ١٠٥ .
(٢) المرجع نفسه ص ٦٩ — ٧٠ .
(٣) المرجع نفسه ص ٧٣ — ٧٥ .

العمل » ، أن يتحقق من أن إنسانا لا يهبط العاصمة دون مبرر لذلك . وكان تحت رياسته هيئة ضخمة من الموظفين. وكان القاضى (Kritês) العظيم الثالث ، هو الموظف المسئول عن التظلمات (epi tôn deêseôn) ويتولى شئون الالتماسات المرفوعة للإمبراطور . وكان له ديوان دون أن تكون له محكمة[1]

وكان الكُتّاب (Secretikoi) فى معظم الحالات وزراء للمالية[2] . وكان القسمان الرئيسيان وهما الجيب الخاص وبيت المال العام قد أضيف إليهما ما يكملهما . فقد كانت هناك فى القرن السادس سبع خزائن مالية ، هى خزانة الصدقات ، أى الهبات المقدسة القديمة أو الكيس العام . وخزائن الواليين البريطوريين وكويستور مويسيا وسوريا ، فضلا عن خزائن ثلاثة للجيب الإمبراطورى الخاص . وحدثت تفريعات أخرى أثناء القرون التالية ، وبذلك أصبحت مالية الدولة تدار من عدد من الدواوين موضوعة تحت الرئاسة العليا لوزير المالية الأوحد (Sacellarius) الذى كانت مهام وظيفته هى مهام وظيفة كوند الأملاك الخاصة والذى يرجح أن لاوون الإيسورى رفع من مرتبته . وكان تحت رياسته المراجعون الأربعة أو المراقبون (Logothetes) وهم : مراقب حلبة السباق (tôn Dromôn) ، وجابى الضرائب المركزى (tôn genikôn) وصاحب أعطيات الجند (tôn stratiôtikôn) ومدير المزارع والضياع الإمبراطورية (tôn agelôn) ، فضلا عن مختلف جباة الضرائب بالمقاطعات (epoptai) والموظفين المنوطين بمصانع الدولة (epi tôn eidikôn) والكوند المنوط بالمناجم (Count of the Lamia) والمسئولين عن سقايات الماء (وهو كوند الماء) وموظفى الجمارك (Commerciarii) وجميع الخزنة (Curatorii) الذين يديرون الكيس الإمبراطورى الخصوصى وصدقات الدولة والسكرتيرين الإمبراطوريين (Protoasecretis) . وكان أهم هذه

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٨ — ١٠٥

المناصب منصب مراقب أو مستشار الخيل والبريد (Logothete of the Dromus) الذى كان مديراً عاماً للبريد ورئيساً لوزارة الخارجية ، كما كان يهيمن على المراسلات المتبادلة بين غيره من الوزراء وبين الإمبراطور ، وكان يقابله كل يوم . وكان أحياناً يسمى فقط باسم المستشار (Logothete) . كما أنه أصبح فى أخريات القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر رئيساً للوزراء تحت اسم المستشار الأعظم (Grand Logothete) . وفى عهد آل كومنين حل المحاسب الأعظم (Grand Logariastes) محل وزير المالية الأوحد (Sacellarius) .

وكانت الوظائف المحيطة بشخص الإمبراطور والإمبراطورة والمتصلة بالخدمة فى القصور يحتفظ بها للخصيان[1] : وهى عادة بدئ بها فى عصر دقلديانوس ولم تفتأ تنمو من ذلك التاريخ . وكان لكل قصر كبيرُ معاونيه (Papias) ، وكان كبير معاونى القصر الأعظم يساعده معاون ثان (Deuteras) كانت مهمته الإشراف على ثياب الحفلات وعلى أثاث البلاط . ولم يقم أحد فعلا بذكر عدد صغار الموظفين فى المعية الإمبراطورية وواجباتهم . وكان لكل من الإمبراطور والإمبراطورة مشرفون على المائدة وعلى خزانات الملابس . على أن كبير الخصيان كان كبير الأمناء (Paracoemomenus) الذى صار فى أواخر القرن التاسع وأثناء العاشر الوزير الأكبر فى الإمبراطورية . فإن ساموناس فى عهد لاوون السادس وثيوفانيز فى عهد رومانوس الأول وباسيل فى معظم النصف الثانى من القرن العاشر تقريباً كانوا فى الواقع رؤساء وزراء . ولم يكن ذلك المنصب يملأ على الدوام كما أنه حدث ذات مرة أن لم يشغله خصى بل شغله باسيل المقدونى فى عهد ميخائيل الثالث[2] . وكانت ميزة وضع الخصيان فى المناصب العالية ذات الأسرار

---

(١) انظر بيورى : « Imp. Admin. System » ١٢٠ ع . ع .

(٢) المرجع نفسه ص ١١٥ — ١١٦ .

ميزة واضحة . فإنهم قوم لم يكن لهم عقب يأتمرون من أجله : كما أنه كان لدى القوم قانون غير مسطر لم يحيدوا عنه قط ، يقضى بالحيلولة بين الخصى وبين العرش الإمبراطورى . وكان استخدام الخصيان وهو شيء كان بوجه خاص من الخصائص المميزة لتلك الإمبراطورية فى عهد أوجها فى القرن العاشر ، من أنفع أسلحتها ضد تحولها إلى النظام الإقطاعى .

وكانت هناك مناصب معينة تسمى أكسياى أيديكاى (Axiai eidikai) لم يمكن تصنيفها . وكان أشدها أهمية هو الريكتور (Rector) ولا ندرى شيئا عن مهام وظيفتــه كما أن السينكللوس (Syncellus) وهو موظف إمبراطورى يقوم بمهمة ضابط الاتصال بين الإمبراطور والبطريرك ، وهو الذى كان يفحص فيما يلوح قضايا المهتمين بالهرطقة [1] (وكانت الهرطقة تعد جريمة ضد الدولة) ، كما كان يخلف البطريرك فى منصبه عادة . وربما جاز أن يكون لروما وبطارقة الشرق سينكللوس كذلك ، كما أن قسطنطين التاسع عين واحداً للجاثليق الأرمنى وهو ابن أخيه وخليفته بالتعيين[2] . وكان غيرهم من حملة لقب أكسياى أيديكاى (Axiai eidikai) هذا أركان حرب للإمبراطور وسكرتيرين شخصيين له . وقد ارتقى أحدهم وهو البروتوستراتور (Protostrator) حتى شغل منصباً عالياً فيما بعد .

وقد دام هذا النظام الإدارى المركزى دون أن يداخله فى الواقع أى تغيير حتى قُضى عليه بصورة خشنة عندما استولى الصليبيون على المدينة فى ١٢٠٤ . وكان نظام المقاطعات بطبيعته أكثر مرونة ، فكان يتغير بتغيير حدود الإمبراطورية الدائمة التغير . كانت هناك على الحدود الشرقية عدة

---

(١) انظر حياة القديس سيمون « Vila S. Symeonis Novi Theologi » نشرها هوسهر (Orientalia Christiana) مج ١٢ ، ١٠١ ع ٠ ع .

(٢) فيلوثيوس ١٤٦ ؛ « ماثيو الرهاوى » نشره دولورير ، ٧٩ ع ع ؛ بيورى بالكتاب السالف الذكر ١١٦ — ١١٧ .

نواح صغيرة تحت الحكم العسكرى تسمى مناطق الثغور (Clissurae) ، يحكمها كبار بارونات الحدود العسكريون مثل ديجينيس أكريتاس حكماً مطلقاً لاراد له تقريباً . ولما كانت الحدود تتأخر إلى الوراء كانت مناطق الثغور هذه ترفع إلى مرتبة الألوية (المقاطعات) العسكرية (themes) ، ولم يعد بد من أن يُضم قوادها العسكريون إلى سلك الوظائف فى الإمبراطورية[١] . فعندما استردت أنطاكية وضعت تحت حكم حاكم عسكرى خاص يعرف باسم الدوق (Dux) . وكانت المقاطعات العسيرة القياد مثل لواء لونجوبارد يُعاد تنظيمها .

وحدث قرابة عام ٩٧٥ أن قائد لونجوبارديا رفعت رتبته إلى المنصب الجديد المسمى كاتيبان (Catepan) ومُنح سلطات نائب الملك على مقاطعة كالابريا العسكرية والولايات الإيطالية الإقطاعية التابعة[٢] . وقد أطلق نفس اللقب بعد ذلك ببضع سنين على حاكم مقاطعة فاسبوراكان[٣] الأرمينية العسكرية المفتوحة وشيكاً . وعندما فتح باسيليوس الثانى بلغاريا أسس بها لواءين هما لواء بلغاريا ولواء باريستريون ، ووضعت الأولى منهما تحت حكم رئيس مشرف بلقب برونويتس (Pronoetes) . ولكن حدث طبقاً للسنن التى نقلها قسطنطين بورفيروجنيتوس ، أن سمح للبلغار بالاحتفاظ بأساليبهم القومية فى القضاء والضرائب[٤] . وكان وجود الصقالبة والألبانيين فى شبه الجزيرة اليونانية سبباً فى جعل الحكم فى لواءى هيلاس والبيلوبونيز معقداً حافلا بالمشكلات . فلم يتهيأ للدولة أن تتحكم تحكماً فعالا فى البيلوبونيز إلا فى عهد الإمبراطورة إيرينة ؛ بل الذى حدث هو أنه حتى فى

---

(١) انظر الفصل السادس ، نظام الجيش .

(٢) انظر « L'Italie Méridionale » تأليف جاى ، ٣٤٣ ع ع .

(٣) كدريتوس الثانى ص ٤٩٤ . كانت المقاطعة تسمى عادة ميديا .

(٤) انظر « Epopée Byzantine » تأليف شلومبرجر جـ ٢ ص ٤١٨ – ٤٤٣ .

القرن العاشر نفسه كانت هناك قبائل ، كل ما يربطها بالدولة دفع جزية سنوية دون أن تلقى من موظفيها بعد ذلك أدنى تدخل . فلما أن رُفعت قيمة الجزية لعهد رومانوس الأول ثار السكان واضطرت الدولة إلى إعادة الأمور إلى قديم نصابها . ويغشى الإبهام والشبهات موعد امتصاص الدولة لهم نهائياً[1] .

وقد ضيقت فتوح السلاجقة من رقعة الإمبراطورية ، ولم يكن بد من أن يُعاد تنظيم الألوية (المقاطعات العسكرية) فى عهد آل كومنين . وكانت الألوية (المقاطعات العسكرية) المعاد تشكيلها أصغر حجما ، وكان الحاكم فيها يسمى آنئذ باسم الدوق . ومن المحتمل أن سلطاته كانت مقيدة إلى حد ما .

وتمخض سقوط القسطنطينية فى ١٢٠٤ عن تحطيم أداة الحكم هذه بأكملها . وليس لدينا إلا النذر اليسير من المعلومات عن النظام الإدارى للأباطرة النيقيين . وكل ما نعرفه أنهم حاولوا أن يقيموا بمدينة نيقية نظام حكومة مركزية نقلوه عن نظام القسطنطينية ؛ بيد أنهم كانوا قوماً فقراء ميالين للاقتصاد ، ولذا فإن كل شىء كان يجرى على معيار أكثر تواضعاً . ولم يواجههم فى أول الأمر موضوع حكم المقاطعات ؛ وذلك لأن كل مركز إقليمى (أى قصبة مقاطعة) أصبح عاصمة سياسية . والظاهر أن الأراضى المغزوة كانت عندما امتدت رقعة الإمبراطورية النيقية إلى أوربا ، كأنما هى تحت احتلال عسكرى . وكان معنى العودة إلى القسطنطينية عودة إلى العظمة المؤكدة بقدر . ويقدم لنا كتاب « عن الوظائف De Officiis» قائمة بجميع الموظفين مع واجبات مناصبهم وشعارها عند منتصف القرن الرابع عشر . ولكن الراجح أنها كانت صورة مثالية للموقف ؛ وأخذت

---

(١) انظر « رومانوس ليكابينوس » تأليف رانسيمان ص ٧٢ – ٧٤ .

خزانة آل باليولوجوس تزداد خلواً على كر الأيام ، كما يظهر أن كثيراً من وظائفهم كان يترك شاغراً فى الواقع . فضلا عن أن كثيراً من الوظائف القديمة غدت آنذاك ألقاباً جوفاء؛ فإن وظائف الولاة (Prefect) والكويستور وكثيراً من المستشارين (اللوغوثيت) يقال عنها وعن عدة وظائف أخرى إنها أصبحت مناصب بلا أعباء . ويظهر عدد قليل من أسماء غير مألوفة لوظائف ؛ وهذه شأن وظيفة الـ « تزوسيوس الأعظم Grand Tzausius » يلوح أنها إنما هى مناصب لموظفين يحيطون بشخص الإمبراطور . وكانت إدارة شئون الدولة مهما يكن شأنها فى يد المستشار الأعظم ، يساعده وزير الجيش وهو الدومستيق الأعظم ووزير البحرية وهو الدوق الأعظم[١] . والظاهر أن البطريرك كان فى واقع الأمر يقوم بدور وزير . وقد حدث فى عهد أندرونيكوس الثانى أن كان البطريق أناستاسيوس يعد الشئون الاقتصادية من اختصاصه ، بل حاول أن يبتعث لنفســه واجبات والى المدينة[٢] (Prefect) .

إن إمبراطورية أسرة باليولوجوس لم تكن تحتوى والحق يقال إلا على أراض يمكن حكمها من القسطنطينية وسلانيك فضلا عن المورة أى البيلوبونيز . وظل اسم اللواء (المقاطعة العسكرية Theme) حيا يطلق على المنطقة المحيطة بسلانيك ، ولكن حدث منذ منتصف القرن الرابع عشر أن كلا من سلانيك والمورة وضعت تحت حكم مستبد «دسپوت Despot » ، وهو عضو صغير فى الأسرة الإمبراطورية . ويلوح أن الواحد من هؤلاء كانت له سلطات مطلقة فى ولايته ، ولكنهم أقسموا يمين ولاء للامبراطور الذى

---

(١) كودينوس De Officiis ، ٢٣ ، ٣٨ .

(٢) انظر براتيانو ، L'Approvisionnement de Constantinople بمجلة Byzantion مج ٦ ص ٦٤٢ ح . ع .

كان وكلاؤه الديبلوماسيون يمثلونهم فى الخارج . وقد انتهى الأمر بأن « دسبوت » سلانيك سلّم مقاطعته للبندقية؛ بيد أن « دسپوتية » (Despotate) المورة عاشت طويلا بعد الإمبراطورية نفسها ، على الرغم من الاضطرابات المتواصلة التى كان يحدثها النبلاء المحليون بما تعلموا من الفرنجة من سوء عادات النظام الإقطاعى . كما أن مقر « الدسپوت » بها وهو ميسترا ظل إلى النهاية حافلا بكل ما للعواصم[1] من وسائل المسرة الفكرية .

وكان الجهاز الحكومى الضخم (البيروقراطية) الذى يتولى إدارة شئون الإمبراطورية باهظ النفقة بطبيعة الحال ؛ كما أن الأعباء الإضافية التى يستلزمها جيش عامل ثابت ، كانت هى والنفقات الديبلوماسية تستلزم إيراداً ضخماً للدولة . ومع ذلك فليس بين أيدينا من وسيلة لتقدير قيمة إيرادات الإمبراطورية فى أية فترة من فترات تاريخها . وقد قدرت بمبالغ تتراوح بين ١٠٥ و ١٢٠ من ملايين الفرنكات الذهبية فى عهد جستنيان ، ٦٤٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية فى القرن العاشر[2] . ومن المحقق أن الرقم الأول أصغر كثيراً مما ينبغى . ويقول بنيامين التطلى (من تطله Tudela) إن عمانوئيل كومنينوس كان يجمع دخلا سنوياً مقداره ١٠٦ مليوناً من الفرنكات الذهبية من القسطنطينية وحدها[3] . وتلك مبالغة لا ريب فيها ، كما أن معظم معاصريه الغربيين كانوا أشد غلوا فى بياناتهم . وكل ما نستطيع قوله هو أن الدخل كان من الضخامة بحيث أتاح لأناستاسيوس وهو مالى مقتصد ، أن يكدس فى الخزائن احتياطياً قدره ٣٥٥,٦٠٠,٠٠٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية فى مدة حكمه البالغة سبعة

---

(١) انظر زاكيثينوس : « Le Despotat Grec de Morée » فى أجزاء متفرقة منه .

(٢) وضع التقدير الأول شتاين ، ووضع الثانى باباريجوبولس ؛ انظر بحث ذلك عند أندريادس فى (Le Montant du Budget)

(٣) انظر بنيامين التطلى ، ترجمة أدلر ، ١٣ .

وعشرين عاماً ، وأن تترك الإمبراطورة ثيودورا الوصية فى الخزائن ١٤٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية ، وأن يخلف باسيليوس الثانى بعد حكم باهظ النفقة -- وإن خفض من نفقات البلاط -- مبلغ ٢٥٠ مليوناً من الفرنكات[1].

وفضلا عن ذلك فإن جميع ما يتعلق بطريقة جمع الإيرادات وتفاصيل المصروفات أمور يغشاها الخفاء والتناقض . أجل تحتوى كتب التاريخ البيزنطى على إشارات غير مباشرة كثيرة إلى ذلك الموضوع ، ولكن ليس فيها شىء يمكننا من الوصول إلى أى تقدير محدد[2] القيمة . وكانت الضرائب المباشرة تقع تحت نوعين ، ضرائب الأرض وضرائب الرءوس (الأفراد) وكانت ضريبة الأرض الأساسية (zeugaratikion) تقدر تبعاً لقيمة الأرض ، حسبما كانت تقوم كل خمسة عشر عاماً . وهى السنة الأولى من دورة كل مرسوم لربط الضرائب . وكانت جميع الممتلكات حتى الضياع الإمبراطورية مكلفة بدفع الضرائب ، وإن أعفيت الأديرة فى عهد إيرينة وعمانويل كومنينوس . وكانت تفاصيل التقديرات تدون فى السجلات -- وكان هناك سجل كامل بدار الحكومة المركزية (بالديوان المركزى) وسجلات فرعية بعواصم المقاطعات . ولسنا نستطيع أن نقول بالتحقيق إلى أى مدى كانوا يحافظون على ضبط مطابقتها للواقع أولا بأول ، ويقال إن باسيليوس الأول حاول عبثاً إنشاء تقدير جديد . وكانت تلك الضريبة تدفع فى الأصل عيناً ثم أصبحت تدفع نقداً فيما بعد . وكانت الصعوبة القائمة أمام الحكومة الإمبراطورية هى التحقق من عدم انخفاض الإيرادات إن أخفق مالك الأرض أو مستأجرها فى دفع الضرائب .

---

(١) انظر أندريادس بالمرجع السالف .

(٢) عن البحث الوافى فى هذا الموضوع انظر دولجر (Beitra. zur Geschichte der Byzan. Finanzenverwaltung. Byz. Arch. 1927 ، وانظر «Die Landl. Steuer. in Viertel. fur Sozial und Wirtschafts.» مج ٢٠ ص ١٠٨ ع ع أوسترجورسكى ؛ وانظر تعقيب أندريادس على هذين الكتابين فى B. Z. مج ٢٨ ص ٢٨٧ ع ع .

وانقضت قرون عديدة والنظام المسمى بالضرائب الجماعية (epiboli) هو السائد المعمول به . فكان المجتمع المحلى بأكمله مسئولا عن التحقق من أن المبلغ المطلوب جمعه قد وصل إليه الجباة . على أن نقفور الأول وهو المالى المحترف الوحيد الذى أصبح إمبراطوراً قام بإصلاح ذلك النظام . فإن الضائقة التى عمت البلاد فى زمانه أفضت إلى جعل العبء فادحاً جداً على مجتمع القرية . وأدخل نقفور نظام الالتزام التضامنى (allelengyon) الذى كان يقضي بأن الضرائب المفروضة على مزرعة عاجزة عن الدفع ينبغى أن تدفعها عنها أغني منطقة مجاورة ، وهو نظام جائر ولكنه ذو أثر فعال . فألغاه ميخائيل العمورى وعاد إلى نظام الضرائب الجماعية (epiboli) ؛ على أن باسيليوس الثاني لرغبته فى كيل ضربة لأصحاب الأراضى الأغنياء ما عتم أن أعاد استخدامه ، وإن أُلغى للمرة الثانية فى القرن الحادى عشر . وكان على المزارع الكبيرة أن تدفع دائماً مبلغاً متساوياً لا يتغير ، وإن أصبحت بعض أجزاء منها غير خصبة إلى حين . فإن حدث مع ذلك أن توزعت المزارع على عدة أفراد ، تعطل الالتزام التضامنى . وكانت هناك ضرائب إضافية أو بالحرى مكوس على البهائم والبضائع والآلات مخصصة للأغراض الحربية ولالتزامات التأجير من الباطن .

على أن فردة الرءوس يحيط بها الغموض بوجه خاص . فقد كانت هناك ضريبة تسمي ضريبة الرءوس (Kephaletion) ولعلها كانت قاصرة على غير المسيحيين من الرعايا[١] . على أن ضريبة المحراب (Kapnikon) لا تكاد تفضل هذه في وضوحها . وكل ما نستطيع قوله هو أنه فى زمن نيقيفوروس الأول كان هناك ضريبة على المنازل قيمتها ٢ مليارسيا (أو ٢٫٤٠ فرنكاً ذهبياً) عن كل رأس . وأصر نيقيفوروس على ضرورة دفعها بدقة ،

(١) انظر أندريادس بالمرجع السابق .

كما أن دافعي الضرائب الذين أعفتهم إيرينة أُلزموا بدفع ما عليهم من المتأخرات . وتمكن ميخائيل الثانى من نيل محبة الشعب بإنقاصه تلك الضريبة[1] . ويقول ابن حوقل المؤرخ العربى إنه كانت تفرض على كل دار ضريبة مقدارها ديناران فى المقاطعات البحرية وضريبة مقدارها عشرة دنانير على كل رب أسرة فى المقاطعات الأخرى ، وهى تستخدم فى الأغراض البحرية والحربية[2] . ويقول نص قبرصى إن القبرصيين كانوا يُلزمون أن يقدموا فى سبيل الدفاع عنهم فى القرن العاشر ضريبة منازل تبلغ قيمتها فيما يلوح نوميسما واحداً (٤٠ر١٤ فرنكاً) عن المدن، ٣ نوميسمات بالمناطق الريفية[3] . وقد كتب نيكيتاس أكومیناتوس فى تورية عن تلك الضريبة، إن أهالى كورفيو (Corfioles) كانوا فى أواخر القرن الثانى عشر يفضلون نارَ العبودية الأجنبية (يعنى بذلك النورمان) على دخان الضريبة[4]. وما ندرى شيئاً عن تلك الضريبة المسماة بضريبة الأيريكون (aerikon) التى أدخلها يوستنيانوس والتى جلبت للخزائن ثلاثة آلاف رطل من الذهب، وإن أعيد ذكرها مرة ثانية فى كتاب لاوون السادس المعنون « الفنون الحربية Tactica » . ولعلها كانت ضرباً من ضرائب الأراضى على الممتلكات الموجودة بالمدن ؛ ولكن الواقع أن كل عالم بالتاريخ البيزنطى يقدم إلينا عنها تفسيراً مخالفاً للذى قدمه غيره[5] . وكان هناك

(١) ثيوفانيز ، ٤٨٦ : ثيوفانيز كونتيواتوس ، ٥٤ .

(٢) وقد نقل ذلك عنه ڤاسيليفسكى فى « مواد لكتابة تاريخ خاص لبيزنطة » (بالروسية) ، ٣٦٩ .

(٣) ماخيراس كما نشره دوكنز ، ٨ ، هوامش ٤٨ ؛ وانظر فى جميع أبواب كتاب (Le Montant du Budget) تأليف أندريادس .

(٤) نيكيتاس خونياتس ، ٩٧ .

(٥) أورستروجورسكى بالموضع السابق نفسه؛ أندريادس فى B. Z. مج ٢٨ ص ٣٠٩ ؛ دولجر فى B.Z. (Das Aerikon) مج ٣٠ ص ٤٥٠ — ٤٥٦ ؛ بيورى "Later Roman Empire" ، ح ٢ ص ٣٥٠

أيضاً نظام لرسوم التركات أدخله أُغسطس يُنظم الميراث من غير أحد الأسلاف ، ويظهر أن چستنيان ألغاه ، ولكنه أعيد مرة ثانية ليضم الميراث المباشر. وقد استحدث نيقيفوروس الأول الذى نفذه بدقة تامة ، ضريبة على كل زيادة فى المال غير مكسوبة ، باعتباره إياها نوعاً من اللقية أو الكنوز التى للحكومة نصيب فيها[1] . وكانت الضرائب غير المباشرة تتكون من رسوم الجمارك ومكوس الموانى ومكوس الأسواق والعشور ورسم التمغة على الإيصالات — وقد استخدم هذا الأخير إلى حين . وليس لدينا من المعلومات الموثوق فيها إلا عن الضريبة الأولى فقط ؛ فإنها رفعت فى القرن الرابع إلى قيمة موحدة قدرها ١٢٫٥ فى المائة ، كما أنها ظلت على حالها فيما يبدو . وكانت رسوم الاستيراد تجبى فى أبيدوس على الهللسپونت أوهيرون على البوسفور ، على حين أن رسوم التصدير كانت تجبى بالقسطنطينية . ولمنع تهريب الرقيق ، فرض نيقيفوروس تعريفة جمركية خاصة قيمتها ٢ نوميسمات (٢٨٫٨٠ فرنكاً) على كل عبد من الجنوب يباع فى أى مكان من الإمبراطورية غرب أبيدوس . ولا شك أن رسوم الجمارك كانت تجلب للدولة مبالغ جسيمة . وأثرت مداعبات إيرينة لحرية التجارة فى إيراداتها تأثيراً خطيراً جداً حيث ألغت المكوس التى تدفع بأبيدوس ، ومن ثم عاد نيقيفوروس إلى سياسة التعريفة الجمركية ، حيث حافظ على انخفاض الأسعار بطريقة أكثر دقة وهى تحديد مقدار العملة المتداولة[2] . وعندما حدث فى عهد أسرة كومنينى أن الجمهوريات الإيطالية حصلت على حق الاستيراد برسم جمركى قدره ٤ فى المئة ، خسر الامبراطور خسارة فادحة فى إيراداته فضلا عن الضربة التى أصابت تجارة الإمبراطورية .

---

(١) ثيوفانيز بالمرجع السالف الذكر .

(٢) الفر بيورى « Eastern Roman Empire » ، ٢١٢ ع ع .

وكانت هناك ضرائب إضافية تفرض بين حين وآخر كضريبة الديكيراتون (dikeraton) وهي بنسبة $\frac{1}{12}$ الإضافية التي أدخلها لاوون الإيسوري لإصلاح أسوار القسطنطينية ؛ وكان الجباة يرفعون قيمة الضرائب أحياناً بغية رفع النسبة التي يحصلون عليها[1] . وكانت الدولة أيضاً تستكثر من الأموال وتجمع الثروة من مصانع الدولة واحتكار الحرير ومن بيع الألقاب . وكانت هي المتصرفة في تجارة القمح ، كما أن بعض الأباطرة مثل نيقيفوروس الثاني اتهموا بجمع الثروات من ورائها والإفادة الشخصية منها . وأصدر نيقيفوروس الأول أيضاً أمراً ينطوي على البراعة بمنع الربا وكل ألوان إقراض الأموال ، ثم أخذ بقرض الناس من خزانة الدولة ، مقابل أرباح قيمتها $16\frac{2}{3}$ في المائة ، على أن خلفاءه لم يواصلوا العمل بهذه الطريقة[2] . وفي عهد بيت باليولوجوس يوم تأزمت الأمور لدرجة اليأس المستعصي ، حاول يوحنا كانتاكيوزيني أن يجمع مكساً اختيارياً من جميع الطبقات لتسديد نفقات الحرب ، على أن أحداً لم يكن في وسعه ولا أبدى رغبة في المساهمة في هذه الضريبة[3] .

وكان نظام الضرائب بأجمعه ، بإعطائه للإمبراطور فيضاً متواصلا من المال المدفوع نقداً وتمكينه بذلك من مواصلة العمل بهيئة موظفيه المركزية الضخمة والاحتفاظ بجيشه العامل الدائم ، يضعه في مركز أقوى كثيراً من مركز أي عاهل غربي أو من الخليفة . غير أن الضرائب العالية لم يكن لها من معنى سوى تذمر رعاياه واستيائهم المتواصل ، فضلا عن وضعهم في

---

(١) انظر بيوري « Later Roman Empire » من أركاديوس إلى إيرينة » ج ٢ ، ٤٢٤ ع ع .

(٢) نفس المؤلف السابق (بيـــوري) "Eastern Roman Empire" ، بمواضع متفرقة .

(٣) كانتاكيوزينوس ج ٣ ص ٣٨ ـ ٤٠ .

مركز ضعيف عندما ظهر المنافسون التجاريون على المسرح . ذلك أنهم لم يكن لديهم رأس المال الجاهز اللازم للمشروعات الجديدة . حتى إذا انهار النظام المالى بأكمله فى عهد بيت كومنينى ، أصبح العبء فادحاً لا يطاق ؛ وبدا للناس أن حكم السلاجقة أو النورمان أفضل من حكم الإمبراطور أو يكاد[1] .

أما تفاصيل النفقات فما نحن بها بأعلم منا بغيرها . فليست بين أيدينا من وسيلة لمعرفة كم كانت نفقات الجيش أو الخدمة المدنية تكلف الخزانة . وكل ما لدينا من أرقام هى مرتبات بعض ذوى الوظائف العالية من الموظفين فى القرن العاشر . ويذكر قسطنطين السابع فى بحثه « عن المراسم De Ceremoniis » المبالغ المستحقة سنوياً لقواد الألوية (المقاطعات العسكرية) فى عهد لاوون السادس . وكان قواد ألوية الأناضول والألوية الأرمنية والتراقية يتلقون مبلغاً فخماً هو ٤٠ رطلا من الذهب (٤٣,٢٠٠ فرنكاً ذهبياً) ، وكان قواد الألوية الأوبسيكية والبوكلارية والمقدونية ٣٠ ، وهكذا دواليك إلى ما دون ذلك ، حيث كان قواد الثغور يُعْطَوْن أقل من ذلك ، نظراً لأنهم كانوا يجمعون رسوم التخوم ، هذا إلى أن الأوربيين لم يكونوا يتناولون شيئاً لأنهم كانوا يعيشون على الضرائب المحلية[2] . وقد شهد السفير الإيطالى ليودبراند الإمبراطور قسطنطين السابع وهو يوزع المرتبات الصغيرة المقررة لأرباب الألقاب فى سنة من السنوات . وتم الاحتفال بذلك فى الأيام السابقة لأحد السعف . وكان كل ماجستر وعددهم ٢٤ ، يتلقى أربعة وعشرين نوميسمات (٣٤٥,٦ فرنكاً) وتُخلع على كل خلعتا تشريفة (scaramangia) ، وكان كل بطريق (Patrician) يحصل على اثنى عشر نوميسمات وخلعة تشريفة ، على حين أن ذوى

---

(١) نيقيتاس قونياتس بالمرجع السالف الذكر ص ٥٠٠ ؛ وكيناموس ص ٢٢ .

(٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس « De Ceremoniis » ج ٢ ، ص ٦٩٦ ـ ٦٩٧ .

الألقاب الأخرى كانوا يتلقون ٧ أو ٦ أو ٥ أو ٤ أو ٣ نوميسمات أو اثنين أو واحدا ، كلٌ بحسب رتبه ؛ أما المرتبات التي تقل عن نوميسما واحدة فكان يصرفها كبير الأمناء (Paracoemomenus)[(١)] . وكان عميد كلية الحقوق – حيث كانت الجامعة إحدى مؤسسات الدولة – يتلقى في القرن الحادي عشر أربعة أرطال من الذهب سنوياً فضلا عن أجور ولوازم أخرى[(٢)] .

وكان الجهاز الإداري ببيزنطة عالي النفقة ومربكاً ومعطلا ، بيد أنه كان ذا مرونة كافية ، كما أنه كان ذا كفاية مفرطة طالما بقيت ميزانية الإمبراطورية سليمة . ولم يكن بد من أن يكون ضخماً وذلك لأن كل ما جل ودق من تفاصيل حياة الإمبراطورية كانت تُعد من اختصاص الحكومة . وكانت فكرة « ترك الناس وشأنهم » المعبر عنها بعبارة laissez - faire مما لا يخطر لأحد على بال . فكان التعليم والدين وكل ما له علاقة بالتجارة والمالية تحت هيمنة الدولة . وهناك كتيب يرجع إلى القرن العاشر يشرح واجبات والي القسطنطينية[(٣)] . وكان من واجبه الإشراف على جميع ألوان النشاط التجاري بالمدينة : كتثبيت الأسعار والأجور وساعات العمل والترخيص بفتح الدكاكين الجديدة ومراقبة تنفيذ القوانين الإضافية الخاصة بالصادرات . وكان عليه أيضاً أن يتحقق من مراعاة الناس ليوم الأحد الرعاية الواجبة . وكانت الحياة بالمقاطعات تنظم بنفس هذه العناية . وتسهيلا لعملية جمع الضرائب وضماناً للاستقرار العام ، كان السفر والهجرة لا يلقيان أدنى تشجيع . وكان على السلطات المحلية أن تصدر جوازات السفر للمسافر الجاد

---

(١) انظر ليودبراند « انتابودوسس » ١٢٧ – ١٣٨ .

(٢) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب عن التعليم الجامعي ومداه .

(٣) انظر الفصل السابع الخاص بالتجارة .

الصادق النية ، وكان على كويستور القسطنطينية أن يتحقق من أن زوار المدينة لا يحضرون إليها إلا لسبب وجيه . وكان لا بد من تزويد المدينة بالأطعمة ، وكانت أعمال الإغاثة شيئاً لا مفر منه فى أثناء المجاعات التى كانت تجتاح المناطق الريفية للدولة اجتياحاً دورياً . وكان لزاماً أن يوجد عمل للعاطلين القادرين جثمانياً على العمل ، ولذا وجب أن توجد المؤسسات الخيرية وتستمر فى العمل . وكان من شأن هذه اليقظة والتدخل فى كل شىء وكل مرفق أن يجعل هيئة الموظفين المركزية دائمة الانشغال .

ووجدت نزعة الرعاية الأبوية هذه مجالا رحيباً أيضاً فى ناحية الإشراف الذى كانت الحكومة تمارسه على الدين . فمنذ القرن الخامس لم يكن للمواطن الصالح بد من أن يكون أرثوذكسياً ، وعدت الهرطقة جريمة ضد الدولة . فإن السلطات المدنية اضطهدت الفيلسوف الزنديق يوحنا إتالوس وزعماء حركة البوجوميل (Bogomil) فى عهد ألكسيوس الأول . وحيثما اتسع نطاق الزندقة فى إحدى النواحى ، أقبل إليها موظفو الدولة وحملوا عنوة سكان قرى بأكملها إلى أجزاء أخرى من الإمبراطورية ، حيث ينغمرون فى جيرانهم الجدد أو حيث يُرجى بالحرى أن يردوهم عن الضلالة إلى المسيحية ثانية . وهكذا حُمل المردائية (Mardaites) وهم السوريون المؤمنون بوحدة إرادة المسيح (Monothelites) من لبنان فى القرن السابع إلى شواطئ آسيا الصغرى ، وهكذا كان الأرمنيون وبخاصة الهراطقة من أتباع بولس (Paulician) ينقلون باستمرار إلى أوربا طوال القرن التاسع . وكان للحكومة العذر الذى يبرر اتخاذها الإجراءات ضد الهرطقة ، وذلك لأن الهرطقة كانت فى العادة حركة سياسية . فكانت حركة وحدة طبيعة المسيح (المونوفيزية) بمصر وسوريا تستلهم وحيها من العداء الذى تضمه تلك البلدان لجابى الضرائب الإمبراطورى أكثر منها من العداء للاهوت

خلقيدونية : وإن دخلت العقيدة الأرثوذكسية طرفاً فى الأمر من حيث أن بعض الضرائب الفادحة كانت تجبى لسداد دين استدانه هرقل من كنيسة القسطنطينية . وكانت الكنيسة الأرمنية تقوم بوجه خاص كبؤرة تتجمع فيها أضواء النزعة الانفصالية الأرمنية عن الإمبراطورية . وفوق هذا فإن نظام الهجرة الإجبارية ذاك لقرى بأجمعها كان ينفع الدولة فى تحطيم أية كتلة من سكان أقوياء الشكيمة بالمقاطعات : وذلك بغض النظر عن مسألة الهرطقة . ذلك أن صقالبة مقدونيا يصيرون أضعف مراساً إن أنزل بينهم الأرمنيون . وبذا يمكن الاحتفاظ بالتوازن اللازم لاستقرار الأمور فى نصابها .

وربما جاز لنا أن ننعت المثل العليا للإدارة البيزنطية بأنها اشتراكية أو تكاد . فكان لا بد لكل فرد من أن يكون مواطناً صالحاً للدولة . وكانت عبادة الدولة والإمبراطور كرأس لها ورمز يرمز إليها والقانون الذى قامت عليه ـ تعد الأساس الجوهرى للمجتمع ؛ ولا شك أن هذا التشدد فى الدين هو والحق يقال العامل الذى حفظ الإمبراطورية من الزوال على مدى تلك القرون الكثيرة . وقد أخرجت بيزنطة عدداً كبيراً من رجال السياسة الطموحين ، بيد أنه قل منهم جداً من نسى واجباته نحو الدولة . وحتى باسيليوس المقدونى نفسه أو باسيليوس كبير الأمناء أو يوحنا كانتاكوزينى ؛ وإن فازوا بالتيجان أو حصلوا على الثروات لأنفسهم بتغاضيهم عن التدقيق الشديد فى كل ما يتعلق بالضمير ، إلا أنهم كانوا على الدوام يضعون مصالح الإمبراطورية فوق مصالحهم الشخصية

على أنه كانت هناك مع ذلك طبقة واحدة تأبى على الدوام أن تنسجم وهذه العبادة للدولة . تلك الطبقة هى الأرستقراطية المالكة للأرض . وكان وجود كبار أصحاب الأراضى مشكلة استعصى حلها على قدماء أباطرة الرومان ؛ بيد أن المتاعب التى دامت منذ القرن الخامس حتى الثامن يوم لم تكن مقاطعة

واحدة خالية من هجرة البرابرة أو عيثهم فيها فساداً ، قد قضت على قيمة الأرض ومزقت الضياع الكبرى شر ممزق . ولكن الذى حدث عند منتصف القرن التاسع هو أن المقاطعات الآسيوية ومن ورائها الأوربية بعد ذلك بقرن من الزمان ، صارت فى مأمن إلى حد ما ، وأصبحت الأرض بالمنظر إلى القيود التى تفرضها الحكومات على التجارة أعظم أنواع الاستثمار ربحاً . فنشأت طبقة جديدة من الأرستقراطية تستمد ثروات هائلة من ضياع ضخمة كانوا يجنحون دائماً إلى زيادة رقعتها - وأخذ مالك الأرض الصغير ينقرض لاضطرارهم إياه إلى بيع أرضه ، وعندئذ إما أن يصبح مستأجراً وإما أن يختفى من الميدان . وقلب هذا الحال نظام الضرائب رأساً على عقب كما قلب أيضاً نظام التجنيد فى الجيش الذى كان مرتبطاً بالأرض ونظام استغلالها ؛ هذا إلى أن النبيل الثرى الذى له حاشية ضخمة من الخدم والأتباع الذين كان يسلحهم - كان مصدر خطر واضح على الدولة . وكانت الإدارة تميز تمييزاً واضحاً بين الأغنياء (dunatoi) أو الأقوياء — وبين الفقراء (penêtes) ؛ لذا فإنها حاولت على الجملة أن تقصر عمل الأرستقراطية على الشئون العسكرية ، محتفظة للخدمة المدنية بالطابع الديمقراطى والحرية . وقد شغل الأباطرة طوال القرن العاشر بوضع التشريعات التى تحد من سلطان كبار الأعيان وقدرتهم على شراء أراضى الفقراء ، فحرم عليهم رومانوس الأول شراء أية أرض فى مجتمع لقرية ، كما أنه قضى شطراً من وقته هو وقسطنطين السابع وباسيليوس الثانى وأنفق جهداً كبيراً فى سبيل وضع هذه الإجراءات موضع التنفيذ وإحكام عملها . وكان باسيليوس الثانى قوياً عنيفاً بوجه خاص ؛ فإنه بشأن هنرى السابع ملك إنجلترة - اكتشف فى أثناء إحدى جولاته أن مضيفيه كانوا ذوى بأس شديد أكثر مما ينبغى ، فكسر من شوكتهم وعاقبهم بحزم ، بل اتخذ بعض الإجراءات ضد العصاميين من

أصحاب الأملاك[1] . وقد راعه أن الأسر القديمة كانت تزيد من رقعة أملاكها فضلا عن قيام أسر جديدة . ولكن الحكومة أخفقت دون هذه الغاية ، فلم يستطع شيء القضاء على سلطانهم حتى ولا إعادة باسيليوس الثانى لضريبة الالتزام التضامنى (allelengyon) التى كانت تستخدم وسيلة لإنزال الغرامات بأصحاب الأملاك . ولكن نيقيفوروس الثانى خان سياسة الإمبراطورية فعلا ، لأنه كان هو نفسه عضواً فى أسرة تملك أراضى عظيمة . وحدث عند منتصف القرن الحادى عشر أن أصحاب الأراضى الذين ينبغى أن يضم إلى مصافهم آنئذ رجال الدين بلغوا من القوة ما جعلهم يستولون على أزمّة الحكم فى جو الفوضى الذى تمخضت عنه انتصارات السلاجقة . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، أصبح الأرستقراطيون هم المتحكمون حقاً فى الإدارة ، وإن ضيقت الغزوات والفتوح الأجنبية الخناق على أراضيهم وحدّت من رقعتها . وما عتم الانضواء إلى سلك الخدمة المدنية أن أخذ يعتمد على نفوذ الأسرة وجاهها أكثر مما يعتمد على الكفاية والجدارة ؛ ثم إن فقدان ذلك القدر الكبير من الأراضى كان معناه أنه لم يعد هناك تقريباً أى مجال لنشوء أية أسر جديدة . فأقفلت الأرستقراطية أبوابها دون أى عنصر جديد . وأخذت تتجه فى المقاطعات نحو الاستقلال شبه الإقطاعى ، يوم جاء الفتح اللاتينى وأكمل التحول على حين غرة . وكان الأباطرة لا يزالون يشنون الحرب على السادة الأعيان (Magisters) كما أن أباطرة آل كومنينوس ونيقية الأقوى شكيمة كبحوا جماحهم عمداً . على أن ضعف ميخائيل باليولوجوس فى القرن الثالث عشر ويوحنا كانتاكوزينوس فى القرن الرابع عشر أظهر قوتهم . فإن الحركة التى شبت فى سلانيك إبان القرن الرابع عشر والمسماة بحركة المتحمسين الغيورين على الدين (Zealots) قد أثارها إلى حد كبير كبرياؤهم وصلفهم وحاولت أن تتحدى سلطانهم ،

---

(١) انظر الفصل الثامن .

ولكن عبثاً ما حاولت . وفى نفس الحين الذى آذنت فيه شمس الإمبراطورية بالمغيب ، صارت الأرستقراطية التى استولى الغزاة الأجانب منذ زمن طويل على أراضيهم ، موظفين مدنيين ورائيين تقريباً ، وكانوا بوصفهم كذلك ذوى قيمة كبيرة لدى الحكومة . بيد أن الضرر كان قد وقع . ومع ذلك فإن خدمة الحكومة ظلت مفتوحة الأبواب للجميع حتى النهاية تقريباً ؛ فإن العامى (البلبى) ذا الجدارة كان لا يزال يستطيع أن يصعد إلى مراقى الرفعة . كما أن الجهاز الإدارى ظل حتى النهاية محتفظاً بمستوى من الكفاية لا تعرفه أوربا الغربية . وربما كانت الضرائب باهظة أو غير مثمرة ولكنها كانت تجبى على كل حال ؛ كما أن رغبات الإمبراطور التى تصدر عن ديوان سكرتاريته كانت تذاع فى كل أرجاء ممتلكاته المنكمشة ، كما أنها كانت موضع الاحترام ما لم تسئ إلى كرامة الرأى العام .

ومما كان يساعد الحكومة فى أداء واجبها ذلك التوقير الفطرى للقانون الذى ورثته بيزنطة عن روما ، ومما كان يزيد كفايتها وضوحاً أخذها الناس بالعدالة . فكان الإمبراطور هو القاضى الأعلى ، وكان فى الإمكان دائماً اللجوء إليه بالمطالب والاستئناف . وإن بعض الأباطرة ليستمعون إلى مطالب الناس بأنفسهم : حيث كان چستنيان يميل إلى ممارسة هذا العمل ، على حين أن ثيوفيلوس كان يستقبل المتقاضين فى أثناء موكبه الأسبوعى الذى يخترق المدينة إلى حى بلاخرناى . ولكن جرت العادة بأن يتلقى وزير التظلمات « epi tôn deêseôn »[1] الالتماسات وأن يجهزها للعرض على الإمبراطور . ومع ذلك فقد كان من اختصاص سلطة نائب الملك المخولة للولاة البريطوريين ألا يستأنف شىء من أحكامهم فى أقاليمهم . ومن المحتمل أن والى إيطاليا قد ورث هذا الحق . فأما فى القسطنطينية فإن والى المدينة (أو خليفته الأميرال الأعظم) والكويستور كانا يقتسمان بينهما العمل فى إقامة ميزان العدالة والقضاء . أما فى المقاطعات فكان هناك قضاة فى قصبة كل لواء

---

(١) انظر ما قبله : الفصل الرابع .

أو مقاطعة عسكرية (ثيما) ، يجلسون للفصل فى القضايا ذات الأهمية الثانوية أو المتعلقة بالأصقاع المحلية ، أما القضايا الأخطر شأنا فكانت تحول إلى القسطنطينية ، حيث تفصل فيها محكمة عليا مكونة من اثنى عشر قاضياً . وكان رفع إحدى القضايا من الأعذار القليلة المقبولة لزيارة القسطنطينية ، وكان الأباطرة الأتقياء من أمثال رومانوس الأول ، يشيّدون دور الضيافة لاستقبال المتقاضين فى أثناء فترة مقامهم بالمدينة . أما القضايا التى كان أحد أطرافها من رجال الكهنوت فتفصل فيها المحاكم الكنسية ، التى كان فى إمكانها الاستماع إلى أية قضية مدنية إذا رغب فى ذلك الطرفان المتقاضيان . وقد بسط ألكسيوس الأول من سلطة المحاكم الكنسية فأصبحت تنظر فى القضايا المتعلقة بالزواج وبالهبات لأوجه البر . وينبغى ألا يغيب عن بالنا فى هذا الصدد أن الكنيسة كانت مصلحة من مصالح الدولة ، وأن ألكسيوس بوجه خاص كان يتحكم فيها بغاية الحزم . وفى عهد أسرة باليولوجوس يوم كان البطارقة يلعبون بوجه خاص دوراً كبيراً ومتزايداً فى إدارة الدولة ، زاد مجال محاكم الكنيسة واتسعت دائرة سلطانها حتى أصبحت يوم الفتح التركى من سعة التنظيم بحيث انتقلت إليها جميع السلطة القضائية المتعلقة بالسكان المسيحيين

وكانت العقوبات فى القضايا الجنائية إما الغرامات واستصفاء الأموال والأملاك أو التنكيل ببتر أعضاء الجسم . وقصرت عقوبة الإعدام بعد عهد لاوون الثالث على الخيانة والانضمام إلى صفوف الأعداء والقتل وارتكاب الفحشاء غير الطبيعية ، على أنها حتى فى هذه الحالات قلما نفذت فى أحد[1] . فهى لم تستخدم[2] مرة واحدة قط فى عهد يوحنا الثانى مثلا ، حيث كان

(١) الإكلوغة ترجمة فرشفيلد ص ١٠٦ ، ١١١ — ١١٤ .
(٢) نيقيتاس خونياتس ، ٦٣ : ومع ذلك لم يكد يوحنا يستخدم البتة طريقة بتر الأعضاء .

التنكيل ببتر الأعضاء يُعد بديلاً منها أكثر إنسانية وله ما يبرره من كلمات المسيح الذى نصح بإزالة الأعين الآثمة وبتر الأطراف الآثمة . ولم يتوسع فى استخدامها إلا لاوون الثالث ، ولكن كثر استخدامها منذ ذلك التاريخ ، وربما ملنا فى أيامنا هذه إلى اعتبارها عادة بربرية صارخة . غير أن ذلك لا يذهب بالحقيقة القائلة بأن معظم الناس كانوا ولا يزالون يفضلونها على الإعدام ، وبما زاد فى تخفيف العقوبات حق الالتجاء إلى الكنائس ، وهو حق لم يستثن منه بعد لاوون الثالث إلا طبقات قليلة من المجرمين[1] ، بل القتل أجازه قسطنطين السابع للقاتل ، على شريطة أن ينتظم فى سلك الرهبانية ؛ وفى هذه الحالة ينتقل نصف أملاكه على الفور إلى ورثة القتيل والنصف الآخر لورثته هو ، وإن جاز أن ينتقل بعضها معه إلى ديره[2] . وحتى الخيانة نفسها أخذوا يقللون رويداً رويداً من تطبيق عقوبة الإعدام عليها ؛ حيث جرت العادة بأن الاعتزال فى أحد الأديرة الذى يكفل تقييد حرية الجانى فى الحاضر الدنيوى ويزوده بالخلاص فى المستقبل الأخروى ، كان يعد عقوبة كافية وإن كان الرأى عندهم أن الأحكم أن يضاف التنكيل البدنى إلى ذلك . أما السجن وهو عقوبة كبيرة النفقة لا تعود على الدولة بأية منفعة ، فكان مجهولاً فى الواقع . فلم يكن سجن الدولة (Praetorium) يستخدم إلا لحجز المجرمين الذين ينتظرون المحاكمة .

ومن العسير علينا أن نقدّر إلى أى مدى كان الفساد والرشوة يتدخلان فى إقامة ميزان العدل . ولكن لعل فى إمكاننا أن نقول إنه كان هناك من الناحية الرسمية حتى يوم أصدر لاوون الثالث « إكلوغته » ، قانوناً للغنى وآخر للفقير . وتشير حكايات مثل حكاية أرملة القرن السابع التى ظلمها

---

(١) الإكلوغة ١٠٥ — ١٠٦ .

(٢) انظر « Jus Graeco - Romanum » ج ٣ ص ٢٧٦ .

النبيل ثوتيلينوس[1] بأن صرح العدالة كان يقام إن قُدر للقضية أن تخترق الحجب حتى تصل إلى المحاكم المناسبة ، إلا أن أصحاب النفوذ كانوا غالباً ما يستطيعون تعويقها عن بلوغ تلك الغاية . ذلك أن لاوون الثالث يشكو فى مقدمة الإكلوغة من أن الرشوة والفساد قد كثُرا . ولكن التاريخ البيزنطى بأكمله لا يوجد به إلا عدد من الشكاوى فريد فى قلته حول إقامة ميزان العدالة ؛ وينبغى لنا أن نستنتج من هذا الإمساك عن الإفاضة فى هذا الموضوع أن البيزنطى كان بالقياس إلى جيرانه ومعاصريه على كل حال ، لا يجد إلا أسباباً قليلة للتذمر والشكوى .

(١) نيقيفوروس ، ٨ .

الفكرة المتسلطة المستقرة فى الأنفس شغل الدولة الشاغل ، كما أنه رفع الإمبراطور فجعله حارس مفاتيح السموات وراعي القطيع وأشبه الناس ببطرس ، أمير الرسل ، كما ادعى لاوون الإيسورى[١] . ولم يتعرض مركز الإمبراطور بهذا الوصف لأى تحد خطير فى الشرق . فظلت الكنيسة حتى النهاية فرعاً من فروع الدولة . ولكن كانت للفكرة عيوبها ؛ حيث كان يترتب عليها كثرة الزج بالإمبراطور فى حلبة المخاصمات والكفاحات التى ربما نجت منها راحتنا أى حاكم آخر غيره يدين بدرجة أقل بمذهب إراستوس[٢] فى سيطرة الدولة على الشئون الدينية .

وقد رأى المسيحيون الأوائل بنبوغهم وثاقب بصرهم أن تشكل الكنيسة على غرار الدولة العلمانية وتنظيماتها لتفوز بأعظم ما يمكنها الفوز به من نفوذ . وقد أنزلت الكراسى الرئيسية فى المسيحية منذ أيام الرسل الأولى فى العواصم الثلاث لعالم البحر المتوسط : روما والإسكندرية وأنطاكية ، على أن يكون لغير هذه من المدن والبلدان أساقفتها ورؤساء طوائفها تبعاً لأهميتها من الناحية المدنية . وعندما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة حذت الكنيسة حذوه . وأعيد تنظيم المراتب الكهنوتية لتتوافق والولايات الجديدة . ولم يلبث إنشاء قسطنطين للعاصمة الجديدة أن أحدث انقلاباً فى النظام الكنسى لا يقل عما أحدثه فى النظام الإدارى المدنى . وكانت بيزنطة أسقفية صغرى تقع فى دائرة اختصاص مطران هرقلية ، وهو مركز من الجلى تماماً أنه غير مناسب لعاصمة العالم المسيحية الجديدة . وسرعان ما رفعت منزلة أسقف بيزنطة فأصبح بطريرك القسطنطينية . ولكن الذى حدث داخل الكنيسة نفسها أن الكراسى الأقدم عهداً دبت فيها الغيرة وانتهجت خطة المعاكسة وإقامة

---

(١) الإكلوغة ترجمة فرشفيلد ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) إراستوس : فيلسوف دينى يقول بوجوب سيطرة الدولة على الشئون الدينية .

(المترجم)

العراقيل ، ولم يتمكن أباطرة بيت قسطنطين المراطقة والوثنيون من وضع سلطان الدولة الجديد موضع التنفيذ . ولم يتم الاعتراف بالمركز الديني الجديد للقسطنطينية بصـفة عامة إلا في عهد الإمبراطور الأرثوذكسي ثيودوسيوس الأول . ومنح المجلس المسكوني بطريق القسطنطينية المركز الثاني بين البطارقة ، « لأن القسطنطينية هي روما الجديدة »[1] . وأسندت الأسبقية لأسقف روما القديمة ، بيد أن بطريقي الإسكندرية وأنطاكية ومن بعدهما زميلهما بطريق بيت المقدس الذي أنشئ منصبه فيما بعد ، كانوا يتلونه في المرتبة . وكانت المقاطعات التي يتولى شئونها آنذاك كرسي القسطنطينية هي آسيا الصغرى والشطر الأعظم من شبه جزيرة البلقان .

ولم تعترف روما قط بادعاء القسطنطينية بحقها في ذلك المركز الثاني ، إذ داخلتها الشكوك فيما يحتمل أن يترتب على مقدمات القضية من نتائج محتملة[2] ، كما أن الإسكندرية قبلت الوضع محتجة ، وظلت تتحين على الدوام سنوح الفرص اللازمة لإبراز استقلالها وأرثوذكسيتها الأكثر تدقيقاً . وإنك لتلحظ على الدوام في طوايا تاريخ زندقات القرون التالية ، أن غيرة البطارقة تطل برأسها كأنها الدق الإيقاعي المتواصل ، فتشهد روما تحاول إبراز سلطانها على القسطنطينية ، بينما تحاول الإسكندرية أن تثبت على الدوام أنها وعاء الأرثوذكسية الأوحد .

على أن الأقدار لعبت دوراً قوياً لصالح القسطنطينية في أثناء القرن السابع ، وما لبث بطارقة الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس أن وجدوا أنفسهم على حين غرة أساقفة في أقسام منعزلة (in partibus) . فإن الفتوح العربية التي زاد من قوتها كراهية البطارقة أنفسهم لسلطات القسطنطينية ،

(١) انظر (Concilia) تأليف مانسي ج ٣ ص ٥٦٠ .

(٢) لم تعترف روما بذلك المركز إلا في أثناء احتلال اللاتين القسطنطينية ، يوم أن أصبح الكرسي البطريركي في قبضتها تماما (مانسي ، (Concilia) مج ٢٢ ص ٩٩١) .

الفصل الخامس

الدين والكنيسة

لا مشاحة أن الكفاية العملية لدستور الإمبراطورية ولنظامها الإدارى ربما كانت تؤدى إلى حرمان مواطنى الإمبراطورية من مباهج المناقشات والخصومات السياسية وما تنطويان عليه من لذة لولا أن ميداناً فسيحاً كان مفتوحاً أمامهم فى ناحية الدين . ولكى نستطيع فهم التاريخ البيزنطى يتحتم علينا أن نتذكر عدم أهمية الحياة فى هذه الدنيا لدى البيزنطى . فلقد انتصرت المسيحية فى ذاك العصر المتشبع باليأس المنزوعة عنه حجب الخديعة والوهم لأنها كانت تَعِدُ الناس بعالم أفضل فى المستقبل وتزودهم بفرار غامض من العالم الراهن . بيد أن السعادة السرمدية الصائبة والنشوات الصادقة لم يكن فى الإمكان الفوز بها إلا بانتهاج سبيل الأرثوذكسية الكاملة . وبناء على ذلك غدت النقاط الصغيرة المتعلقة بالسنن اللاهوتية تُعد أعظم أهمية بدرجة لا حد لها من المسائل العظمى المتعلقة بالسياسة العلمانية ، وذلك لأن تلك الأمور الخاصة بالشق الثانى لم تكن تتعلق إلا بهذا العالم ، كما أن أمور الشق الأول كانت فيها الأبدية فى وضع محفوف بالمخاطر . أجل إن الغرائز الدنيوية ، غرائز حب الراحة وإصلاح حال الذات والارتقاء بها ، لم يكن فى الإمكان البتة إخمادها والقضاء عليها ؛ كما أن أنواع القلق المالى وعبء الضرائب الفادحة كانت تستطيع دائما أن تثير فى النفوس مشاعر قوية وإن كانت ذات طابع سلبى . بيد أن جل عناية البيزنطى كانت موجهة بصورة معقولة جداً إلى هذه التفاصيل الصغيرة التى قد تعود عليه بفتح مصاريع الجنة أمامه أو إغلاقها دونه .

وقد جعل قسطنطين الأكبر باتخاذه المسيحية عقيدة للدولة ، من هذه

سلبهم نصف قطعانهم كما حرمتهم من أهميتهم جميعها تقريباً ، حيث جعلتهم عبيداً لسيد من غير ملتهم . وفى نفس الحين عزلت غزوات البرابرة روما عن سائر العالم فأصبحت خلواً من أى ضبط علمانى دقيق وغدت حرة فى تطوير ما شاءت من فكراتها المتعلقة بنظم الحكم فى حكومة كهنوتية (theocracy) . وهكذا صارت رقعة الإمبراطورية مطابقة لرقعة بطريركية القسطنطينية ، فيما عدا نواح معينة تحت سلطان كرسى روما نقلها لاوون الإيسورى إلى سلطة القسطنطينية . ومنذ ذلك الحين صار بطريرك القسطنطينية رئيساً للمسيحية الشرقية غير منازع ، وكانت دائرة اختصاصه تضم أقوى إمبراطورية فى المسيحية بأكملها . وكان يستمتع من السلطات الايجابية ما يجعل حتى « حبر » روما نفسه على تمتعه بقدر أعظم من الاستقلال يحسده ويتَنَفَّس عليه سلطانه . ولكن البطريرك كان يدفع ثمن سلطته غالياً . إذ لم يكن يُسمح له أن ينسى أمداً طويلا أنه خادم الإمبراطور .

ولم يكد استرداد أنطاكية عند ختام القرن العاشر يؤثر فى الموقف . وذلك لأن أنطاكية كانت فى ذلك الحين من الذلة والاتضاع بحيث لا تعد إلا مجرد رئاسة أسقفية ذات مرتبة خاصة وتستمتع بامتيازات شبه مستقلة . وكانت الكنيسة القبرصية تستمتع بحق قديم فى الاستقلال ، ومع ذلك فلم يكن هذا بيت القصيد .

لقد ظل تنظيم كنيسة القسطنطينية حتى النهاية صورة طبق الأصل من الدولة العلمانية[1] : إن لم يكن من السهل معرفة إلى أى حد من الدقة كانت الأبروشيات تتقابل فى الرقعة مع الألوية (المقاطعات العسكرية) للإمبراطورية . وقد وضع دستورها مجلس ترولو الذى عقد فى ٦٨١ ولم يغير بعد ذلك البتة تغييراً جوهرياً : ويجىء من وراء البطريق المطارنة ورؤساء الأساقفة فى المدن

---

(١) عن ذلك التنظيم انظر « Oriens Christianus » تأليف لى كوين ؛ وانظر أيضا (L'Église Byzantine) تأليف بارجوار ، ١٩٩ ح ح .

الكبرى وقصبات المقاطعات . ويلى هؤلاء الأساقفة على اختلاف درجاتهم ، وكان كل منهم يرأس رجال الدين المحليين لديه ، حتى يصل إلى قسيس القرية المتواضع (pope) . على أنه كان هناك فارق كبير بين رجال الدين المحليين وذوى الرتب العالية فيهم . فبينما كان ينبغى على قسيس القرية أن يكون متزوجاً ، بغية المباعدة بينه وبين دواعى المغريات الجنسية وحمل هموم شئونه المنزلية ، فإن الطبقة العليا من رجال الدين أى الأساقفة ومن يعلونهم فى المرتبة كانوا جميعاً يؤخذون من الأديرة . وكانت الأديرة أنواعاً مختلفة . وكان أدناها مرتبة تحت سلطان أسقف محلى أو سيد محلى ، بيد أن أديرة أخرى كانت تحت رجال دين أعلى من ذلك . وكان بعضها الآخر لا يعترف إلا بسلطة البطريرك وحده ، وثمة أديرة أخرى أعلى من ذلك مكاناً لا تعترف إلا بسلطة الإمبراطور . وأشهر مثال على هذا النوع الأخير أديرة جبل أثوس التى كانت تحتوى منذ نهاية القرن العاشر على جمهورية من الأديرة تحكم نفسها بنفسها ، قد اختلف مؤسسوها بل حتى اختلفت جنسيات من بها من رهبان ، مع اعترافهم بالإمبراطور سيداً أعلى . وكانت الأديرة تطيع وتتبع بدرجة متفاوتة من الدقة التى وضعها القديس باسيليوس فى القرن الرابع والتى تحضهم على الدراسة والعمل . بيد أنه كانت هناك أيضاً مجتمعات من النساك (Laurae) وهم أميل إلى الهدوء بصورة شاملة مطلقة ، ومن ثم فهم أحظى بإعجاب الناس أو يكادون . وربما كان لهذين النوعين امتيازات فى الحكم تماثل امتيازات الأديرة . وكان الناسك المحلى المنعزل أو العمودى (Stylite)[1] يقع بالضبط تحت سلطان أسقفه المحلى ، ولعله كان أقوى منه قوة مطلقة ، فقد كان توقير الناس شديداً موفوراً لكل ذى تقوى مقترنة بالمتاعب وإرهاق الجسد . وكانت أديرة النساء تتبع نفس القواعد التى

(١) الناسك العمودى : جرت عادة بعض النساك فى تلك الأيام العيش فوق قمة أحد الأعمدة ، ومن ثم كان الواحد منهم يسمى بالناسك العمودى . (المترجم)

تنتهجها أديرة الرجال . وكان كل من الكنيسة العلمانية والأديرة مفرطة الثراء . فإن أسقف باتراس فى القرن العاشر كان فى وسعه أن يجهز للحروب من ماله الخاص كتيبة أكبر كثيراً من كتيبة أى رجل علمانى فى المقاطعة(١) ؛ ولا يغيبن عن البال أن كثرة التشريعات الموجهة ضد توريث الأديرة منذ القرن العاشر فما بعد تشهد بأجلى بيان إلى أى حد أخذت الأديرة تصبح من ملاك الأراضى الأقوياء . على حين أن حركة تحطيم الصور (Iconoclastic) التى ظهرت فيما بعد كان الهدف الأكبر منها مناهضة الأديرة . بيد أن قوة الأديرة زادت ، كما أن رؤساءها ومن بها من إيغومانوس (Higumenes) وأرشمندريت وبخاصة من كان منهم بالأديرة الواقعة داخل القسطنطينية نفسها ، كثيراً ما كانوا رجالا يستمتعون بأهمية سياسية هائلة . وكان ثيودوروس الاستوديومى (of Studium) يعد من كبار السياسيين فى عصره(٢) .

وكانت الهيئة بأكملها يهيمن عليها البلاط البطريركى هيمنة دقيقة جداً : فإنا نجد فى مراسلات البطارقة العظماء رسائل موجهة إلى بعض رجال الدين ممن قلت أهميتهم ، يصدرون فيها الأوامر أو يظهرون الشكوى والتذمر من مسائل صغرى تتصل بنهج السياسة أو النظام . فكان من الجلى أن البطريرك كان دوماً على علم تام متواصل بكل شىء يحدث داخل كنيسته ، وكانت إرادته تنفذ فى كل أرجائها(٣) . ولكن البطريرك نفسه كان تحت سيطرة الإمبراطور . وكان من الناحية الإسمية فقط ينتخب بواسطة هيئة الأساقفة . وكان الإمبراطور هو الذى يعينه فى الواقع ونفس الأمر ، كما كان يستطيع أن يعزله على الدوام بحشد مجمع (سنودس) خاضع لإرادته . وكان السلاح

(١) انظر (De Administrando Imperio) تأليف قسطنطين بورفير جنيتوس ، ٢٤٣ .

(٢) انظر « Les Biens des Monastères en Byzance » لمؤلفه فيرادو (فى صفحات متفرقة) .

(٣) وانظر مثلا مراسلات مختلف البطارقة .

الوحيد الذى يستطيع البطريرك أن يستخدمه ضد الإمبراطور هو الحرْم. وقدحدث أحياناً كما فى حالة پوليوكت والقائل يوحنا جيمسكى (تزيمسكيس)، أن كان التهديد بالحرْم كافياً لتخويف الإمبراطور[1]؛ على أن بطريقاً مثل نيقولاوس مستيقوس نفذ الحرْم فعلا ولكنه ما لبث أن وجد نفسه مخلوعاً يسير أشواطاً فى طريق المنفى[2] — وإن كان الإمبراطور يخرق قوانين الإله صراحاً. وكان الإمبراطور يمارس رقابته وتحكمه فى الكنيسة عن طريق وزيره الملقب السنكللوس (رفيق القلاية Syncellus)[3].

على أن التحكم الإمبراطورى كان على وجه الجملة يطبق فى يسر وسهولة. فلم يكن الأباطرة يتدخلون كثيراً فى شئون الكنيسة، حيث أدركوا كما قال يوحنا جيمسكى (تزيمسكيس) يوم نصب باسيليوس بطريركا « إن الله أمر بوجود قوتين » هما الإمبراطور للدولة والبطريرك للكنيسة[4]. وقد ثار بعض ذوى الهمة من البطارقة حنقاً من هذه السلطة الروحية للإمبراطور (Caesaropapism)؛ على أنه حتى فوطيوس نفسه سقط، لا بسبب تحديه الإمبراطور بقدر ما سقط بسبب شدة تسرعه اللاهث فى تنفيذ سياسة إكليريكية متعجلة، كما سقط كريسوستوم (أى فم الذهب) لأنه انتقد أخلاق رجال البلاط، وهو أمر عده البطريرك — وبحق ما فعل ذلك — داخلا فى دائرة اختصاصه، كما أن بطارقة معزولين آخرين مثل جرمانوس أو أرسينيوس إنما خلعوا بصفة رئيسية لأنهم قاوموا ما عدوه تصرفات سيئة من الناحية الكنسية أو المذهبية صدرت من الإمبراطور. وكان ميخائيل كيرولاريوس، وهو الذى كان يرتدى الأحذية الأرجوانية

---

(١) كدرينوس جـ ٢ ص ٣٨٠.

(٢) انظر الفصل الثانى.

(٣) انظر الفصل الرابع.

(٤) انظر لاوون دياكونوس ص ١٠١ — ١٠٢.

ويدعى أنه يستطيع عزل الأباطرة وتنصيبهم ، هو وحده الذى كان يهدف إلى إطلاق سراح الكنيسة نهائياً من قبضة الدولة وهيمنتها ؛ غير أن مطامحه اعتبرت صارخة وغير عملية[1] . وكان أغلب الأباطرة يحملون أعباء واجباتهم بضمير حى ، ويعينون البطارقة المناسبين . وبلغ من الاستخفاف الذى أظهره باسيليوس الأول أنه أخذ يرسم الخطط لتنصيب ابنه الصغير على العرش البابوى ؛ بيد أن الغلام مات قبل أن يمضى فى تلك السدة زمناً طويلا[2] ، وحذا رومانوس الأول حذوه برفعه ابنه الصغير ثيوفيلاكتوس وهو شاب طيب الأخلاق شديد الكلف بالخيل . على أن ثيوفيلاكتوس وإن حاول أن يقلل من سآمته بإدخاله البانتوميم الصامت الذى يمثل المعجزات فى الصلوات الكنسية ، إلا أنه تسبب فى حدوث فضيحة بما كان له من تبلد ظاهر رغم أنه كان يؤدى كثيرا من واجباته بكفاية ؛ ثم لم تتكرر تلك التجربة بعد ذلك أبداً[3] .

وكان يحدث أحياناً وبخاصة عندما كان الإمبراطور يقبض على الشئون بحزم ــ أن يتفشى فى أداة الحكم شىء من الرشوة والاتجار فى المقدسات والوظائف الدينية . فإن القديس لوقا الناسك العمودى سحب من والديه بطريق المداهنة والإغراء مبلغ مائة نوميسما (١٤٢٠ر١ فرنكا ذهبياً) بحجة أنه كان يحاول الحصول على كرسى الأسقفية الشاغر بمدينة سباست[4] . ومن المحتمل أن ذلك تم يوم كانت الكنيسة فى أيدى صنائع لاوون السادس ، الذى كان وزراؤه مستعدين لقبول الرشوة بصورة ساءت سمعتها .

---

(١) انظر بيورى بعنوان الأباطرة الرومان فى كتاب (Selected Essays) ص ٢١٠ – ٢١٤ .

(٢) يذكر كتاب ثيوفانيز كونتنياتوس ص ٣٥٤ أن باسيليوس عينه رفيق قلاية (سنكلّوس) ثم تولى منصب البطريركية بعد وفاة باسيليوس .

(٣) كدرينوس ، ٢ ص ٣٣٢ – ٣٣٤ .

(٤) حياة القديس لوقا الناسك العمودى ، ٢٠٨ .

وقد راحت الإمبراطورية منذ القرن الخامس تعد الزندقة جريمة ضد الدولة ؛ ومن ثم كانت سلطات الدولة وليس الكنيسة هي التي تتخذ الإجراءات ضـــدها . على أن العادة التي جرت هي أن ذلك الإجراء لم يكن إلا حين تكون الطائفة المتزندقة خطرة من الناحية السياسية ، شأن طائفة البوجوميل[١] التي كانت تبشر بالخروج على طاعة الدولة ، أو كانوا يشـــغلون مناصب ذات مسئولية مثل الأستاذ العلامة يوحنا إتالوس . فإن كان الزنديق المتهم من رجال الدين ، فإن ما حدث في حياة سمعان (سميون) اللاهوتي الجديد ، يوحي إلينا أن نستنتج أن السنكللوس كان بعد توجيه بضعة أسئلة اختبارية إليه ، يقدم عنه تقريراً إلى البطريرك الذي يتخذ الإجراءات ضده . على أن حق الاستئناف إلى الإمبراطور كان مكفولا له — وقد تخاذل البطريرك عندما هدده أصدقاء سمعان الأقوياء بتقديم القضية إلى باسيليوس الثاني[٢] .

وكانت الزندقة تعرف من الناحية الرسمية بأنها نبذ أي قانون يصدر عن المجالس العامة للكنيسة . ذلك أن القوم كانوا يرون أن أي مجلس مسكوني وهو جمعية تنعقد برياسة الإمبراطور وتمثل فيها كل الكنائس المتجانسة التي يتم الاتصال بينها والتشاور . هو الهيئة الملهمة التي تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية — ومنذ الأيام الأولى الباكرة كان أسقف روما بوصفه الأسقف الأكبر الأول يصدر تصريحات مذهبية كما أن يوستنيانوس خلق للإمبراطور مركزاً مماثلا لذاك ، ولكن كان لابد من قيام مجلس

---

(٤) البوجوميل : (ومعناها بالسلافونية أحباب الله) طائفة متزندقة ظهرت بالكنيسة اليونانية في بلاد البلقان . وكان زعيمها راهبا يدعى بوجوميل أحرقه الكسيوس كومنينوس حيا ١١١٨ . ولكن المذهب ظل حيا حتى الفتح العثماني لبلاد البلقان في القرن السادس عشر .
(المترجم)

(١) انظر : « Vita S. Symeonis Novi Theologi » : ١٤٠ — ١٤١ .

مسكونى عام لضمان قبول مثل هذه التصريحات فى الشرق طوال حياة الإمبراطورية بأجمعها .

وكانت المجالس المسكونية السبعة تعد هى والكتب المقدسة أساساً للعقيدة الأرثوذكسية . فقد دعى كل منها للاجتماع للبت فى نقطة خاصة من نقط اللاهوت ولإصدار حكمه ضد زندقة معينة . ولا يخفى أن مذهب الثالوث مذهب عسير كما أن مذهب التجسد لا يزيده يسرا . فلا عجب أن كان الطريق السوى فى علم البحث عن طبيعة المسيح وشخصه من الحرج بصورة تجعل علماء اللاهوت أنفسهم مهما بلغ من حسن قصدهم — عرضة للانزلاق فى هذا الاتجاه أو ذاك . وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها الأهلية ، يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهيـة التامة للمسيح ، أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد . وأصدر أول مجمع مسكونى ، وهو مجمع نيقية قرارا باستنزال اللعنة عليهم ؛ ولكن الذى حدث هو أن مذهب آريوس ظل طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الرا... بالقسطنطينية . ولم يُقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى ٣٨١ — أما فى الغرب فإن هذا المذهب قد عاش قرونا عقيدة يؤمن بها القوط . وكان نصر الأرثوذكسية هو نفسه نصر الإسكندرية برئاسة أثاناسيوس . وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام عالم المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها .

وقد سنحت فرصتها المواتيـة عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والناسوتى . وكانت تلك حركة بُغّضت إلى قلوب الناس ، لأنها كانت تؤدى بصورة منطقية إلى مهاجمة مريم العذراء نصيرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة ،

التي كانت مهددة عندئذ بالحرمان من لقبها : أم الرب . واتحدت ضده الإسكندرية مع روما وشعب القسطنطينية . وأصدر المجمع المسكونى الثالث المنعقد فى إفيسوس قراره ضده ، بدافع من قوة شخصية بطريرك الإسكندرية كيرلس (Cyril) . وعندها انسحبت بضع كنائس بشمال سوريا ، وأسست هيئات مستقلة تحت حماية الفرس . واتخذ لاهوتها وطقوسها ضربا من الپيوريتانية لم يكن مؤسسها ليسمح بها دون حرج . كان رجال هذه الهيئات مبشرين أشداء يقومون بالرحلات إلى بلاد الصين نفسها ؛ وكانت بقية منهم لاتزال موجودة إلى حين قريب بجبال كردستان .

على أن الإسكندرية قضت على نفسها بفرط مبالغتها . فإن بطريقها التالى ديوسقوزوس أخذ يخوص وراء نظرية أوطيخا (يوتيخوس) عن المسيح وهى المسماة بالنظرية المونوفيزية أى الداعية إلى وحدة طبيعة المسيح . ولم توافق روما على الفكرة ، وآثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مزاج روما . ونعى المجلس المسكونى بخلقيدونية على ديوسقوروس آراءه . وعندئذ أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح (المونوفيزيون) هراطقة وصاروا موضع الاضطهاد .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها فى الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح (المونوفيزية) صغيرة نسبيا :- وهى تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما – على أن النتائج السياسية كانت هائلة . ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل كمشكلة متسلطا على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفى المجمع المسكونى الخامس المنعقد بالقسطنطينية فى ٥٥٣ اعترف يوستنيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يُوفق بين الطرفين المتنازعين . ولم يلبث المجلس المسكونى السادس الذى عقد فى القسطنطينية فى ٦٨٠ أن شهر بميثاق التوفيق المسمى بوحدة إرادة المسيح « المونوثليتية » (Monothelitism) وهو المذهب الذى حبّذه أباطرة بيت هرقل .

ولكن السيف كان قد سبق عند ذاك العزل ؛ ذلك أن الكنائس المونوفيزية المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح كانت قد انسحبت وانتهى أمرها ، كما أن الكتلة العظمى من أتباعها « قطعانها » كانت اعتنقت الإسلام .

وحفل القرن الثامن بخصومات تحطيم الصور[١] . فأما سورية الشمالية فأصبحت موئلا للبيوريتانية . إذ شاعت محبة النسطورية فى قلوب الناس هناك بوصفها حركة بيوريتانية . ولقيت غريمتها ، عقيدة وحدة الطبيعة (المونوفيزية) أيضا . تحبيذا من الناس هناك بزعامة بيوريتا اسمه يعقوب باراديوس . وفى ذلك الوقت نفسه كان رجل فى شمال سورية هو لاوون الملقب بالإيسورى يحاول أن يفرض المذهب البيوريتانى على الإمبراطورية . وكان مذهب تحطيم الصور فى أساسه مسألة تدخل تحت علم طبيعة المسيح وشخصه (Christology) ، فهل يمكن رسم إلوهية المسيح وتصويرها ؟ فإن لم يكن ، أليس من الوثنية عبادة صور له ؟ وكان من اليسير إثبات أن لاهوت تحطيم الصور إما أن يكون لاهوتا مونوفيزيا يؤمن بوحدة الطبيعة أو نسطوريا ؛ ثم أخذ القوم يستحدثون فوارق خفية دقيقة فى طبيعة العبادة ؛ على أن مذهب تحطيم الصور أخفق فى الحقيقة لأنه هدد بحرمانهم من الصور التى يحبونها . وكما أن نسطوريوس بدا للناس كأنما يهاجم العذراء ، فإن لاوون وخلفاءه كانوا يتهمون إذ ذاك بإهانة المسيح وجميع القديسين . ولم يطل عمر مذهب تحطيم الصور ذلك الطول الكبير إلا لاقتدار زعامته وكفايتها ، ولمساندة الجيش له ومعظمه من ذوى المولد الأسيوى ومعاضدة كل من كانوا يكرهون الزيادة المطردة فى قوة الكنيسة والأديرة . وقرر المجمع المسكونى السابع المنعقد فى نيقية فى ٧٨٧ إدانة مذهب التحطيم ، ومع أن الحركة انتعشت ثانية فى القرن التالى ، إلا أنها كانت سياسية إلى حد كبير وقصيرة الأجل .

---

(١) انظر : « La Querelle des Images » ، تأليف بريهييه ؛ وانظر : «Stud. zur Gesch. des Byzant. Bildestreites» تأليف اوستروجورسكى .

ولم تلق الكنيسة بعد انقشاع مذهب التحطيم متاعب من أية زندقة داخلية خطيرة . أجل كان من الممكن أن يقع غَيُورُ الحذِر في الزلل ، شأن ديمتريوس اللامبي (of Lampe) الذي عاد من رحلة طاف بها أرجاء ألمانيا في القرن الثاني عشر وهو ساخر لأن الألمان قالوا بأن الابن معادل للآب وإن كان أدنى منه منزلة . ولقي رأيه في سخف تلك الفكرة نجاحا ضخما حتى أوضحت السلطات الكنسية أنه فاته أن يدرك خفايا الثالوث[١] . ولكن لم تبدر بعد ذلك أية محاولة أخرى خطيرة للمساس بنواحي طبيعة المسيح وشخصه على النحو الذي أقرته المجامع السبعة . وأخذت الخلافات اللاهوتية تدور بالأكثر حول لاهوت المذهب الباطني (Mysticism) وطقوسه . وكانت الكنيسة اليونانية تحبذ منذ القدم مذهب التصوف وتفخر بكُتّابها المتصوفة (المِسْطيقيين) أمثال « ديونيسيوس الأريوباجيتي » ومكسيموس المعترف اللذين كانت مؤلفاتهما تجد إقبالا شديدا من القراء طوال تاريخ الإمبراطورية ؛ ولكنهما كانت تقف حائرة بإزاء الفحوى اللاهوتي لما يسمى بالنشوة الوجدانية عند الصوفية . وإنا لنرى هذه المسألة تشغل بال السلطات منذ بواكير القرن الحادي عشر في حياة سمعان « سميون » اللاهوتي الجديد ؛ ولم تتم تسويتها نهائيا إلا بعد انتهاء خلاف هيسيشاست (Hesychast) في القرن الرابع عشر ، يوم استطاع المتطرفة من أتباع مذهب التجرد النفسي (Quietism) بزعامة بالاماس الأثونيتي (Athonite) أن يحملوا الكنيسة في النهاية على الاعتراف بأن الباطني من هؤلاء ينزل عليه حقا نفس النور الذي شع على جبل تابور[٢] (Tabor) . فأما الزندقات الرئيسية التي وجب إذ ذاك على الإمبراطورية مكافحتها فإنما هي زندقات خارج الكنيسة وضدها ، زندقات تقوم في التقاليد المانوية . ولم يحدث قط أن ظفرت المانوية

---

(١) انظر كِنّاموس . - ٢٥١ ع ع .

(٢) انظر « Thessalonique au XIV Siècle » تأليف تافرال ، ١٧٠ ع ع .
[جبل بالجليل يقع شرق الناصرة بسبعة أميال، ورد ذكره في الإصحاح الرابع من سفر القضاة] .
(المترجم)

فى حد ذاتها بمكانة متينة داخل الإمبراطورية . ولكن حدث فى القرن التاسع أن طائفة تؤمن بالثنائية تعرف باسم أتباع بولس[1] (Paulicians) ، استقرت بين الأرمن النازلين بأرض الفرات الأعلى ، مؤسسة هنالك جمهورية دينية[2]. فقضى عليها باسيليوس الأول سياسيا وحاول إخمادها بإنزال أتباع بولس هؤلاء فى بعض رقاع من الأرض تقع على امتداد الحدود البلغارية . ولكنهم كانوا هناك مصدر وحى لحركة تزندق بلغارية أثاروها واتحدوا معها كان يُطلق عليها اسم الحركة البوجوميلية نسبة إلى مؤسسها بوجوميل[3] (Bogomil). ولم يضايق أتباع بوجوميل الإمبراطورية كثيرا إلا بعد فتح بلغاريا ؛ ولكنهم ظلوا منذ تلك الساعة مشكلة لا بد للحكومة من مواجهتها لما يؤمنون به من أن كل ما يتصل بالجسد بما فى ذلك العمل وطاعة السلطة الحاكمة وإنجاب الأطفال ، رجس دنس بدرجة متساوية . بل لقد بلغ الأمر بأتباع بوجوميل أن وجد منهم ألكسيوس الأول وكراً فى القسطنطينية نفسها ، فحاكم زعماءه وأعدمهم بشدة تغتفر له[4] . ومع ذلك فإن مشكلة البوجوميل لم تحل بالنسبة للإمبراطورية إلا عندما فقدت الإمبراطورية كتلة ولاياتها البلقانية فى نهاية القرن الثانى عشر .

ومع ذلك فكثيراً ماكان الانشقاق يفرق كلمة الكنيسة . وفى الأيام الخوالى كان الانشقاق نتيجة طبيعية للزندقة . مثال ذلك أن إدخال مذهب تحطيم الصور أوجد فى الإمبراطورية هيئة ضخمة من رجال الدين المعزولين

---

(١) أتباع بولس : شيعة من الزنادقة نشأت بسوريا والشرق فى القرن السابع ومعتقداتهم خليط من المانوية والأوغنصطوية ولهم احترام خاص للقديس بولس ولذا نسبوا إليه .
(المترجم)

(٢) انظر المقدمة لكتاب « Key of Truth » تأليف كونيبيارى .

(٣) رانسيمان « الإمبراطورية البلغارية الأولى » ص ١٩٠ — ١٩٦ .

(٤) أنا كومنينا ، ٣٨٤ ع ع ، ٤١٢ ع ع .

من وظائفهم الذين لا يدينون لها بالولاء ، فضلا عمن عينوا مكانهم رسمياً ، وناهيك بما كان يستعر بين الطرفين من حرب ! ! . . . أما الانشقاقات التي حدثت منذ القرن التاسع فترجع بالأكثر إلى أسباب شخصية ، مردها في العادة محاولة بعض الأباطرة تخطي حقوقهم . مثال ذلك أنه عندما عزل ميخائيل الثالث والقيصر بارداس البطريق إغناطيوس عزلا ليس له مايبرره ، آثر نصف رجال الدين أن يذهبوا إلى المنفى على الاعتراف بخليفتـــه فوطيوس ؛ ولما انعقد مجلس ٨٧٩ بقصد عمل الصلح بين البطريقين ، كان كثير من الكراسي الدينية يمثلها أسقفان . ولم يندمل ذلك الانشقاق إلا بموت إغناطيوس بعد إعادته إلى منصبه[1] . ثم حدث انشقاق آخر مماثل لهذا بعد ذلك ببضع سنين ، عندما عمد لاوون السادس وقد انتهك حرمة القانون وجرح الشعور الخلقي بزواجه من زوجة رابعة ، إلى عزل البطريرك نيقولاوس الذي حرمه . وتبع نصف رجال الكنيسة نيقولاوس ؛ وظل نصفهم الآخر مؤيداً خليفته يوثيميوس التقي ومعتقداً بأن الإمبراطور كان له مبرر فيما صنع[2] . وحدث الانشقاق الثالث من هذا القبيل في عهد ميخائيل باليولوجوس الذي خلع البطريق أرسينيوس لعدة أسباب تافهة ، وذلك لأن البطريق لم يستطع أن يغض الطرف عن مقتل الإمبراطور الشرعي يوحنا الرابع . واحتفظ أرسينيوس بأعوانه . واضطر ميخائيل أن يذعن في النهاية ، حيث التمس من البطريرك يوسف[3] بعد وفاة أرسينيوس أن يحله من قرار الحرْم .

ولكن كانت هناك مسألة واحدة أزعجت الكنيسة الأرثوذكسية طوال

---

(١) انظر بيوري : « Eastern Roman Empire » ص ١٨٠ — ٢٠٩ ؛ انظر روينو « Le Schisme de Photius » واقرأ متفرقات من كتاب « Photius » لهرجنروتر (Hergenröther) .

(٢) انظر (Romanus Lecapenus) لرانسيمان ٤١ ع ع .

(٣) انظر « ميخائيل باليولوجوس » تأليف تشابمان ٩٩ ع ع .

عصور تاريخها بأكمله ، مسببة الانشقاقات حيناً ومتخذة مظهر الزندقة حيناً آخر ؛ وكانت تلك المسألة ، مسألة علاقتها مع روما[1] . وكان الأصل فى تلك المسألة هو غيرة العاصمة القديمة من الحاضرة الجديدة للدولة . وكان من الجلى تماماً فى أيام الرسل أن روما العاصمة الدنيوية كانت أليق الأماكن لتكون العاصمة الدينية ؛ كما أن بطرس أمير الرسل ختم حياته أسقفاً لروما . حتى إذا كفت روما عن أن تكون القصبة السياسية للعالم ، تمسكت كنيستها بانتسابها إلى بطرس واتخذت ذلك سبباً للاحتفاظ بمركزها السامى . وبلغ من جشعها أن لم تبح القسطنطينية حتى أن تتبوأ المقام الثانى . لأن القسطنطينية كانت تدعيه لنفسها بوصفها روما الجديدة ، بينما روما لا تعترف إلا بكنيسة لها مؤسس من الرسل — وإن لم تفسر لنا ألبتة بوضوح لماذا يكون للكرازة المرقصية بالإسكندرية الأسبقية دوماً على كرسى بطرس الأنطاكى .

ومما زاد فى مرارة الموقف ظهور هرطقات القرنين الخامس والسادس الكبرى ، كما أنها أظهرت الاتجاهات المتنافرة أصلا . وكان طرفا الخصومة هما الإسكندرية والقسطنطينية ، وكان كل فريق منهما يلجأ إلى روما طالباً للتأييد . وظلت روما مستمسكة بأن رأيها ووجهة نظرها ينبغى أن يسودا دون مناقشة . على حين أن القسطنطينية كانت تقبل ما تذيعه روما إن أقره مجلس مسكونى ؛ بينما تؤثر الإسكندرية أن تنفصل عن أن تتخلى عن لاهوتها ؛ على أن القسطنطينية لم تفتأ رغم عزتها فى ظل السلطات الإمبراطورية العلمانية تسعى جاهدة للوصول إلى تسوية مع أتباع المونوفيزية المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، وهو مذهب كانت روما مصممة على ألا تصبر عليه أبداً ، وذلك لعدم ارتباطها هنا بأية مصلحة سياسية قد تتعرض للخطر . وفى النهاية ،

---

(١) انظر « فوطيوس » طرجغروتر بمواضع متفرقه ؛ وانظر « Das Papsttum und Byzanz » فى مواضع متفرقة ؛ انظر « الكنيسة اليونانية » لبرهيه ، فى تاريخ كمبردج للقرون الوسطى مج ٤ ص ٢٤١ — ٢٧٢ ، ٥٩٤ — ٦٢٦ وثبت بالمواضع .

فإنه وإن اضطرت قوة السلطات العلمانية البابا ڤيجيليوس بأن يعد بالموافقة على كل أنواع التسوية والتوفيق ، ومع أن البابا هونوريوس الأول كان من الحماقة بحيث أصدر نطقاً من كرسى أبروشيته مصطبغاً بالزندقة ينطوى عليه مذهب وحدة الإرادة (المونوثيلية) — إلا أن تصلب روما كان له النصر فى النهاية ؛ ولقيت مباحث طبيعة المسيح وشخصه التى أملاها البابا ليون الأول فى رسالته البابوية فى القرن الخامس قبولا عاما بوصفها جزءاً جوهريا من العقيدة الصحيحة . ولكن بينما راحت روما تعتبر أن مجرد نطق ليون بها هو الذى أكسبها الصحة ، فإن القسطنطينية إنما قبلتها لأن مجالس مسكونية ثلاثة قد أقرتها . وفى الحين نفسه بينما أخذت القسطنطينية تصبح بصورة فريدة لا نظير لها هى المدينة المسيحية العظيمة ، فإن أساقفتها أصبحوا أكثر ثقة بالذات وصلفا . وأخيراً حدث فى ٥٩٥ أن البطريرك يوحنا الصائم استفذته مدعيات روما ، فاتخذ لقب « المسكونى Oecumencial » . فغضب لذلك بطبيعة الحال البابا جريجورى العظيم ، وصاح بأن زمن المسيح الدجال لا بد أنه اقترب . وصرح بأن أحداً من تلك الكرازات ليس له سلطة على الآخر ، بل الجميع سواسية أمام الله[1] . على أن روما لم تحتفظ مع ذلك بهذا الرأى فيما عقب ذلك من سنيها . وفى نفس الحين كان المزيد من الكراهيات ومن ألوان سوء التفاهم ينتظر الطرفين بسبب مسألة اللغة . إذ كانت روما فى ذلك الحين لا تكاد تضم إنسانا يعرف اليونانية ، على حين أخذ التجافى عن اللاتينية يشتد بالقسطنطينية يوما بعد يوم

وأدت الخصومة التى دارت حول تحطيم الصور إلى انشقاق صريح بين روما والحكومة الإمبراطورية . وكانت البابوية تعترف حتى آنذاك بالسيادة العليا للإمبراطور . بل الذى كان يحدث والحق يقال حتى القرن السابع ،

---

(١) انظر ص ٧٣٨ ج ج من Gregory the Great, Epistolae, M.P.L., vol. 77

أنه لم يكن بد من أخذ إذن من القسطنطينية قبل أن يمكن انتخاب بابا جديد ، بيد أن قسطنطين الرابع صرح بأن موافقة النائب الإمبراطوري (Exarch) برافنا فيها الكفاية[1] . ولكن فى القرن الثامن ترادفت خصومة التحطيم وحروب اللومبارد فجعلت أهل روما يقررون الاستغناء عن مظهر الولاء ذاك . وقد استفز البابوات — ولهم فى ذلك كل عذر معقول — مصادرة الأباطرة للإيرادات الواردة إليهم من صقلية وكالابريا ، فراحوا يبحثون عن حلفاء لهم فى الغرب بين الفرنجة . ولكن القسطنطينية كان بها دوائر كثيرة تكره أن تفصم علاقتها مع روما . وكان الكثيرون يشاطرون البطريرك جرمانوس رأيه بأن بدعة مثل تحطيم الصور لا ينبغى أن تتم دون أن تمر على مجلس مسكونى ، وما لبث بولس بطريق تحطيم الصور أن استقال من منصبه فى ٧٨٤ ، بلذعات من ضميره لأن : « الكنيسة تُحكم بالطغيان وتُفصل عنوة عن كرازات المسيحية الأخرى »[2] . وكان أن لجأ الناقمون إلى روما بوصفها أول هذه الكرازات منزلة . بل لقد تقدم بعضهم على ذلك خطوة أخرى . وكان ثيودور الاستوديومى بما عرف عنه من بغض المذهب الإراستيانية (Erastianism)[3] يرى أن روما بما قُيض لها من تحرر من قبضة الإمبراطور وهيمنته ينبغى أن تفصل فى كل ما يتصل بالمذهب الدينى : على حين أن الناس عامة كانوا يكادون يجمعون على أن الكرسى البطرسى ينبغى على كل حال أن يُستشار . ولكن الذى حدث فعلا هو أنه بينما كان ثيودور يكتب هذا القول ، ضيعت روما فرصة إقرار قدمها فى الشرق بعمل ينطوى على حماقة سياسية كبرى .

---

(١) انظر « Liber Pontificalis » ح ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٢) ثيوفانيز ص ٤٠٩ ، ٤٥٧ .

(٣) الإراستيانية : النظرية القائلة بوجوب إخضاع الكنيسة للدولة . ويشتق ذلك الاسم من توماس إراستوس (١٥٢٤ — ١٥٨٣) وهو لاهوتى ألمانى سويسرى ، كتب يعبر عن ضرورة حرمان الكنيسة من حق طرد الأفراد من حظيرتها كعقوبة على الخطايا . (المترجم)

فإن البابا ليون توج شرلمان فى وقت عادت فيه إلى الكنيسة وحدتها للمرة الثانية ، وجعل ذلك التتويج من المحال على الحكومة الإمبراطورية أن تثق بالبابوية بعد ذلك أدنى قدر من الثقة . ولم يكن مفر من أن ترى القسطنطينية فى ذلك التتويج عملا ينطوى على الخيانة . ولم تكد خصومة تحطيم الصور تنتهى حتى نشب نزاع آخر ، فإن البابا نيقولاوس الأول حاول أن يتدخل بتشجيع من الجانب المنهزم ، فى نزاع شبّ داخل كنيسة القسطنطينية . ذلك أنه جرت العادة عند انتخاب بطريق جديد لأى واحد من الكرازات الكبرى أن يعلن لزملائه تصريحاً بالعقيدة وأن يطلب منهم إقراره . ورفض نيقولاوس التصديق على خطاب اعتلاء البطريرك فوطيوس الكرسى ، لا للطعن فى عقيدته بل لأن انتخابه كان مشكوكاً فيه من الناحية القانونية . ولكن فوطيوس كان نداً وصنواً له . فلم تنقض بضعة أشهر حتى كان كل حبر منهما قد حرم زميله حرْماً رهيبا ، وبعد ذلك بقليل أقبل فوطيوس بابتهاج على فضح زميله حيث ضبط البابا مشتركاً فى إحدى الزندقات(1) .

ولا يخفى أن الفحوى اللاهوتى لإضافة عبارة « وعن الابن أيضاً Filioque » إلى العقيدة ليس عظيما جداً ، ولكن بقيت هناك حقيقة قائمة هى أنها إضافة زائدة عن مذهب المجالس المسكونية السبعة ؛ كما أن روما نفسها سبق لها أن استنكرتها . وكان العبث بالعقيدة شيئاً لا يغتفر فى نظر القسطنطينية وكنائس الشرق ، التى حرص فوطيوس على إبلاغها نبأ مظالم روما وجرائرها . وربما كان الفرق تافهاً ، ولكنه كان قائماً على كل حال . وإقدام روما بغاية الهدوء على إدخاله فَصَمَ عرى ارتباطها بهيئة العقيدة الأرثوذكسية . ومنذ ذلك الحين أصبحت عبارة « وعن الابن أيضاً Filioque » وإن جاز أن يصرح أهل اللاهوت بأنها ضمنية فى العقيدة ، أقول أصبحت تلك العبارة وحدها دون أى خلافات أخرى فى الطقوس — هى السبب فى استحالة قيام

(1) انظر المراجع الواردة فى ص ١٣٨ ، ه ١ .

سلام دائم بين روما والقسطنطينية . ذلك أن روما أبت أن تتخلى عن الفكرة ، ذهابا منها إلى أن ما تقوله لا بد أن يكون هو الصواب ؛ كما أن القسطنطينية لم تكن لتقبل ما تعده كفراً وزندقة ، لا لشيء إلا لأن الذى نشر الفكرة هو روما .

ومما زاد فى تفاقم هذا النزاع الذى أثاره فوطيوس ، ظهور الكفاح الذى نشب حول السيادة على كنيسة بلغاريا الوليدة — وهو نزاع خرجت منه القسطنطينية مظفرة[1]. على أن الصلح الذى اقتضت اللباقة أن يظل غير حاسم ، لم يتم إلا بعد سقوط فوطيوس للمرة الثانية ، وظلت الكنيستان أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان على اتفاق تام وتجوهلت عبارة « وعن الابن أيضا Filioque » خلال ذلك . وبلغ الأمر بالإمبراطور لاوون السادس أن دعا البابا إلى استخدام سلطته المذهبية لكى يسلطها لمناهضة سلطة البطريرك فى مسألة الزيجة الرابعة[2] . وكانت روما إبان تلك السنوات فى أيد واهنة ضعيفة ، على حين كانت القسطنطينية فى أوج مجدها . ولم يكن البيزنطيون يشغلون أنفسهم بروما . وعندما خاطب مبعوثو البابا نيقيفوروس الثانى بلقب إمبراطور الإغريق ، أظهر البلاط الإمبراطورى سخطه بسجن السفراء وتجاهل الرسالة التى يحتويها الخطاب البابوى[3].

بيد أن الانتعاش الذى أحدثته ببلاد الغرب النهضة الدينية التى قام بها رهبان دير كلونى[4] الفرنسى فى القرن الحادى عشر أفضى إلى تجديد مدعيات الكرازة البطرسية فى السيادة العالمية ؛ ولم يعد بد من حدوث جفوة مع القسطنطينية .

---

(١) انظر رانسيمان "First Bulgarian Empire" ص ٩٩ ع ع .

(٢) انظر الفصل الثانى أعلاه .

(٣) انظر ليودبراند فى "Legatio" ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٤) كلونى : مدينة فرنسية على نهر الساءون اشتهرت بديرها الذى أبرز فى القرون الوسطى مجموعة ضخمة من عظماء الرهبان واتسع سلطانه فى أوربا عامة . (المترجم)

وقد حاول البطريرك يوستاثيوس فى ١٠٢٤ أن يتفادى ذلك الانشقاق ، بأن طلب من البابا أن يعترف بادعاء بيزنطة الاستقلال مع احتفاظ روما بأسبقيتها . وكان البابا يوحنا التاسع عشر ميالا للموافقة ، لولا أن نصحاءه من رهبان دير كلونى منعوه من ذلك . غير أن العلاقات ظلت ودية ، فوافق البابا يوحنا التاسع عشر على إصلاح كنيسة جنوب إيطاليا على النحو الذى اقترحه البطريرك ، على حين لقيت الكنائس الصغيرة التى تتبع الطقوس الدينية اللاتينية تشجيعا فى القسطنطينية(١) .

وجاء الانشقاق النهائى فى عهد البابا الفرنسى المصلح ليون التاسع والبطريرك ميخائيل كيرولاريوس . وأدت غزوات النورمان لجنوب إيطاليا إلى تعقيد العلاقات السياسية بين روما والقسطنطينية ولم تلبث فى النهاية أن أدت إلى توترها . وفى نفس الحين ثارت نفس كيرولاريوس لمعاملة البابا له معاملة التابع ، وعزم على ألا يجعل لأحد أسبقية روحية عليه ، فعاد إلى أقوال فوطيوس وتعييره للبابا بالزندقة . وأخذت الرسائل والبعثات المتبادلة بين الطرفين تزداد على التدريج حدة ، حتى عاد الحبران الأعظمان للمسيحية فى ١٠٥٤ للمرة الثانية ، كما حدث فى أيام فوطيوس ونيقولاوس إلى وضع بعضهما بعضا تحت طائلة الحرم . وللمرة الثانية عادت كنائس الشرق إلى تأييد كيرولاريوس ، بوصفه نصير الاتجاه الذى يشتركون فيه . وفى هذه المرة صار الانشقاق أبديا . على أن البيزنطيين بلغ من ضآلة انشغالهم آنذاك بروما أن أحدا من المؤرخين المعاصرين لم يهتم بذكر تلك الحادثة(٢).

ودفع الصليبيون كلا من الشرق والغرب إلى إقامة علاقات أوثق ولكن

---

(١) انظر ما كتبه رادولفوس جلابر فى M.G.H.Ss مج ٧ ، ٩٦ ؛ وانظر من أهل هيوفلافينى (Flavigny) M.G.H. Ss. مج ٨ ، ٣٩٢ ؛ وانظر "L'Italie Méridionale" تأليف Gay ص ٤٢٧ .

(٢) انظر كتاب "Le Schisme Oriental" تأليف بريهييه . بمواضع متفرقة .

نتائج الاتصال كانت غير موفقة . ولشد ماسرّ أباطرة كومنين أن يتمكنوا من إبراز الأمل فى إعادة الوحدة بين الكنيستين باعتبار ذلك خطوة فى المعترك الدبلوماسى ، على أن احتمال إعادة الوحدة كان يزداد كل عام بعداً عن التحقيق. فإن انعدام الثقة السياسية جعل اللاتين يستريبون دعاة الانشقاق من الإغريق ويكرهونهم ، على حين أن الإغريق جعلوا يحتقرون الهراطقة اللاتين الغلاظ ويمقتونهم . وزاد الموقف مرارة اضطهاد اللاتين للسوريين المسيحيين الذين كانوا يشخصون للإمبراطور بوصفه حاميهم . وزادت مذبحة الإيطاليين بالقسطنطينية فى ١١٨٣ من تأجج نار العداوة ، حتى بلغت ذروتها الهيبة فى الحملة الصليبية الرابعة .

وكانت تلك الحملة الصليبية الرابعة هى القاضية على آخر فرصة لإعادة الوحدة بين الطرفين إعادة حقيقية . أجل إن البابا « إنوسنت » الثالث قد هالته فعلا أخبار نهب القسطنطينية ، بيد أنه صمم على أن يفيد أتم الفائدة من المزايا التى ستدرها تلك الحادثة على روما . فوضعت الكنيسة فى أيد لاتينية فى كل أرجاء الممتلكات اللاتينية الحديثة الانضمام ، وحُتِم على دعاة الانشقاق من اليونان أن يجرعوا كأس الاضطهاد المرير . ولم يذعن لسلطان البابا إلا القليل من اليونان الذين آثروا الاحتفاظ بمناصبهم ؛ ولكنهم كانوا يعدون خونة وأنزلت بهم الغالبية لعنة الحرْم ، وسارت فى طريق النفى بإباء وشمم ، معتقدة آنذاك ومعها نيقيتاس أكوميناتوس[1] ، أن البابا لا بد أن يكون — رغم كل احتجاجاته على التهمة — هو المحرك الحقيقى للحملة الصليبية الرابعة . أجل إن ميخائيل أكوميناتوس واصل مع ذلك الاحتفاظ بعلاقاته بالمرددين ، وإن استهجن ضعف نفوسهم ، ولكن مثل هذا النوع من سعة الصدر كان نادرا جدا[2]. وعندئذ اتخذ « إنوسنت » الثالث نغمة أكثر رفقا واعتدالا ، حيث

(١) نيقيتاس خونياتس ص ٧١٥ .

(٢) ومع ذلك فإنه استمر يكتب رسائل ملؤها الود لرجال الدين الذين بقوا فى آتيكا .

أنب الأسقف اللاتيني الجديد لأثينا على فرط غلوه في الاضطهاد والتحمس له ووعد بفتح باب المفاوضات. ومع ذلك ، فإن مبعوثيه سواء منهما الكردينال اللبق بنيدكت أو الكردينال غير اللبق بيلاجيوس تلقيا التعليمات بعدم إظهار أي تساهل(١) . غير أن اليونان كانوا أيضا غير متسامحين مثلهم تماما . لذا كتب زعماء اليونان بالقسطنطينية في ١٢٠٧ إلى « إنوسنت » رسالة أودعوها وجهة النظر اليونانية بأكملها . وعبروا عن استعدادهم لقبول حكم سيرياريس (Sireris أي السير هنري أعظم أباطرة اللاتين اقتدارا) ، كما أبدوا استعدادهم لتقديم آيات التكريم الممتاز إلى « مولاى بابا روما القديمة » ، ولكنهم أبدوا عدم موافقتهم على عبارة : « وعن الابن أيضا Filioque » وعلى نوع السيادة التي يدعيها لنفسه البابا « إنوسنت » وارتأوا أن يدعوا البابا مجلسا(٢) .

وظل الطرفان على موقفهما ولاسبيل إلى الصلح بينهما . فضلا عن أنه ما دامت الإمبراطورية الرومانية قائمة ، فإن الاعتبارات السياسية كانت تحول دون احتمال بذل أية محاولة جدية في سبيل إعادة الوحدة . وكان أباطرة نيقية يؤيدون الانفصال عن روما ، ووجدوا إمبراطور الغرب فردريك الثاني أقوى مؤيد لهم . وبلغ من استخفاف يوحنا فاتاتزيس بمسألة إعادة الوحدة أنه اقترح أنه إذا ألغى البابا فقرة « وعن الابن أيضاً Filioque » اغتفر لهم اليونان طقس الخبز غير المختمر الذي يمارسه اللاتين(٣) .

على أن استرداد القسطنطينية غيّر من الموقف . أجل إنه أزعج روما في البداية ، وسارع البابا في ١٢٦٢ إلى منح من يحاربون الإمبراطور ميخائيل باليولوجوس نفس صنوف الغفران التي كان يمنحها لمن يقومون بحملة

---

(١) انظر نوردين بالكتاب المذكور آنفا ص ١٨٢ ع ع ، ٢١٢ ع ع .

(٢) وهي واردة في M. P. G. مج ١٤٠ ، ٢٩٣ ع ع .

(٣) انظر المفاوضات التي أوردها مانسي في : "Concilia" مج ٢٣ ، ٤٧ ع ع .

صليبية على المسلمين[1] . بيد أن ميخائيل كان يؤمن إيمانا راسخاً بأن من الحكمة إقامة صرح الوحدة مهما كلفه ذلك ، وذلك لسوء علاقته بكنيسته ولشدة رعبه من هجوم الغرب عليه . وفى مجلس ليون فى ١٢٧٤ وافق مبعوثوه باسمه على الاعتراف بسيادة روما . على أن القسطنطينية آثرت ألا تتبعه . وانتشرت فى المدينة صيحة عامة . فاختلف معه البطريرك يوسف ، بل حتى أخته يولوچيا أقرب مستشاريه منزلة إليه ، فانشقا عليه وقادا المعارضة[2] ، فلم يستطع الإمبراطور أن ينفذ فكرة الاتحاد : وعندئذ غضبت روما واتخذت موقف المتحدى المعتدى ، فخيرت الإمبراطور بين أمرين : فإما أن يفرض المسألة على الإمبراطورية قهرا قبل يوم أول مايو ١٢٨٢ ، وإلا حرمه البابا وشجع عدوه شارل أمير أنجو (Anjou) وأيده ضده . ودب اليأس فى قلب ميخائيل ، ولكن مذبحة القسبار الصقلية التى شبت فى مارس قضت على قوة شارل وأنقذته . ولم تزد تلك الحادثة البابا قربا إلى قلوب أهل القسطنطينية . على أن ميخائيل عد نفسه مرتبطا ارتباطا شخصيا باتحاد ليون طوال حياته ؛ ولكن خلفاءه عادوا إلى فكرة الاستقلال[3] . وظل الحديث عن إعادة الوحدة متواصلا طوال القرن الرابع عشر . واقترح يوحنا كانتاكيوزينوس أن يجتمع مجلس يصطبغ بقدر الإمكان بصبغة مسكونية بإحدى المدن البحرية الواقعة بين روما والقسطنطينية ليحل المشكلة ، ولكن لم يتم فى هذا السبيل شىء[4] . وفى نفس الحين أضعف كل من المنفى فى أڤينيون والانشقاق الأعظم[5] من سلطان البابوية .

---

(١) انظر « سجلات إربان » Registres d' Urbain V نشرها جيرو رقم ١٢١ .

(٢) باتشيمر ج ١ ، ٣٧٩ ع ع .

(٣) انظر تشاپمان بالمرجع المذكور ، ١١٣ ع ع .

(٤) انظر كانتاكوزينوس ، ٣ ، ٦٠ .

(٥) المنفى فى أڤينيون والانشقاق الأعظم : قامت بأڤينيون من ١٣٧٨ — ١٤١٨ بابوية =

وعندما تجلى بأوضح صـورة فى بواكير القرن الخامس عشر أن الإمبراطورية تلفظ آخر أنفاسها ، وأن البابوية قد استردت شيئاً من هيبتها ، عمد رجال السياسة فى الإمبراطورية الذين أخذ اليأس بخناقهم على إحياء الحركة من جديد . وأسرف عمانوئيل الثانى فى التلويح للغرب بالآمال فى الاتحاد واتخاذها طعماً لاجتذابه ، ونصح ابنه بأن يعد بالشروع فى المفاوضات ويرجئها فى نفس الحين إلى ما لانهاية . فقد قال : « إن كبرياء اللاتين وعنـاد اليونان لا يمكن أن يلتقيا ؛ ومحاولة الاتحاد لن تزيد هوة الانشقاق إلا اتساعا[1] » . على أن يوحنا الثامن لم يعلِ إلى الأخذ بتلك النصيحة ، فوضع الإمبراطورية تحت تصرف مجلس فلورنسا التماسا لوعد بالقيام بحملة صليبية على الترك ، حيث وافقت أغلبية رجال الدين اليونان تحت ضغطه وبعد مناقشات لا نهاية لها على أن عبارة من الابن (ex Filio) تحوى نفس معنى عبارة عن طريق الابن (per Filium) ، وأنهم يعترفون بالسيادة العامة لأسقفية روما ، منقذين حقوق الكنائس الشرقية وامتيازاتها — مهما يكن ما يتضمنه ذلك من معنى .

ولو أُتبع اتحاد فلورنسا بالحملة الصليبية الموعودة لتقبلته القسطنطينية فيما يحتمل بالشكر والامتنان . بيد أن البابا كان يعد بما لا يستطيع إنجازه . ذلك أن أحداً لم يكن يخرج آنذاك للجهاد الصليبى بإرادة البابا . وكانت الحملة الوحيدة التى وجهت على الشرق هى حملة ملك المجر وحلفائه الذين وضعوا نصب أعينهم حماية مصالحهم الخاصة هناك ؛ كما أنها أُصيبت بكارثة عند وارنة (ڤارنة) فى ١٤٤٦ . والواقع أن يوحنا الثامن لم يكسب من الاتحاد شيئا سوى كراهية رعيته له . ودامت التسوية التى تمت بفلورنسا

= فرنسية تناهض باباوات روما سميت بابوية المنى ، فأحدثت فى المسيحية انقساماً يسمى بالانشقاق الأعظم . (المترجم)

(١) أنظر لرافچيس ، ١٧٨ .

حتى يوم سـقوط الإمبراطورية ، بيد أن الغالبية الماثلة من مواطنى القسطنطينية لم تقبلها . وإن حدث والإمبراطورية تعانى سكرات الموت أن نسى القوم الفروق بينهم واشترك كل من الاتحاديين والقوميين فى ذلك القداس الأخير الرهيب الذى أقيم بكنيسة أياصوفيا ، ومع ذلك فإن الدوق الأعظم لوقاس نوتاراس لم يكن وحده الذى صرح بأن عمامة السلطان خير من قبعة الكردينال ، ولاكان حديثه غير معقول ؛ وذلك لأن السلطان ترك لليونان كنيستهم مسـتقلة لكى تحيى أرواحهم أمد قرون الظلمات السياسية ، بينما كانت روما تسلبهم روحهم .

وليست قصة العلاقات بين كنيستى المسيحية العظيمتين مما يشرف المسيحية كثيراً . بيد أن محاولة تعيين الصواب والخطأ من الناحية الخلقية أو التاريخية عبث لا طائل تحته ، كما أن من ينصّبون أنفسهم للكتابة دفاعا عن أى من القضيتين إنما يضيعون وقتهم سدى . لقد كانت الصعوبة وعقدة العقد أن كل كنيسة كانت لها فكرتها عن التنظيم المسيحى والسلطة المسيحية . فعلى حين أوغلت روما مضيا فى طريق الاعتقاد بعصمة البابا من كل زلل ، ظلت القسطنطينية تخلص بعنادشديد حتى النهاية للأفكار الديمقراطية للمسيحيين الأول ، « فكيف نستطيع أن نقبل مراسيم لم نستشر فى شأنها ؟ » ذلك سؤال سأله نيقيتاس النيقوميدى لأنسلم الهافلبرجى عندما تناقشا فى مسألة الاتحاد فى القرن الثانى عشر[1] ؛ ولم تكن مطالبة روما بالخضوع التام جوابا عن ذلك السؤال بأية حال .

وكانت القسطنطينية تمنح ما تمنعه عنها روما من استقلال للكنائس القومية التى تقع فى دائرة سلطانها . فقد ادعت الكنيسة القبرصية الاستقلال منذ انعقد مجلس إفيسوس (٤٣١)[2] ؛ ولم تحاول القسطنطينية قط أن

---

(١) انظر كتاب نوردين المذكور آنفا ص ٩٧ - ٩٩ .

(٢) مانسى : "Concilia" مج ٤ ، ص ١٤٦٩ .

تتحكم فى بطريركيات الشرق ، وإن حاولت أن تؤثر فيها . ولقيت الكنائس الأجنبية التى أنشئت بفضل حميتها فى التبشير ، مثل مختلف الكنائس القوقازية والسلاڤونية ، كل التشجيع فى الاحتفاظ بلغاتها الأصلية كما سمح لها فى الوقت المناسب بأن تحكم نفسها بنفسها لقد كان المثل الأعلى البيزنطى يأخذ بنظرية تعدد كنائس الدولة المتمتعة بالاستقلال ، والتى يربطها بعضها ببعض العلاقات الكنسية المتبادلة وعقيدة المجالس المسكونية السبعة ، بل إن أى بلد خاضع كان له آن يحتفظ بكنيسته . وآية ذلك أنه عندما فتح باسيليوس الثانى بلغاريا ، ترك للكنيسة البلغارية قساوستها القوميين وطقوسها السلاڤونية ؛ ولم يصر إلا على شىء واحد هو أن يكون رئيسها يونانيا ، وذلك للتحقق من أن الهيئة لا تستخدم لأغراض الدعاية القومية[1] .

وكان هناك كثير من هذه الكنائس الشقيقة المستقلة ؛ وذلك لأن الكنيسة البيزنطية كانت ذات قوة عظيمة فى دعوتها التبشيرية . ولا مراء أن بلاد القوقاز وشبه جزيرة البلقان وسهول الروسيا تدين كلها بمسيحيتها للقسطنطينية ؛ كما أن كيرلس وميثوديوس الرسولين المبعوثين لوسط أوربا ، أرسلهما فى الأصل البلاط الإمبراطورى . ويلوح أنه كان بالقسطنطينية فى عهد فوطيوس مدرسة لامراء فيها لتعليم المبشرين المرسلين إلى الصقالبة[2] . وكانت الحكومة العلمانية تميل بطبيعة الحال إلى تشجيع كل عمل من شأنه أن يوسع من دائرة سلطانها ؛ ولكن ليس هناك من سبب يدعو إلى الشك فى مقاصد الكنيسة المنطوية على حب الخير للغير ورغبتها الأصيلة فى ذلك ، ولا إلى التقليل من شأن هبات المدنية والتحضر التى أسبغتها على الشعوب المتنصرة .

لم تلق الكنيسة البيزنطية من المؤرخين معاملة تنطوى على شىء من

---

(١) جلزر فى .B.Z مج ١ ، ٢٤٥ ح ح ، مج ٢ ، ٢ ح ح .

(٢) انظر "Epistolae" تأليف فوطيوس .M.P.G مج ١٠٣ ، ٩٠٤ — ٩٠٥ ؛ انظر « حياة القديس ناحوم » نشره لافروف (بالسلاڤونية) ، ٤ — ٥ .

التلطف . فإن تقواها لم تكن من نوع تقوى الغرب . كما أن رهبانيتها (Monasticism) أخذت تنزع رويداً رويداً إلى التحول إلى النزعات التجردية (السكونية)[1](Quietism) . وكانت تعوّل تعويلا يكاد يكون هستيريا على قيمة الندم . وكانت عواطفها سريعة الاستثارة ، كما أن كثيرا من مجامعها ومجالسها كان يعتريها من ألوان العنف كل ما خرج عن حدود اللياقة . وعلى حين أن ما كان يشغل عقل المسيحي فى الغرب أعظم شغل هو مسألة البعث والحشر والنشور فإن المسيحى الشرقى كان تواقاً إلى الانسجام فى حالة التجلى : أى العلاقة الصائبة بالله فى هذا العالم وفى هذه اللحظة الراهنة . فمن أجل بلوغ هذه الغاية صارت هناك أهمية لا يُعلى عليها لطبيعة تجسد المسيح . شفيعه فى الآخرة . ولتحقيق هذا الغرض كان إذا استطاع وصولا إلى اتحاد صوفى مع الذات الإلهية ، يُحس أن جميع الأشكال الأخرى للدين عند ذلك تبدو عديمة القيمة بالمقارنة . على أنه كثيرا ما اتُّهمت الكنيسة الأرثوذكسية بأنها جامدة لا تأخذ نفسها بتفكر ولا تقدم . وليس لواحدة من هاتين التهمتين أى نصيب من العدل . أجل إنه لا مذهب التجرد (السكون) ولا مذهب التجلى مما يستدعى دعامة ذهنية من تفكر ، بيد أنه لعل فى السلسلة الطويلة من الكُتّاب — ابتداءً من القديس بولس إلى جناديوس الذين انتفعتْ بخدماتهم . — خير داحض لهذه التهمة . أجل إن الكنيسة لم تخرج فى الحقيقة شخصا مثل توماس الأكوينى (أكويناس) ؛ بل هى لم تتقدم أبدا بعقيدتها كثيرا على ما أقرته المجالس المسكونية السبعة . على أن السبب فى ذلك هو ضرب معين من التسامح ، ينطوى على شعور بأن المسيحى يجب أن يسعى إلى خلاصه بنفسه ، داخل النطاق المحدد للعقيدة الأرثوذكسية كما أقرتها المجامع . لذا لم يتجه القوم إلى أى صنف جامد من صنوف فلسفة العصور الوسطى (Scholasticism) ليخبره عما يفكر

---

(١) النزعات السكونية أو الإستسلامية : هو المذهب القائل بأن الكمال الدينى فى الأرض يكون فى التأمل السلبى المستمر فى الله . (المترجم)

فيه وكيف يفكر . وقد تركت نقاط مذهبية كثيرة بدون حل ، وبخاصة نقاط الحشر والنشور ، مثل وجود « المطهر » الذى تتطهر فيه الأنفس من الآثام . وكانت دراسة الفلسفة الإغريقية تلقى تشجيعا ما دامت لا تؤدى إلى زندقة مثل الوثنية الحديثة (Neo-paganism) التى استنها يوحنا إتالوس . أجل إن رجل الشارع كان يحس بأن ذلك التشجيع كان يقترن أحياناً بشيء من الغلو والتزيد ، وأن طلاب الفلسفة هؤلاء كانوا مصدر تهديد للدولة[١] ؛ ولكن يوحنا موروبُس أسقف يوخئيتا التقى ، كتب قصيدة فى القرن الحادى عشر داعيا فيها المسيح أن يَعُدّ أفلاطون وبلوتارك المؤمن بالأفلاطونية الحديثة من المسيحيين ، وذلك لأن مبادئهما بلغت الذروة من النبل[٢] . والواقع أن پسللوس وهو يمعن تعمقا فى معالجة السحر والشعوذة والتنجيم ، وجد أن من الحكمة أن يُطمئن السلطات الدينية إلى أنه لا يأتى شيئا مناقضا لتعاليم المسيحية ؛ ولكن كلمته كانت فيها الكفاية[٣] . وراح جمستوس پليثون الذى كان يتمنى أن تزول المسيحية من الوجود فى مدى بضع سنين ، يوم احتدم الخلاف بين الكنيسة اليونانية واللاتينية ، راح يعارض الكنيسة الأخيرة بعنف بوصفها مصدراً أكبر كثيراً لتهديد الفكر . حقاً إنه بعد سقوط الإمبراطورية حرمت الكنيسة كتاب بليثون الأخير ؛ ولكن ليس فى ذلك ما يدهش لأن الكتاب كان مناهضة صريحة للمسيحية ؛ وشعر جناديوس بالحزن الشديد لاضطراره إلى تحطيم مثل ذلك العمل العقلى الممتاز[٣] .

---

(١) انظر مناقشة فيلوباترس اللوسيانى المنتحل (فى القرن العاشر فيما يرجح) .

(٢) نقل هذا سويتر فى "Byz. Dichtung" ، ٣٦ .

(٣) انظر "Chronographia" – پسللوس ، جـ ٢ ، ص ٧٧ . ولكن انظر أيضا باندنيوس "Catal. Cod. Gr. Bibl. Laurentianae" (فلورنسا) مج ٢ ص ٥٤٧ – ٥٤٨ من سجل مخطوط لاعتراف پسللوس بالعقيدة .

(٤) انظر خطاب جناديوس فى M.P.G. مج ١٦٠ ، ٦٦٣ ع ع .

ثم إن الكنيسة لم تكن من ناحية طقوسها جامدة جموداً خالياً من التسامح. فربما جاز للأرثوذكس أن يسخروا من اللاتين من أجل تناول الخبز غير المختمر والصيام أيام السبت ، على أن رجال الكنيسة الطيبين كانوا يلقنون أنه ينبغي أن يبدي الإنسان كثيراً من ألوان السماحة ، وأن في الإمكان خرق القواعد في بعض الظروف . فإن القديس سمعان (سميون) اللاهوتي الجديد لام بشدة تلميذه أرسينيوس لأنه صُعق عند ما قدم القديس إلى زائر مصاب بعسر الهضم ما طلب من لحم الحمام وإن كان اليوم يوم صيام[1] .

على أن السلطات كانت مع ذلك أقل تلطفا مع غير المسيحيين . فكان اليهود بوجه خاص معرضين لاضطهاد يتجدد بين حين وآخر . وكان هرقل قاسيا معهم بوجه خاص ، بسبب النبوءة القائلة بأن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون[2]. كما أن من عقبه من أباطرة عادوا إلى سياسة القضاء عليهم . وكان من علائم تقوى رومانوس الأول المثيرة للإعجاب أنه أمر بنفيهم من البلاد[3]. ولكن يجدر بنا أن نلحظ أن المضطهد هنا كانت السلطات العلمانية وليست الكنيسة . وكانت الكنيسة مع المسلمين على علاقة ودية في الغالب . وكان بعض الخلفاء من المسلمين والأباطرة يشجعون إقامة حلقات ودية للمناظرة بين شُراح الديانتين . بل لقد عمد الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس إلى حمل الكنيسة على إزالة اللعنة الموجهة إلى رب الإسلام ، بيد أن تلك الخطوة اعتبرت كفرا وإلحاداً[4] . ولكن البطريرك أرسينيوس كان من رحابة الأفق في القرن الثالث عشر ، بحيث أذن للسلطان السلجوقي بأن يستحم في حمام تابع للكنيسة ، وأمر أحد الرهبان بتقديم القربان المقدس لأطفاله دون التحقق من أنهم

---

(١) انظر حياة القديس سمعان Vita S. Symeonis Novi Theologii, 66

(٢) انظر فريد جاريوس في M.P.L. مج ٧١ ص ٦٤٦ .

(٣) المسعودي في « مروج الذهب » ترجمة باربييه دي مينار ج ٢ ص ٨ — ٩ .

(٤) انظر نيقيتاس خونياتس ص ٢٧٨ — ٢٨٤ .

قد عمدوا تعميدا صحيحا[1] . وربما ثارت المشاعر أثناء الحروب وأُنزلت الاضطهادات برعايا الأعداء فى كل من الجانبين ، على أن العلاقات بين بيزنطة والإسلام كانت أحسن نسبيا منها بين بيزنطة وروما .

وكانت الكنيسة البيزنطية شأن معظم الهيئات الدينية فى القرون الوسطى غارقة فى بحر من الخزعبلات والخرافات . وإن الحمية الشديدة التى حاربت بها دفاعاً عن أيقوناتها (أى صورها) جعلت التاريخ ميالا إلى المبالغة فى وسمها بتلك الصفة . والواقع أن الغرب كان يبدو لعين الشرق أكثر اعتقادا فى الخزعبلات . ففى الشرق حيل دون إقامة التماثيل ذات الأبعاد الثلاثة بوصفها أوثانا فى أيام تسبق حركة تحطيم الصور ، وسمح فقط بالصور المسطحة لما تحدثه من تفاعل روحى مباشر . ولم تذهب قط من أنفس البيزنطيين النزعة البيوريتانية الآسيوية . وقد ظن لابروكيير البيرغندى (La Brocquière) فى القرن الرابع عشر أنهم لم يكونوا يولون آثارهم المقدسة من الاحترام ماكان يُوليه أبناء وطنه لمثلها[2] . ومع ذلك فقد كانت قلوب الناس تُكن حبا عظيما لأيقوناتهم وللمجموعة الهائلة المذهلة من الآثار المقدسة التى راحت تقْوى الأجيال المتعاقبة من الأباطرة ترصها بعضها فوق بعض . وقد اشتد ذيوع الاعتقاد فى قوة المعجزات التى للصور ولشعارات الرب والقديسين بل حتى لعظامهم ومتعلقاتهم . بل إن الذين أوتوا فكرا ممتازا وقسطا عاليا من التعليم مثل أناكومنينا ، كانوا يحسون أنها تنطوى دون ريب على شىء . ثم إن السحر والشعوذة اللذين اتسمت بهما القرون الأخيرة من روما الوثنية بقيا ببيزنطة ولكن فى صورة مسيحية . فأصبح المرضى يذهبون إذ ذاك إلى كنائس القديس قوزماس والقديس

---

(١) انظر بأخيمر ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) انظر لابروكيير "Voyage d'Outremer" فى "Recueil de Voyages" تأليف شيفر مج ١٢ ص ١٦٣ .

دميان أو كنيسة ميكائيل كبير الملائكة التماساً للشفاء ، مثلما كانوا يذهبون فى الزمان الخالى إلى معابد أسكلبيوس . وكانت المعجزات لا تزال تنقذ القلاع المقدسة ، وإن كان البلاديوم[1] الحافظ الواقى فى هذه الحالة هو عباءة العذراء أو عظام أحد القديسين . وكانت هذه التقوى الشديدة الإشراق والحيوية من أروع الخصائص فى الحياة البيزنطية[2] . واستخدمتها الكنيسة أتم استخدام ، ولكن يُشك قليلا فيما إذا كان ذلك فى مصلحة الكنيسة .

ولو أُخذت كنيسة بيزنطة جملة لتجلى أنها شأن الإدارة المدنية بها ، مناسبة تماما لظروفها وأزمانها . وقد مرت عليها فتراتها العصيبة القاتمة . فكانت فى عهد يوستنيانوس وبيت كومنينوس تكاد تشبه مصلحة فاقدة الحياة من الدولة ، على حين أنها فى أيام تحررها واستقلالها غالبا ما كانت الفوضى داعيا إلى بث التخاذل فى نظامها . فكانت الأديرة بوجه خاص بحاجة إلى إشراف مستمر . فبعد الهجمات التى شنها عليها دعاة تحطيم الصور ، لقى القديس أفلاطون عُسراً كبيراً فى إعادة ما لزم من قوانين العزوبة التى لا بد منها ، حيث رفض أن يسمح بوجود الإناث حتى من الحيوان نفسه داخل جدران الأديرة[3] . وزاد سوء الحال تفاقما قرب نهاية القرن الحادى عشر الحافلة بأسباب الفوضى . فإن القديس كريستودولوس لم يستطع حمل رهبانه على الإخلاد إلى السكون وحدهم فى باتموس ، واضطر ألكسيوس الأول أن ينصحه بالإذن لبضع أسر علمانية أن تقيم بالدير رغبة فى تخفيف شظف العيش عنهم[4] . بل لقد ظهر فى البلاط الإمبراطورى رهبان من آثوس

---

(١) البلاديوم (Palladium) : هو أى شيء حارس أو حافظ ، أخذ اللفظ من اسم تمثال بلّاس الحارس الواقى لمدينة طروادة . (المترجم)

(٢) انظر بعدُ الفصل الثامن

(٣) « ثيودور Theodore Studites » M.P.G. مج ٩٩ ص ٨٢٤ — ٨٢٥ .

(٤) انظر مكلوسِتش ومولر "Acta et Diplom. Gra. Med. Aevi" مج ٦ ، ٤٥ ع ع .

يشكون من أن ظهور الصبيان الرعاة من الفلاخيين على الجبل المقدس كان يؤدى إلى حدوث رذيلة غير طبيعية ، وا كتشف ألكسيوس أنهم افتعلوا تلك الفضيحة ادعاء لكى يزوروا القسطنطينية . وحاول البطريرك بكل ما وسعه من اهتمام أن يوقف مثل هذا الانحلال ، بيد أن المطارنة لم يظهروا الميل لمساعدته المساعدة الكافية[1] .

ومع ذلك فإن وقوع مثل هذه الأحداث كان أمراً استثنائياً . فإن هيئة رجال الدين العليا كان فيها على الجملة الضمان الكافى ضد حدوثها . وكانت الكنيسة نظاماً ديموقراطياً . وكان من الممكن لأى مسيحى أرثوذكسى مهما اتضع أصله أن يصل إلى عرش البطارقه . وكانت الجدارة هى الميزان الوحيد من الناحية النظرية ، كما أن الواقع الملموس أنه فيما عدا الحالات التى كان الإمبراطور يعين فيها قصداً أحد التافهين — وهو عمل كان يلقى نفوراً من الشعب دائماً — كان البطارقة على مستوى عال جداً من الكفاية والمقدرة ؛ وحتى عندما كان أحد التافهين يعين ، كما حدث عندما عمد يوحنا ڤاتاتزيس إلى تعيين أرسينيوس الفسل الضعيف الخلق دون بليميداس ، فإن الأول ملأ الفراغ المحيط به بطريقة ما ولم يجلب العار على نفسه أو يسئ لمنصبه بأية حال . فكان الجميع تقريباً يتناولون بالجد التام دورهم كحماة لضمير الإمبراطورية ؛ مستنكرين بلا خوف ولا وجل كل رذيلة بين الطبقات العليا شأن كريسوستوم أو محاولين إنقاذ ضحايا غضب الشعب ، مثلما فعل يوسف الذى حاول أن ينقذ « المغاور القطلونيين » المكروهين من مذبحة ١٣٠٧[2] . أما المطارنة والأساقفة فإنهم أقل ظهوراً فى الغالب تحت أضواء المسرح ، ولذا فليس من اليسير أن نصدر حكماً عاماً عليهم . ولكن

---

(١) انظر : "Athosklöster" تأليف ماير ، ١٦٣ ع ع .

(٢) انظر پاخيمير ج ٢ ص ٥٣١ .

كان فيهم على طول التاريخ البيزنطى رجال مثل القديس جريجورى، النازيانزى وجورج البيسيدى ويوحنا موروبوس من يوخائتا وميخائيل، أكوميناتوس الأثينى . وعلى الرغم من ظهور شىء من الاتجار فى المقدسات، والوظائف الدينية بين الحين والحين ، فليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن المتوسط العام فيهم كان سيئ التربية أو عديم الكفاية . بل الواقع أن الممتلكات الدنيوية، التى كان عليهم إدارتها كانت تستدعى قدراً معيناً من الكفاية التى امتحنت، إبان الغزوات الأجنبية ، وذلك أنه عندما كانت السلطات العسكرية والمدنية، تتقهقر أمام الأعداء ، كان يترك للأسقف أمر الاهتمام بمصالح قطيعه . فقد بلغ الأمر بأحدهم وهو ديمتريان أسقف خيترى من مدن قبرص ، أن رحل حتى إلى بغداد خدمة لمصالح المسيحيين القبرصيين الذين كانوا تحت حكم العرب[1] . وحتى القديسون والنساك الحليون أنفسهم ، وإن كانت طريقة عيشهم تبدو لنا قذرة بصورة أليمة لا داعى لها ، إلا أنهم كانوا غالباً ما يمارسون نفوذاً خلقياً وسياسياً جانحاً إلى الخير . وكان لوقا الأصغر وهو من فوكيس ونيقون الميتانويتى من أهل أرجوس أو القديس نيلوس الكلابرى — الذين تنتسب حياتهم أكثر إلى إيطاليا فى عهد أباطرة الساكسون — كانوا جميعاً خداماً ذوى أهمية وقيمة كبيرة ثمينة لكل من الكنيسة والدولة . أما معدن قسيسى القرية فأمر لا نكاد نعرف عنه شيئاً . والراجح أنهم كانوا كشأنهم اليوم قوماً متواضعين فى عاداتهم ، وقلما كانوا حسنى التعليم ، على أنهم كانوا يؤدون واجباتهم بأحسن ما فى مستطاعهم .

كانت الكنيسة البيزنطية والحق يقال كنيسة دولة جديرة بالإعجاب . وكان غناها بالطقوس يزيد فى عظمة الإمبراطورية ، وكان قديسوها وأيقوناتها تنزل بها إلى مستوى الشعب وكان إصرارها البات على رفض الخضوع لرغبات

---

(١) انظر بارجوار فى B. Z. مج ١٦ ، ٢٠٤ ، ع ع .

الأجانب مما شيد صرح الإحساس القومى ، وكان هناك من الحرية فى لاهوتها ما لا يخمد أنفاس النشاط الفكرى الذى كانت الإمبراطورية تفاخر به . ثم جاءت قرون الظلم التركى فأجبرت الأرثوذكس على تعلم الفن المذل للأنفس ، فن العيش فى الظلام ؛ على أنه طالما قامت القسطنطينية بوصفها مدينة مسيحية حرة ، فإن كنيستها ظلت أشد الهيئات الدينية التى شهدها العالم حتى ذلك الحين تمدنا ؛

الفصل السادس

الجيش . الأسطول . الخدمة الدبلوماسية

١ ــ الجيش[١]

كان النظام الإدارى فى بيزنطة مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقواتها العسكرية حيث كان الأعداء يحيطون بالإمبراطورية من كل جانب ، إذ لم يحدث قط أن الحكومة أحست لحظة واحدة أنها غير معرضة لخطر الغزو الأجنبي ، أو لشبوب ثورة ربما هددت العاصمة ذاتها . بل إن وجودها فى حد ذاته كان متوقفاً على ضبط الشعوب المحيطة بها الضبط الصائب . — وهذا يتوقف على جيش وأسطول يتصفان بالكفاية والاستعداد الدائم وعلى سياسة دبلوماسية يقظة لا تهدأ لحظة من العمل .

ولم يكن البيزنطيون بفطرتهم شعباً عسكرياً . أجل إن الجرأة العسكرية كانت لا مراء تثير إعجابهم ، بيد أنها لم تكن هى الصفة المرغوبة الوحيدة ، كما كانت فى الغرب الآخذ بسنن الفروسية ؛ وكان القائد المظفر يظل خادما للدولة يحظى بكل تقدير . فالضرورة هى التى قضت عليهم أن يصوغوا أنفسهم فى الوقت المناسب على أسس عسكرية وأن يولوا الشئون العسكرية كل التفاتهم وعلمهم . وكان ذلك كله فى مصلحتهم . فكانت بيزنطة طوال القرون الوسطى هى البلد الوحيد الذى كانت تدرس فيه أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية واتزان . وأخرجت بيزنطة سلسلة متصلة الحلقات

---

(١) انظر "History of the Art of War" تأليف أومان ، ص٢ — ٣٧ ، ١٦٩ — ٢٢٦ ؛ وانظر ديل فى مؤلفه عن جستنيان "Justinian" ص ١٤٥ — ٢٤٥ (مع قائمة كتب ومراجع) ؛ وانظر "Aussaresses" أوسارس فى (L'Armée Byzantine) والمراجع المذكورة أعلاه ، فى الفصل الرابع عن الإدارة .

من الكتاب العسكريين ذوى الاقتدار ، كما أن كثيراً من مؤرخيها كانوا يأخذون بطرف من الاهتمام بالشئون العسكرية . ومنهم نستطيع أن نتعقب على كر الأيام – مع وجود بضع ثغرات معينة – تطور تاريخ العسكرية البيزنطية .
ففى القرون البواكر نجد الإيطالى فيجينوس[١] الذى ظهر فى القرن الرابع ، كما نجد الباحث النظرى المتحذلق أوربيكيوس[٢] الذى ظهر فى أخريات الخامس . ثم إن بروكوبتيوس فى القرن السادس ، إنما هو قبل كل شىء مؤرخ عسكرى ، كما أن الإمبراطور موريقيوس كتب بعد ذلك ببضع عشرات من السنين بحثا عنوانه (Strategicon) ، وهو دراسة قيمة فى أحوال جيش ذلك الزمان[٣] . وحوالى عام ٩٠٠ صنّف الإمبراطور لاوون السادس أحد الأباطرة القلائل الذين لم يتولوا قط قيادة الجند بأنفسهم ، بحثا مستفيضا فى جميع الشئون العسكرية أسماه « التاكتيكا Tactica » أى فنون الحرب[٤] ، وحوالى ٩٦٠ أهدى أحد قواد نيقيفوروس فوقاس إلى مليكه كتيبا يعالج شئون الحرب على الجبهة الشرقية[٥] ، ثم حدث بعد ذلك بقليل أن كتيبا آخر مثل ذلك كتبه مؤلف مجهول لا نعرفه[٦] . وفى القرن الحادى عشر دوّن الجندى العجوز كيكومينوس بأسلوب استطرادى غير مركز بعض ثمار خبرته[٧] : فى حين أنه فى صدر القرن الثانى عشر لا يستطيع كل ما بدر من أنا كومنينا من ثرثرة وإسراف فى السرد أن يخفى تماماً اهتمامها بالشئون العسكرية وحسن

---

(١) انظر : "Epitoma Rei Militaris" نشره لانج .
(٢) وهو مطبوع عادة مع (Strategicon) تأليف أونوساندر .
(٣) انظر موريقوس (Strategicon) نشره شيفر .
(٤) انظر لاوون السادس (Tactica) فى .M.P.G مج ١٠٧ .
(٥) انظر نيقيفوروس فوقاس فى (De Velitatione Belli) وهو مطبوع مع لاوون دياكونس فى محيط « بون » .
(٦) انظر (Liber de Rei Militari) تأليف ڤارى (فى سلسلة تيوبنر Teubner)
(٧) انظر كيكومينوس ، (Strategicon)

فهمها لها . على أن الإنحلال كان قد أخـــذ آنئذ يدب فعلاً فى أوصال الجيش البيزنطى .

وعندما أسس قسطنطين مدينته على البوسفور ، كان الجيش الرومانى يعتريه تغيير[1] . وكان القرن الثالث حافلا بالكوارث والنكبات . ذلك أن تنظيم الجيش قد كشف عن أخطاره . فكان الحرس البريتورى (الإمبراطورى) ينصب الأباطرة ويخلعهم ؛ كما أن الولاة الكبار للمقاطعات الذين كانت تحت إمرتهم فيالق بأكملها كانوا فى حالة ثوران دائم لا يكاد ينتهى . وحاول كل من دقلديانوس ومن بعده قسطنطين إدخال بعض الإصلاحات . فأقاموا قوة نظامية للثغور من جند وراثيين يتناولون أجورهم أرضاً وهم يمثلون قوة الحدود (Limitanei) — ثم أنشأوا جيشا مركزيا سريع الحركة هو جيش الردفاء[2] (Comitatenses) تحت قيادة الإمبراطور ، وهو جيش كان يستطاع دفعه عاجلاً إلى أية نقطة مرغوبة .

بيد أن ذلك لم يكن كافيا . وذلك لأن الجيش تقاعس عن مبتكرات زمانه فى المعدات وفنون الحرب . فإن جندى الكتيبة الثقيلة لم يعد ندا صالحا لملاقاة الفارس البربرى . وكان انتصار يوليانوس على الجرمان عند استراسبورج فى ٣٥٧ آخر انتصار أحرزته المشاة الرومانية . وبعد ذلك بإحدى وعشرين سنة فى الكارثة العارمة التى حدثت قرب أدرنة ، أظهر المشاة ضعفهم وقلة ناصرهم إزاء خيالة القوط . وقد ظهرت ضرورة الفرسان فعلا وزيد سلاح الفرسان . وعندئذ صارت الحاجة والطلب أعظم من العرض . وعندما اقتضت الضرورة ثيودوسيوس الأول أن يعيد بناء الإمبراطورية بأسرع ما يستطاع ، صمم على استدعاء فرسان من البرابرة لهزيمة فرسان البرابرة . فأدخل نظام جند المحالفين (foederati) ، وهم فرق البرابرة أو قبائل بأجمعها كانوا ينضوون فى

---

(١) انظر Grosse فى مؤلفه "RömischeMilitärgeschichte" بمواضع متفرقة منه وثبت المراجع .

(٢) الردفاء هم هيئة النبلاء المحاربين الملحقين بشخص الإمبراطور .

الحرب مع الرومان تحت إمرة أمرائهم . لقد كان ذلك سلاحا يائسا قتالا ؛ كما أنه قضى على الغرب . أجل إن القوات الحليفة (foederati) ربما صدت أتيلا ، على أن زعماءهم وقد أصبحوا قوادا رومانا عظماء ، كانوا على قوة لا قبل للدولة بها . فكان برابرة من أمثال ريكيمر وأودواكر يتصرفون بالتاج الإمبراطورى بملء هواهم ، حتى قرروا أنه من الأيسر لهم ألا يكون هناك أى إمبراطور فى إيطاليا . أما فى الشرق فبعد إخفاق جايناس القوطى لم تعد قوة الأسرة الإمبراطورية تتجاوز مجرد إيقاف الجند المحالفين عند حدهم ، حتى جاء الأوان الذى تمكن فيه لاوون الأول وختنه زينون من إنقاص قوتهم إلى مستوى يمكن معالجته بسهولة باستدعاء جند من قبائل الإمبراطورية الأشد ضراوة لموازنتهم والاستعانة بإيسوريين وأرمينيين من التلال الأسيوية .

فإذا حل القرن السادس[1] أصبح جند المحالفين يلتزمون نطاقاً محدوداً بما يمليه العقل والمصلحة . فقد كان يوازنهم إذ ذاك الخيالة الثقيلة من آسيا الصغرى ، وهم الكاتافراكتى (Cataphracti) الذين أبدى بروكوبيوس عظيم إعجابه بهم . وكانت هذه الجند الراكبة (cuirassiers) المسلحة بالقسى ، هى التى ظفرت بكل انتصارات يوستنيانوس . بيد أن جند المحالفين تركت من ورائها نظاماً سيئا للتجنيد انتشر فى الجيش بأكمله . ذلك أن القائد هو الذى كان يجمع جنده ويعولهم ، وليس الحكومة المركزية . فأما الفرق أو الكتائب التى تحمل أسماء نظامية فكانت مجهولة آنذاك ؛ فكان كل جيش يسمى باسم قائده . وكانوا جميعا يسمون باسم مرتزقة الجرايات أو التموين (Bucellarii) . ومما زاد النظام سوءا ما جرت به عادة يوستنيانوس من عدم إناطة أى قدر

(١) انظر ديل (Diehl) — الكتاب السالف الذكر ، وبيورى « الإمبراطورية الرومانية فى عصرها المتأخر ، جزء ٢ ص ٧٦ ، ثم أومان (Oman) ، الكتاب السالف ذكره ص ٣ — ٣٧ .

كبير من السلطة أو مقدار ضخم من المال بأى قائد من قواده . وكانت نتيجة ذلك أن حروبه كان يعرقلها على الدوام التمردات والتذمر ، كما أن انتصاراته كانت راجعة إلى عبقرية قائديه بليساريوس والخصى نارسيس .

و تمخض العسر المالى الذى لزم السنوات الأخيرة لحكم يوستنيانوس وعهد يوستينوس الثانى عن نقص فى عدد المرتزقة الأجانب . فلم تعد مالية الدولة تستطيع القيام بنفقات الجند المحالفين . وربما أدى ذلك إلى إنقاص عدد الجيش الإمبراطورى . بيد أنه مكن الإمبراطورين اللذين جاءا بعدهما وهما طيبريوس وموريقيوس من إلغاء نظام مرتزقة الجرايات — ومع ذلك فإن الاسم « بوكلارى » بقى وصفا لفرقة من الجيش — ومن إعادة تنظيم الجيش بأكمله بجعله يعتمد تمام الاعتماد على الإمبراطور . وفى البحث المسمى (Strategicon) وصف لنظام الجيش الجديد . وكانت الوحدة هى السرية التى يعبرون عنها بأسماء (numerus, arithmos, tagma) حيث لم يكن التحول من اللاتينية إلى اليونانية تاما حتى ذلك العهد ، كما أن نداءات التدريب كانت مخلطة بوجه خاص . وكانت السرية مكونة من ثلاثمائة أو أربعمائة جندى يقودهم رائد (comes) أو تربيون (tribune) . فإذا اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثمانى تكون منها كتيبة (moira) بقيادة قائد كتيبة (moerarch) أو دوق (dux) . وكانوا يحتفظون بسر الأعداد قصدا حتى لا يستطيع الأعداء تقدير حجم الجيش . وكان تجميع السرايا من اختصاص القائد العام عندما تدور رحى الحرب . ولم تكن هناك فرق مستديمة ، إلا فرق مرتزقة الجرايات (البوكلارى) والجند المحالفين (Foederati) والجند المختارين (Optimati) ، وهم بقايا المرتزقة الأجانب الذين كانوا إذ ذاك يكونون ضربا من الحرس الإمبراطورى . وفضلا عن ذلك فقد فكر موريقيوس فى خطة لإنشاء قوة محلية مرابطة . فإنه كان يريد لكل رجل حر المولد أن يتعلم الرماية وأن يمتلك

قوسا ورمحا ، حتى يستطيعوا الدفاع عن أقاليمهم وقت الغزو [1]. وما يستطيع أحد منا أن يقول إلى أى حدٍّ نفذت هذه الخطة . ولكن الذى لا شك فيه أن المواطنين كانوا يستدعون فى قلاع الثغور ليقوموا بواجب الدفاع .

وكان الجيش الذى أعاد تنظيمه طيبريوس وموريقيوس هو الذى اقتاده هرقل إلى ساحات النصر فى حروبه الطويلة مع فارس ، وهو الذى اجترفه اندفاع العرب بعد أن أخذ منه الإعياء كل مأخذ . وحرمت فتوح العرب الإمبراطورية من مصر وإفريقية وسوريا ، ولم يستطع القياصرة إلا بشق الأنفس وبعد سنين من الاضطراب والفوضى أن يصمدوا فى تخوم آسيا الصغرى . وفى إبان تلك السنين زاد تنظيم الجيش تطورا على مراحل ليس فى إمكاننا تعقبها : حتى تراخى الأمر فى النهاية فى القرن الثامن أن أحكم الأباطرة الإيسوريون نظام ألوية الثغور [2] (themes) .

وكان الأصل فى نظام ألوية الثغور (themes) هو إنزال فرق معينة ، أى تجمعات نظامية معينة من الكتائب للدفاع عن نواح ثابتة معينة ، ثم تعيين قائد تلك الفرق أو (strategus) رئيساً للحكومة المدنية أيضاً . ومن ثم سميت النواحى باسم ألوية الثغور (themes) ؛ وفى البداية كان كل « لواء » يسمى باسم الفرقة التى تحتله ، مثل لواء فرقة المختارين (الثيما الأوبتيماتية) أو لواء مرتزقة الجرايات والتموين (الثيما البوكلارية) . حتى إذا هدأ جأش الإمبراطورية فصارت أحسن تنظيما واستردت الحياة المدنية سيرتها الأولى من الانتعاش ، أضيفت ألوية ثغور جديدة فى المناطق المستردة من الأعداء وعلى التخوم . وقد أطلق على هذه الألوية الأخيرة أسماء جغرافية مثل اللواء الخرشنى (الخارسيانى) أو السلوقى حسب العواصم التابعين لها أو اللواء القبلوقى أو البيلوبونيزى حسب الاسم القديم للمقاطعة . وكان كل لواء

---

(١) موريقيوس فى مقالة "Stra'egicon" بمواضع متفرقة .

(٢) انظر ما قبله الفصل الرابع .

ينقسم إلى ناحيتين ثانويتين أو ربما ثلاثة ، كل منها إمارة كتيبة (turmarchies) أو ناحية أو منطقة (merē) وكل احدة منها تحتلها كتيبة (turma) وهى قسم رئيسى من الفرقة تحت قائد يسمى آمر الكتيبة أو آمر الناحية (turmarch) — (merarch) . وكانت الكتيبة (turma) مقسمة بدورها لأغراض حربية إلى سرايا (moirai) ثلاث ، وكل منها تحت قائد سرية (drungarius) ، كما أن السرية (moira) تنقسم إلى عشر فصائل (tagmata) بقيادة قومس (comes) . ولما كانت الحدود تدفع إلى الأمام فقد كانت قيادات الكتائب تنفصل أحياناً من ألويتها الأصلية ، ولا تلبث إذا أضيفت إلى بقعتها أراض جديدة أن ترفع هى نفسها إلى مرتبة ألوية الثغور . وهكذا أنشأ لاوون السادس لواء سلوقيا الثغرى . ثم إن هناك مناطق بعينها على التخوم وبخاصة مناطق الممرات — كانت توضع خارج نظام ألوية الثغور ؛ وتخضع لاحتلال عسكرى دائم . وكانت هذه تسمى مناطق الثغور (Kleisourai) أو (Clissurae) وكان قائدها يسمى قائد الثغور (Clissurarch) وهذه أيضاً وربما رفعت إلى مرتبة الألوية .

وكان جيش الألوية سلاحاً دفاعيا قبل كل شيء ؛ لذا فقد كان أهم سلاح للدولة يوم أصبحت فى موقف الدفاع بصفة مستديمة . وقد ظل قائد لواء الأناضول وهو القائد الأول فى الدولة هو القائد العام بآسيا حتى القرن التاسع ، بل لقد كان حتى فى القرن العاشر نفسه ذا مكانة سامية فوق المعتاد فى سلك الموظفين . وممن كان يلحق بجند مناطق الثغور — ولعلهم كانوا أحياناً أصحاب الرياسة بها — بارونات التخوم (Akritae) مثل بطل الملاحم ديجينيس الذى واصل شن الحروب والحملات على العرب ابتغاء السلب والمغانم ، ولكنه ربما كان ينضم إلى الجيوش الإمبراطورية إبان أى حملة منظمة .

وحدث فى أثناء القرن التاسع أن فرعاً جديداً من الجيش زادت أهميته هو التاجماتا (Tagmata) أى الفرق الأربع للحرس الإمبراطورى وهى : فرقة المدارس (Scholae) والديادبة (Excubitors) ووحدة الجند المسماة أريثموس

(Arithmos) وهى فريق المراقبة (أى Vigla) والهيكاناتى (Hicanati)[1] .
ويظهر أن الفرقة الأخيرة قد أنشأها نيقيفوروس الأول ، أما الفرق الأخرى فمنحدرة عن حرس القصر إبان الإمبراطورية لأول عهدها . وكلها من فرق الخيالة ، ويرجح أنها لم تكن ذات قوة عظيمة – حيث لم يكن عدد أفراد فرقة المدارس ليتجاوز ١٥٠٠ رجل – وكانت كل منها تحت قيادة دومستيق (أى ضابط قصر) (Domestic) ، وذلك باستثناء جند المراقبة (Vigla) التى كانت تحت قائد كتيبة (Drungarius) . وقد ألحق بهم جند سرايا المشاة (Numeri) وعدتهم قرابة ٤٠٠٠ رجل ، وجند كتائب المرافقة (Hetaeria) ، وهم الحرس الإمبراطورى فى ذلك الحين ويجندون من بين الأجانب ، وهم آخر من خلف فرق البرابرة المحالفين (foederati) . وكانت هذه الجند تعسكر عادة بتراقيا أو بيثينيا وترافق الإمبراطور متى خرج للحملة ، وما لبثت رويداً رويداً أن تغير قائدها ، وذلك أنه إن لم يخرج الإمبراطور للحملة بشخصه تولى دومستيق فرق المدارس قيادتها العليا نيابة عنه . والواقع أن ذلك الدومستيق (ضابط القصر) ظل إلى حد كبير مدة طويلة تقارب المائة سنة منذ عهد باسيليوس الأول إلى نيقيفوروس الثانى حين لم يكن أحد من الأباطرة جندياً ، صاحب قيادة عسكرية ويشغل أهم وظيفة عسكرية فى الدولة ، وإن كان يوضع مع ذلك فى سلم الأسبقية دون قائد الأناضول ؛ هذا إلى أن التحول إلى الحرب الهجومية فى غضون تلك المدة لم يزد منصبه إلا ارتفاعاً : حتى ظهر فى (٩٦٣) أن دومستيق المدارس نيقيفوروس فوقاس كان المرشح الواضح للمنصب الإمبراطورى أثناء مـــدة الوصاية على الإمبراطور المولود فى الأرجوان أى سليل الأباطرة .

وكانت واجبات الكتائب المختلفة مرسومة بعناية . فكان جيش الألوية

---

(١) انظر بيورى فى كتابه "Imperial Administrative System", 47—68

يقوم على حراسة البلاد ووقايتها من غائلة الغارات الأجنبية . فإذا حدث مثلا أن اخترق المسلمون الحدود ، أبلغ القائد المحلى الأمر فى الحال إلى قائد اللواء . فيرسل هذا بدوره فى الحال تحذيراً إلى الألوية المجاورة ، على حين تنطلق خيالته لتعقب المغيرين ومواصلة ملاحقتهم فى الأطراف والحواشى بينما تحتل المشاة الممرات التى لا بد لهم من المرور منها أثناء عودتهم . وفى نفس الوقت تكون الألوية الأخرى قد عبأت قواتها الرئيسية واستعدت للاتجاه إلى أحد المواقع التى يتوقع أن يكون العدو متجهاً إليها[1] . فإن أُحسن توقيت تركز الجند فربما أمكن إمساك المغيرين والإحاطة بهم ، كما حدث فى (٨٦٣) أن عُمر قائد المسلمين وقع فى الفخ الذى نصبه له جيش ألوية آسيا على ضفاف نهر هاليس[2] . واقتضت الحال أيضا القيام بالغارات المضادة ، كما لم يكن بد من أن يؤمر الأسطول بتدمير السواحل الإسلامية ونهبها[3] .

وكان الجيش البيزنطى إذا قام بهجوم مضاد ، خرجت فرق الحرس الإمبراطورى الأربعة (التاجماتا) من القسطنطينية بقيادة الإمبراطور أو دومستيق المدارس فيلحق بها عند نقاط معينة من الطريق العسكرى العظيم الذى يخترق آسيا فصائل من جند الألوية المختلفة[4] . وكانت هذه تتكون بوجه خاص من المشاة ، وإن كان كل لواء يرسل بعض خيالته ، وذلك لأنا نعلم أن الإمبراطور كان المنتظر أن يرافقه ٨٫٢٠٠ فارسا على الأقل ، مع أن فرق الحرس الإمبراطورى الأربعة (التاجماتا) لم تكن لتزيد كثيرا على ٦٠٠٠

(١) انظر "Tactica" تأليف لاوون ص ٩٧٧ فما بعدها ؛ راجع "De Velitatione Belli" بمواضع متفرقة وبخاصة ص ٢١٥ — ٢١٧ .

(٢) انظر بيورى فى "Eastern Roman Empire" ص ٢٨١ — ٢٨٤ .

(٣) انظر لاوون فى "Tactica" ص ٩٨٠ .

(٤) راجع رامزى (Ramsay) فى كتابه "Historical Geography of Asia Minor" ص ١٩٧ فما بعدها .

رجل[1] . ولم يبق إلا النذر الضئيل من المعلومات حول الإجراءات التي كانت تتبع فعلا أثناء هجوم يُشن داخل أرض العدو . وعندما قام لاوون السادس بكتابة ما كتب كانت تلك الهجمات نادرة حتى لم يكد يذكرها . بل إن جندى نيقيفوروس فوقاس نفسه لم يصف إلا الحرب الدفاعية القديمة ، وإن قال إن خبراته تعد قديمة فى تلك الأيام [2]. والكتاب الوحيد الذى يدرس غزوات البلاد الأجنبية هو الكتيب الصغير المجهول المؤلِّف والموسوم « كتاب فى الشئون العسكرية » (Liber de Re Militari) . ومع ذلك كله ، فالواقع أنه وإن كان يوحنا چيمسكى (تزيمسكيس) يقود فى ذلك الوقت جيوشه زاحفا على فلسطين وأطراف بغداد ، فإن القواعد الموضوعة تقترن بالحرص والحذر ، كما أنها غير محدودة إلى حد ما ، وتتناول بصفة أساسية حصار مدن الأعداء .

والواقع أن الحذر كان رائدا للخطط الحربية البيزنطية . وكانت هجمات البرابرة والمسلمين من الكثرة ومن المجىء على غرة ، بحيث لم تكن أى سياسة عدوانية جريئة تُعد شيئا عمليا بأى حال تقريبا . ولم يكن الجيش البيزنطى جيشا ضخما كجيش المسلمين ، كما أنه كان كثير النفقة . لذا استلزم الأمر أن يستخدم إلى أقصى غاية المنفعة ، ودون إسراف فى إضاعة الأرواح أو العتاد . فما يسترعى النظر أن كل كتاب بيزنطى متداول يصر على نعت التسرع والتهور بالحماقة ؛ ومن ثم ينبغى أن يحذر القواد الكمائن والهجمات المباغتة ، وألا يتركوا البتة أجنحتهم بغير حراسة يقظة . لذا ينبغى أن تكون لهم طلائع كشافة يعتمد عليها وأن يستخدموا الخطط الحربية الاستراتيجية والحيل ما أمكنهم ذلك . والحق إن الدرس الأخلاقى الذى كان يُلقن للناس كان ذا مستوى خفيض . أجل إن كل من قطع على نفسه عهدا وجب عليه المحافظة على وعده ؛

---

(1) بيورى "Imp. Adm. System" ص ٥٣ ع ع ؛ Eastern Rom . Empire, ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(2) انظر "De Velitatione Belli" ص ١٨٣ — ١٨٥ .

وينبغي الإبقاء على حياة الأسرى وعدم إيقاع أى ضرٌ بالنساء ؛ وينبغي ألا تكون شروط الصلح قاسية إذا كان العدو قد قاتل بشجاعة . ولكن المفاوضات التي ليس وراءها سند من الإخلاص والصدق كانت تُستصوب ويُنصح بها ابتغاء كسب الوقت والتجسس على العدو ؛ وينبغي أن تُرسل إلى قواد العدو رسائل توقعهم فى الشبهات حتى يقع الشر بينهم وبين قيادتهم العليا ؛ وربما جاز المحافظة على الروح المعنوية للجند بإبلاغهم أنباء عن انتصارات وهمية (١) .

وربما كانت لمثل تلك الأساليب ثمارها ؛ غير أن قوة البيزنطيين الحقة لا تتجلى فى شيء تجليها فى الذكاء الذى كانوا يواجهون به أعداءهم المختلفين . فجعلوا ديدنهم دراسة طرق الحرب التى يختص بها كل عدو من أعدائهم، واستنباط خير الوسائل لمقاومتها ؛ ولذا وقع الفرنجة فريسة لتهورهم هم أنفسهم . فكان فى الإمكان جرهم للوقوع فى الكمائن . وكان سلاح خدمة الجيش وإمداداته سيئ التدبير عديم الكفاية ، لذا كان الجوع يدفعهم إلى التخلى عن فريقهم بل خيانته . وكانوا غير مطيعين لقوادهم كما كان الفساد رائدهم . فإن أمكن تجنب معركة فاصلة من نوع المعارك التى تساعدهم فيها بسالتهم وصلابة أجسامهم ، كان من اليسير إنهاك قواهم وغلبة الإعياء عليهم (٢) . على أن الترك الذين منهم المجر والبشناق كانوا مكرة فى حد ذاتهم من الناحية الأخرى ، ويتكونون من أرهاط من الراكبة الخفيفة . لذا كان الواجب يقضى على القائد البيزنطى بعد اتخاذ كافة الاحتياطات من الوقوع فى الكمائن ، أن يلتحم فى المعركة بأسرع ما يستطيع ، حيث كانت خيالته الثقيلة تستطيع أن تجتاحهم وتدوسهم تحت سنابكها دوساً ، كما أنهم لم يكونوا مستطيعين أن يكسروا صفوف مشاته أثناء القتال (٣) . وكان الصقالبة وهم

---

(١) لاوون "Tactica" ١٠٤٨ ع ع .

(٢) المرجع نفسه ٩٦٤ ع ع . (٣) المرجع نفسه ٩٥٦ ع ع .

من جند المشاة الخفاف ذوى خطورة فى مناطق التلال الوعره دون غيرها فأما فى السهول الفسيحة فكانوا من سوء العدة ورداءة النظام بحيث لا يستطيعون مواجهة الجيوش الإمبراطورية والصمود لها[1] . وظل المسلمون على الدوام أهم أعدائهم . فإنهم كانوا يستطيعون أن يحشدوا جيوشا هائلة ، وكانوا يتحركون بسرعة عظيمة كما لهم قدر معين من الدراية بفنون الحرب قائمة على الدراسة . ولكن ظل النظام يعوزهم إلى حد ما ، وكانت روحهم المعنوية تنحط عند الهزيمة . وإن فى هجوم ليلى عليهم وهم مثقلون بالغنائم وبذا يتحركون ببطء على غير العادة ، لوسيلة لقذف الرعب فى قلوبهم ، كما أنهم كانوا يتأثرون بالجو إذ تثبط هممهم فى البرد أو المطر . وهم كمناجز رجلا إلى رجل ، لم يكن خيالتهم كفوا لراكبة البيزنطيين . لذا لم يكن ثم من داع يدعو إلى التخوف من خوض غمار معركة فاصلة معهم ما لم ينقطع التناسب بين عداد الطرفين[2] . وبالمثل كانت لفن حرب الحصار قواعده الخاصة التى تختلف باختلاف طبيعة المدينة المحصورة والمنطقة المحيطة بها[3] . وكانت هذه القواعد توضع بعناية تامة ، ولكنها لم تكن قواعد جامدة . لذا كان ابتكار الوسائل الجديدة موضع الترحاب دائماً . فإن كيكومينوس يحض القواد على استنباط طرائق جديدة[4] ؛ كما أن أنا كومنينا أثنت على أبيها ألكسيوس الأول بسبب التجديدات التى كان يستحدثها[5] . وينبغى لكل من ضُرب عليه الحصار أن يدرس ويستكشف قوات العدو ومزاجه . وكان كيكومينوس يستصوب الانقضاض من داخل الأسوار لمباغتة العدو

---

(١) المرجع نفسه ٩٦٨ ع ع .

(٢) المرجع السابق ٩٧٢ ع ع .

(٣) لاوون "Tactica" ، كيكومينوس (Strategicon) ص ٢٦ – ٣٥ فى الحديث عن الدفاع عن القلاع .

(٤) كيكومينوس بالمرجع نفسه ص ١٤ .

(٥) أنّا كومنينا ص ٤٠٨ .

واستخدام قدرٍ معين من ضروب الدهاء[1] ؛ وذلك على حين كانت التحصينات على الدوام موضع دراسة ملؤها العناية والتمحيص .

وكانت قوة الجيش البيزنطي تقوم على فرسان الخيالة الثقيلة لديه (Caballarii) . وكانوا يلبسون مغافر[2] من الفولاذ ودروعاً من الزرد ، مع علامات فولاذية على الجبهة للضباط وصف الضباط ؛ وكانت لهم عباءات من التيل والصوف يلقونها على دروعهم تبعاً لحالة الجو . وكان سلاحهم السيف والخنجر والقوس والكنانة والرمح . وكانت الخصلة المربوطة بالمغفر وراية المزراق والعباءة تُلون تبعاً للفرقة . وكان المشاة فى معظم الأمر من النابلة الخفيفة — وذلك على حين أن بعض الولايات كانت تقدم بدلا من ذلك رجالا من حملة الحراب — ولكن كان هنالك أيضاً فرق من المشاة الثقيلة يلبسون الدروع ويحملون البلط والرماح والسيوف والتروس . وهم الذين يقفون على الممرات الجبلية الوعرة التى لا يكاد الراكبة يصلحون للعمل بها . وكانت النار اليونانية وهى الظاهرة الرئيسية فى الحرب البحرية البيزنطية لا يستخدمها العسكريون إلا للدفع المحاصرين عن أنفسهم[3] .

والمعلومات التى قدمت إلينا عن أعطيات الجند مختلفة . فإن مرتبات قواد ألوية الثغور بآسيا تتراوح بين ٢٠ رطلا من الذهب وبين ٤٠ رطلا فى العام الواحد (= ٢١٫٦٠٠ إلى ٤٣٫٢٠٠ فرنكا ذهبياً) . ويظهر أن آمر الكتيبة (turmarch) كان يتقاضى ثلاثة أرطال على الأقل (= ٣٫٢٤٠ فرنكا ذهبياً) بينما يتقاضى من هم دونه من الضباط رطلين أو رطلا واحداً . ويلوح أن الجندى من هؤلاء كان يتقاضى نوميسما واحدة عن سنة تجنيده الأولى ويتقاضى اثنتين عن السنة الثانية وهكذا دواليك حتى يبلغ الإثنتى عشرة

---

(١) كيكومينوس بالمرجع نفسه ص ١٧ .

(٢) المِغفر والمغفرة (المنجد : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة) . (المترجم)

(٣) لاوون فى (Tactica) ص ٧١٧ ع ع ؛ أومان بالمرجع المذكور ص ١٨٤ ع ع .

نوميسما أو الثانى عشرة فى بعض الحالات . وينصح كيكومينوس بألا تقطع أعطيات الجنـــد أبدا . وقد قُدر أن الجيوش المعسكرة فى ألوية الثغور الشرقية بما فى ذلك تراقيا ومقدونيا ، كانت تكلف خزانة الدولة خمسمائة ألف جنيه أى ما يعادل ٢٢ر٥٠٠ر٠٠٠ من الفرنكات الذهبية سنويا وكان الصراف أو صاحب الخزانة (Chartularius) فى كل مقاطعة يدفع الأعطيات إلى الجند ، وهو موظف تابع للحكومة المركزية[١]. على أن الجند كثيراً ما كانوا يتناولون أرزاقهم أرضاً . وكان الخيالة يؤخذون فى الغالب من صفوف صغار الملاك الذين عليهم بالنسبة لأراضيهم التزام وراثى بالخدمة العسكرية ، ويعفون فى مقابل ذلك من جميع أنواع الضرائب عدا ضريبة الأراضى[٢] . ومع ذلك فقد كان من الجائز تجنب ذلك الالتزام . فإن الأم الأرملة للقديس يوثيموس الأصغر (المولود حوالى ٨٢٠) زوجته مبكرا على أمل أن يعفيه من الخدمة العسكرية اضطراره إلى إعالة امرأتين وإدارة قطعة من الأرض[٣] . وكانت كتائب الرفقاء (Hetaerii) تلقى من جزيل العطاء ما كان يدفع الأجانب إلى تقديم الأموال للانضواء إلى صفوفها[٤] .

وأرجح الظنون أن الجيش البيزنطى لم يكن يزيد أعلى ما بلغه من عدد على مائة وعشرين ألف مقاتل ، منها ما يقارب السبعين ألفا من ألوية الثغور الشرقية والباقى من الألوية الغربية وفرق الجيش المركزى[٥] . ولكن ينبغى

---

(١) انظر بيورى (Eastern Rom. Empire) ص ٢٢٥ — ٢٢٧

(٢) رامبوه فى (L'Empire Grec) ص ٢٨٧ — ٢٩٦ ، والمراجع الموجود فى ص ٢٩٦ ، ملاحظة رقم ٤ .

(٣) انظر بريبه (Les populations Ruraux) بمجلة بيزنطة مج ١ ص ١٨٣ .

(٤) انظر (De Ceremoniis) لقسطنطين وليد غرفة الأرجوان جـ ١ ص ٦٩٢ — ٦٩٣ .

(٥) بيورى بالمرجع نفسه ص ٢٢٦ .

أن تضيف إليهم العدد الهائل من متعقبة المعسكرات الذين يرافقون كل جيش . وكان مسموحاً للجند بأن يصطحبوا معهم العبيد والخدم ، حتى لا يرهقهم الإعياء بسبب اضطرارهم إلى إقامة خيامهم أو حفر الخنادق . وكان سلاح الإمدادات والتموين يتولاه غير المحاربين . فإن هيئة من المهندسين غير المحاربين كانت موجودة دائماً لإقامة المعسكر لقضاء الليل[1] . وفوق هذا كان لدى القوم هيئة طبية عالية الكفاية ، معها خدمة من الإسعاف ربما فخر بها أى جيش[2] : على حين أن الحمامات الضخمة كانت تبنى لمصلحة الجند بالمراكز العسكرية الكبيرة مثل دوريلايوم[3] .

وفى ١٠٧١ قاد الإمبراطور رومانوس ديوجينيس جنده إلى الهزيمة بمنزيكرت بعد أن كسر أثناء زحفه كل قانون للإستراتيجية البيزنطية . ولم يسترد الجيش البيزنطى بعد ذلك قواه أبدا ، لا من جراء تلك الطامة الكبرى التى أحاقت به فى حد ذاتها ، بل لأنها تمخضت عن ضياع معظم آسيا الصغرى وانقلاب تنظيمات ألوية الثغور رأساً على عقب . وتمكن نيقيفوروس الخصى المستشار (Logothete) ومن بعده ألكسيوس الأول من لم شمل جيش هزم النورمان والبشناق وأبعدهم عن البلاد وأسدى للدولة خدمة جليلة فى عهد ابنه يوحنا — إلى أن بدده حفيده عمانوئيل بأرمينية وبلاد المجر ، ثم تمزق فى النهاية شر ممزق قرب ميريوكيفالون . ولكن ذلك كان جيشاً اعتباطيا ظل يحشد من يوم ليوم بقدر المستطاع دون أية رابطة من نظام تصونه وتحفظ تماسكه ؛ وكانت ضرورة الاقتصاد تقضى بحله كل شتاء . وأخذ الأباطرة يضطرون أن يعتمدوا أكثر فأكثر على المرتزقة الأجانب . وذلك أنه جرت العادة أن يتخذ الأجانب حرسا خاصا للبلاط

---

(١) لاوون : (Tactica) ٧٩٢ ع ع .

(٢) لاوون : (Tactica) ٨٢٠ ع ع .

(٣) ابن خرداذبة الذى نشره جيفوى ص ٨١ .

الإمبراطورى : بينما كان للثائر برداس فوقاس حرس مكون من نخبة مختارة من أبناء چورچيا ، كلهم مديد القامة مجلل بالزرد الأبيض[١] ، فإن الحرس الفارانجى الذائع الصيت قد أسس فى وقت ما من النصف الأول من القرن الحادى عشر[٢] . حتى إذا تولى ألكسيوس العرش إذا به يحتوى على أجانب من كل نعت ووصف – منهم الروس (الكولبنجيون) والترك واللاّن والإنجليز والفرنجة والألمان والبلغار[٣] – وكونوا نواة الجيش بأجمعه مع كتيبة الهيكاناتى (Hicanati) وكتيبة الفستياتى (Vestiantes) وكتيبة الخالدين (وهم بقايا التاجماتا القديمة[٤] الذين جمعهم بعد معركة ملاذجرد الخصى نيقيفورروس فى ١٠٧٨) ثم كتيبة الأرخونتوبولى (Archontopuli) (التى أسسها ألكسيوس لأبناء النبلاء الذين توفوا) . وكان الحرس الفارانجى المكون فى الأغلب من الجند الإنجليز ، هو الذى هزمه النورمان عند ديراخيوم فى ١٠٨١ . ولم يعد هناك عندئذ جيش لألوية الثغور ، فإن هذه الألوية (الثيمات) قد اختل نظامها ، كما أن آل كومنين كانوا يؤثرون التمركز . وكان هناك عند ذاك قائدان أعليان هما الدومستيق فى الشرق والدومستيق فى الغرب ، بدلا من مختلف القواد . وكانت القوات الإضافية تزود بمرتزقة أجانب[٥] .

وكانت القاعدة الثابتة المتبعة فى أوليات القرن الحادى عشر ، ألا

---

(١) انظر پسلوس فى : (Chronographia) ج ١ ص ١٠ .

(٢) انظر ڤاسيليڤسكى فى : (The Varangian—Russian Guard) (بالروسية) بمجلة وزارة المعارف العمومية ببطرسبرج ١٨٧٤ – ١٨٧٥ . [والفارانجى هو الاسم الذى كان يطلقه الروم على المرتزقة من أهل الشمال] . (المترجم)

(٣) انظر (Jus Graeco—Romanum) ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٤) التاجماتا هى كما ورد آنفا كتائب الحرس الإمبراطورى الأربعة . (المترجم)

(٥) بكلر ، آنّا كومنينا ، ص ٣٥٢ .

تُجعل الإمرة لأحد من الأجانب . فعلى الرغم من كفاية بطرس « ابن أخي ملك ألمانيا » الذى لزم خدمة باسيليوس الثانى — وعلو كعبه فى الجدارة لم يعط البتة رتبة أعلى من رتبة دومستيق مقاطعة[1] . فأما فى عهد آل كومنين فقد صار الأجانب يُستخدمون فى أعلى مناصب الدولة مسئولية . ذلك أن قائد الرفاق الأعظم (Grand Hataeriarch) لدى ألكسيوس كان من الإسكيذيين : وإن عُد بوهيموند فظا فى وقاحته حين طلب أن يُعين دومستيقا للشرق[2] . بيد أن عمانوئيل الأول ومارية الانطاكية عيَّنا اللاتين فى كثير من المناصب الهامة .

وكان نظام المرتزقة يتوقف على وجود مبالغ كبيرة من المال الجاهز بالخزانة . واتفق أن أخذ المال ينضب فى عهد آل أنجيلوس . وفى آخر الأمر حدث فى ١٢٠٤ عندما طالب الجند الأجانب بأرزاقهم ، أن لم يتهيأ للدولة أن تُقدم لهم منها شيئاً . وهكذا رفض الأجانب الذين لا يقوم ولاؤهم كما هو معلوم إلا على المال أن يقاتلوا وتُركت القسطنطينية بلا حام يدافع عنها .

وتمكن أباطرة نيقيا بما أخذوا أنفسهم من اقتصاد شديد ، من تكوين جيش صغير ومن إنزال الحرس الوطنى (الميليشيا) على الحدود ، دافعين لهم أعطياتهم عن طريق النظام القديم ألا وهو نظام إقطاعهم الممتلكات الصغيرة . بيد أن أسرة باليولوجوس لم تكفل لها مواردها الإبقاء على جيش من الأهالى الوطنيين . وحذرتهم قصة جماعة المغاور[3] القطلونية من ضرر استئجار المرتزقة ، ولكن لم يجدوا سبيلا أخرى ينتهجونها . لذا فكثيراً ما كان

---

(١) انظر كيكومينوس فى (Noutheticos) ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) انظر (Anna Comnena) ص ٢٠٨ ، ٢٦٧ .

(٣) انظر « الروم فى سياستهم وحضارتهم الخ » لأسد رستم ج ٢ ص ٢٢٣ .
(المترجم)

منصب الدومستيق الأعظم وهو القائد الأعلى لديهم مجرد لقب أجوف لا عمل له أو يكاد . فلقد كانت موارد الإمبراطورية من الرجال القادرين جثمانياً فى اضمحلال سريع ؛ وكان الإبقاء على جيش فى زمن السلم يعد إسرافاً لا يجوز التفكير فيه . لذا فقبل سقوط القسطنطينية فى يد الترك بزمن طويل كان الجيش البيزنطى فى خبر كان . وكان كل ما خلفه عظماء الجند من التراث لأحفادهم الفقراء هو ذلك الخط الطويل من الأسوار الذى دام قروناً عديدة الحصن الواقى للشرق المسيحى .

٢ – الأسطول[١]

كان الجيش هو سلاح الخدمة الممتازة إلى حد كبير ببيزنطة . فلم يحظ الأسطول قط بنفس الأهمية ولا العناية . إذ لم يُسطر كتاب فى فنون الحرب البحرية ببيزنطة حتى ألف لاوون السادس كتابه (فنون الحرب= Tactica) ؛ ومع ذلك فإنه لم يخصص للحرب البحرية إلا بضعة فصول قليلة فقط[٢] ، كما لم يعد إلى الكتابة فى ذلك الموضوع نفسه إلا كاتب واحد هو باراكويموميبنوس باسيل ، الذى لم يصدر مع ذلك كتابه المعنون (Naumachia) حتى اليوم . ويورد قسطنطين السابع بعض المعلومات العرضية ، بيد أن من الجلى أن المؤرخين من أمثال أنَّا كومنينا ، يعدون الشئون البحرية غير ذات شأن بالمقارنة إلى الشئون البرية . ومن ثم فعلوماتنا عن التاريخ البحرى لبيزنطة أقل ؛ ويحس الإنسان من جراء ذلك بما يغريه بأن يقلل من أهميته .

---

(١) انظر نيومان (Die Byzantinische Marine) فى H. Z. مج ٤٥ ص ١ ع ع . وبيورى فى الملحق ه لكتاب جيبون "Decline & Fall ..." مج ٦ وعن السياسة البحرية فى (Centenario di M. Amari) ج ٢ ص ٢١ – ٣٤ ؛ وانظر أيضا بينز فى (Byzantine Empire) ص ١٤٣ – ١٤٩ ، ٢١٧ – ٢٢٠ ، بكلر (Buckler) ؛ أنَّا كومنينا ٣٨١ – ٣٨٦ .

(٢) لاوون (Tactica) ص ٩٨٩ ع ع .

وفى أيام عظمة الإمبراطورية الرومانية ، يوم كان البحر المتوسط بحيرة رومانية ، لم يكن هناك من داع يوجب وجود أسطول عظيم . أما قلعة بيزنطة فقد وجب عليها أن تحول دون غزو قراصنة سواحل البحر الأسود للمياه المتحضرة ، التى لم يكن يلزمها إلا قوة بوليسية صغيرة . وحتى فى أثناء الغزوات القوطية الأولى كانت قلة صغيرة من السفن كافية جداً لمحاصرة الساحل وإجبار البرابرة على التزحزح عنه . فلم تتجل عدم كفاية سياسة روما البحرية إلا يوم جاء الوندال إلى إفريقية وبنوا أسطولا . بيد أن أباطرة القرن الخامس لم يقوموا فى الشرق ولا فى الغرب إلا بجهود هزيلة يعوزها الإخلاص للتغلب على النقص الملموس ، بل الواقع أن يوستنيانوس نفسه كان الذى ساعده هو اضمحلال قوة الوندال البحرية أكثر من وجود أية قوة بحرية لديه هو .

ولم تبدأ البحرية البيزنطية حقاً إلا فى عهد آل هرقل . فإن قوة العرب البحرية النامية كانت تستلزم إجراءً مضاداً ؛ كما أن المغيرين على الإمبراطورية بلغوا من الكثرة حداً جعل السفر البرى من الصعوبة بحيث صار من المستحسن فيما نرجح اللجوء إلى الطرق البحرية المحروسة بالجند . وعندما أنشئت ألوية الثغور أُدخل فيها لواءان بحريان ، كان الوالى فيهما أمير بحر (أميرال) وليس قائداً . وهما لواء الكيبورهيوت [1] البحرى

---

(١) الكيبورهيوت — فى أثناء الفترة من حوالى ٦٥٠ — ٧٢٠ م . وضمت القوات البحرية المسماه بالكارابيسيانية (Carabisianoi) تحت قيادة أمير بحر يحمل لقب إستراتيجوس (قائد) ، وكانت تتألف من قسمين جغرافيين ، قائد كل منهما نائب أمير بحر أى درانجاريوس (Drungarius) : أولها ولاية كيبورهيوت (ولعل التسمية مشتقة من كيبورا الصغرى فى بامفيليا) وهى تشمل مناطق الساحل الجنوبى بآسيا الصغرى ، وثانيهما الولاية الإيجية التى كانت تضم الجزر وجزءاً من الساحل الغربى لآسيا الصغرى . وكانت الولاية الأولى أهم الولايتين وكان بحارة تلك الولاية هم الأحفاد الأشداء للقراصنة الذين كان إخضاعهم عبئاً ثقيلا على موارد الحكومة الرومانية فى أواخر عهد الجمهورية . (المترجم)

(Cibyrrhaeot) الذى يشمل الساحل الجنوبى من آسيا الصغرى ولواء البحر الإيجى الذى يضم الجزر وأجزاء من الساحل الغربى من آسيا الصغرى . وكان كل لواء من هذه تحت حكم نائب أمير بحر (drungarius) ، وكان نائبا أمير البحر هذان تحت إمرة القيادة العليا للقائد العام (Strategus) الكارابيسيانى[1] . وهذا الأسطول هو الذى طرد العرب عن القسطنطينية مرتين واحتفظ بصقلية للإمبراطورية . ولكنه بلغ مبلغاً عظيماً من القوة . فإنه خلع لاونتيوس عن عرشه فى ٦٩٨ ، وأجلس مكانه على العرش أميراً للبحر هو أبسيار . ثم خلع يوستنيانوس الثانى فى (٧١١)[2] . وعندئذ خشى بأسه الأباطرة المحاربون من أفراد الأسرة الإيسورية . وفضلا عن ذلك فإنه بينما كان جند آسيا يظاهرون سياستهم المناهضة لعبادة الصور ، فإن كثرة كبيرة من رجال الأسطول كانت مجندة من مقاطعات تؤمن بعبادة الصور ، وهو إيمان يتجاوب صداه مع روح الملاح الميالة إلى التحزبات . وفى نفس الحين كانت قوة العرب البحرية فى اضمحلال ، لذا رأوا أن من الأسلم إلغاء القيادة العليا للأسطول وأن يحطوا من قدر الألوية البحرية وينقصوا من عدد السفن إنقاصاً كبيراً[3] .

ولا مراء أن تلك السياسة كانت خاطئة . فإن أساطيل العرب ظهرت ثانية فى القرن التاسع واقتنصت صقلية من قبضة الإمبراطورية ، بل وإقريطش أيضاً ، وهو الأنكى والأمرّ ، إذ أنهم حولوا إقريطش إلى قاعدة للقرصنة كانت تنذر كل السواحل الإيجية بالخطر . لذا اضطرتهم الحال إلى بعث الأسطول من جديد . وتصادف أن اتفق موعد مولده

---

(١) القيادة الكارابيسانية هى قيادة المنطقة البحرية التى تشمل الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى والبحر الإيجى . (المترجم)

(٢) ثيوفانيز ص ٣٧٠ ، ٣٨٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٠ .

الجديد – ولعل لذلك ما يبرره من أسباب – مع القضاء النهائي على تحريم عبادة الصور . فأعادت ثيودورا وميخائيل الثالث ومن بعدهما باسيليوس الأول ، تنظيم الأسطول البحرى بأكمله . وأعيد أيضاً نظام الألوية البحرية إلى نصابه ؛ وبعد ذلك بقليل أضيف إلى عدادها لواء ساموس البحرى بما فيه أزمير . ثم منحت الألوية الأوربيـــة البحرية وهى هيلاّس والبيلوبونيز وكيفالونيا والألوية الإيطالية – نظام الألوية البحرية . وتقرر أن يكون هناك أسطول إمبراطورى كبير مقره القسطنطينية ، تحت قيادة أمير البحر الأعظم (Grand Drungarius) وهو من أعلى الموظفين درجة فى سلك وظائف الدولة . ومع ذلك فإن قواد الألوية البحرية كانوا يحصلون على مرتبات أصغر من التى كان يتقاضاها إخوانهم العسكريون ، حيث لم يكن الواحد منهم ليحصل إلا على ١٠ أرطال من الذهب سنوياً[١] .

وكانت البحرية الجديدة ذات كفاية وكللت أعمالها بالنجاح . أجل لم تستطع أن تنقذ صقلية من قبضة العرب ، بيد أنها استردت جنوب إيطاليا للإمبراطورية ، كما أن الحملات التى قام بها فى البحر الأدرياتى أوريفاس أمير البحر العظيم فى عهد باسيليوس جعلت ساحل دالماتيا يعلن للإمبرطورية ولاء طال العهد بنسيانه[٢] . ومع ذلك فإن القرصان المسلم لاوون الطرابلسى تمكن من نهب سلانيك ٩٠٤ رغم وجود ذلك الأسطول ، على أنه تمكن من مطاردته حتى قتله بعد ذلك ببضع سنين[٣] . واستطاع فى عهد زوية كاربو پسينا أن يدمر وكرا للصوص العرب على نهر جاريجليانو ،

(١) انظر بيورى : (Eastern Roman Empire) ص ٢٢٩ – ٢٣١ .

(٢) انظر قسطنطين بورفيروجنيتوس فى (De Administrando Imperio) ص ١٣٠ .

(٣) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٤٠٥ .

كما تمكن فى عهد رومانوس الأول من القيام بعمل مماثل لهذا فى مكان بعيد قرب فريچوس[1] (Fréjus) . وفى ٩٦١ استردت إقريطش آخر الأمر بعد أن فشلت محاولة استردادها مرتين فى ٩٠٢ ، ٩٤٩. ومنذ تلك اللحظة انتهت قوة العرب البحرية . وأصبح فى إمكان نيقيفورس فوقاس أن يقول بصدق للسفير الإيطالى ليودبراند « أنا وحدى الذى يتحكم فى البحر »[٢] . ومن قبل ذلك كان قسطنطين السابع قد ادعى لنفسه حق السيادة العليا حتى مضيق جبل طارق[٣] .

على أن قوة بيزنطة البحرية ما لبثت أن اضمحلت هى أيضاً بدورها . ويرجع ذلك من ناحية إلى تجدد الخوف من القوة المفرطة التى قد يبلغها أمير البحر — حيث وجد رومانوس ليكابينوس فى إمرة البحر خير معراج يرقى به إلى العرش — لذا تعمد الأباطرة المدنيون (غير العسكريين) فى القرن الحادى عشر تخفيض التسليح البحرى . هذا إلى أن عدم وجود أية قوة بحرية منافسة جعل الإبقاء على الأسطول يبدو إسرافاً لاضرورة له . ومن قبل ذلك فى ٩٩٢ ناط باسيليوس الثانى بالبنادقة واجب الحراسة البوليسية فى البحر الأدرياتى وكلفهم بعملية نقل الجيوش الإمبراطورية عند الحاجة . وفى الشرق أفسدت فتوح السلاجقة نظام الألوية البحرية . حتى إذا وافى عهد ألكسيوس كومنينوس يوم احتاجت الإمبرطورية من جديد إلى السفن لتقيها غائلة أعدائها استوجب الحال استئجار المرتزقة الإيطاليين . وحاول ألكسيوس أن يعيد بناء البحرية الإمبراطورية ، حتى انتهى به المطاف إلى تمكن أسطوله من مقاومة سفن پيزا وجنوة . بيد أن

(١) ليودبراند : (Antapodosis) ص ٩١ — ٩٢ ؛ وانظر أيضا لاوون الأستيق (من أهل أوستيا) جـ ١ ص ٥٠ ع . ع ؛ وانظر ما كتبه فلود وارد فى M.P.L. مج ١٤٥ ، ص ٤٣١ ؛ وانظر أيضا ليودبراند بالمرجع السابق ص ١٣٥ ، ١٣٩ .

(٢) نفس المرجع : (Legatio) ص ١٨٢ .

(٣) قسطنطين بورفيروچنيتوس : (De Thematibus) ص ٥٨ .

من عقبه من آل كومنين لم يؤتوا الرجال ولا المال اللازمين لذلك. وأنفق عمانوئيل الأول كل ما أمكنه إنفاقه على الحملات الحربية، وزال الأسطول من الوجود. وكانت نتيجة ذلك كارثة ١٢٠٤.

ويلوح أن أباطرة نيقيا قد وجهوا همهم إلى عمارتهم البحرية. ومن المحقق أنه لم يكن يوجد فى عهد ميخائيل باليولوجوس واسترداد القسطنطينية غير أسطول صغير ولكنه صالح لأداء أغراضه. والحق أن الأسطول كان طوال حكم أسرة باليولوجوس أحسن فيما يحتمل حالا من الجيش؛ كما أن كبير أمراء البحر الذى كان يلقب آنذاك بالدوق الأعظم، كانت منزلته تسامى فى علوها منزلة الدومستيق الأعظم — وبذلك يكون بمنزلة أعلى نسبيا من التى سما إليها أمير البحر الأعظم (Grand Drungarius) فى يوم من الأيام قط[1]. بيد أن الأسطول كان أضعف من أن يصمد فى وجه الأساطيل الإيطالية الكبيرة، ولم تنقض العشرات الأخيرة من سنىّ الفوضى حتى كاد يزول هو أيضاً من الوجود. ولكن لم تبرح لديهم بضع سفن قليلة اشتركت فى القتال مع الترك فى أثناء الحصار النهائى، وبخاصة سفن النقل الإمبراطورى التى تحمل القمح إلى المدينة المحاصرة، وكانت تشق طريقها قتالا إلى الميناء مخترقة فى أثناء ذلك أهوالا شدادا[2].

وكانت السفينة الحربية البيزنطية العادية هى الدرمونة أو «العداءة»، وهى سفينة ثنائية أى ذات صفين من المجاديف تحوى عددا من الرجال يتراوح بين ما قد يزيد قليلا على مائتى رجل إلى ثلاثمائة. هذا إلى أنه كانت هناك سفن ثنائية (biremes) من طراز وتصميم آخر يظهر أنها كانت أسرع حركة وهى المعروفة بالبامفيلية. فكانت سفينة العَلَم لأمير البحر

---

(١) انظر كودينوس (De Officiis) ص ٢٨.

(٢) انظر فرانچيس ص ٢٤٧.

فى القرن العاشر فلكا بامفيليا . وكانت هناك أيضاً غلايين[1] (galleys) عليها صفوف مفردة من المجاديف[2] . وفوق هذا ربما جاز الاستيلاء على السفن التجارية وتحويلها إلى عسكرية . فإن الأسطول الذى سيره يوستينيانوس الثانى على خيرسون قد أسهمت فى تجهيزه جميع نقابات العمل بالقسطنطينية كما كان يضم سفنا تجارية[3] ، وكان الأسطول الذى قضى على غارة الروس فى ٩٤١ أسطولا جُمع ارتجالا بلا تدبر من السفن القديمة والسفن التجارية ، يوم كان الأسطول الإمبراطورى غائبا عن البلاد فى مهمة ببحر إيجه[4] .

وقد زودتنا بعض المراجع بأرقام معينة تشهد بحجم العمارة البحرية فى أعظم عهودها . إذ قيل إن ثلاثمائة سفينة أرسلت على مصر فى ٨٥٣ ؛ غير أن الكثير من هذه ربما لم يزد عن أشكيفات[5] صغيرة . وحدث فى الحملة الكريتية لسنة ٩٠٢ أن قدمت البحرية الإمبراطورية ٦٠ درمونة و٤٠ بامفيلية وأن بحرية ألوية كيبرهايوت وإيجة وساموس قدمت ٣٥ درمونة و٣٥ بامفيلية ، على حين أرسلت « هيلاس » عشر درمونات[6] .

---

(١) الغليون معرّب (galley) سفينة حربية يونانية أو رومانية من النوع القديم . (المترجم)

(٢) لاوون (Tactica) ص ٩٩٢ ع ع ؛ بيورى فى الملحق « لكتاب Decline & Fall) مج ٦ ص ٥٣٩ .

(٣) ثيوفانيز ص ٣٧٧ .

(٤) ليودبراند فى (Antapodosis) ص ١٣٧ ع ع .

(٥) الطبرى فى ترجمة مقتبسة عند فاسيليف فى (Byzantium and the Arabs) (بالروسية) ج ١ التذييل ص ٥١ – ٥٢ . — والأشكيف زورق صغير خفيف وهو يعرف بذاك الاسم فى ثغر دمياط . (المترجم)

(٦) قسطنطين بورفيروجنيتوس فى (De Ceremoniis) ص ٦٥١ ع ع .

ويظهر أن لواء كالابريا (جنوب إيطاليا) كان له سبع سفن فى ٩٢٩[1] . .

وربما سلحت السفن بالكباش ، بيد أن سلاحها الأعظم كان النار اليونانية أو النار البحرية[2] . ومن الواضح أن هذه المادة الكيماوية كانت من أنواع مختلفة وتستعمل بطرائق مختلفة . والأغلب الأعم أنها إما كانت تقذف فى قنابل يدوية تنفجر وتشعل النار فى سفينة الأعداء ، وإما تقذف المجانيق فى الهواء أوعية مملوءة بتلك المادة ؛ ويلوح أيضاً أن قوة البارود كانت تستخدم بطريقة ما فى دفع المواد القابلة للاشتعال داخل أنابيب إلى أهداف على شىء من البعد . وكان تركيب النار اليونانية سراً يحافظ عليه أصحابه إلى أقصى حد ، ولا يجوز أن يباح به لأحد مطلقاً[3] . وكانت بالمدن البحرية الكبرى مخازن مملوءة بتلك المادة . وكان استيلاء كورم على مسيمبريا فى ٨١٢ كارثة عظيمة لأنه وضع مقادير من تلك المادة فى يد خاقان البلغار[4] . وقيل إن الذى اخترع تلك المادة هو شخص يُدعى كالينيكوس من هليوبوليس فى القرن السابع ، وأن نوعاً منها استخدم فى طرد العرب عن القسطنطينية أثناء الحصارات الكبيرة التى ضربت عليها . ولكن يحتمل أن الأنواع المختلفة لتلك المادة لم تبلغ درجة الكمال إلا فى القرن التاسع . ويتحدث عنها لاوون السادس كاكتشاف جديد[5] . ثم يعود مرقس الرومى فيقدم إلينا فى القرن

---

(١) ابن عذارى مقتبسا عند ڤاسيليف بالمرجع السابق ج ٢ التذييل ١٤٩ .

(٢) بيورى بالموضع المذكور ؛ وانظر شلومبرجر فى (Récits de Byzance) ، المجموعة الثانية ص ٣٧ — ٤٨ .

(٣) قسطنطين بورفيروجنيتوس فى (De Administrando Imperio) ص ٨٤ .

(٤) ثيوفانيز ص ٤٩٩ .

(٥) لاوون : (Tactica) .

العاشر تركيبها بصورة مبهمة قليلا[١] ؛ ويلوح أن العرب تعلموا صنعها قبل الحروب الصليبية وما لبث أن بطل استعمالها تماماً عندما حل محلها البارود والمدفع فى القرن الرابع عشر .

وتكاد فنون الحرب التى يوصى بها لاوون السادس بالنسبة للحرب البحرية تكون أحفل بالحذر من تلك التى يقترحها للقوات العسكرية . فهو يقول إنه ينبغى تجنب المعارك الفاصلة إلا إذا كان الأسطول المواجه فى موقف سيئ ؛ ويرى أن المناوشات المنفصلة أحكم كثيراً . فإن لم يكن فى الإمكان تجنب خوض معركة فاصلة ، فهو ينصح بالقتال فى هيئة التشكيلة الهلالية التى كانت موضع حب الإغريق القدماء . وكان إعطاء الإشارات يتم بالرايات أو باستخدام الأنوار ليلا . وكانت أصول الملاحة تدرس بعناية ، فينبغى أن تعرف الرياح والتيارات وتتخذ ضدها الاحتياطات . وينبغى تجنب السواحل الصعبة . فإذا أمكن مع ذلك استخدام الجو فى تدمير تشكيلة عمارة للعدو ، كان فى ذلك أقل أنواع النصر[٢] نفقة وهو من أجل ذلك أبدع أشكاله .

بيد أنه من الجلى أن لاوون السادس لم يكن كثير الشغف بالحرب البحرية ولا هو كان يفهمها كثيراً . وشاهد ذلك أن الفصل الذى عقده عن البحرية تتجلى فيه إلى حد كبير روح شخص له نزعة أشبه بالهواية بعكس أى فصل عقده عن الشئون العسكرية . وليس هناك أى سجل فنى ينم عن التضلع فى الشئون البحرية ووظائف الحرب البحرية ومُثلها العليا ببيزنطة . وكان الأسطول يؤدى لبلاده خدمات عظيمة كثيرة . وكان لكيكومينوس كل مبرر فى تسميته باسم : « مجد رومانيا »[٣] . ولكن الروم المحدثين كانوا

---

(١) وانظر مقالة بعنوان (Liber Ignium ad Comburendos Hostes) فى كتاب هوفر عن « تاريخ الكيمياء » (Histoire de la Chimie) مج ١ .

(٢) لاوون (Tactica) بالموضع المذكور .

(٣) كيكومينوس (Nouthetikos) ص ١٠١ .

ينظرون إلى مجدهم دون تحمس . وكانت العواصف والصخور تملأ البحر بالمخاطر ، وكم من أرمادا دمرتها يد الله . لذا كانوا يفضلون على ذلك علماً يحصل لهم منه ذكاؤهم على مزية محققة أكثر ، ولذا حرصوا أن يدرسوا بدلا من ذلك أساليب الحرب البرية وفنونها .

٣ – الجهاز الديبلوماسى .

إن البيزنطيين وإن أجادوا تنظيم جيشهم وأسطولهم إلا أنهم كانوا يفضلون مع ذلك الاقتصاد فى استخدامهما . لذا كان للقوم ديبلوماسية ناشطة ، الغرض منها إيقاع الدول الأجنبية بعضها فى بعض وبذلك يحصلون على توازن يمنع أى عدو محتمل من غزو الأراضى الإمبراطورية .

ولم يبق لنا إلا النذر الضئيل جداً من المعلومات عن كيفية تنظيم الجهاز الديبلوماسى البيزنطى . وكان وزير خارجيـــة الإمبراطورية هو مستشار الإجراءات (Logothete of the Course) ، وهو الوزير الذى كانت له فيما يلوح أوثق الصلات بالإمبراطور وكان يقابله يومياً[١] . وعلى ذلك كانت الشئون الخارجية يديرها الإمبراطور نفسه إلى حد كبير . وكان من واجبات المستشار أن يعمل الترتيبات اللازمة لاستقبال السفراء الأجانب ، ومن المحتمل أيضاً أنه كان يجهز البعثات السياسية الإمبراطورية إلى بلاطات الملوك الأجانب ويختار أفرادها . بيد أن شئوناً ديبلوماسية معينة كانت تتولاها السلطات المحلية . وهكذا جرت العادة بأن يتولى القائد العام فى خيرسون (ببلاد القرم) وضع الترتيبات اللازمة لإرسال البعثات العسكرية إلى شعوب أقاليم السهوب . فإن قصة مغامرات جستنيان الثانى تشهد بأن خيرسون هى المنطقة التى خرج منها السـفراء إلى الخزر[٢] . وفى عهد

(١) انظر أعلاه الفصل الرابع .

(٢) ثيوفانيز ص ٣٧٨ .

زوية كاربوبسينا كان القائد العام يوحنا بوجاس هو الذى زار قبائل البشناق لتحريضهم على بلغاريا[1] ؛ هذا إلى أن قسطنطين السابع كان يعد خيرسون قاعدة ديبلوماسية ببلاد السهوب[2] . وربما كان حاكم ناحية جوثيا (Toparch of Gothia) وهو موظف يظهر أنه كان موجوداً فى أوائل القرن العاشر ، كان رئيساً للديوان الديبلوماسى بخيرسون[3] . فأما فى إيطاليا فيلوح أن القائد المحلى (Strategus) أو « الكاتيبان » (Catepan) كان يتولى معالجة الشئون مع العرب[4] ، وإن كانت بعثات سياسية ضخمة مرسلة إلى البلاطات الإيطالية كانت تُهيأ بالقسطنطينية[5] . وفى منتصف القرن العاشر لم يكن القائد بل كبير أساقفة أوترانتو المسمى فلاتّوس ، هو الذى سافر إلى المهدية ليفتدى الأسرى النصارى ؛ ولكنه كان ذا نفوذ هناك ، إذ أن أخته كانت فى حريم الخليفة ، وعندما عاد بصورة غير رسمية لإتمام وساطته أعدم[6] .

لم يكن هناك جهاز ولا خدمة ديبلوماسية بالمعنى العصرى . فلم تكن ثمة مؤسسات ديبلوماسية مستديمة الإقامة بالبلاد الأجنبية : وإن كان لدى قائد عام خيرسون ديوان كبير كان يجمع المعلومات عن السياسة الجارية فى السهوب . ومن المرجح أنه كان هناك طبقة معينة من الموظفين يُرسلون دائماً كسفراء إذا احتاج الأمر إليهم . فقد حدث فى عهد لاوون السادس أن الماچستر لاوون خويروسفاكتا أُرسل فى سفارات إلى بغداد أولا ثم إلى بلاط بلغاريا[7] .

---

(١) ثيوفانيز كونتينياتوس ص ٣٨٧ .

(٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس بالمرجع السابق ص ٧٢ ، ص ٢٤٤ ع ع .

(٣) أسپنسكى فى (Russia and Byzantium) (بالروسية) بمواضع متفرقة من الكتاب .

(٤) مثل كدرينوس الفصل ٦ ص ٣٥٥ .

(٥) مثل قسطنطين بورفيروجنيتوس فى (De Coremoniis) ص ٦٦١ .

(٦) انظر « حياة القديس نيلوس فى M. P. G. مج ١٢٠ ص ١١٧ – ١٢٠ .

(٧) نشرت مراسلاته الممتعة – نشرها سكيليون فى (Deltion) مج ١ ص ٣٧٧ – ٤١٠ .

وجرت العادة بالمحافظة على إيفاد نفس الوزراء ، فكانوا يذهبون كلما دار البحث حول هدنة مع العرب ، وذلك ليتولوا تبادل الأسرى على الحدود — وأرجح الظن أنهم كانوا ممن يجيدون العربية . وفى عهد رومانوس الأول قام النبيل قطنس (كونستانز) بمختلف السفارات فى بلاد القوقاز ، ولكنه ارتقى فيما بعد حتى أصبح أميرالا أعظم[1] .

وكان الطابع الظاهرى للديبلوماسية البيزنطية عبارة عن رسميات جامدة ، يراد من ورائها رفع كرامة الإمبراطور وهيبته . فإذا وصل سفير أجنبى إلى القسطنطينية حوصر بكل أنواع آداب السلوك — وذلك للتأكيد عليه إلى حد كبير بأنه لا ينبغى له أن يلتقى بأى شخص غير مفوض . فإذا أُدخل إلى « الحضرة » حُيى طبقاً لمراسم موضوعة ، واستقبل بالدور حسب ترتيب بلاده فى الأهمية . وبمقتضى معاهدة ٩٢٧ أصبح سفراء البلغار وهم الذين يمثلون عاهلا من أقارب البيت الإمبراطورى ، يمنحون أسبقية خاصة على جميع السفراء . وظل الحال على هذا حتى قضى يوحنا چيمسكى (تزيمسكيس)[2] على الأسرة المالكة البلغارية . وكان الإمبراطور يظل أثناء المقابلة الأولى رصينا هادئ السمت كأنه إله . وكان المتوقع من السفير أن يسجد على الأرض أمام الإمبراطور ثم يعود فيما بعد فيبدأ علاقة شخصية مع الإمبراطور فى مأدبة رسمية ، أو ربما منح الإذن بمقابلة شخصية . فإن كان من شعب بربرى أديرت له الألاعيب الميكانيكية بالقصر حتى تروعه . فتزأر الأسود الذهبية وتشدو الطيور الذهبية ، وبينما السفير ساجد على الأرض يرتفع العرش إلى السماء ويبدو الإمبراطور مرتديا ثياباً أخرى أفخر من الأولى . فإن كان السفير حصيفاً أريباً عرضت عليه على سبيل التسلية كنوز القصر وآثار القدامى — وهى أشياء لا تقدر بثمن تبهر رؤيتها

---

(١) قسطنطين بورفيروجنيتوس (De Administrando Imperio) ص ٢٠٨ .

(٢) ليودبراند (Legatio) ص ١٨٦ .

أنفاسه — أو لعله يؤخذ أحياناً إلى الألعاب[1] . بيد أنه كان طوال ذلك كله تحت مراقبة دقيقة ؛ إذ لم يكن يجوز أن يعود إلى بلاده دون أن يعلم أو يرى شيئاً إلا ما تشاء له الحكومة الإمبراطورية أن يعلمه أو يراه . فإن هو سلك سلوكاً ينطوي على عدم الاحترام أو كانت أوراق اعتماده موجهة فحسب إلى « إمبراطور اليونان » ، مثـل أوراق المندوبين البابويين فى ٩٦٨ ، ألقى فى غياهب السجن فوراً[2] . ولم تكن ثمة حصانة ديبلوماسية لمن يحقر الكرامة الإمبراطورية أو يمس العادات التى يوصى بها البلاط الإمبراطورى .

وكانت البعثات السياسية الإمبراطورية إلى الخارج تسافر فى حاشية فاخرة محملة بالهدايا والألطاف السنية والجواهر والذهب والحرير والوشى . وكانت هذه الأشياء موجهة بصفة رئيسية إلى العاهل الذى يقصده ركب السفراء . بيد أن الوزراء ذوى الحظوة والنفوذ كان لا بد من خطب ودهم بالهبات[3] . وكان المفروض أن هيئة الجاسوسية الإمبراطورية تعرف من الذى يجدر بالسفراء أن يحصلوا على معاونته فى بافيا أو بغداد . فعندما أُرسل نيقيفورس يورانوس إلى بغداد فى ٩٨٠ أُمر بأن يتلطف تلطفا خاصاً مع عضد الدولة ، أهم مستشارى الخليفة وأعلاهم شأناً[4] .

ومن وراء هذا الطلاء من الفخامة والأبهة كانت الديبلوماسية البيزنطية مخاتلة ماكرة بعيدة النظر لا تكترث بالقيم الأخلاقية إلى حد ما . أجل كانت الإلتزامات التى تفرضها المعاهدات تراعى بكل دقة ؛ على أن

---

(١) قسطنطين بورفير وجنيتوس (De Ceremoniis) ص ٥٦٦ ع ع ، ٦٨٠ ع ع ؛ ليودبراند (Legatio) بمواضع متفرقة منه .

(٢) ليودبراند بالمرجع السابق ص ٢٠١ .

(٣) قسطنطين بورفيروجنيتوس بالمرجع السابق ص ٦٦١ .

(٤) « يحيى الأنطاكى » ، نشره روزن ، ٢٠ .

البيزنطيين لم يكونوا ليجدوا أى خطأ فى تحريش قبيلة أجنبية بجار لم تسود بينهم وبينه علائق السلام . فإن لاوون السادس الذى تحرج بسبب تقواه عن القتال بنفسه مع البلغار النصارى أبناء دينه ، لم يتردد قيد شعرة فى أن يحرض المنغاريين الوثنيين على مهاجمتهم من الخلف[1] ؛ وبالمثل حرض نيقيفورس فوقاس الروس على البلغار ، وإن كان فى سلم مع هؤلاء البلغار[2] . وكان من القواعد الثابتة الجوهرية فى السياسة الخارجية البيزنطية حمل أمم أخرى على مناهضة أعدائهم ، وبذلك يخفضون من نفقات الحرب وأخطارها . وهكذا كانت الجيوش الفرنجية ، جيوش الإمبراطور الغربى لويس الثانى لا الجيوش البيزنطية ، هى التى طردت جند المسلمين من جنوب إيطاليا واستردت بارى فى ٨٧١[3] . وكل ما عمله البيزنطيون أن تعمدوا الوجود هنالك فى الوقت المناسب لاجتناء ثمار النصر ولعمل المناورات لإخراج الفرنجة من القطر الذى فتحوه ثانية . وهكذا أيضاً حدث فى جنوب إيطاليا بعد ذلك بقرن من الزمان عندما شرع أوثون (أوتو) الثانى العاهل الغربى ينفذ مشروعات للغزو هناك ، وباسيليوس الثانى غارق فى لجة عصيان مروّع شب ضده ، أن الحامية البيزنطية الصغيرة انسحبت بعد أن شجعت — بل لعلها رشت — المسلمين لكى يعرقلوا التقدم الألمانى . حتى إذا هزم الألمان فى « ستيلو » وتراجع المسلمون محملين بالغنائم عادت الحاميات البيزنطية إلى مواقعها[4] . وهكذا حدث أن ألكسيوس الأول استطاع وإن لم يدعُ الصليبيين قط ولا رغب مطلقاً فى معونتهم — أن

---

(١) لاوون (Tactica) ص ٩٥٧ ؛ قسطنطين بورفيروجنيتوس فى (De Administrando Imperio) ص ١٦٨ ع ع .

(٢) كدرينوس جـ ٢ ص ٣٧٢ .

(٣) انظر جاى (Gay) فى : (Italie Méridionale) ص ٧٩ ع ع .

(٤) المرجع نفسه ص ٣٢٤ ع ع .

يحول إلى خدمته وحده ومصلحته الخاصة انتصارات الصليبيين الأولى على السلاجقة .

وكانت مثل هذه السياسة هي المألوف استخدامها مع أمم بلاد السهوب . فما أكثر ما كان يحدث في الماضي أن تتمخض هنالك الاضطرابات عن تمكن قبائل البرابرة من شق طريقهم في قلب الإمبراطورية ؛ ولكن واحدة منهن لم تحاول بعد القرن السابع أن تستقر في جنوب الدانوب . وسبيل ذلك أن من يحتمل أن يكونوا غزاة كانوا يُسحقون في أرض السهوب أو يوجهون في طريق جانبية إلى وسط أوربا كالذي حدث للهنغاريين . ويدون لنا قسطنطين السابع الطريق التي تم بها الوصول إلى تلك النتائج في القرن العاشر . مثال ذلك أنه كان في الإمكان دفع البشناق أو البلغاريين السود على الخزر ؛ وتحريض الروس والهنغاريين على البشناق وهكذا دواليك[1] . فقد كان لكل شعب عدوه المحتمل الذي يمكن استخدامه لمعادلته في الميزان . وقد ظل البيزنطيون مهرة حتى النهاية في فن تحريض الشعوب بعضها على بعض .

وكانت المصاهرة تلعب دوراً عظيما في الدبلوماسية البيزنطية . فحتى الأباطرة أنفسهم لم يكونوا يترفعون عن الزواج من عرائس أجنبيات . فإن أميرتين من الخزر جلستا على العرش الإمبراطوري ، هما زوجتا يوستينيانوس الثاني وقسطنطين الخامس . وزوّج رومانوس الأول حفيده الذي أصبح رومانوس الثاني من أميرة إيطالية غير شرعية المولد . وكانت زوجة ميخائيل السابع هي الفاتنة البديعة مارية الآلانية . وكانت القاعدة العامة إبان حكم آل كومنين وآل باليولوجوس هي اتخاذ الأباطرة زوجات لهم من الغرب . ومن ثم تكونت سلسلة طويلة من الإمبراطورات الغربيات المولد وغير الصالحات لمناصبهن واللائي كان الكبرياء البيزنطي يأبى عليهن إباء مطلقاً محبة

---

(١) قسطنطين بورفيروجنيتوس بالمرجع السابق ص ٦٧ — ٧٢ ، ٨٠ — ٨١ .

الشعب لهن بالقسطنطينية . على أن هذه الزيجات كانت فاشلة من الناحية السياسية ؛ فإنهن لم يجلبن للإمبراطورأية ميزة ولا مصلحة ، بل لم يعدن عليه بشيء إلا أن جللنه بالخزى والعار. ورأى آخر الأباطرة قسطنطين الحادى عشر حماقة ذلك الأمر ، وكان يبحث عشية سقوط المدينة عن عروس من الشرق[1] . ومن الناحية الأخرى ، غالباً ما كان زواج السيدات البيزنطيات لكبراء الأجانب وأمرائهم شيئاً له أهميته . وكان قسطنطين السابع يرى دائماً أن هناك أموراً ثلاثة ينبغى ألا يمنحها الإمبراطور لأجنبي قط وهى :— التاج، وسر النار اليونانية ويد أميرة من مواليد الغرفة الأرجوانية[2] ؛ وقلما خالف أحد هذه السُّنة . على أن رومانوس الأول — وفى هذا من الإساءة إلى قسطنطين مافيه ! ! . . . . — زوّج حفيدته ماريا لقيصر بلغاريا . كما أن حفيدتى قسطنطين نفسه : ثيوفانو وأنّا أصبحت الأولى منهما إمبراطورة الغرب وأصبحت الثانية غراندوقة الروسيا . وكان الوضع الثانى مهيناً بوجه خاص ، وذلك لأن الغراندوق فلاديمير كان همجياً بربرياً لا يرجى صلاحه . ولم يقبل باسيليوس الثانى أن يضحى بأخته إلا فى سبيل الحصول على منافع دعت إليها ضرورات سياسية ماسة : — وهى تنصير الروس وتحويلهم إلى حلفاء وإنقاذ خيرسون . ولم يكثر تزويج بنات الأباطرة فى الخارج إلا فى عهد أباطرة نيقية وآل باليولوجوس ،وكان زواجهن بخاصة لملوك الصقالبة . وفى القرون الأخيرة وجد أباطرة طرابيزون أن جمال بناتهم الذائع الصيت كان رصيداً لا يُقوّم بمال ؛ ولكنهم كانوا فى سبيل تحقيق ذلك يعملون بطريقة تستهجنها الدبلوماسية الإمبراطورية التقليدية . على أنه كثيراً ما كانت سيدات أقل سمو مولد تُرسلن من القسطنطينية فينفعن بلادهن حيث يبثن روح التحضر فى زوج من أمراء البلدان القاصية . وذلك مثلما حدث أن

(١) ديهل فى (Figures Byzantines) جـ ٢ ص ١٦٤ — ٢٩٠ .

(٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس بالمرجع السابق ص ٨٤ .

الأسرتين المالكتين الأرمنيــة والقوقازية دخلتا بالتدريج فى فلك النفوذ الإمبراطورى ، حيث شجع أعضاؤهما على التماس عرائسهم من المدينة العظيمة . وعندئذ تنطلق غادة رشيقة من عائلة كريمة ، يفضل أن تكون من ذوى قربى البيت الإمبراطورى إلى طارون أو إلى آنى ذاتها مع بائنة فاخرة ضخمة بل وربما مع أثرديني صغير القدر يُقدم هدية من الإمبراطور – فإنْ رومانوس الثالث أعطى ابنة أخيه مسماراً من الصليب الحق عندما تزوجت باجرات ملك أباسجيا[1] ، وبالمثل ذهبت ثيوفانو إلى الغرب ومعها الجسم الكامل للقديس بنتاليون النيقوميدى[2]– وعندئذ ينظر الزوج الشاكر باحترام متجدد إلى بلاط القسطنطينية . ومن قبل ذلك حصل أمراء من اللومبارد من جنوب إيطاليا فعلا على زوجات من بيزنطة – وذلك مثل جريمالد صاحب بنڤنتوم الذى تزوج أخت زوجة قسطنطين السادس[3] . وتزوج اثنان من أدواج البندقية فى القرن الحادى عشر عروسين بيزنطيتين ، وهما يوحنا أورسينو ودومينيكو سلڤيو ، وكانت سيدات من بيزنطة يجلسن على عروش بالروسيا فى القرن الحادى عشر[4] . حتى إذا حل القرن الثانى عشر فى عهد آل كومنين اتسعت دائرة زواجهن . فإن كلا من ماريا كومنينا وثيودورا كومنينا وهما بنات أخوة للإمبراطور تربعتا على عرش أورشليم . وتزوجت ابنة أخت أخرى لمانوئيل الأول من دوق النمسا – حيث يقول شاعر بلاط أمها إنهم ضحوا بها قرباناً لوحش الغرب الضارى[5] . ومهما يكن من أمر فإن نزعة الاعتزال والترفع القديمة التى اتخذها وليدو الغرفة الأرجوانية قد

---

(١) انظر بروسيه فى : (Histoire de La Georgie) جـ ١ ص ٣١٦ – ٣١٧ .

(٢) انظر هوجو فى M.G.H. Ss. (Chronicon) مج ٨ ص ٣٧٤ .

(٣) انظر (Vita Philaretis) نشرها ڤاسيليڤ فى Izvestiya للمعهد الروسى بالقسطنطينية مج ٥ ، ص ٧٨ .

(٤) مثل ثيوفانو موزالون(Loparev in V.V.) مج ١ ص ١٥٩ .

(٥) ملر (Rec. des Historiens des Croisades) عن اليونان ، جـ ٢ ص ٧٦٨ .

نبذت ظهرياً ، وكانت نتيجة ذلك أن الشرف العائد من الزواج من عروش من السلالة الإمبراطورية أصبح أقل شأناً وبذلك انحطت قيمتهن الديبلوماسية .

وأولعت بيزنطة فى الحين نفسه بجمع المدعين للعروش الأجنبية . إذ لم يكن البلاط الإمبراطورى يخلو يوماً من مُطالب بالتاج البلغارى والصربى ، وكانوا يتزوجون عادة من سيدات من القسطنطينية . ومع أن بطرس البلغارى تزوج من حفيدة رومانوس الأول ، إلا أن ذلك الإمبراطور خطا خطوات نحو الحصول على شخص ميخائيل الشقيق الأكبر لبطرس ، وقد أقامه فى منصب كريم بالقسطنطينية[1] . وعندما قضى شارلمان على مملكة اللومبارد ، فر أدلكيس ولى العهد السابق إلى القسطنطينية ، حيث لقى العون فى كل ما دبر من خطط وتدبيرات[2] . وحتى قبل سقوط الإمبراطورية نهائياً بنصف قرن ، وجد مطالب بالعرش التركى فى القسطنطينية صدراً رحباً ومقاماً هانئاً وقذف به على السلطان مراد الثانى[3] .

وكانت الديبلوماسية البيزنطية باهظة النفقة . فهى تبذل الباثنات والهبات والإعانات لجميع الشعوب ، وهى أمور ورطت الخزانة فى مبالغ ضخمة . بل إن ضرب الحصارات الاقتصادية التى كثيراً ما كانت تستخدم بأثر فعال ضد العرب[4] كان كثير النفقة على الإمبراطورية هو أيضاً . وفضلا عن ذلك فإن الحكومة كانت على تمام الاستعداد لدفع الرُّشا إلى عدوها بقصد واضح هو ألا تجتاح أراضيه . وهكذا أصبح الأمراء العصاة فيما وراء الحدود عملاء بل حتى أجراء تقريباً مفضلين دخلا منتظماً ينالونه من الذهب البيزنطى على المكاسب المتقطعة غير المحققة من الغارات . بل لقد كان يحدث أحيانا إذا لم

(١) ثيوفانيز كونتينياتوس ص ٤١٩ .
(٢) آينهارد فى : (ad annum) ص ٧٨٨ .
(٣) دوقاس ص ١١٧ ع ع .
(٤) شلومبرجر فى : (Epopée Byzantine) ج ٢ ص ٤٥٢ ع ع .

تكن بيزنطة لسبب ما راغبة فى خوض غمار حرب ، أن يذهب مبلغ سنوى من المال إلى بغداد أو إلى بريسلاف . وربما سمى خليفة المسلمين أو قيصر البلغار ذلك المال جزية إن شاء . أما الإمبراطور فلم يكن يرى ذلك المبلغ إلا استثماراً حكيما ، فإذا كان على استعداد للقتال توقف عن الدفع . ولكن الأمر كله كان يتوقف على امتلاء الخزانة بالأموال . فإن الدبلوماسية البيزنطية كانت تزدهر ما وجدت الأموال ، حتى إذا لم تعد القسطنطينية المركز المالى للعالم هبط عليها عند ذلك التدهور .

الفصل السابع

التجــــارة

إذا كانت بيزنطة مدينة بقوتها وأمنها إلى كفاية أجهزتها الحكومية ، فإن تجارتها هي التي كانت تمكنها من تسديد نفقة تلك الأجهزة . والأصل الجوهري في تاريخها هو أنه تاريخ سياستها المالية وتاريخ تجارة العصور الوسطى.

وقل من المدن ما استمتع بمثل ذلك الموقع التجاري الفاخر الذي استمتعت به القسطنطينية بموقعها المعروف على الممر البحري بين الشمال والجنوب وعلى المعبرة الأرضية بين الشرق والغرب . وقل بين الشعوب والأجناس من بلغ من المهارة في التجارة مبلغ اليونان والأرمنيين الذين كانوا يشكلون مواطنيها . لذا فلم يكن ثم مجال للدهشة من أن تظل القسطنطينية قروناً عديدة رمزاً للثروة ومرادفاً لها ، وأن تكون مدينة لم يكن لكنوزها « نهاية تنتهي إليها ولا معيار تقاس به » . على أن تلك الكنوز لم تجمع كلها بمحض الصدفة ، إذ لم يكن بد من عاملي العناية والظروف لكي يدفعا الثراء إلى يد تلك المدينة .

وكانت الكتلة الأساسية للتجارة العالمية تسير من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط حتى افتتح كولمبس وفاسكو دا جاما للناس عصراً جديداً . وكانت دائرة البحر المتوسط تستطيع أن تمون نفسها بالأغذية وتتزود بما يلزمها من الضروريات ؛ على أنها كلما زادت رغداً ورخاء تاقت إلى ألوان الترف التي كان الشرق وحده هو الذي يستطيع تزويدها به . وقد ازدهرت التجارة الشرقية ازدهاراً عظيما في القرون الأولى للحقبة المسيحية . فظلت روما على الدوام تستورد الأفاويه والأعشاب وخشب الصندل من الأقاليم الهندية ،

وتستورد من بلاد الصين الحرير فوق كل شيء ولا سيما الحرير الغفل . ولم يكن بد من دفع أثمان تلك السلع جميعاً ، كما أن ما كانت تصدره منطقة البحر المتوسط من الزجاج والميناء والمواد المصنوعة لم يكد يفى بالسداد . لذا فإن مقداراً هائلا من سبائك الذهب والفضة كان يذهب كل عام إلى الشرق ؛ وأدى ذلك الاستنزاف إلى الكساد المالى الذى أخذ ينشر ألويته شيئاً فشيئا على العالم الرومانى . بيد أن طلب الحرير لم ينقطع قط ؛ حتى لقد أصبح من أشد ما يشغل السلطات أن تجد أرخص طريق يستطيع ذلك الحرير أن يسلكه .

وكانت تجارة الشرق تخترق طرقا مختلفة(١) . فإنها ربما مرت عبر التركستان إلى بحر قزوين ثم سارت إما عن طريق الشمال إلى نهر الفولجا فالبحر الأسود عند خيرسون أو اخترقت طريقا جنوبيا عبر شمال إيران إلى نصيبين على الحدود الرومانية أو عن طريق أرمينية إلى طرابزون ، وقد تجتاز الهند وأفغانستان ووسط فارس إلى نصيبين أو إلى سورية . وربما انتقلت بحرا إلى الخليج الفارسى ثم انتقلت بعد ذلك إلى سورية ، أو لعلها تقطع طريقها كله بحرا وتمضى صعدا فى البحر الأحمر إلى مصر . ولم يكن هنالك إلا طريقان يتجنبان المرور بأرض فارس : أولهما الشمالى الأقصى الذى يعتمد على قيام بادرة من الاستقرار بين أمم منطقة السهوب ، أو الجنوبى الأقصى ، وهو الطريق البحرى الذى كان بحاجة إلى أسطول تجارى فى شرق السويس . وكانت فارس منطقة تهديد للتجارة ، فإنها كانت تفرض عليها رسوما جمركية عالية ، كما كانت إبان الحروب تقطع التجارة بأكملها قطعاً تاماً . والواقع أن تحديد التجارة كرها بين حين وآخر كان ولا مراء فى مصلحة الميزان التجارى للإمبراطورية ، وإن تمخض عن العطالة لعمال مصانع الحرير فى كل أرجاء الإمبراطورية . وكانت الدبلوماسية الإمبراطورية طوال القرنين الخامس

---

(١) هايد : (Histoire du Commerce du Levant) ج ١ ص ١ — ٢٤ .

والسادس والأخير بصفة خاصة تبذل قصاراها لضمان استمرار الطريقين الحرين ، وذلك إما بالتفاوض مع الممالك الهونية والتركية الضاربة فى السهوب أو مع الأحباش الذين كانت مملكتهم الأكسومية تتحكم فى البحر الأحمر .

وكان القرن السادس أعظم عهود تجارة الشرق . فإن الإمبراطورية كانت لعهد أنسطاسيوس والسنوات الأولى من حكم بيت يوستينوس فى حالة من الرخاء المنتعش ، كما أن الطريق من الشرق كان يمتد بين شعوب سادها النظام . وكان الحرير لا يزال يسير براً بصفة رئيسية خلال فارس إلى محطتى المكوس الإمبراطوريتين عند نصيبين ودارا . ومن ثم يُنقل ليصنع فى القسطنطينية أو فى المصانع الموجودة بصور وبيروت . على أن بعضه كان يُحمل مع جميع أفاويه المناطق الهندية بالطريق البحرى . وقد كتب ملاح متقاعد هو قوزمة (قوزماس) الملقب بالملاح الهندى كتابا حاول أن يثبت فيه بخبرته الوسيعة أن الأرض مسطحة ؛ وفيه يصف تجارة الهند[1]. وكانت جزيرة سيلان هى المكان الذى تتم فيه المقاصّة المالية لتجارة الشرق بأكملها . فهناك كانت البضائع الشرقية : الحرير من الصين والحرير واللوز والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية والفلفل من ملبار والنحاس من كاليانا (بالقرب من بومباى) والمسك والخروع من السند — تجمع كلها مع جواهر سيلان . وكان الحرير يتصيده عادة التجار الفرس الذين يحملونه صعداً فى الخليج الفارسى . أما بقية السلع فكانت تحمل معظمها السفن الحبشية إلى آدوليس على البحر الأحمر ، وهى عاصمة آكسوم ، ومنها تستأثر بهــا السفن الإمبراطورية فتحملها إلى محطة المكوس فى چوتابى (Jotabe) عند طرف شبه جزيرة سيناء ، ثم تمضى منها إلى كليسما (القلزم) بالقرب من السويس وبها كان يقيم موظف إمبراطورى هو مُراقب الحسابات (Logothete) الذى

(١) انظر ما سطره قوزمة ، الملاح الهندى فى (Cosmography) (ترجمة ماك كرندل ، نشر .Hakluyt Soc) .

كان يزور الهند كل عام . والواقع أن السفن الإمبراطورية لم تكن تزور سيلان كثيرا ، وإن أقامت بتلك الجزيرة جاليات نسطورية مسيحية كما أقامت أيضا بكاليانا ومَلَبار ، هذا إلى أن سوقطرا كان بها سكان كثيرون يتكلمون اليونانية ولكن العملة التى كان يفضلها تجار الشرق من جميع الأمم هى العملة الإمبراطورية التى كانت أعظم معوان لتجارة الإمبراطورية . وكانت للحبش أيضا تجارة مع إفريقيا الوسطى ، كثيرا ما كان يصحبها تجار من الإمبراطورية . وإنهم ليرحلون بسفنهم موغلين جنوبا عاما بعد عام ، ثم يسيرون داخل القارة ويعودون محملين بسبائك من الذهب فى مقابل مصنوعات منوعة . وحدث مرة أن قوزمة نفسه شهد فى رحلة له إلى الجنوب الطائر البحرى المسمى بالصخاب أو القُطْرس"(1). وكان التجار السوريون يوزعون التجارة الشرقية فى طول البحر المتوسط وعرضه ولهم محطاتهم فى كل ميناء ، كما كانوا فى الحين نفسه يقومون بدور رواة الأخبار ، فإن تاجراً سورياً قص على مسامع القديس سيميون العمودى قصة القديس چينوفيڤاى(2) .

على أن الموقف أخذ يتبدل فى أثناء عهد يوستينيانوس . فإن حروبه مع فارس أوقفت ورود الحرير ولم تؤد محاولته لإبقاء سعره منخفضا إلا إلى نتيجة واحدة هى القضاء على صنّاعه الأحرار ، وعندئذ اشترى الإمبراطور مصانعهم : وبذلك حوّل الحرير بطريقة عرضية بحتة إلى احتكار إمبراطورى. ولما أن وجد يوستينوس الثانى الدولة لا تزال بحاجة شديدة إلى الحرير بسبب الحروب الفارسية ، حاول أن يفتح طريق السهوب فتحا صحيحا ، ولكن ذلك العمل كان فوق طاقة الدبلوماسية الإمبراطورية . على أنه حدث فى نفس الحين أن راهبين نسطوريين وصلا إلى القسطنطينية يحملان سر دودة القز وبيضها فى عكازيهما الأجوفين(3) . وانقضى شيء من الوقت قبل أن أصبحت

---

(1) قوزمة فى بعض صفحاته وبخاصة ص ٤٠ .

(2) انظر حياة القديس چينوفيڤاى فى : (Bibl. Hagio Latina) ، ٣٣٢٥ قسم ٢٧ .

(3) انظر بروكوبيوس فى مجموعة لويب (Loeb Series) مج ٥ ص ٢٢٦ ££ .

تربية دودة القز واسعة الانتشار فى الإمبراطورية ، على أن الاستيراد من الشرق أخذ منذ ذلك الحين فى الهبوط (١) .

ثم جاء فتح العرب لسورية ومصر . ومع أن الإمبراطورية فى مجموعها ربما كابدت شيئا من العناء ، إلا أن القسطنطينية فازت بالكسب . إذ حل الدمار بالبحرية التجارية السورية ، وتركت تجارة البحر المتوسط الشرقى لقمة سائغة لليونان . أجل إن سبيل المواصلات المباشرة بين سورية والإمبراطورية قطع فى البداية . ولكن الذى حدث هو أنه حتى فى القرن الثامن نفسه ، كانت التجارة تسير عن طريق مصر وإفريقيا وصقلية ، وبذا تصل بطريق مونمفاسيا إلى المنطقة الإيجية — وذلك هو الطريق الذى تخيره الطاعون الذى عاث فسادا فى القسطنطينية فى عهد قسطنطين الخامس (٢) . بيد أن السلع الشرقية ما لبثت أن عادت رويدا رويدا إلى استكشاف الطريق البرى عبر آسيا الصغرى أو سارت على الأغلب إلى البحر الأسود عند طرابيزون ، حيث كانت السفن اليونانية تحملها لتفرغها بالقسطنطينية . وكانت صناعة الحرير تزداد وتنمو طوال ذلك الوقت ، وسرعان ما صار للمصنع الإمبراطورى بالقسطنطينية احتكار عالمى للمواد الثمينة الجاهزة الصنع . فكان العرب فى الشرق والخزر فى الشمال فضلا عن الشعوب الغربية يتزاحمون جميعاً على مشترى ديباج بيزنطة الموشى .

بلغت التجارة البيزنطية ذروتها إبان القرنين التاسع والعاشر . وكانت السفن اليونانية تقوم بصفة أساسية بتجارة ساحلية وبخاصة فى البحر الأسود . وكانت تجارة البحر المتوسط الشرقى ضئيلة . وقد توقف استيراد القمح من مصر وإفريقيا منذ الفتح العربى ، ومنذ حدوث التطور الزراعى المتواصل بآسيا الصغرى ؛ هذا إلى أن وجود قراصنة العرب بمنطقة بحر إيجة حمل الناس

---

(١) عن الحرير انظر بيورى : (Later Rom. Empire) جـ ٢ ص ٣٣٠ ع ع .

(٢) ثيوفانيز ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .

على التخلي عن المغامرات البحرية . على أن تجارة الشرق الأقصى والأعشاب الهندية كانت لا تزال تستورد ، وهي إما أن ترد عبْر بلاد الفرس وأرمينية إلى طرابيزون أو تسير أعلى الخليج الفارسي حتى بغداد ثم تنطلق شمالاً إلى نفس المرفأ . وقد استولى العرب على تجارة المحيط الهندى بأجمعها ، كما أن المملكة الأكسومية سقطت ، ولكنهم أبوا أن يعيدوا فتح طريق السويس . وقد فكر هرون الرشيد فى حفر قناة هناك ، ولكنه خشى أن تستولى سفن الروم على تجارة البحر الأحمر[1] . ولكن ذلك لم يزد طرابيزون إلا أهمية ، فأصبحت ميناء الشرق العظيمة . وبعد استرداد مدينة أنطاكية وُجه قدر معين من التجارة الشرقية عن طريق حلب إلى أنطاكية وإلى سلوقيا على البحر . وفى الحين نفسه كانت التجارة الشمالية فى تقدم مستمر . فإن الخزر وجيرانهم كانوا يجتلبون فراء السهوب ورقيقها وسمكها المجفف إلى خيرسون ببلاد القرم أو تحملها السفن الروسية من الدنيبر إلى القسطنطينية[2] : على حين أن كهرمان البلطيق وفراء أوربا الوسطى ومعادنها كانت تجد طريقها إلى سالونيك ، فتنشرها من ثم سفن الروم فى كل مكان[3] . وكانت السفن اليونانية تحمل أيضاً بعض التجارة بين القسطنطينية والغرب . وكانت بارى عاصمة إيطاليا البيزنطية ميناءً مزدهراً ؛ ولكن كان يقوم على خدمتها بوجه خاص أسطولها المحلى . ولم تلبث الأساطيل التجارية الإيطالية المحلية أن أبعدت اليونان من المياه الإيطالية[4] شيئاً فشيئاً . وكان معنى نمو ثروة الغرب دبيب حيوية ونشاط جديد فى الموانى الإيطالية طرًّا . فلم يحن القرن العاشر حتى

---

(١) انظر المسعودى : « مروج الذهب » ترجمة باربيى دى مينار ج ١ ص ٩٨ .

(٢) انظر مقالة ڤاسيليف عن : « العلاقات الإقتصادية بين بيزنطة وروسيا القديمة » فى مجلة (Journal of Economic & Business History) مج ٤ ص ٣١٤ ع ع .

(٣) قسطنطين بورفيروجنيتوس : (De Administrando Imperio) ص ١٧٧ ع ع .

(٤) انظر هايد بالمرجع السابق ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٢ .

صارت لأمالفى ثم لنابلي وجايتا بدرجة أقل — علاقات واسعة وراء البحار ، ولم ينقض طويل زمن حتى ظهر التجار من بيزا وجنوة . وعند القرن العاشر صار لأمالفى « مقيم » دائم بالقسطنطينية ، كما صارت لها بها جالية آخذة فى الازدياد ؛ وفى ١٠٦٠ صار للشريف الأمالفى المسمى بانتاليون قصر هائل هناك . بيد أن ميناء الغرب الرئيسية كانت البندقية ، وهى من روعة الموقع بحيث تنهض بتجارة ألمانيا واللومبارد . فما وافت نهاية القرن العاشر حتى كان البحر الأدرياتى فى يد البنادقة . وكانوا لا يزالون تابعين إقطاعيين للإمبراطورية بالاسم فقط ، كما أن السلطات الإمبراطورية كانت توالى على الدوام إصدار المراسيم التى تحرم عليهم الإتجار مع العرب ، — وتحرز فى هذا السبيل درجات متفاوتة من النجاح . ومنح باسيليوس الثانى امتيازات خاصة للبنادقة ؛ فسمح لهم أن يدفعوا ضريبة تصدير مخفضة عند مغادرة القسطنطينية ، على شريطة أن يحرسوا الطرق البحرية بالأدرياتى ويتكفلوا بنقل جند الإمبراطورية إذا لزم الأمر . وكانت أهم البضائع التى يستوردها البنادقة إلى الإمبراطورية هى الأسلحة والعبيد والخشب والقماش الخشن . وكان سوق الرقيق بالبندقية ذائع الصيت بوجه خاص . واشترى سفير باسيليوس الأول من هناك بعض المبشرين السلافونيين ، ولشد ما تعالت الصيحات بالاحتجاج الدائم على بيع النصارى للمسلمين[1] . وكان سفراء الغرب مثل ليودبراند يسافرون عادة على سفن البندقية ، وكانت مراكبها أيضاً تحمل البريد[2] .

وبدأ اضمحلال التجارة البيزنطية عند مستهل القرن العاشر . ففى الربع الأخير من القرن تكاثرت الكوارث على الإمبراطورية . حيث انقلبت حياتها الاقتصادية رأسا على عقب بسبب استيلاء السلاجقة على الشطر الأعظم من آسيا الصغرى ، وهو أمر قضى على طريقة تنظيم الجيش والأسطول

---

(١) انظر حياة القديس ناعوم ، ٤ .

(٢) انظر ليودبراند فى : «Legatio» ، ١٨٣ .

الإمبراطورى وأضاع مصدر تموين المدينة ، هذا إلى أن مغيرين من النورمان أخذوا يضايقون الغرب ، وفى ١١٤٧ استولى روجر الثانى على طيبة وكورنثة وحمل إلى إيطاليا دودة القز وغزّالى الحـــرير ، وبذلك حطم الاحتكار الإمبراطورى القديم[١] . وأخيراً جاءت الحروب الصليبية فغيرت طرق مواصلات العالم ، وكان ذلك على القسطنطينية ثبوراً . فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون أو عبر آسيا الصغرى — لأن السلاجقة كانوا يسدون عليها الطريق — بل كانت تنقل إلى السفن فى موانى سورية اللاتينية حيث تحملها السفن الإيطالية إلى الغرب رأسا ، وبذلك تتجنب الرسوم الجمركية التى تفرضها بيزنطة . ولم يبق بالقسطنطينية عندئذ سوى تجارة الشمال . وربما كان فيها الكفاية ، وذلك لأن تجارة الشرق الأقصى كانت تتخذ طريقا يزداد توغلا إلى الشمال يوما بعد يوم ، حيث أخذ يسير براً خلال التركستان إلى البحر الأسود . بيد أن الظروف السياسية وضعت هذا الطريق كذلك فى أيدى الإيطاليين . وفى مقابل المساعدة الضرورية التى تقدمها أساطيلهم أو كوسيلة احتياط من غاراتهم كقراصنة ، أخذ أباطرة آل كومنين يتوسعون أكثر فأكثر فى منح الامتيازات لهم ، فمنحوها أولا للبندقية ثم إلى بيزا فجنوا . وسمح لتجارهم أن يدفعوا رسوما جمركية لا تتجاوز قيمتها الأربعة فى المائة بدلا من العشرة فى المائة التى كان يُلزم كل إنسان بدفعها حتى مواطنو الإمبراطورية أنفسهم . كما أنهم مُنحوا فى الحين نفسه أحياء بالمدينة ذاتها وبموانى أخرى أقاموا لأنفسهم فيها هيئات محلية مستقلة . وكانت عدتهم بالقسطنطينية فى ١١٨٠ ستون ألفاً من الغربيين . وحدث رد فعل لتلك الحال فى عهد أندرونيكوس الأول ، فأعمل الناس الذبح فى الإيطاليين على نطاق واسع فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وسحبت جميع امتيازاتهم . ولكن كان

---

(١) شالاندون فى «Domination Normande en Sicile» ج ٢ ص ١٤٥ — ١٤٧ .

أوان ذلك قد فات ، فإن الموقف الكريه المرير أدى إلى الحرب الصليبية الرابعة وإلى تحطيم الإمبراطورية[1] .

ماتت الإمبراطورية اللاتينية وهى بعد وليدة فى المهد ، إذ لم يكتب للإمارات اللاتينية أن تعمر طويلا . بيد أن البندقية وضعت أسس سيادة تجارية تتحكم إن عاجلا أو آجلا فى تجارة الشرق كله . فكانت مستعمراتها مبثوثة فى كل أرجاء البحر المتوسط الشرقى وبحر إيجة والبحر الأسود .

واسترد آل باليولوجوس الإمبراطورية بمساعدة الجنويين ؛ ولم يكن بد من أن يتلقى الجنويون أجرهم . وكانت مكافأتهم هى الجزء الباقى من تجارة البحر الأسود ومدينة بيرا الموجودة بالضفة المقابلة من القرن الذهبى . ولم يكن الاتجار فى البحر الأسود محظوراً عليهم إلا فى مدينتين فقط ؛ وكانت ماتراشا (ولعلها على شبه جزيرة تامان) وروزيا (كيرتش) هما اللتين احتفظ بهما لليونان . ولكن البحرية اليونانية قضى عليها فى تلك المنافسة . فإن بدء النشاط التجارى العظيم فى تجارة البحر الأسود كنتيجة لرخاء الإمبراطورية المغولية ملأ خزائن الجنويين وحدهم . ففى ظل إمبراطورية آل باليولوجوس، كانت القسطنطينية تضمحل شيئاً فشيئاً بينما طفقت بيرا تزدهر وتتطور . أجل إن مصانعها لم تبرح تصنع أدوات الترف الذائعة الصيت فى ربوع العالم كافة ، بيد أن أسواقها كانت خاوية وأرصفة سوانيها مهجورة من كل شىء عدا الزوارق التى كانت تحمل البضائع إلى المراسى الجنوية عند بيرا . واحتفظت سالونيك برخائها أمداً أطول . فهناك لم يبرح التجار اليونان يتحكمون فى صادرات البلقان ؛ على أن معظم النقل البحرى كان فى أيد إيطالية . وقُل مثل ذلك تماما عن طرابيزون ؛ حيث كانت التجارة الفارسية والقوقازية لا تفتأ تدر المال على خزانة الكومنينوس الأعظم ، ولكن أهل جنوة كانوا يتولون حملها إلى الغرب[2] .

---

(١) هايد بالمرجع السالف الذكر ج ١ ص ١٩٠ ع ع .

(٢) هايد بالمصدر السالف الذكر ج ٢ ص ٩٣ع ع ، ٢٥٧ ع ع ، ٣٧٩ ع ع .

وكان موقع القسطنطينية عند ملتقى الطرق العالمية التجارية هو الذى منحها أيام رخائها العظيمة . فان نسبة ثابتة تعادل عشرة فى المائة كانت تفرض على جميع الصادرات والواردات . فكانت رسوم الواردات تُجمع عند أبيدوس على الهللسبونت أو هيرون على البوسفور ، بينما تدفع ضريبة الصادرات فى القسطنطينية . وحتى حصل الإيطاليون على امتيازاتهم الخاصة لم يكن يجوز لأية سفينة أن تعبر المضايق دون دفع الرسوم المستحقة عليها(١) . وكان ذلك يمد خزائن الإمبراطورية بفيض لا ينضب من الثروة ، طالما كان جيران الإمبراطورية من الثراء بحيث يستطيعون دفع أثمان هذه البضائع بعد إضافة هذه المكوس الإضافية عليها . فإن كان العالم جميعا فى حالة من الفقر والفوضى ، كما حدث فى القرن السابع أو حتى كان الشرق وحده يعانى ذلك كما حدث فى القرن الحادى عشر ، كابدت الإمبراطورية من ذلك على الفور . فإن مكوسها كانت عندئذ تجعل التجارة العابرة باهظة التكاليف بدرجة لا تحتمل .

وقد كابدت العناء أيضا لأن مصنوعاتها المحلية كانت من أدوات الترف . وكانت المصانع بصفة خاصة بالقسطنطينية ، وكان أكبرها فيما يحتمل مصنع النسيج الإمبراطورى ، حيث كانت جموع ضخمة من الرجال والنساء تستخدم فى صنع الحرائر والديباج الموشى والأقمشة المقصبة التى كانت مثار البهجة لكل من فى العالم من الناس . وكانت منتجات الصياغ والجوهرية تكاد تضارع هذه فى أهميتها . وعدا ذلك فإن ما كانت تنتجه بيزنطة من أكواب الذهب وحوافظ المخلفات وحواملها المكسوة بالميناء ومن الحفر فى العاج أو على الأحجار شبه الثمينة كانت أشغالا تضارع تلك فى الشهرة ، وكثيراً ماكانوا ينتجون دررا يقيمة مثل الأسود الذهبية التى تزأر بالقصر . وكانت جهات مختلفة من الإمبراطورية تنتج الأنبذة والخمور

---

(١) انظر بيورى فى : «Eastern Roman Empire» ص ٢١٧ — ٢١٩ .

أيضا ، وهذه كانت تباع لقبائل الشمال . وكانت هذه الصادرات تحت رقابة وضبط محكم . إذ لم يكن مما يناسب السلطات أن تسمح بشيوع سلع الترف أكثر مما ينبغي خارج الإمبراطورية . فلم يكن بد من الاحتفاظ بسعرها وندرتها عاليين . وهناك أنواع بعينها من الأقمشة لم تكن بالتحقيق لتنزل إلى السوق بتاتا ، وكان يقتصر في أمرها على إرسالها إلى الخارج كهدايا تقدم بين حين وآخر إلى البلاطات الملكية الأجنبية . وقد حاول ليودبراند السفير الإيطالي تهريب شيء من الحرير من القسطنطينية في ٩٦٨ ، فكان جزاؤه أن صادرت السلطات الجمركية الحرير كله . وكان لا بد قبل تصدير البضاعة من وسمها بخاتم الدولة[١] .

وكانت لبعض المدن الأخرى مصانعها . فكانت كل من صور وبيروت والإسكندرية تجهز[٢] الحرير وتنسجه ،حتى إذا وافى القرن الحادي عشر إذا طيبة وكورنثة مراكز لصناعة الحرير . وكانت الأبسطة تصنع في شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) . ففي القرن العاشر كانت اسبرطة تصدرها إلى إيطاليا[٣].

وكانت أهم الواردات هي الحرير الخام ، وذلك بوجه خاص حتى القرن السابع ، وإن ظل ما يسمى « بالبضائع الهندية » شائع الاستعمال لدى الناس حتى في القرن العاشر نفسه ؛ ثم الأخشاب والفراء من الشمال : والأسلحة — حيث كانت الحراب العربية تستحب كثيرا ، كما أن البنادقة كانوا يجلبون مقادير عظيمة من الأسلحة من الغرب : وثم عدد قليل من سلع الترف الجاهزة

---

(١) انظر : « Le Livre du Préfet » نشره نيقول ص ٢٧ — ٢٨ ، ٣٥ — ٣٨ ؛ وليودبراندق : «Legatio» ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) انطونينوس مارتير (الشهيد) ص ٩٢ ؛ وانظر أيضا فالكي في (Kunstgeschichte der Seidenweberei) جـ ١ ص ٤٨ .

(٣) حياة القديس نيقون الأرمني في Martene & Durande المنشورة في Collectio-Veterum Scriptorum (الجزء السادس ص ٨٨٤) .

كالطنافس الفارسية (السجاجيد) والتوابل الثمينة من الشرق : وفوق كل شيء الرقيق من كل من البندقية وأقاليم السهوب . وكانت كل هذه الواردات تخضع لرسم العشرة فى المائة الذى كان يجبى فى أبيدوس أو هيرون . وقد سمحت الإمبراطورة إيرينى بجلب الواردات معفاة من الرسوم ردحا من الزمن ؛ بيد أن خلفها نيميفوروس الأول أعاد الرسم إلى نصابه ، بل لقد اتخذ من الترتيبات ما يجعل البضائع وبخاصة الأرقاء الذين يبيعهم تجار الغرب بأسواق تقع غرب أبيدوس لا تفلت من الضريبة المفروضة عليهم كما كان الحال قبل ذلك[1]. وقد ضرب يوحنا فاتأتزس فى عهد الإمبراطورية النيقية حظرا تاما على البضائع الأجنبية[2] . وكان موظفو الجمارك يسمون بالرومية (Commerciarii) ، وكانوا تابعين لديوان وزير المالية (Sacellarius)[3].

وكان على والى (Prefect) المدينة الإشراف على التجار الأجانب إشرافا دقيقا . وكان عليهم أن يقدموا أنفسهم إلى ديوانه عند وصولهم ، ولا يجوز لهم الإقامة بالمدينة إلا ثلاثة أشهر . وكل بضاعة يتركونها لتباع بعد تلك المدة يتولى بيعها عنهم الوالى ، ثم يحتفظ بالمال عنده حتى السنة التالية . وكانت مشترياتهم تراقب من قبل السلطات بكل عناية للتحقق من أنهم لم يخالفوا لوائح الجمارك . وحصلت أمم بعينها كالروسيين ثم الإيطاليين فيما بعد على امتيازات خاصة وإعفاء من العشور الدخولية فى مقابل ما يؤدون من خدمات سياسية . وفى القرن العاشر منح الروس مساكن مجانية وحمامات بحى القديس ماماس خارج أسوار المدينة مباشرة ، على أنهم لم يكونوا ليستطيعوا الدخول إليها إلا تحت الحراسة أثناء زيارتهم : على حين أن منحا خاصة خولت لمملوكى غرندوق الروسيا الذين كانوا يقودونهم إلى هناك[4].

---

(1) بيورى بالموضع المذكور آنفا . (2) جريجوراس ص ٤٣ .

(3) بيورى « Imperial Administrative System » ص ٨٨ .

(4) انظر (Chronique dite de Nestor) نشر Léger ص ٣٥ ع ع ؛ وانظر أيضا فاسيليف بالمرجع السابق ص ٣٢٣ — ٣٢٦ .

وكان أهم ما تتناوله التجارة داخل الإمبراطورية هو ضروريات الحياة . وكان القمح يجيء من مصر وإفريقيا قبل الفتح العربي . ثم شرع القوم بعد ذلك في زراعته بآسيا الصغرى ، ثم في تراقيا فيما بعد وإذا هو يُحمل بحرا من الموانى المحلية إلى القسطنطينية خاصة . وكان اللحم يأتي أيضا من نفس الجهات . وقضى الفتح السلجوقى بتضييق رقعة زراعة آسيا الصغرى ؛ ولا شك أنه في السنوات المتأخرة للإمبراطورية كان من عوامل زيادة النقص في عدد سكان الإمبراطورية تزايد صعوبة إيجاد الطعام الكافى لمدينة عظيمة ، وبخاصة عندما لم تكن الدولة تستطيع دفع النفقات اللازمة لكثير من المستوردات[1].

وكان يكتنف حياة التجارة والأعمال بالإمبراطورية من كل جانب عدد لا يحصى من اللوائح والتنظيمات . وكم اتهمت القسطنطينية بأنها جنة الفردوس لذوى الامتياز من المحتكرين والمستمتعين بالحماية الجمركية . ولكن تلك التهمة ليست عادلة بصورة مطلقة . أجل إن الحماية الجمركية كانت دون ريب من المثل العليا في بيزنطة . وكانت الدولة تكثر من التدخل لمساعدة الصناعة : وإن كان الهدف من التعريفات الجمركية يجمع إلى ذلك الرغبة في الحصول على الدخل للدولة . وبدأ منح الامتيازات للتجار الأجانب خاصة منذ القرن الثانى عشر ، فكان في ذلك القضاء على التجارة ؛ وكانت للدولة احتكارات مثل تجارة الحرير ومثل صناعة الأسلحة لأسباب لا تخفى على القارئ اللبيب . ولكن لم يقم هنالك أى فساد مستتر وراء القانون على مبلغ علمنا وحكمنا على الأشياء . فعندما منح أحظياء لاوون السادس امتيازات تجارية تتصل بتجارة سالونيك ، عُدهذا التصرف فضيحة حتى أصبحنا نعتقد أن مثل هذه الحوادث

---

(١) انظر براتيانو « L'Approvisionnement de Constantinople » في مجلة بيزنطة (Byzantion) مج ٥ ص ٨٣ ع ع ؛ ومج ٦ ص ٦٤١ ع ع .

لا يمكن أن تكون عادية[1] . فإن القيود والقواعد التى كانت تحتمها الدولة والهيئات الضخمة التى كانت تستخدم فى تنفيذها كانت تحول دون الشىء الكثير من الجهود الخاصة بقصد الاستغلال وإن كانت من النوع المتسم بالفساد .

وكان كل شىء محددا ومقررا. فلم يكن يجوز تسليف النقود إلا بنسبة محددة من الأرباح. وكانت نسبة الأرباح قبل عهد يوستنيانوس اثنى عشر بالمائة . ولم يكن يوستنيانوس يسمح بنسبة الاثنى عشر بالمائة إلا على الأموال المقترضة للاستثمار فى الأعمال التجارية البحرية ، ولا يجوز لمقرضى الأموال المحترفين وهم الصياغ عادة أن يسلفوا إلا بربح قدره ثمانية فى المائة ، فأما الأشخاص العاديون فيسمح لهم بستة فى المائة ، على حين لا يسمح لكبار الأثرياء إلا بأربعة فى المائة فقط ، بيد أن هذه التقديرات الحسابية عملت فى الأصل عندما كانت قيمة الرطل الواحد من الذهب مائة نوميسماتا . ثم أقدم قسطنطين على إنقاص عدد النوميسماتا إلى ٧٢ . وعلى كر عصور التاريخ البيزنطى كلها صارت النسبة الثابتة للربح تنزع إلى تكييف نفسها للرقم الجديد ، وكان ذلك فى صالح الدائن : حتى تحولت نسبة الستة بالمائة عند القرن العاشر إلى ٦ نوميسماتا لكل رطل واحد من الذهب ، أى ما يعادل ٨ر٣٣ فى المائة . وعندئذ يدر الاستثمار فى التجارة البحرية ١٦ر٦٦ فى المائة [2]. ولكن ذلك لم يكن فى الحقيقة كافيا ؛ فإن العواصف والقراصنة والخرائط البحرية الخاطئة كانت تعرض التجارة لأخطار كثيرة جدا فى الطريق . فمن الطبيعى إذن — خاصة وطرائق استرداد الديون عرجاء سمجة وبطيئة كسيحة ، فضلا عن كراهية المجتمع كله للمرابين — أن يفضل المستثمرون لأموالهم أن يستغلوها فى الأرض ، وهو أمر قضى فى النهاية على الإمبراطورية . ومما يزيد

---

(١) ثيوفانيز كونتينياتوس ص ٣٥٧ .

(٢) انظر تعليقات بيورى على : «Decline & Fall» لجيبون مج ٥ ملحق ١٣ ص. ٥٣٣ — ٥٣٤ .

أخطار التجارة البحرية جلاء أمام نواظرنا نظرة نلقيها على « القانون الرودسى » وهو القانون التجارى المرعى لدى الإيسوريين . فهذا القانون يفرض ابتداء أن التاجر ومالك السفينة وهو عادة القبطان يعملان شركاء ويتحملان عبء أى خسارة تصيب بضاعة السفينة ، وإن أمكن أن يكون الركاب هم أيضا أعضاء فى شركة الخاصة تلك . والظاهر أن هذه الأحوال استمرت معمولا بها حتى بعد سحب التشريع الإيسورى[1].

وكانت الرقابة التى تمارسها الدولة على التجارة والصناعة تتم عن طريق نظام للنقابات . فإن كتيبا سطر حوالى عام ٩٠٠ ويعرف باسم كتاب الوالى « Eparchikon Biblion » لا يزال موجودا إلى اليوم ، وهو يعطينا فكرة عن ذلك النظام[2] . وكان الوالى هو الموظف المنوط به الأمر كله ، وإن كان الكويستور يتولى الأشغال العامة ، وكان تحت رياسته نقابة أو نقابتان . وكان لكل صناعة نقابتها ، ولا يجوز لأى إنسان أن ينتسب إلى نقابتين فى وقت معا ؛ وكل نقابة تعين رئيسها ، الذى كان من الضرورى فيما يحتمل أن يوافق الوالى على تعيينه . وكانت النقابة كوحدة كاملة تشترى المواد الخام التى تلزم الصناعة وتقسمها بين أعضائها الذين كانوا يبيعون السلع المصنوعة فى مكان عام معين بسعر محدد بديوان الوالى . وكانت ساعات العمل وأجور العمال تقرر بنفس الطريقة . ولذا لم يعد للوسطاء أدنى ضرورة ، وكل محاولة لشراء مقادير ضخمة من البضائع وبيعها بالتجزئة فى الأوقات المناسبة كانت محظورة حظرا أكيدا . وكان الخبازون والجزارون الذين كان تموين المدينة يعتمد على كفايتهم ، خاضعين لإشراف دقيق بوجه خاص . وكانت أسعار المواد الغذائية يحافظ على انخفاضها قسرا حتى فى أيام المجاعات . وكانت المخابز احتكارا للدولة يتولاه الكويستور حتى ألغى هرقل جرايات الخبز المجانى ؛ ومع ذلك

---

(١) أنظر فى : «Rhodian Sea Law» (بمواضع متفرقة منه) .

(٢) انظر «Le Livre du Préfet» نشره نيقول (بمواضع متفرقة منه) .

فإن تقاليد تدخل الدولة بقيت. واتهم نيقيفوروس فوقاس بأنه جمع مبلغا ضخما من المال وهو إمبراطور، بأن اشترى جميع موارد الدولة من القمح أثناء إحدى المجاعات وباعها للنقابة بسعر مرتفع(1). وكانت كل مخالفة للوائح النقابة تُعاقب بالطرد من عضويتها، أعنى بإجبار العضو على التقاعد عن العمل بالقوة. وربما أضيفت إلى العقوبة درجات متنوعة من بتر الأعضاء إن كان الجرم شائنا بصورة فاحشة. والظاهر أنه كان فى الإمكان أيضا دعوة النقابات لأداء بعض الأشغال العامة دون تقاضى أجر عليها. فكان أصحاب السفن ملزمين بالمساعدة فى حالة الأزمات البحرية الملحة؛ وربما انتقل إلى النقابات عبء الغرامات المفروضة على أقسام (ديمات) المدينة، حينما أصبحت تلك الديمات اسمية إلى حد ما. ولم يكن بالمدينة عطالة. فلم يكن فى الإمكان فصل العمال من أعمالهم دون أن يعود ذلك بأعظم الصعوبات والمشاكل، فإن عطل أى رجل صحيح الجسم عن عمله كلفه الكويستور(2) على الفور بعمل من أعمال المنفعة عامة أو أعطاه صدقة. يقول لاوون الإيسورى فى «الإكلوغة»: «الكسل يورث الجريمة، وكل فائض ناتج عن عمل الغير ينبغى أن يعطى للضعفاء لا للأقوياء(3)». ولكن نقابة الحرير كان لها شأن آخر، وذلك نظرا لأن صناعة الحرير كانت احتكاراً للدولة. وكان مديرها موظفا حكوميا له أهمية ضخمة(4). حدث مرة أن لاوون فوقاس المتآمر حاول أن يفوز بمناصرة مدير المصنع فى زمانه لما كان له من نفوذ عظيم على العمال(5).

---

(1) كدرينوس ج ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٠.

(2) بيورى: "Imperial Administrative System" ص ٧٤.

(3) انظر الإكلوغة عند لبونكلافيوس فى (Juris Graeco—Romani) ج ١ ص ٨٧ — ٨٨.

(4) كتاب (Le Livre du Préfet) ص ٣٠ — ٤٥.

(5) لاوون دياكونس ص ١٤٦ — ١٤٧.

ودام النظام ما عاشت الإمبراطورية . ويلوح أن القسطنطينية حافظت عليه حتى النهاية ، هذا إلى أنه بقي معمولا به بسلانيك حتى القرن الرابع عشر . وهو نظام يضمن مصلحة المستهلك ويسمح بقدر معين من الربح للتاجر ، وإن لم يتمكن البتة من جمع ثروة ، وذلك فضلا عما فيه من عدم تشجيع للجهود الخاصة فى سبيل الثراء . ولكنه ربما كلف الدولة نفقات طائلة ، كما أن تنفيذه لم يكن ممكناً إلا يوم كانت القسطنطينية تستمتع باحتكار لتجارة عالمها . على أن المنافسة الأجنبية حطمته . فمنذ القرن الحادى عشر أفضى التدخل الإيطالى فى تجارة البحر المتوسط الشرقى تدخلا زادته الحروب الصليبية بعد ذلك بقليل ، — إلى التعجيل بانخفاض العملة الذى ظل متواصلا والذى قُدر له أن يكون السبب الرئيسى لاضمحلال بيزنطة وسقوطها . .

وينسب قوزمة (قوزماس) ملاح الأقاليم الهنـــدية رخاء التجارة الإمبراطورية ونجاحها إلى سببين هما : المسيحية والعملة . وعلى حين أن الفوائد التى يمكن أن تعود من المسيحية على التجارة قد تكون موضع التشكك ، فإن عملة الإمبراطورية كانت دون أدنى ريب مرتكزا لا يتنازع فيه اثنان . فإن تلك العملة ظلت محتفظة بقيمتها سليمة لم يمسسها سوء من عهد قسطنطين الأول إلى عهد نيقيفوروس بوتانياتس ، أى مدة تربى على ستة القرون . وكانت الدولة البيزنطية تقوم على نظام العملة المعدنية ذات الصنف الواحد ؛ وكان أساس العملة هو رطل الذهب . وكانت العملة المعيارية وهى النوميسما تساوى منذ عهد قسطنطين واحدا على اثنين وسبعين ($\frac{1}{72}$) من الرطل من الذهب — وهى تعادل ١٤٫٤٠ فى المائة من الفرنكات الذهبية[١] . وكانت النوميسما تنقسم إلى ١٢ ميلياريسيا ، وكل واحدة من هذه تنقسم بدورها إلى اثنى عشر فلسا (pholles) . وقد اتهم نيقيفوروس فوقاس باستحداث نوميسما

---

(١) اندريادس (De la Monnaie dans L'Empire Byzantin) فى مجلة Byzantion مج ١ ص ٧٥ ع ع .

منخفضة القيمة — والراجح أن تلك تهمة باطلة إذ لم يبق لهذه أية آثار. وأنقص بوتانياتس مقدار الذهب فى العملة. وحاول ألكسيوس الأول رد العملة إلى نصابها، ولكنه وجد نفسه يستهلك أمواله فى عملة من اختراعه هو — هى النوميسماتا التى يغلب فيها النحاس الأصفر، وهى بقيمة الثلثين من النوميسما الذهبية[1]. على أن ذلك النظام لم يمكن العمل به. وأخذت قيمة النوميسما فى الهبوط فى عهد آل كومنين، وكان ذلك ببطء شديد فى البداية، وكانت عملة «البيزانت Bezant» لا تزال تلقى قبولا فى خارج البلاد. وما عتم هبوطها أن ازداد سرعة يوما بعد يوم — وذلك بعد ١٢٠٤ وفى عهد أسرة باليولوجوس بوجه خاص حتى لم تعد لها إلا سدس قيمتها السابقة وحتى لم يعد يمكن الاعتماد عليها إلى درجة قضت على كل تداول لها خارج الإمبراطورية.

وليس لدينا الآن عن نفقات المعيشة فى بيزنطة إلا القليل من الشواهد القاطعة. فكان سعر القمح فى ٩٦٠ هو نفس سعره فى ١٩١٤ (١٫٨٥ من الفرنكات الذهبية لكل موديوم)[2]، على أن البضائع الأخرى جميعا كانت فيها يحتمل أرخص بما يتراوح بين خمس إلى ست مرات. وحاول نيقيفوروس الأول أن يحافظ على انخفاض الأسعار بالتقييد من مقدار النقود المتداولة. بيد أن الراجح أن الأسعار كانت ترتفع على التدريج طوال عمر الإمبراطورية بأكمله، مع زيادة فى المتكدس من العملة بدأت لعهد الإيسوريين. وقد ارتفع سعر القمح على التحقيق حتى أصبح فى عهد آل باليولوجوس ضعف سعره أيام المقدونيين؛ ولكن ذلك كان إلى حد كبير لأن السلاجقة قد دمروا زراعة آسيا

---

(٢) شالندون (Alexius Ier Comnène) ص ٣٠١ ح ٤.

(٣) الموديوم أو الموديوس: مكيال يقدر به القمح والحبوب. (المترجم)

الصغرى ، كما أن الحروب وصعوبات النقل أنقصت من مقدار القمح الذى يمكن الحصول عليه . وفوق هذا فإن انهيار العملة المتواصل كان يُغرق البلاد فى بحر متزايد من الفوضى المالية[1] .

ولعمرى لقد كانت أيام آل باليولوجوس صفحة ختامية فى حياة الإمبراطورية مزيرة محزنة . فكانت العملة التى يحبها ملك سرنديب (سيلان) فوق كل عملة قد انتهكت كرامتها حتى فى بيرا نفسها ، وذلك أن التجارة التى كانت تدفع مكوسا عالية على أرصفة ميناء القسطنطينية صارت آنئذ تحمل من أمام أسوارها على يد الجنويين دون أن تمر بها ، أو تسافر من طريق بعيد يمر بسورية على سفن للبندقية . ولقد فقد مركزها كل قيمة آنذاك ، كما أن كبرياءها بعملتها قد ذل وبذ . ولا شك أن مأساة موت بيزنطة البطىء الطويل إنما هى قبل كل شئ مأساة مالية .

---

(١) نفس المصدر السابق (بمواضع متفرقة) .

الفصل الثامن

حياة المدينة وحياة الريف

لعل إطلاق القول بالتعميم فى الحديث عن سكان الإمبراطورية يكون منطوياً على شىء من التهور . ذلك أن مصادرنا ضئيلة لا تكاد تذكر . أجل إن حياة العِليْة وحياة البلاط الإمبراطورى والأشراف الأعلين لتُصوَّر بتفصيل يختلف إسهاباً واقتضاباً على يد المؤرخين ومدونى الأخبار ؛ فأما طبقات التجار والزراع والفقراء من ساكنى المدن والريف ، فإنا لا نعرف عنهم إلا شذرات من المعلومات تقدم إلينا فى معظم الأحوال فى تراجم القديسين الشعبيين أو فى الكتيبات القانونية الحاوية للقواعد التى تتسلط على حياتهم . وفضلا عن ذلك فإن القرون الأحد عشر التى انصرمت بين قسطنطين الأول والأخير قد تغيرت فيها ظروف الحياة الخارجية عدة مرات . وظل « مواطن » الإمبراطورية حتى النهاية قوى الشعور بأنه أشد ثمرات الجنس البشرى تحضّراً ، قوى الشعور برومانيته ، قوى الشعور بأنه صاحب المذهب الصحيح ، قوى الشعور بأنه الوريث لكل رفاهية وتهذيب إغريقى ؛ بيد أن النبيل الصقيل الوجه فى القرن الرابع المتشح بثنيات « التوجا » الفضفاضة والناطق بلاتينية رنانة ، لم يكن ليستطيع أبداً أن يميز خَلَفه ابن القرن الخامس عشر الملتحى والمتعمم بالعمامة والمرتدى لسترة ناشفة من الديباج الموشى والذى يتكلم لغة إغريقية فقدت أصوات أحرف الحركة فيها ما كان لها من تنوع .

وحتى الأساس العنصرى للإمبراطورية كان لا يفتأ يتغير ـ فكانت الإمبراطورية عند بدايتها شديدة الاختلاط ، كانت ما يسميه الإغريق باسم المسكونية (العالمية) (oecumenical) التى تضم العالم المتحضر بأكمله . وكانت القومية فكرة غريبة عنها . وعندما بدأت الإمبراطورية الرومانية القديمة فى

التفكك ، لم تُقم الإمبراطورية الجديدة نفسها على القومية بل على التمسك بالعقيدة الصحيحة بعد القرن الخامس ، وعلى اللغة اليونانية فى القرن السابع . وظلت أجناسها أخلاطاً من الناحية السلالية ، حيث كانت نسبة الإغريق الخلّص صغيرة فيا يحتمل . فإن عناصر جديدة إلليرية وإسكيذية (أشقوذية) وآسيوية كانت قد امتزجت بالفعل بالدم الإغريقى إبان العصر الهلينستى . وحدث فى عهد الرومان أن أجناس عالم البحر المتوسط تزاوجت فيما بينها واختلطت بعضها ببعض . فإن حاميين من مصر وساميين من سورية اختلطوا بقبائل أوربا . وكان الإمبراطور فيليب عربياً ، وكان هليوجابالوس رومانياً سورياً مهجّناً . ودام اتساع الأفق ذاك حتى امتد فى الحقبة البيزنطية . فإن أركاديوس الأسبانى الأصل تزوج من قوطية هى يودوكسيا ، كما أن ابنهما تيودوسيوس الثانى تزوج من هيلينية خالصة . وحدث فى أخريات القرن السابع أن سورياً تولى منصب أسقف روما . وكان سكان القسطنطينية ينتمون إلى كل قبيلة وكل أصل ، وإن كانت الأسر النبيلة تحب أن تدعى أنها من أصل رومانى .

على أن ضياع مصر وسورية من يد الدولة ضيق حلقة امتزاج الدماء . وكان شعب آسيا الصغرى حتى ذلك الحين هو العمود الفقرى للدولة وهو خليط من الفريجيين والحيثيين والغاليين والإيرانيين والساميين وكثير من النبعات الأخرى بنِسب لا يستطيع أحد أن يقطع فيها برأى . ولكن كانت لا تزال تفد على الإمبراطورية نبعات وعتر أخرى جديدة . وكان أهم هؤلاء هم الصقالبة والأرمنيين .

وغزوات الصقالبة التى بدأت فى القرن السادس لم تغير فى البداءة إلا أجناس ولايات البلقان ثم أحدثت تأثيرها فى شبه الجزيرة اليونانية بعد ذلك بقليل . وعندما أصبحت الأمور أكثر استقراراً زاد مقدار التصاهر بين السلالات ، حتى إذا استهل القرن التاسع إذا رجال من عترة مخلطة ، بل

حتى صقلبية خالصة ، يشغلون مراكز عالية فى الإمبراطورية . وكان توماس المدعى للعرش صقلبياً شأن كثير من عظماء القرنين العاشر والحادى عشر ، والإمبراطورة صوفيا زوجة كريستوفر ليكابينوس أو البطريق نيقيتاس . وبعد فتح بلغاريا زادت الأرستقراطية اختلاطاً بالمصاهرة إلى الأسرة المالكة البلغارية والعائلات النبيلة البلغارية . وحلّت نهاية القرن الحادى عشر وإذا الصقالبة قد ذابوا فيمن حولهم من السكان تماماً ، أو انسحبوا عن بكرة أبيهم إلى ولايات البلقان السلافية المستقلة .

أما الأرمينيون فلهم شأن يختلف قليلا . فإنهم لم يكونوا يهاجرون قبائل كاملة ، إلا إذا اضطروا إلى الانتقال اضطراراً بسبب إبعادهم عن أوطانهم ، بل كان رحيلهم كأفراد مغامرين ، وهم يقومون إلى حد كبير بالدور الذى يلعبه الاسكتلنديون فى التاريخ الإنجليزى . وشعبهم الذى كان من كثرة النسل والإنتاج بحيث تضيق به الأودية المحدودة لبلادهم ، كان يرسل أكثر أبنائه إقداماً يطلب القوة والسلطان والثروة فى المجال الأرحب الذى كانت تتيحه له الإمبراطورية . وفى زمن قديم هو القرن السادس كان نارسيس القائد العظيم ليوستنيانوس أرمنيّا ؛ ولكن الحركة بلغت ذروتها فى القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الإمبراطور لاوون الخامس كان مغامراً أرمنيّا ؛ وكان باسيليوس الأول ابن أسرة أرمنية طريدة . وكان يوحنا الأول جيمسكى (تزيمسكيس) من نبلاء الأرمن . ويوم كان رومانوس الأول قابعاً على عرش الإمبراطورية وثيوفيلاكتوس متربعاً على رئاسة الكنيسة ويوحنا كيركواس قائداً أعلى للجيوش ، كانت الإمبراطورية بأكلها فى أيدٍ أرمنية . وإنا لنسمع على الدوام عن أميرات أو موظفين كبار من دم أرمنى ، وكان فى الوسع العثور على مهرة الصناع الأرمن وتجارهم فى كل مدينة من المدن . والدائرة الوحيدة التى لم ينفذوا إليها هى الكنيسة (باستثناء ثيوفيلاكتوس الذى كان السبب فى تعيينه أنه كلبى يدين بمذهب سيطرة الدولة على شئون

الكنيسة) . وكان على المهاجر الأرمنى عندما يلتحق بخدمة الإمبراطور أن يتنحى عن هرطقته ويتقبل مذهب خلقيدونية ، بيد أن السلطات الكنسية لم تكن تحب من يغيرون عقيدتهم ولا تطمئن إلى تغييرهم مذهبهم . هذا إلى أن فتوح السلاجقة والاضطرابات التالية التى شملت آسيا الصغرى قطعت اتصال أرمينية بالإمبراطورية ، ولم يلبث تيار الأرمن أن كف شيئاً فشيئاً . وكان توقفهم ذاك خسارة على الإمبراطورية . فإن الأرمن لم يكن من بينهم طائفة من أقوى حكامها فحسب ، بل كانت منهم نسبة عظيمة من خيرة عقولها المشتغلة بالأعمال والتجارة ، وكان لهم أثر عظيم وإن لم يبرح موضع نزاع وأخذ ورد فى فن بيزنطة وصناعاتها وحرفها .

ولم يحدث قط أن جنساً آخر هاجر بمثل هذا النطاق الواسع وهذا الأثر القوى كالأرمنى ، ولكن التاريخ البيزنطى بأكمله يسجل أن فيضاً من المغامرين كان يجيء التماسا للثراء فى ظل الإمبراطور وافداً من كثير من الأقطار. وكانت التخوم مع المسلمين لا تبرح مزدحمة بالغادين والرائحين . فإن والد ديچينيس أكريتاس بطل الملحمة الشهير كان عربيا تنصر ، وكان الإمبراطور نيقيفوروس الأول تجرى فى عروقه الدماء العربية[1] . وكان المهاجرون القادمون من الشمال والغرب ، وبخاصة فى القرون المتأخرة للإمبراطورية ينزعون إلى العودة إلى أوطانهم بمجرد جمعهم ثرواتهم . فكان الڤارانچيانى يعود أدراجه إلى أرض الضباب باسكنديناوة أو انجلترة ، ويعود الفرنجى إلى فلاندر أو قطالونيا . بيد أنهم ربما استقروا بالبلاد ، وربما تزوجوا فيها ؛ وربما حكم أبناؤهم الهجناء المخلطو الدماء الإمبراطورية فى الجيل التالى . وكان نصيب البيزنطى من التحزب العنصرى ضئيلا ضآلة خارقة . فإن دماءهم كانت شديدة التخليط . فكل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية المقبولة فى البلاد

(١) ميخائيل سيزوس ص ١٥ .

واستطاع التحدث باليونانية كان يلقى منهم القبول كأخ فى المواطنة . وكان احتقارهم العميق للأجانب موجها إليهم بوصفهم كفرة وزنادقة وأجلافا غير ملمين بتهذيبات الحضارة الإمبراطورية ورفاهياتها . فكل أجنبى يعتنق ديانة الدولة ويحصل على جنسيتها كان يستطيع الزواج من امرأة بيزنطية مهما يكن أصله أو أصلها . وكثيرا ما كانت سيدات من كرائم البيزنطيات يتزوجن من مغامرين من الفرنجة أو من الشرق ؛ ومن زوجات الأباطرة امرأتان من الخزر من الأرومة التركية الخالصة وعدد لا يحصى من الأميرات من الغرب . حقا إنه عندما حدث أن يوستنيانوس الثانى أجبر سيدة من بنات عائلات السناتو على الزواج من طاهيه الخاص الزنجى ، ثارت ثائرة الإحساسات الكريمة فى البلاد لشعورها بانتهاك حرمتها، ولكن ذلك كان عن ترفع وغطرسة لا عن تحزب بسبب اختلاف لون البشرة[1]. غير أن الاتصال المتزايد مع الغرب واستشهاد الإمبراطورية البطىء على يد الجمهوريات الإيطالية جعل الأجانب مبغضين أكثر لدى أهالى القسطنطينية ، ولكن اللعنة كانت منصبة على الحضارة الأجنبية الغربية لا على الدم الغريب الأجنبي . فإن الشعوب الصقلبية التى كانت تدين بثقافتها لبيزنطة لم تكن لتلقى مثل هذه الكراهية العنصرية إلا فى زمن الحرب ؛ وحتى الترك أنفسهم الذين اقتبسوا الأحابيل والوسائل البيزنطية يلوح أنهم كانوا عند أهل الإمبراطورية أفضل من أبناء عقيدتها الفرنجة النصارى .

وكان الجنس البشرى الوحيد المستقر بالإمبراطورية الذى لم يستطع قط أن يمتزج بمن حوله بسبب ديانته هو اليهود . ومع ذلك فلم يكن اليهود البتة كثيرى العدد . وكانت هناك منهم مستقرات تتحدث باليونانية بآسيا الصغرى[2] ، وعند

---

(١) ثيوفانيز ص ٣٧٩ .

(٢) انظر ما سطره رايناخ بعنوان « عقد الزواج » فى مؤلف صدر لتكريم شلومبرجر "Contrat du Mariage" in Mélanges Schlumberger جـ ١ ص ١١٨ ع ع .

القرن الثانى عشر على الأقل ، كانت جاليات صغيرة منهم موجودة بكل مدينة بيزنطية[١] ؛ بيد أنهم لم يكونوا فى الأعمال والتجارة أفطن ولا أحكم من الروم ولا الأرمن ، كما أنهم كانوا فيما يظهر يكلّفون بضرائب إضافية ويتعرضون لألوان الاضطهاد بين الفينة والأخرى . فإن اعتنقوا المسيحية جاز لهم حتى الانضمام إلى الطبقة الأرستقراطية . فإن شقيقة الإمبراطورة إيرينة تزوجت من سليل شخص ما اسمه سارانتا بيخيس ، وهو يهودى من طبرية[٢] مارق من دينه .

وكان كل من اختلاط الأجناس البشرية بعضها ببعض واشتداد الشعور القومى يُرى على أشده فى العاصمة نفسها : القسطنطينية . فإن القسطنطينية تسلطت على الإمبراطورية منذ اللحظة التى أسست فيها . فإن جميع أجهزة الدولة ودواوينها وماليآتها شرعت تتمركز هنالك أكثر فأكثر ؛ وجعل منها موقعها مفتاحاً اقتصادياً واستراتيجياً لقارتين . فلكى يمكن حكم الإمبراطورية يكون ألزم ضروريات ذلك الاستيلاء على القسطنطينية وكان نجم روما فى أفول يوم أُنشئت العاصمة الجديدة ، كما لم تكن ثم مدينة أخرى عظيمة فى الغرب ؛ فإن قرطاجنة وميلانو كانتا متخلفتين عنها بمراحل . على حين أن مدينتى البطاركة بالشرق وهما الإسكندرية وأنطاكية كانتا منافستين أقوى شأناً . وكانت الإسكندرية حتى الفتح العربى لا تقل شأناً عن القسطنطينية إلا قليلا ، ولكنها بما ملأها من نوازع البغضاء للحكومة الإمبراطورية أخذت تزداد فى كل آن مناصرة للفتن والأمانى المحلية ، وهو أمر قال من قيمتها العالمية . وذلك فى حين أن أنطاكية أخذت تنحط رويداً رويداً لأسباب جغرافية . وبينما الغرب يزداد فقراً واضطراباً ، أخذت التجارة الواردة من الشرق التى كانت تحمل إلى البحر المتوسط عن

---

(١) بنيامين التطلى ص ١٠ .

(٢) ثيوفانيز ص ٤٧٤ .

طريق أنطاكية تتخذ الآن طريقاً منحرفاً أكثر إلى الشمال وتمر من خلال آسيا الصغرى إلى العاصمة الجديدة . وبذا بقيت القسطنطينية فى القرن السابع مدينة عظمى بغير ضريب .

ولا بد أن عدد سكان القسطنطينية عند القرن الخامس قد بلغ بعد استبعاد سكان الضواحى والأرباض حوالى مليون نسمة ، كما أنه ظل مقارباً ذلك المستوى حتى الفتح اللاتينى الذى أخذت تنحط بعده بسرعة ، حتى أصبحت أقل من مائة ألف نسمة بكثير فى ١٤٥٣[١] . والواقع أن مساحة المدينة كانت أعظم مما عسى لمثل ذلك العدد أن يبرره . فإن قاعدة المثلث الذى كانت تقوم عليه كانت تقارب خمسة الأميال ، حيث كانت الأسوار البرية التى شادها ثيودوسيوس الثانى تمتد على خط مزدوج من بحر مرمرة إلى القرن الذهبى ، وتخترقها اثنتا عشرة بوابة فيها العسكرية والمدنية بالتناوب . ومن كل من النهايتين كانت الأسوار البحرية تمتد مسافة تقارب سبعة الأميال قبل أن تلتقيا عند قمة البوسفور المفلطحة . وكانت تقوم داخل تلك الأسوار مدن وقرى مختلفة ومزدحمة تفصل بينها البساتين والجنات . وكانت القسطنطينية تستطيع أن تفاخر ، كروما القديمة ، بتلالها السبعة . وكانت تلك التلال تنهض قائمة كالجدار على البوسفور والقرن الذهبى ، ولكن المنحدرات كانت من ناحية بحر مرمرة ألطف وأسهل والامتداد فيها أرحب وأوسع .

وكان المسافر القادم من البحر من الجنوب أو الغرب يشهد عن يمينه وهو يقترب من المدينة قباب القصر الكبير وممراته المسقفة والمحلاة بالقراميد الملونة تقوم من ورائه كنيسة القديسة صوفيا وتمتد منه الحدائق حتى البوسفور ، ثم يجىء السور الضخم المنحنى الذى تقوم عليه كذلك الناحية الجنوبية من

---

(١) انظر مقال أندريادس "De la Population de Constantinople" فى مجلة "Metroon" مج ١ ، ١ وانظر "Destruction of the Greek Empire" تأليف بيرز (Pears)، ص ١٩٢ ع ع .

ميدان السباق ، وهو يطل على مرفأ القصر المزخرف وكنيسة القديس سرجيوس والقديس باكوس ومعهما حى منخفض ملىء بقصور أصغر حجما . وعلى مسافات متقطعة إلى اليسار يظهر السور البحرى بما يعلوه بين حين وآخر من أبراج وقد شقت فيه فتحات تسمح بوجود مرافئ صناعية صغيرة ترسو فيها السفن التى لا ترغب أن تدور حتى تدخل القرن الذهبى . وتتكدس المنازل متكاثفة حول تلك الموانى ؛ وفى الخلف وبخاصة فى وادى نهر ليكوس الصغير ، كانت تمتد البساتين بل حتى حقول القمح ، بيد أن قمة الرابية كانت تقوم عليها كنيسة الرسل المقدسين وغيرها من المبانى العظيمة . ومن وراء ذلك إلى اليسار أيضاً كانت الأرض لا تفتأ تزداد انسطاحا . ويقوم على الشاطئ حى الاستديوم الآهل بالسكان وفيه الدير الذائع الصيت . وفى الخلف كانت قمم الأسوار البرية تُرى منحدرة نحو البحر ، ولكن حتى خارج نهاية السور نفسه كانت منازل الضواحى تقوم متراصة متكاثفة على امتداد الساحل مسافة أخرى تقارب الميلين أو تزيد . فإذا نظرت إلى المدينة من وراء ميناء القرن الذهبى العظيمة وجدت هيئتها مختلفة اختلافاً بالغاً . فهناك كنت تشهد أمام الأسوار شاطئاً أوسط(١) يتزايد بالتدريج على كر القرون ، وهو مكسو بالأرصفة والمستودعات والمراسى التى كانت تربط إليها السفن التجارية ، وفيما وراء ذلك كانت البيوت نفسها تبنى على أعمدة فوق الماء . وكانت هناك بوابات عديدة تفتح رتاجها منصبة إلى الأحياء المزدحمة فى الخلف . وهنا كان ما تراه من الزروع والنبات الأخضر قليلا . فأما المنحدرات الشديدة التى تؤدى إلى الرابية المركزية فكانت مغطاة بالمنازل ، لولا أن بها أيضا حى القلعة فى النهاية الشرقية ولولا حى بلاخرناى الشديد الاتساع فى الغرب الأقصى حيث كان أحد القصور الإمبراطورية ومعه كنيسة عظيمة القداسة

---

(١) الشاطئ الأوسط أو الأمامى (foreshore) : هو الذى يكون بين علامتى المد والجزر. (المترجم)

تضفي على المنطقة جوا من الكرامة والمهابة . وفيما بين هذا وذاك ، كان يوجد مركز الطاقات التجارية للمدينة ، وفيه إدارات أصحاب السفن والمصدّرين ومؤسسات التجار الأجانب . هنا سُمح للتجار الإيطاليين لأول مرة بالسكنى والإقامة[١] .

وكان أجمل أحياء الحوانيت يقع داخل المدينة . فعلى امتداد الرابية المركزية وابتداء من مدخل القصر وحلبة السباق إلى امتداد ميلين كان يمتد نحو الغرب الشارع المسمى الشارع الأوسط (Mesê) ، وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكي) ، ويمر من خلال سوقين (Forums) اثنين — وهما عبارة عن مناطق متسعة مزدانة بالتماثيل — إحداهما سوق قسطنطين الملاصقة للقصر والأخرى سوق ثيودوسيوس الأكبر منه اتساعاً على حين يتفرع فى النهاية إلى شارعين رئيسين ، أحدهما يسير مخترقا سوق الثور وأركاديوس إلى الاستوديوم والبوابة الذهبية وبوابة بيجاى ، بينما يمر الآخر أمام كنيسة الرسل المقدسين إلى بلاخرناى والبوابة الخاريسيانية (Charisian) . وكانت تقوم على جانبي بواكى شارع الوسط أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعاً لما تبيع من سلع ، فصاغة الذهب أولا يليهم صاغة الفضة ثم البزازون[٢] وصناع الأثاث وهكذا دواليك . وكانت أغنى تلك الدكاكين قرب القصر عند حمامات زيوكسيبّوس (Zeuxippus) . فهناك كان المركز التجارى لسوق الحرير الضخم المعروف باسم دار الأنوار ، وذلك لأن نوافذه كانت تضاء ليلا[٣] .

---

(١) انظر جيليوس : «De Topographia Constantinopoleos» ؛ وانظر أيضا دوكانج : «Constantinopolis Christiana» ؛ انظر مورتمان : «Esquisse Topographique de Constantinople» ؛ فانملنجن "Byzantine Constantinople" ؛ وانظر إبرسولت «Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant»

(٢) البزاز بائع الأقمشة والثياب . (المترجم)

(٣) كدرينوس جـ ١ ص ٦٤٨ .

ولم يكن هناك حى بعينه مخصص لسكنى علية القوم . فكانت القصور والأكواخ والدور ذات الشقق تتزاحم كلها جنباً إلى جنب . وكانت بيوت الأغنياء تبنى على الطريقة الرومانية القديمة من طابقين اثنين ، وظاهرها من الخارج غفل من الفتحات وتطل من الداخل على فناء ، يكون أحياناً مسقفاً ويكون فى العادة مزيناً بفسقية وبأى زينة أجنبية الشكل يبتدعها الخيال . وكانت بيوت الفقراء تبنى بشرفات (بلكونات) أو نوافذ تطل على الشارع ، ومنها كانت الكسولات من سيدات البيوت تستطعن مراقبة حياة جيرانهن اليومية[1] . وكانت شوارع المناطق السكنية الراقية يشيدها فى غالب الأمر مقاولون خصوصيون ، ولكن زينون أصدر قانوناً حاول به إدخال شىء من النظام على تلك الحالة . وكان القانون ينص على أن يكون عرض الشوارع اثنى عشر قدماً ، ولا يجوز أن تمتد الشرفات حتى ينقص بُعدها عن الجدار المقابل عن عشرة أقدام كما ينبغى أن تكون على ارتفاع خمسة عشر قدماً عن سطح الأرض . وبه حُرم بناء السلالم الخارجية وحُظر فتح النوافذ لإمتاع العين بالمناظر إذا كان عرض الشوارع الموجودة آنفاً يقل عن اثنين وعشرين قدماً حيث لا يُسمح إلا بشبابيك من حديد للتهوية . وظل هذا القانون الدستور الأساسى لتخطيط المدن فى العهد البيزنطى[2] . وكانت هناك تعليمات مشددة بشأن تصريف المياه ومجاريها . فكانت جميع المجارى توجه بغاية العناية لتنسرب فى البحر ، كما لم يكن يجوز لأى شخص أن يُدفن داخل المدينة إلا الإمبراطور وحده . وكان الموظفون الصحيون والأطباء فى كل أبروشية يقومون بألوان أخرى من الرعاية للصحة العامة .

وفى مقابل الشوارع الضيقة كانت هناك حدائق عامة فسيحة تدار على حساب المدن وبلدياتها . وكان القصر الكبير وما حوله من حدائق ومتسعات

---

(١) انظر دى بيليه : «L'Habitation Byzantine» .

(٢) انظر : «Codex Justiniani» ف ٨ ، ١٠ ، ١٢ .

يشغل الركن الجنوبى الشرقى من المدينة وتمتد مبانيه إلى ما يدانى الميل طولا . ويجاوره قصر البطريق بكل ما يلحق به من توابع ، ثم هناك بعد ذلك قصور إمبراطورية أخرى فى كل أرجاء المدينة . وكنت ترى كنيسة عند ناصية كل شارع تقريباً ؛ فهناك الكنائس الفخام مثل آياصوفيا والرسل المقدسين والباسيليكا الجديدة التى شيدها باسيليوس الأول ، هذا إلى مئات أخرى صغرى من دور العبادة . وكان ملحقاً بالكثير منها أديرة قد أحيطت بأسوار ضخمة صارمة الهيئة ، فضلا عن المستشفيات وملاجئ الأيتام ودور الضيافة . وكانت بها مبان للجامعات ومكتبات وسقايات مياه وصهاريج لخزن الماء وحمامات عامة ، وبها فوق كل شيء ميدان السباق العظيم . وثم تمثال لأفروديت ينهض شاهداً على وجود الماخور الوحيدة بالمدينة ، وهى بحى زيجما على القرن الذهبى[1] . وكانت الشوارع الرئيسية وخاصة الأسواق وحلبات السباق متاحف تُعرض فيها أبدع ما صورته يد الأقدمين من التماثيل والنحاتات . وقديماً فى القرون الأولى كان هناك متحف محدد هو دار لوسوس (Lausus) ، بيد أنه احترق بكل ما حـوى من كنوز عام ٤٧٦[2] . ومع هذا فإن التماثيل الموزعة بالشوارع ظلت هناك حتى دُمرت أو سرقها الصليبيون اللاتين .

وتقوم الضواحى من حول المدينة ؛ ومنها ما هو مثل خلقيدونيـة أو غلاطة التى انتقلت إلى يد الإيطاليين فيما بعد ، مدن تجارية موفورة النشاط ، ومنها ما هو مثل هيرون ، حيث شادت ثيودورا قصرها المحبوب أو ما هو مثل القرى المبنية على البوسفور ، منتجعات سكنية راقية فى جل أمرها يتوافد عليها الأثرياء فى الصيف . وكان هناك مقصورة مقدسة للعذراء فى بيچاى خارج الأسوار تماماً . وكان هناك عند «هبدومون» على مبعدة سبعة

---

(١) كودينوس ص ٥٠ ، ١١٩ ؛ كدرينوس جـ ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) كدرينوس جـ ١ ص ٦١٦ .

أميال من علامة الطريق القائمة عند بوابة القصر الكبيرة ساحة استعراض للجيش ذائعة الصيت حدثت بها كثير من الأحداث الحيوية فى التاريخ البيزنطى .

وغنى عن البيان أن المظهر الخارجى للمدينة وهى فى أزهر عصورها ، يجب أن يكون أمراً يطلق فيه العنان للحدس والتخمين . فإن القباب والكرانيش الخيالية الأشكال والممرات ذات العقود الملونة التى تكوّن خلفية الصور فى الكتب المزينة بالتصاوير تبث فى الناظر انطباعة شديدة البهجة ، وذلك لأن المهندس المعمارى البيزنطى كان يحتفظ لداخل المبانى بأدسم وأجزل مؤثراته . ولكن حتى فى عهد آل باليولوجوس أنفسهم يوم كانت أقسام ضخمة من المدينة خرائب مهدمة ويوم كانت السكنى بالقصر الكبير نفسه غير ممكنة ، كانت الفخامة التى لم تفتأ مسحتها قائمة بالقسطنطينية تروع السائحين .

وكان منظر المواطنين الأغنياء قوى الوقع بالمثل أيضاً . فقد نبذ القوم « التوجا » الرومانية فى القرن الخامس وأحلوا محلها سترات طويلة من الديباج المقوى الموشّى . وكان الإسكارامانجيوم (scaramangium) ، وهو الرداء الذى يرتديه كل نبيل فى أية مناسبة رسمية – ومعظمها كان يخزن بالقصر – ثوباً منقولا عن الهون الذين أخذوا فكرته من قديم الزمان من أردية طبقة الماندرين ببلاد الصين فيما يحتمل[1] . وكلما تقدمت القرون زادت الملابس إتقاناً وإحكاماً ؛ فصار كل من الجنسين يرتدى أغطية عجيبة للرأس منها القبعات ذات القمة ولها حافة من الفراء أو العمائم العالية المنبعجة . وظهرت عادة إرسال اللحى منذ القرن السابع فصاعدا ؛ فأصبح حلق اللحية عادة غربية وسوقية . وكانت أدوات التجميل والزينة شائعة الاستعمال وبخاصة

(١) كوندا كوف «Les Costumes Orientaux a la Cour Byzantine» فى مجلة Byzantion مج ١ ص ٤٤٧ .

فى عهد آل باليولوجوس . فحتى النساء الصغيرات الفاتنات كن يطلين وجوههن بالصباغ . فإن « لابروكير » البورغندى قد هاله كثرة مقادير الأصباغ التى تستخدمها الإمبراطورة ماريا التى كانت إحدى الحسان الذائعات الصيت ، وهى أميرة طرابيزون[1] .

وكان للحياة اليومية قواعد من التنظيمات والمراسم لا تقل صلابة عن الثياب اليومية . وكانت السلطات تتدخل فى كل شىء . فالأسعار والأرباح وساعات العمل تنظم من ديوان والى المدينة . وكانت للكنيسة أيضاً تعلياتها عن الصيام والأعياد . وحتى الإمبراطور ذاته وهو الحاكم الأعلى للإمبراطورية كانت له حياة معينة الحدود مُضيّق عليها أكثر من أى فرد من أفراد رعيته ؛ ففضلا عن أعباء الحكم التى لو أنه رعى فيها ضميره لاستغرقت جل وقته ، كان عليه أن يحضر فى كل يوم تقريباً حفلات يتلقى فيها من الاحترام والتبجيل ما هو خليق بالإله ، ومهما تكن آراؤه فى الرياضة فلا بد له أن يظهر نفسه أمام شعبه أثناء الألعاب بميدان السباق . ولا بد له من مداومة تغيير ثيابه ، ولا بد له أن يسير فى مواكب طويلة وفوق رأسه تاج ثقيل الوطأة تنوء به رأسه ، ولا بد له أن يستقبل السفراء وأن يستعد لارتفاع العرش به فى الهواء بغتة للتأثير فى قلب الأجانب البسطاء . وربما جاز له أن ينتجع فى الصيف أثناء العطلة فى قصر هواؤه عليل بضواحى المدينة ، ولكن الأرجح أن يضطر إلى قيادة جيوشه فوق مرتفعات آسيا الصغرى . وقد وجد لاوون السادس وابنه قسطنطين السابع من وقت الفراغ ما استطاعا أن يسطرا أثناءه بعض الكتب ، بيد أن واحداً منهما لم يكن جندياً ، ولا كان ثيودوسيوس الثانى الذى كان يجيد ، شأن قسطنطين السابع ، فن التصوير والمرقاش[2] . وكان الأباطرة الذين يريدون أن يعيشوا عيشة الدعة والملذات

---

(١) لابروكير : "Voyage d'Outremer" ص ١٥٧ .

(٢) كدرينوس ١ ص ٥٨٧ .

على عروشهم بين أمرين : فإما أن يكون لهم وزراء مقتدرون ، ديدنهم الولاء لهم أو لا يمكثون فى العرش إلا زمناً قصيراً جداً .

وظل الإمبراطور يعيش حتى القرن الثانى عشر بالقصر الكبير دون غيره بصورة تامة مطلقة أو تكاد ، وإن حدث أحياناً أن يزور قصوره الأخرى داخل المدينة أو حولها . وكان القصر الكبير[1] الذى يسميه السائحون الغربيون باسم البوكوليون (Bucoleon) نسبة إلى مرفأ القصر المسمى بذلك الاسم حيث نصب تمثال ضخم لثور يقاتل أسداً ، عبارة عن مجموعة لا منهاج لها من المبانى وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكنى التى شادتها أيدى أباطرة مختلفين ، كل بدوره . ولسنا ندرى إلا النذر اليسير عن القصر فى أيام يوستنيانوس . والظاهر أن أجزاء منه كانت بعد القرن السابع بحاجة إلى الإصلاح . وبنى ثيوفيلوس قاعة الاستقبال الشهيرة (Triconchus) . وأضاف باسيليوس الأول إليه إضافات كثيرة . على حين أن نيقيفوروس فوقاس أنشأ جناحاً عند شاطئ البحر ، كان يحب أن يقيم فيه وبه قُتل . وكان آل كومنين ، وإن بقى كل من ألكسيوس ويوحنا الأول على الجملة على عهد الوفاء للقصر الكبير ، يفضلون قصر بلاخرناى على القرن الذهبى فى الركن الشمالى الغربى للمدينة ؛ كما أن عمانويل الأول أقام هناك إقامة تامة تقريباً . ذلك أنه كان شديد الولع بالصيد وأوفق شىء لديه أن يعيش بجوار أسوار المدينة بدلاً من الاضطرار إلى قطع مسافة خمسة أميال من الشوارع قبل الخروج إلى المنطقة الريفية المجاورة . وأقام أوائل أباطرة اللاتين فى البداءة بالقصر الكبير ؛ ولكن بولدوين الثانى لم يستطع تحمل نفقات إدارته . وفى أثناء حكمه تخرب قصر بلاخرناى نفسه . ولما أن دخل المدينة ميخائيل باليولوجوس كان القصر الكبير من سوء الحال والدمار بحيث لا يستحق إعادة بنائه وخاصة إذا راعينا

---

(١) انظر إيبرسولت "Le Grand Palais"

الفقر العام الضارب أطنابه فى الدولة . بل إن قصر بلاخرناى نفسه استمرت عملية تنظيفه عدة أسابيع قبل أن أصبح صالحاً للسكنى[1] . وأقام آل باليولوجوس جميعاً بقصر بلاخرناى ، كما أن القصر الكبير لم يبق قائماً منه عند حدوث الفتح التركى إلا قلة ضئيلة من مبانيه[2] .

أذهلت جميع ألوان الثراء التى حفلت بها القسطنطينية رجال حملة ١٢٠٤ الصليبية . فإن ڤيلهاردوين لم يستطع أن يصدق أنه يرى شيئاً حقيقياً[3] ؛ ولكن على حين أثر فيهم كل مؤثر قصر بلاخرناى بما حوى من رخام وفسيفساء وتصاوير جصية على الجدران (فرسكوهات) ووشى ديباج ، فإن القصر الكبير كان أشد وقعاً فى أنفسهم بكثير . وبه كانت تخزن ذخائر الكنوز الكبرى من سبائك الذهب والجواهر والمواد الثمينة . وبه كانت قاعات الاستقبال الإمبراطورية بما بها من ضراغم ذهبية تزأر وطيور عسجدية تشدو ، وقد صنعت للإمبراطور ثيوفيلوس . وهناك أيضاً جمعت أعظم مجموعة من آثار القديسين فى العالم المسيحى كله ، ابتغاء وضع المكان موضع القداسة فوق كل مكان آخر . وكان بأرباض القصر تل أقيمت عليه منارة للسفن لكى تهديها سبيلها إلى داخل البوسفور ، وإلى جوارها كنيسة للعذراء مريم ، وهى المتحف الذى اكتنزت فيه هذه الذخائر التى لا تُقوم بثمن ، والتى ظلت حتى اقتسمها الصليبيون فيما بينهم وحتى رهن بُلدوين الثانى خير ما بقى منها[4] .

وكان القصر سرة القسطنطينية ومركزها . ومن داخل جدرانه كانت

---

(١) باخيميريس ، جـ ١ ص ١٦١
(٢) بيروتافور «Travels and Adventures» ترجمة للنص ص ١٤٥ — ١٤٦ .
(٣) ڤيلهاردوين «La Conquête de Constantinople» نشره بوشيه جـ ١ ص ١٧١
(٤) انظر إبرسولت : "Les Sanctuaires de Byzance" ؛ دى ريانت "Exuviae Sacrae Constantinopolitanae" ، ثم انظر ما بعد فى الفصل الثامن .

الإمبراطورية بأجمعها تدار وتحكم . فكان التحكم فى القصر معناه التحكم فى الإمبراطورية . وكان أغنى دار تجارية بالإمبراطورية . فإن تجارة الحرير كانت احتكاراً للإمبراطور ، وكانت تقوم فى أقسام الحريم (Gynaeceum) الأنوال التى تنسج عليها أثمن أنواع المنسوجات . وبالإضافة إلى مكاتب الحكومة والأقسام الهائلة المخصصة للإمبراطور كانت هناك المبانى التى تنزل بها الإمبراطورة وحاشيتها ، وهى غرفات تحت سلطانها الخاص لا يستطيع الإمبراطور دخولها إلا بإذن منها . والواقع أنه عندما ماتت الإمبراطورة ثيودورا فى ٥٤٨ ودخل زوجها الأرمل يوستنيانوس ليمر على مخلفاتها ، وجد البطريق السابق أنثيموس المرطيق (الزنديق) فى إحدى غرفاتها الداخلية وقد خبأته منذ اثنى عشر عاماً[١] . ومع أن قسم الحريم كان تحت رعاية الخصيان ولا يجوز للرجال دخوله ، فإن الإمبراطورة كانت تغادره متى شاءت . وإنها لتزور الإمبراطور فى أجنحته وتتغدى معه فى قاعات طعامه ؛ وهى تستطيع إن كانت وصية أن تستقبل وزراءها متى شاءت . وهى تكاد تكون داخل ذلك القصر أقوى من الإمبراطور نفسه .

وكانت الإمبراطورة تُختار بمقتضى التقاليد عن طريق معرض العرائس . فيذهب مبعوثون إلى كافة أرجاء الإمبراطورية ليجمعوا البنات الجميلات الراقيات التعليم ليختار الإمبراطور منهن عروسه . ولكن غالباً ما كانت الاعتبارات السياسية أو عاطفة لم يحسب حسابها ، تمد الإمبراطور بالعروس المطلوبة فيستغنى الحال بذلك عن اللجوء إلى تلك الوسيلة ؛ بيد أنها استخدمت عندما أرادت إيرينة أن تُزوج ابنها قسطنطين السادس[٢] — ويلوح أن إيرينة نفسها لا الإمبراطور هى التى انتقت العروس ؛ وكانت العروس جديرة بالإعجاب من الناحية الخُلقية ولكنها لم تكن جذابة . وإن كان الوكلاء قد

---

(١) يوحنا الإفسوسى ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٢) انظر حياة فيلاريتس ص ٧٤ — ٧٦ .

قاسوا بعناية طولها وقدمها — واستخدمت الطريقة نفسها عندما تزوج ستوراكيوس[1] . واستخدمت فى حالة أذيع صيتاً يوم اختار ثيوفيلوس ثيودورا ضارباً صفحاً عن الشاعرة كاسيا بسبب وقاحة إجابتها[2] .

وكان يقوم إلى جوار القصر المركزان العظيمان الآخران لحياة المدينة وهما : كنيسة الحكمة المقدسة أى آياصوفيا ، ثم السرك أو ميدان السباق[3]. وكان ميدان السباق مبنى ضخماً فسيحاً يتسع لجلوس ما يقارب الأربعين ألف شخصاً . وكانت بالمبانى المتكدسة حوله اصطبلات جميع الحيوانات التى تعرض على النظارة والبيوت الحقيرة للعدد الذى لا يحصى من خدم السرك . وكانت مشاهدة ألعاب السرك مجانية تدفع الحكومة أثمانها . وكانت أعظم تسلية لأهالى المدينة : — مشاهدة الألعاب بميدان السباق والصراع مع الحيوانات وسباق العربات . وفى أثناء المنازعات بين حزبى السرك ، وهما الزرق والخضر ، كان انفعال المشاعر يبلغ من التأجج بحيث يسبب اضطرابات وفتنا سياسية . وكان على الإمبراطور والإمبراطورة أن يحضرا الألعاب . وكان فى الإمكان الوصول من القصر مباشرة إلى المقصورة الإمبراطورية . وكانت المراسم المحكمة تتحكم فى حركاتهما وتحدد طريقة السباق وإعطاء الجوائز بحذافيرها . وقد أصبح ميدان السباق فى القرون الأولى المكان الذى يستطيع فيه الإمبراطور التخاطب مع شعبه وإبداء التصريحات . وهناك يُنادى به إمبراطوراً . وهناك أعلنت « أريادنة » لرعاياها اسم من اختارته قريناً لها وإمبراطوراً[4] ؛ وهناك تجادل يوستنيانوس مع المرجفين الثائرين عليه فى فتنة النيقا[5] . غير

---

(١) تيوفانيز ص ٤٨٣ .

(٢) چورچيوس موناخوس كرنتينياتوس ص ٧٩٠ .

(٣) بيورى « Later Rom. Empire » ج ١ ص ٨١ ع ع (مع ما به من مراجع) .

(٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس « De Ceremonils » ج ١ ص ٤١٧ — ٤١٨ .

(٥) بيورى « Nika Riot » ص ٩٨ ع ع .

أن الذى حدث بعد ذلك فى القرن العاشر ، هو أن هذه الأحداث صارت تجرى عادة فى الميدان الكبير المنبسط أمام القصر . وهناك طالب سكان المدينة بأن يكون قسطنطين السابع إمبراطوراً لهم فى ٩٤٤[١] وزُوية إمبراطورة فى ١٠٣٢[٢] . على أن إقبال الناس على ميدان السباق كان آخذاً فى التناقص . ذلك أن متسابقى العربات فى القرنين الخامس والسادس مثل فرفوريوس فى عهد أنسطاسيوس كانوا معبودى الجماهير بالمدينة[٣] ، وكان فى إمكان مؤامرات ميدان السباق كتلك التى حدثت أيام شباب ثيودورا أن تؤثر فى سياسة الإمبراطورية . ولكن تغير الحال عند القرن التاسع . فإن متسابقة العربات ارتدت مكانتهم خلفاً . وأمسى الذى يسترعى التفات الناس أكثر هو الفارس الهاوى مثل باسيليوس المقدونى أو مثل فيلورايوس ، وهو غلام اصطبل من القرن العاشر صار نجماً متألقاً فى عين بيزنطة جميعاً لركضه واقفاً على صهوة جواده حول السرك ولعبه بسيفه بيديه الاثنتين[٤] . وكان إدخال الفروسة الغربية على يد عمانوئيل كومنينوس سبباً فى جعل ميدان السباق مسرحاً لمداورات الفرسان إلى حين . ولم يلبث أن ترك مهجوراً أو يكاد لعهد أسرة باليولوجوس : وإن انقلب إليه صغار الأمراء والنبلاء بين حين وآخر لممارسة ألوان المهارة فى ركوب الخيل ولعب الصوالج والأكر[٥] (البولو) .

وكان جميع النبلاء يملكون المنازل بالمدينة لمن تستطيع مواردهم المالية الإنفاق عليها ، وإن جاز أن يختلفوا إلى دورهم الريفية فى فصل الصيف ؛

---

(١) ليودبراند « Antapodosis » ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) بسللوس : « Chronographia » جـ ١ ص ١٠٢ ع ع .

(٣) الظريبورى : « Later Roman Empire » جـ ١ ص ٨٤ ع ع .

(٤) كدرينوس جـ ٢ ص ٣٤٣ .

(٥) لابروكيير ص ١٥٨ .

ولكن الاضطرار إلى السكنى بها على الدوام كان معناه النفى أو التحقير والعزل . ذلك أن الرجال كانوا يشغلون فى العادة بعض المناصب الحكومية ويقضون وقتهم فى أداء أعمالهم . وإلا فهم وزوجاتهم حاشية وقطين فى البلاط الإمبراطوري وينغمسون لآذانهم فى المؤامرات والدسائس — فإذا أقبل العيد مر الرجال صفاً أمام الإمبراطور كما تقضى به سُنّة المراسم ومرت النساء أمام الإمبراطورة . وإنهم ليحيلون قصورهم ما وسعهم الجهد إلى بلاطات صغيرة ، منشئين حولهم حلقة من محاسيبهم وأتباعهم من القديسين والشعراء . وقد فقد نبلاء الإمبراطورية الأولى ثرواتهم وسلطانهم أثناء غزوات القرن السابع وفى ظل طغيان أباطرة من أمثال فوقاس ويوستنيانوس الثانى . وكانت الأرض حتى القرن التاسع ناحية استثمار لا يُطمأنّ إليها . والعائلة العظيمة الوحيدة التى تبرز فى تلك الحقبة هى عائلة ميليسينوس[1] ، التى يظهر أنها من القسطنطينية نفسها وأنها تستمد ثراءها فيما يحتمل مما تملك بالمدينة من ممتلكات : وإن استوطنوا بعد ذلك شبه الجزيرة اليونانية ، ولم يبرحوا فى ازدهار حتى مالت شمس الإمبراطورية للمغيب — حيث كانت آخر دوقة لأثينا من هذه الأسرة الميليسينية . ولكن الذى حدث منذ النصف الثانى من القرن التاسع أن عائلات أخذت تظهر وهى تملك مزارع هائلة بآسيا الصغرى ، مثل آل فوقاس وآل دوقاس وآل أسكيليروس وآل أرجيروس وآل كومنينوس . وبعد ذلك بقليل ، أى بعد أن استتب حال الولايات الأوربية منذ غزو بلغاريا ظهرت على مشهد الحوادث العائلات الأوربية الكبرى مثل آل كانتاكيوزينوس وبرينوس أو آل تورنيكوس ، وهم بيت إمارة أرمنى يسكنون قرب أدرنة ، وذلك على حين أن آل دوقاس احتازوا مزارع بأرض أوربا . غير أن تتبع أنساب العائلات البيزنطية الكبرى من الأمور

(١) الفلردوكانج « Familiae Byzantinae » ص ١٤٥ .

العسيرة ، وذلك لأنهم كانوا إما بسبب التعاظم والغطرسة أو بسبب الرغبة فى التنويع يطلقون على الأطفال فى أحيان كثيرة لقب أمهاتهم لا لقب آبائهم . فإن اسم والد أنّا دالاسينا كان شارون (Charon) وأمها كانت من بيت دالاسينوس[1] ؛ ولم يكن المتأخرون من آل دوقاس — حسب رواية بسيللوس — إلا منتسبين لذلك اللقب من ناحية النساء فقط[2] ؛ وكانت ألقاب أبناء أنّا كومنينا هى كومنينوس ودوقاس ، وإن كان أبوهم من آل بريينيوس[3]

وكانت العائلات الكبيرة تعيش عيش العشائر ، فهى تعمل معاً بل وتعيش معاً أحياناً . فإنا نجد فى الصفحات الأولى من تاريخ أنّا كومنينا أن الإخوة كومنينوس يعملون كوحدة تحت حكم أمهم أنّا دالاسينا ويركّزون بكل قواهم مصلحة ألكسيوس أقدر إخوتهم وإن لم يكن أكبرهم سناً . وإن هذه الصفحات نفسها لتظهرنا على مبلغ التهيج والانفعال والاضطراب الذى عسى أن يريم على حياة الأرستقراطية إن ألمت بالبلاد أية أزمة ، حيث كان الرجال لا ينقطعون بحال عن الفرار إلى خارج المدينة ليلا التماساً للسلامة أو لاقتناص معاونة الجيش ، بينما تسارع النساء وهن فى العادة أشد المتآمرين خطراً ، إلى قدس بعض الهياكل — وعبثاً ما كن يفعلن ذلك غالباً[4] . بل لقد كان يحدث فى أزمان يخيم فيها الهدوء والسلام أكثر من غيرها أن ثروة الأغنياء كانت تحيل أمنهم خوفاً وتجعل مركزهم عرضة للمخاطر . فإن رومانوس سارونيتس وجد فى عهد نيقيفوروس فوقاس أن الاسترابة والمراقبة الدقيقة التى كان يوضع تحت نيرها لمجرد أنه رجل عظيم الثراء — فإنه كان يملك فيلورايوس فارس السرك

---

(١) بريينيوس ص ١٧ .

(٢) بسيللوس : « Chronographia » ج ٢ ص ١٤٠

(٣) بروضردوموس : « Epithalamium » M.P.G. مج ١٣٣ ص ١٣٩٧ — ١٤٠٦

(٤) أنّا كومنينا ص ٥٢ ح ح .

ولأنه كان ختنا لإمبراطور سابق هو رومانوس الأول — كانت من الفداحة على نفسه بحيث فكر يائساً أن يشق عصا الطاعة ، ولكنه عاد بناء على نصيحة القديس باسيليوس الأصغر فتوارى من العالم فى أحد الأديرة[1] .

أما ما كان يتكون منه الثراء العريض فى بيزنطة فأمر لا يبلغ إليه حدسنا . فليس هناك أية معلومات عن الثروة فى الإمبراطورية الأولى . وعندما ألغى يوستنيانوس وظيفة القنصل ، كانت تكلف شاغلها حوالى تسعين ألفاً من الجنيهات سنوياً ، ولا أخال فرداً عادياً كان يستطيع تحمل أعبائها المالية[2] . وتناقصت الثروات فى القرنين السابع والثامن . فإن ثيوكتيستى أم ثيودور الأستوديومى التى كانت ثرية عظيمة السخاء ، لم تكن تعطى خدمها إلا الخبز وشحم الخنزير والنبيذ مع اللحم أو الدجاج أيام الآحاد وأعياد القديسين ، وكانت تعد مسرفة إلى حد ما ؛ بيد أنا لا ندرى كم كان عدد خدمها[3]. ويحدثنا الرواة أن شهداء أورشليم الستين كانوا يسافرون ومن ورائهم حاشية كحاشية الأمراء حوالى ٧٣٠ . وكانت دانيليس الأرملة التى صادقت باسيليوس الأول تملك الشطر الأكبر من شبه جزيرة البيلوبونيز ، وعندما ماتت تركت للإمبراطور ثلاثة آلاف عبد[4]. وكان باراكويمنوس باسيل ، وهو رجل عصامى ، وإن كان أيضاً ولداً غير شرعى لأحد الأباطرة يأخذ معه — حتى وهو فى أحلك أيام الإضطهاد والإهانة — خدماً وحشماً لا يقل عددهم عن ثلاثة آلاف إنسان[5] . ومن سوء الحظ أن المبالغ التى تشير إليها

---

(١) انظر «حياة القديس باسيليوس الأصغر» : «Vita S. Basilii Minoris» فى A.S.Boll. مارس ٢٦ (٦٦١)

(٢) بركوبيوس : «Historia Arcana» ، ص ٢٣ .

(٣) ثيودور الاستوديومى فى M.P.G. مج ٩٩ ، ص ٨٨٤ ع ع .

(٤) ثيوفانيز كونتينيواتوس ص ٣٢١ .

(٥) لاوون دياكونوس ص ٤٧

ملحمة ديچينيس أكريتاس قد استعمل فيها الشاعر ما تسمح به فنون الشعر من إباحات ومبالغة . فإن من العسير علينا أن نصدق أن صداق زوجته كان حقاً تسعة ملايين من فرنكات الذهب ، وأنه ربما زاد على ذلك كثيراً لوشاء البطل ذلك : على حين أن قصر البطل المموه من أوله لآخره بتصاوير الذهب والفسيفساء ربما جاز أن يمثل البيت الريفي المثالي في دنيا الأوهام لا البيت الذي بني فعلا في عالم الحقيقة[1] .ولكن حتى المزارع الوضيع الأصل فيلاريتس كان وهو في عنفوان ثرائه وعزه يقدم ولائم العشاء لستة وثلاثين ضيفاً على مائدة صنعت من العاج وخالص الذهب ويملك اثنى عشر ألفاً من رءوس الغنم وستمائة ثور وثمانمائة حصان ترعى كلها في أرضه ، ويمتلك مائتي ثور وثمانين حصاناً وبغلا للعمل كما يمتلك عدداً جماً من موالي الأرض . وكانت ثروته مكونة من ممتلكات حول مدن الأسواق بآسيا الصغرى ؛ ولم يكن له دار ينفق عليها بالقسطنطينية[2] . وظل نظام الثروة الخاصة قائماً حتى في عهد أسرة باليولوجوس . فإن وصف ميتوخيتس لقصره الذي دمر إبان الثورات يصوره مملوءاً بالرخام والمعادن الكريمة ويرسمه فاخراً لدرجة غير معروفة في الغرب المعاصر[3] ؛ كما أن لوقاس نوتاراس كان فيما يرويه عنه أعداؤه يخفي لديه في ١٤٥٣ من قناطير سبائك الذهب المقنطرة ما كان يكفي لشراء جيش جديد بأكمله لإنقاذ المدينة[4] . وظلت الأرستقراطية حتى النهاية أرستقراطية ثروة .

---

(١) ديچينيس أكريتاس : نشره ساثاس وبلران « Monume nts de la Langue Néo-Hellenique » مج ٦ ص ١٠٨ — ١١٦ ، ص ٢٢٤ ع ع .

(٢) انظر حياة فيلاريتس « Vita Philaretis » بمواضع متفرقة .

(٣) انظر جيّان « Le Palais de Métochite", Revue des Études Grecques مج ٣٥ ص ٨٢ — ٩٥

(٤) انظر فرانتزيس ص ٢٩١

ونتيجة لهذا لم تكن السبل موصدة دون الوصول إلى مصاف الأرستقراطية : فكل من أوتى قدراً كافياً من المال مستثمراً فى الأرض ، وهى نقطة الاستثمار الأمينة الوحيدة ، ربما جاز له أن يؤسس أسرة نبيلة ، فيشترى لقباً شريفاً يستطيع به أبناؤه أن يصبحوا أعضاء فى طبقات مجلس الشيوخ . وكانت أشهر السبل إلى ذلك أن يقوم الشخص بالخدمة العامة ، كأن ينضوى فى سلك الجندية مثلا وأن يكافأ بمنحه هبات من مزارع ضخمة . فهكذا بدأ نجم ثراء آل فوقاس فى الصعود على يد الجندى العظيم نيقيفوروس الأسن . وقد يكون السبيل إلى ذلك أن يحس الإمبراطور شيئاً من الاهتمام بأطفال أحد رجال السياسة والتدبير أو بأحد أصدقائه . وهكذا كان ثيوفانيز المؤرخ الورع وهو صبى موضع حماية الإمبراطور لاوون الرابع ، لأن أباه المتوفى برز كحاكم عسكرى فى الجزر الإيجية ؛ ولو أن ثيوفانيز شاء لتمكن من الاستمتاع بكل نعمة من نعم الأرض وخيراتها[1] : وهكذا أيضاً وضع باسيليوس الثانى تحت رعايته الأبوية الأخوين الراقيين الصغيرين من أبناء كومنينوس بعد أن خدمه أبوهما ، فمنحهما الأرض فى بافلاجونيا[2] : أو كما حدث فى حالة أكثر تواضعاً عندما تلقى رومانوس ليكابينوس العون الإمبراطورى حتى ارتقى درجات البحرية صعُدا ، لأن أباه وهو فلاح يسمى ثيوفيلاكتوس الذى لا يطاق أنقذ ذات مرة حياة باسيليوس الأول[3] . ويبدو أن حصول المرء منهم على مزارعه عن طريق استقامة فى الشئون المالية والطرق الشريفة تماماً كما حدث مثلا فى حالة الشريف نيقيتاس فى أوائل القرن العاشر كان فيما يبدو موضع احترام[4] أقل فى أعين الناس . وفضلا عن ذلك فهو أقل ضماناً للطمأنينة . فإن الأباطرة كانت تزعجهم مثل تلك الميول ، هذا إلى أن

---

(١) انظر « حياة ثيوفانيز » لنشر لوباريف فى V.V مج ١٧ ص ٩٢

(٢) بريليوس ص ١٩ .

(٣) جورجيوس موناخوس ص ٨٤١ .

(٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس : « De Thematibus » ص ٥٤ .

الطموح من ملاك الأراضي ربما ألفى نفسه شأن البروتوفستيارى فيلوكاليس ، يعاد قسرا إلى المتربة والفقر بدعوى أنه خالف قوانين الشفعة[١] . وكان الأباطرة أيضاً يحاولون إيقاف زيادة رقعة المزارع التي بدأ تكوين نواتها بطريقة شريفة ؛ ولكن ذلك كان أصعب منالا .

وما ندرى إلا النزر القليل عما كان ينعم به المجتمع البيزنطى فى حياته من مسرات ولطائف : والراجح أن مراسم البلاط كانت المصدر الوحيد لجميع ألوان التسلية الرسمية بالقسطنطينية نفسها ، على أن الولائم الخاصة كانت كثيرة فيما يلوح . فإن بولكيريا كانت تتغدى كل أحد مع البطريق بعد الصلاة للتباحث معه فى سياسة الكنيسة[٢] . وفى وليمة صغيرة أقامها باسيليوس المقدونى وزوجته للإمبراطور ميخائيل الثالث ، دُفع الأول لتدبير الخطة لقتل عاهله الإمبراطور[٣] . وتراجم القديسين حافلة بأخبار أصدقاء للرهبان يتغدون معهم فى أديرتهم وبأنباء قديسين يرفضون حضور ولائم نصرائهم من الأغنياء . وكان فوطيوس يقيم حفلات للشئون الفكرية تبحث[٤] فيها الكتب ، وهو الأمر الذى كان يفعله ميتوخيتس[٥] بعد ذلك بقرون . ولم تكن ثم حفلات تقام بالدور الريفية ، وذلك لأن الدار الريفية كانت هى المنفى الذى يُبعث إليه المبعدون أو ينسحب إليها من تُملى عليهم حصافتهم ضرورة الانسحاب : وذلك فيما عدا حالة واحدة ، هى أن يمر بالمكان بعض علية المسافرين : كالسفراء ووزراء الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه . حدث مرة أن فيلاريتس اضطر أن يولم للبعثة التى كانت تبحث عن عرائس يمكن

---

(١) انظر « Jus Graeco-Romanum » ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣١٦ .
(٢) « Lettre à Cosme » ترجمة ناوق « Patrologia Orientalis » مج ١٣ ص ٢٧٨ .
(٣) چورچيوس موناخوس كونتنيواتوس ص ٨٣٥ .
(٤) فوتيوس ، M.P.G. (Bibliotheca) مج ١٠٣ ص ٤١ - ٤٤ .
(٥) انظر ساثاس فى .B.G.M مج ١ ص ١٩ ع ع .

اختيار إحداهن لقسطنطين السادس(١) . ونزل ألكسيوس الأول ضيفاً على بعض ذوى قربى زوجته وهو يسافر بإقليم تراقيا(٢) . وعندما استقبل يوستاثيوس مالينوس فى داره باسيليوس الثانى ، كانت مظاهر الإكرام التى قدمها للعاهل سبباً فى القضاء عليه شأن ما حدث تماماً بين اللورد أوكسفورد وهنرى السابع . ذلك أن باسيليوس لم يكن يدرك أن رعاياه على مثل تلك الدرجة من القوة(٣) . وكان كيكومينوس يؤمن إيماناً قاطعاً بأن الحفلات المنزلية ليست من صواب الرأى فى شىء . وكل ما يفعله الضيوف – فى رأيه – أن ينتقدوا شئون منزل المضيف وأن يحاولوا غواية زوجته(٤) .

وكان لقصور النبلاء، شأن القصر الإمبراطورى ، أقسام للحريم . على أن النساء كن يشتركن تمام الاشتراك فى حياة الرجال . والفتيات غير المتزوجات كن يعشن عيش الاعتزال إلى حد ما ، وربما لم يرين أزواجهن حتى تقرر كل شئون الزواج ، ولكنهن لا يكدن يتزوجن حتى يستمتعن بمطلق الحرية ، ويتسلطن غالباً شأن ثيوكتستى على دائرة العائلة بأجمعها . وكانت الأم تعامل باحترام خاص . وكان لسلطان أنّا دالاسينا سمعة سيئة ، ولكن لم يقل أحد أن توقير أبنائها لها كان شيئاً غير معقول . وعندما كان ديچينيس أكرتياس يتناول طعامه فى داره ، كان ذلك يجرى ببساطة تامة لا يخدمه آنئذ إلا تابع واحد – يستدعيه بدق الجرس له ، ويدخل هو وزوجته إلى غرفة الطعام بمجرد الانتهاء من إعداده ويتكئان على الأرائك ، ولكن يُنتظر قدوم أمه بعد ذلك بقليل ويُقدّم إليها أحد الكراسى(٥) . وحتى والإمبراطورية تميل شمسها للمغيب ، كان نفوذ آخر إمبراطورة وهى الأرملة هيلينا دراجاسيس

---

(١) « حياة فيلاريتس » ص ٧٤ .

(٢) أنّا كومنينا ص ٢٢٣ .

(٣) انظر (Jus Graeco-Romanum) بالموضع المذكور .

(٤) كيكومينوس : « Strategicon » ، ٤٢ – ٤٣ .

(٥) ديچينيس أكريتاس ص ٢٤٤ .

هو الذى يحفظ السلام بين أبنائها : قسطنطين الحادى عشر وإخوته[1] .

والمؤامرات العديدة التى كانت تحاك خيوطها فتبعث الحيوية والنشاط فى حياة الأرستقراطية ، كانت المرأة تلعب فيها جميعاً وبلا استثناء دوراً وتشترك عادة فيما يقع على زوجها من عقوبة مع إعفائها مع ذلك من أسوأ الإهانات البدنية وأنكل العذاب . حدث ذات يوم أن أنّا دالاسينا نفيت إلى أحد الأديرة[2] ؛ وأُجبرت زوجة قسطنطين دوقاس بعد أن أخفقت ثورته فى ۹۱۳ وسملت عيناه ، على الانسحاب إلى مزارعها الريفية[3] . ولكن حدث أيضاً أن زوجة بارداس فوقاس التى بلغ بها الجرأة أن دافعت له عن حصن تيرايوم ضد جيوش الإمبراطور ، لم تلق فيما نعلم أية عقوبة على جريرتها بعد أن فشلت حركة زوجها فى أبيدوس :

وحياة الفقراء تتشابه كثيراً فى كل زمان ومكان ، فهى تُقضى فى بحث قلق عن وسائل العيش . وكان فقراء القسطنطينية يعيشون فى فقر شديد ، وتُزاحم أحياؤهم القذرة قصور الأغنياء ، ولكنهم ربما كانوا أحسن حالا من فقراء معظم الشعوب الأخرى . فإن السرك ، وهو تسليتهم الوحيدة كان مفتوحاً لهم بالمجان . وقد أوقف هرقل توزيع الخبز المجانى[4] ، بيد أن الحكومة كانت تزود بالطعام المجانى من يعملون فى خدمة الدولة : كالذين يشتغلون فى صيانة الحدائق وسقايات المياه أو من يساعدون فى العمل فى مخابز الدولة . وكان من واجب الكويستور أن يشرف على إعطاء المعوزين عملا نافعاً وأن لا تكون ثمة أية عطالة[5] . ولزيادة تأكيد هذه الفكرة لم يكن

---

(۱) فرانچيس ص ۲۰٦ .

(۲) ث . برينيوس ۳٥ ، ٤٠ .

(۳) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ۳۸٥ .

(٤) كرونيكون بسكال ص ۷۱۱ .

(٥) انظر ما قبله الفصل الرابع .

يسمح لأى إنسان بدخول المدينة إلا لأعمال مصرح بها : وكانت هناك فوق هذا دور للصدقات ومستشفيات للشيوخ والعجزة يؤسسها فى العادة الإمبراطور أو أحد الأشراف وتلحق عادة بأحد أديرة الرجال أو النساء وهو الذى يديرها . ولدينا الآن عقود كثير من مؤسسات آل كومنينى وحججها[1] . وكانت الدولة تنشئ ملاجئ الأيتام لأطفال الفقراء . وقد أصبح مدير ملاجئ الأيتام (Orphanotrophus) منذ زمن مبكر موظفاً هاماً فى سلك وظائف الدولة ، ووضعت تحت تصرفه مبالغ ضخمة . وتولت الكنيسة فى عهد حكم محطمى الصور إدارة ملاجئ الأيتام إلى حين ، ولكن الأباطرة المقدونيين ردوها إلى السلطات المدنية وزادوا منصب مدير ملاجئ الأيتام[2] قوة . وكان أكبر ملجأ للأيتام فى أرباض القصر الكبير . ولكن دمرته إحدى الزلازل إبان حكم رومانوس الثالث ، بيد أن ألكسيوس الأول أعاد تأسيسه حيث كان ينسى هموم الدولة وهو يرقب الأطفال[3] .

وغنى عن البيان أن وجود جميع هذه المؤسسات الخيرية كان يقضى فيما يحتمل على الجوع ولا يذر منه إلا النزر اليسير . ومما هو جدير بالملاحظة أن ثورات سكان المدينة لم يكن لها قط من دافع فوضوى ولا شيوعى . فربما رغب الدهماء فى إسقاط وزير ظالم أو القضاء على أجانب مكروهين ، ولكنهم لم يفكروا مطلقاً فى تغيير بناء المجتمع . والحق الذى لا مراء فيه أن الدافع الذى حدا « بالشعب » فى معظم الحالات للتعبير عن سيادته الأساسية هو إنقاذ الدم الإمبراطورى الأزرق من اجتراء بعض المغتصبين الوقحاء على مقامه .

وفضلا عن الفقراء الأحرار كان بالبلاد مع ذلك عدد لا يستهان به من

---

(١) انظر ما بعده الفصل التاسع .

(٢) انظر بيورى (Imp. Adm. System) ص ١٠٣ ع ع .

(٣) أنا كومنينا ص ٤٠٩ ع ع .

الأرقاء . أما مقدارهم بالضبط فمن المحال تحديده . وسرعان ما شعر القوم أن استرقاق المسيحيين شيء خاطئ : وإن لم يكن موالى الأرض بالمناطق الريفية أحسن حالا بكثير من العبيد . ومهما يكن الحال فقد كان المسلمون وأبناء الوثنيين من العبيد يُستخدمون حتى القرن الثانى عشر فى الخدمات الخاصة وفى مناجم الدولة وغيرها من أعمال الدولة . وكان هؤلاء إما من أسرى العرب الذين لم يفتدوا أو هم فى الأغلب بضاعة آدمية اجتلبها النخاسون من بلاد السهوب . وكان الروس بوجه خاص يبيعون ضحايا غاراتهم فى أسواق القسطنطينية . ولكن كان هناك فى الوقت نفسه شعور متزايد ضد الرق . فقد حظر ثيودور الاستوديومى على الأديرة استخدام الرقيق ، وفرضت الدولة عليهم ضريبة خاصة . وسن ألكسيوس الأول بوجه خاص التشريعات التى تبيح لهم أن يتزوجوا بملء حريتهم[1] . ومع ذلك فحتى يوستاثيوس كبير أساقفة سلانيك نفسه كان يملك عدداً كبيراً من العبيد ، أمر بإعتاقهم بعد وفاته لأن الرق شيء غير طبيعى[2] . ولم يلبث انتشار المدنية أن رفع بالتدريج أثمان تلك السلع البشرية إلى درجة غير معقولة ؛ بيد أن رقيق المنازل ربما وجدوا مع ذلك بالقسطنطينية أثناء القرن الرابع عشر. ولعل الرقيق كان يعيش وهو فى أيدى سادة من الأفراد حياة مريحة نوعاً ليس فيها ما لا يطاق ، وإن كان إخوانهم ممن تملكهم الدولة ربما عوملوا معاملة السائمة[3] .

---

(١) « Jus Graeco-Romanum » ج ٢ ص ٤٠٧ ع ع .

(٢) يوستاثيوس .M.P.G مج ١٣٦ ص ١٢٨٩ — ١٢٩٠

(٣) عن مسألة الرق انظر تشالندون فى « Jean Ier Comnène » ص ٦١٢ ؛ وانظر قسطنطينسكو (Bull. of the Roumanian Academy) مج ٢ ص ١٠٠ ، وبواسوناد : (Le Travail dans L'Europe Chrétienne au Moyen Age) ص ٥٥ ، ٧٦ ، ٤١٧ (وهو يقلل من مبلغ انتشار الرق) .

وكانت الطبقات الوسطى تتأرجح متراوحة بين الفقراء والنبلاء . وكان دقلديانوس يريد أن يجعل كل إنسان يتخذ حرفة أبيه — فينبغي أن يكون ابن الجندى جندياً وابن الخباز خبازاً . ودام هذا الحال إلى حدٍ ما ؛ بيد أن المجتمع لم يظل راكداً ساكناً كما شاء له دقلديانوس أن يكون . فإن كان للعائلة ابن يواصل مهنة أبيه جاز لإخوته أن يلتحقوا بالكنيسة أو الجيش أو الخدمة المدنية ، فإن نجحوا هناك فربما اشتركت العائلة بأكملها فى الحظ الجديد الذى فتح لهم مصراعيه . فعندئذ يُمنحون منحاً من المال ويصبحون من ملاك الأرضى ، وبذا يظهر فرع جديد من النبلاء . ولقد كان يوحنا مدير الملاجئ ، وهو وزير للإمبراطورة زُوية من الطبقة الوسطى مولداً ، وتزوجت أخته بقالا بإحدى السفن . بيد أنه نجح فى رفع شقيقه ثم من بعده ابن أخته ، وهو ابن (البقال) ، رأساً إلى العرش الإمبراطورى[1] . وربما تزوجت أخت أحد الناس زيجة عظيمة ، وذلك لأن الجمال غالباً ما يرفع البنت إلى أعلى من مكانتها كثيراً . فإن ثيودورا الممثلة المولودة بالسرك وثيوفانو ابنة صاحب الخان أصبحتا كلتاهما إمبراطورتين ، ولا تنس أن هناك أمثلة أخرى أخاذة كهذه أو تكاد . والعادة أن أصهار الإمبراطور الجدد يجتمعون عندئذ فى القصر ، ومهما يكن أصلهم يبدأون سيرة جديدة من الأرستقراطية . وكان الطموح صفة عامة فى بيزنطة ، لذا يعمد الآباء من أبناء الطبقة الوسطى إلى بذل كل جهد وإتيان أى عمل من شأنه تشجيع الأذكياء من أبنائهم . وقد جشمت أم پسللوس نفسها متاعب ضخمة لتلقين ولدها التعليم الذى لم تتح لها فرصة الحصول عليه ، وإن اجتمع أقاربها جميعاً ليبلغوها أن الأمر لا يستحق نصباً[2]. وكانت أم القديس ثيودور السيكيوتى تحلم له بمستقبل عظيم فى الجيش ، ولشد ما كانت خيبة رجائها العميقة عندما

(١) پسللوس « Chronographia » جـ ١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

(٢) پسللوس ، خطبة التأبين فى B.G.M. مج ٥ ، ١٢ — ١٣

اختار سبيل الكهنوت والقديسين[1] الذى لا يغنى ولا يدر ربحاً . وعمدت شقيقة القديسة مارى الصغرى ، وهى نفسها زوجة لأحد الضباط ، إلى تزويجها من زميل لزوجها يرجى له مستقبل طيب ، ارتقى فى زمن قصير من رتبة قائد كتيبة (Drungarius) إلى وظيفـــة والى (Turmarch) بيزيا (Bizya) ، ولعله كان يرقى مراقى أعلى كثيراً لولا الفاجعة التى قضت عليه وهى فاجعة وفاة زوجته ضحيّة لغلظته . وقد قدر لولديهما التوأمين أن يصبح أحدهما ضابطاً فى الجيش والآخر كاهناً بالكنيسة[2] .

وبيان پسللوس الذى ألقاه عن حياته المنزلية فى خطاب تأبين أمه يكشف لنا عن أسرة شديدة الاتحاد والتماسك ، كانت الأم تتسلط عليها تماماً . والفرد الوحيد الذى كان پسللوس يحبه حقاً هو أخته ، التى ماتت فى سن الثامنة عشرة . لم تكن عائلتهم ميسورة الحال ، ولكن كان لهم خادم أو اثنان ، ووجدت ثيودوتى لديها بعد الزواج من وقت الفراغ ما يسمح لها أن تعلم نفسها القراءة والكتابة مع الإجادة ، وذلك لأن تعليمها أُهمل فى الصغر بصورة غير مألوفة . وكان الأب تاجراً ، ولكن پسللوس بما وهب من كفايات استثنائية ربى ليكون عالماً من العلماء ، بل لقد أرسل للقيام ببعض الرحلات ولكى يدرس على أبرع الأساتذة . كانت عائلته شديدة التقوى وبخاصة ثيودوتى التى كان يتداخلها شىء من الرجاء فى أن يتجه طموح[3] پسللوس إلى طريق السلك الكنسى .

على أن عائلة والى بيزيا كانت على قدر من الغنى والثراء . فقد كان لها عدة خدم وجناح للحريم (Gynaeceum) ؛ بيد أن محاولات الوالى إلزام

---

(١) حياة القديس ثيودور السيكيوتى A. S. Boll. ، أبريل ٢٢ ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) حياة القديسة مارى الصغرى فى A.S. Boll. نوفمبر ٩ ، ٦٩٢ – ٦٩٣ .

(٣) پسللوس المرجع السالف الذكر بمواضع متفرقة .

زوجته بملازمة الحريم كانت تعد خطأ ، وكان يعد مما يخالف العقيدة المسيحية منه أنه لم يسمح لها بحضور الوليمة التى أقامها يوم الأحـد السابق للصوم الكبير [1] .

ولكى ينجح أحد الصبيان حقاً ربما كان من الحكمة خصاؤه . ذلك أن بيزنطة كانت جنة الخصيان . بل الواقع أنه حتى أشرف العائلات النبيلة نسباً لم تكن ترى من البعيد عليها أن تنكل هكذا بأبنائها لتساعدهم على التقدم ، ولا كان فى هذا أية مهانة ولا مساس بالشرف أو الكرامة . أجل إن الخصى لم يكن ليستطيع أن يرتدى التاج الإمبراطورى ولا هو بمستطيع بسبب طبيعته أن ينقل الحقوق الوراثية إلى الغير ، وهنا يكمن السر فى قوته . فالصبى الذى يولد على صلة وثيقة بالعرش كان فى الإمكان بهذه الطريقة تحويل سبيل حياته إلى ناحية جانبية ثم هو مستطيع بعد ذلك أن يسير قُدُماً فى أمان تام حسبما تمليه عليه مشيئته . وهكذا خُصى نيكيتاس الابن الصغير لميخائيل الأول يوم سقط أبوه ، ثم ارتقى فيما بعد رغم الخطورة المحيقة به بسبب مولده حتى أصبح البطريق أغناطيوس [2]. وهكذا أيضاً لم يكتف رومانوس الأول بخصاء ولده غير الشرعى باسيل الذى ظل وهو فى منصب كبير الأمناء (Paracoemomenus) يحكم الإمبراطورية عشرات عديدة من السنين ، بل خصى أيضاً أصغر أبنائه الشرعيين ، ثيوفيلاكتوس الذى أراد له أن يصبح بطريقاً [3] . وكانت نسبة ضخمة من بطاركة القسطنطينية من الخصيان ، وكان الخصيون يجدون تشجيعاً خاصاً فى الخدمة المدنية ، حيث كان كل حامل لقب من الخصيان يُعد سابقاً فى المرتبة لزملائه الذين لم تمتد إليهم يد الجب وحيث كانت رتب عالية

---

(١) انظر حياة القديسة مارى الصغرى ٦٩٥ — ٦٩٦ .

(٢) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٢٠ ، ١٩٣ .

(٣) انظر المسعودى فى التنبيه : « Le Livre de L'Avertissement » ترجمة كارا دى فو (Carra de Vaux) ص ٢٣٥ .

كثيرة يحتفظ بها للخصيان وحدهم . وحتى الجيش نفسه والأسطول غالباً ما كان لواء الإمرة فيهما يعقد لخصى . ولعل ألمع الأمثلة على ذلك نارسيس فى القرن السادس ونيقيفورس أورانوس فى العاشر . وكان لألكسيوس الأول أمير بحر من الخصيان هو يوستاثيوس كيمنيانوس[١] : على حين أنه بعد كوارث حملة مانزيكرت كان الذى شرع فى إعادة تنظيم الجيش وإصلاحه خصياً هو نيقيفوروس المستشار[٢] (Logothete) . وهنالك مناصب قليلة كانت موصدة الأبواب دونهم مثل منصب والى المدينة ؛ على أن الخصاء لم يوسم بميسم العار إلا بعد أن شرعت تنتقل إلى بيزنطة أفكار الغرب حول الجنس والفروسة . والواقع الذى لا يختلف فيه اثنان أن استخدام الخصيان ، أى استخدام جهاز قوى من الموظفين تحت هيمنة الخصيان ، كان سلاح بيزنطة العظيم الذى تشهره فى وجه تركز السلطان الإقطاعى فى يد أسر نبيلة وراثية ، الأمر الذى كان مصدر مناعب جمة للغرب . وتنحصر أهمية الخصيان فى الحياة البيزنطية ، فى أنهم كانوا يخولون الإمبراطور طبقة حاكمة يستطيع الاعتماد عليها والاطمئنان إليها . وليس هناك أدنى دليل على أن حالتهم الجثمانية المحدودة حدّت من خلقهم وشخصياتهم . فإن الخصيان لا يظهرون فى طول التاريخ البيزنطى بأكمله أكثر فساداً ولا أكثر تآمراً ولا أقل قوة ولا وطنية من زملائهم الكاملى التكوين .

وكان خصيان الطبقات الدنيا أندر ، وإن كان يساعد الطبيب فى مهنته كثيراً أن يكون خصياً حيث كان فى مثل هذه الحالة يستطيع الدخول إلى الأديرة ومستشفيات النساء . ومع ذلك فإن بعض المؤسسات النسوية كانت

---

(١) أنّا كومنينا ص ٢٤٤ .

(٢) انظر : بريبيوس ص ٨١ .

أحياناً من التشدد والتدقيق بحيث تصر على استخدام الطبيبات الأنثيات دون غيرهن[1] .

ومما كان يزيد فى سهولة اختلاط طبقات المجتمع بصفة عامة وعدم ثباتها على حال اهتمام الناس جميعاً بالتجارة . وكانت الفكرة القائلة بأن جمع الثروة مما يمس الشرف فكرة أخرى غريبة تماماً عن جو بيزنطة . فكان البلاط الإمبراطورى أعظم دار للتجارة والأعمال بالقسطنطينية بما له من احتكار لتجارة الحرير . ولم يكن بعض أفراد من الأباطرة فوق مستوى المغامرات التجارية . فإن نيقيفوروس فوقاس كان يضارب فى تجارة القمح مع الحصول على قدر من الأرباح أكبر من أن تسمح به الأمانة[2] ، على حين أن يوحنا فاتاتزيس جمع من تربية الدواجن ما مكنه من شراء تاج جديد لزوجته الإمبراطورة[3] . وغالباً ما كانت للأسر النبيلة أيضاً مناشطها التجارية ؛ فإن الأرملة دانيليس كانت من صناع الأبسطة[4] ، كما أن موزيكوس ، حظى لاوون السادس كان من ذوى المصالح بميناء سلانيك[5] . بل إن الكنيسة نفسها كانت تبدو فى بعض الأحيان مشتغلة بالمسائل المصرفية ، حيث موّلت هرقل فى حروبه على الفرس[6] . ومع ذلك لم يكن من الممكن جمع ثروة طائلة عن طريق التجارة ؛ فبفضل التنظيمات المشددة التى تفرضها الدولة ابتغاء مصالح المواطنين ، كان التجار يرغمون قسرا على الاحتفاظ بأرباح منخفضة . والعادة أن أرباب الملايين لم يكونوا يدينون بثرائهم

---

(١) انظر ما بعده الفصل الثامن .

(٢) انظر كدرينوس جـ ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

(٣) انظر جريجوراس جـ ١ ص ٤٣ .

(٤) انظر ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٣١٨ .

(٥) المصدر نفسه ٣٥٧ .

(٦) انظر بيورى « Rom. Emp. from Arcadius to Irene » جـ ٢ ص ٢٢٤

إلا للمزارع وحدها . ولكن الراجح أن ضبط الدولة لسير الأمور كان يتم في قدر معين من المرونة . فإن والدى القديس ثومائيس من لسبوس ، سمح لهما يوم ساءت أحوال التجارة بالجزيرة بالهجرة إلى خلقدونية وإنشاء عمل تجارى لهما هناك ، على الرغم من استنكار الحكومة الرسمى للتنقل داخل الامبراطورية[1] ؛ كما أن حظر الهجرة إلى القسطنطينية لم يكن ليمنع أعداداً كبيرة من الأرمنيين من النزوح إلى العاصمة وفتح الدكاكين والمصانع بها .

وكان النزوح إلى القسطنطينية هو الهدف الطبيعى لكل طموح من الرجال ، وذلك لأن القسطنطينية كانت مركز الإمبراطورية الذى لا ينازع . ولم يكن ثم بأوربا بلد تستطيع مطاولتها غير سلانيك وحدها . وسلانيك مدينة ينتهى عندها أحد الطرق التجارية العظمى بأوربا جمعاء ، فهو ينحدر من السهل المجرى إلى بلغراد ويجرى إلى الجنوب نصاً مع نهر المورافا إلى أعاليه ومع الفاردار إلى أدانيه (مصبه) . وكانت مدينة عظيمة منذ الأيام الأولى للإمبراطورية . وصارت تسير عن طريقها عند ختام القرن التاسع كتلة التجارة البلغارية بأكملها[2] ، وظلت مطردة الأخذ بأسباب الاتساع والنمو على الرغم من نهب الغزاة البحريين من العرب لها فى ٩٠٨ . وفى السوق السنوية العظيمة ، سوق القديس ديمتريوس كانت المدينة تغص زحاماً لمدة أسبوع بمن يتوافدون عليها من التجار والمغامرين من كل أرجاء العالم . وقد ترك لنا كاتب الساتير ، تيماريون صورة دبج فيها وصفاً ناصعاً حياً للحركة والضجيج والمرح الذى كان يعم الجو كله[3] . وبزت سلانيك العاصمة نفسها ثراء ورغدا لعهد أسرة باليولوجوس . فصار نبلاؤها وتجارها أغنى فيما يرجح من نبلاء

---

(١) حياة القديس ثومائيس (Vita S. Thomaïdos) A.S. Boll., November 9, 233

(٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس : « De Administrando Imperio » ص ٧٩ ، ١٧٧ .

(٣) انظر توزر « Byzantine Satire » فى مجلة J.H.S. مج ٢ ص ٢٣٥ ع ع .

وتجار القسطنطينية ، وفوق هذا كانت مركزاً فكرياً . فأما المدن الأوربية الأخرى بالإمبراطورية فكانت باستثناء بضع موانى قليلة مثل مسمبريا ودِرّاخيوم وبتْراس وبارى ، ـــ مدن أسواق خاملة ، وإلا فهى ذات أهمية كحصون ومعاقل ؛ وإن حدث عند القرن الثانى عشر أن طيبة كان لها صناعة حرير محلية هامة .

وفى الأيام الباكرة الأولى كانت كل من الإسكندرية وأنطاكية منافساً قوياً للقسطنطينية ، بيد أن سقوط الولايات العظيمة الجنوبية الشرقية فى يد العرب فتح باب اضمحلالهما على مصراعيه ؛ وكانت بآسيا الصغرى مدن حصينة عظيمة كثيرة ، ولكن لم يكن ثمة أى أثر للحياة الناشطة إلا بالموانى وحدها . وفقدت أزمير شيئاً من أهميتها عندما انحرف طريق التجارة شمالا إلى البوسفور . على أن طرابيزون ظلت مع ذلك حتى النهاية الميناء العظيم لأرمينية وفارس والشرق ، وزاد من هيبتها كثيراً أن أصبحت عاصمة لإمبراطورية مستقلة لمدة تربى على قرنين ونصف من الزمان ؛ وقد أصبحت ـــ شأن سلانيك ـــ مركزاً فكرياً كبيراً ، حيث اشتهرت بوجه خاص بأبنائها الفلكيين والرياضيين . وكان لنيقيا ما يزينها ويميزها من ماض قدسى ، كما أنها ظلت تحظى طويلا برغد وثراء جديد كعاصمة للإمبراطورية فى المنفى . وذاعت شهرة بروسة بما بها من مياه . وكانت منتجع الماء المعدنى الأكبر لدى البيزنطيين ، وترعاها بوجه خاص الإمبراطورة إيرينة[1] ؛ ولم تفتأ أنطاكية مدينة عظيمة يوم فتحتها لبيزنطة من جديد جيوش نيقيفوروس فوقاس ، ولكنها كانت فى اضمحلال وزادت اضمحلالا فى عهد الصليبيين ، على الرغم من أنها كانت عاصمة إمارة لاتينية ـــ وكانت التجارة العربية تصل إلى البحر المتوسط دون ذلك جنوباً ؛

---

(١) بروكوبيوس (De Aedificiis) ص ٣١٥ ؛ ثيوفانيز ص ٤٧١ .

ولم تكن الحياة بالمناطق الريفية متناسقة ولا متماثلة بحال . فأنت واجد فى الأصقاع الأوربية الصقالبة والألبانيين والأفلاق (Vlachs) وهم يعيشون عيش الرعاة حسبما تقتضيه عاداتهم القبلية داخل وخارج المزارع الكبيرة التى تمتلكها العائلات النبيلة الإغريقية — الرومانية . وحتى آسيا الصغرى نفسها كان بها جاليات صغيرة من عناصر دخيلة كالسوريين فيما يحتمل أو البلغار — وهم متناثرون فى أرجاء البلاد . وعلى الجملة كان يشغل النواحى الريفية مجتمعات قروية من نوعين ، هما الأرقاء العبيد والأحرار[1] . وكان القروى الرقيق أى مولى الأرض مرتبطاً بها . وكان سيده مالك الأرض يدفع الضرائب ، ولكنه يأخذ ثمار الأرض ، وكان أبناء مولى الأرض موالى مثله تماماً ، وإن أمكن أن يغادروا الأرض عن تفضل من السيد ويلتحقوا بحرف أخرى كالكنيسة مثلا . وكان هناك أيضاً مزارعون مستأجرون فى كثير من مزارع الأغنياء . وكان هؤلاء يدفعون الإيجار نقداً أو عيناً ويعتبرون من الأحرار ، ولكن الواقع أنهم كانوا يجدون من المحال عليهم أن يغيروا أحوالهم إلى أفضل منها . فهم ثابتون حيث كانوا . فأما القروى الحر فلم يكن أقل ارتباطاً بالأرض من رفيقيه سالفى الذكر ، وذلك لأن السلطات المركزية كانت تكره للناس هجران الأرض الزراعية بأى شكل من الأشكال . وكان أشغل ما يشغل السلطات هو مسألة تزويد القسطنطينية بالطعام ، ومن أجل ذلك صارت الحاجة إلى حقول القمح بالولايات تزداد

---

(١) عن شئون الأرض وتوزيعها وإدارتها انظر مقالة پانخنكو عن « المتلكات الريفية بالقسطنطينية » بمجلة Izvestiya التى يصدرها المعهد الروسى بالقسطنطينية مج ٩ ؛ وارجع إلى « Law of Property in the Greco-Roman Empire » تأليف سوكولوف (وكلاهما بالروسية) ؛ وانظر اشبرنر فى مقالته « قانون الفلاح » فى مجلة J.H.S. مج ٣٠ ص ٩٧ ع ع ، مج ٣٢ ص ٨٧٥ ع ع ؛ وانظر تستوه :
"Des Rapports des Puissants des Petits Proprietaires Ruraux dans L'Empire Byzantin."

على الأيام . وكان القروى الحر مكلفا بأنواع معينة من الضرائب على ما يملك وكان ورثته مكلفين أيضاً من بعده ؛ ووضعت له العراقيل فى سبيل تخلصه من أرضه . لذلك لم يكن بمستطيع بحال أن يغادر القرية . واستحدث القوم نظاماً جديداً زاد أغلاله إحكاماً وثيقاً . ذلك أن المجتمع القروى فرضت عليه الضرائب كمجتمع متكامل أى كوحدة . فإن أخل واحد منهم زاد العبء الملقى على جيرانه جميعاً . لذا صار من مصلحتهم الاحتفاظ به يعمل بين ظهرانيهم .

وكانت قرى الأرقاء أكثر شيوعاً فى أيام أصحاب الأملاك الكبار فى عهد الإمبراطورية الأولى ؛ على أن المجتمع الريفى أعيد تنظيمه فى إبان الفوضى التى رانت فى أواخر القرن السادس والقرن السابع ، وبذلك التنظيم صارت المجتمعات الحرة هى الأصل والقاعدة المرعية . وقد تعودت الدولة أن تدفع أعطيات الجند بوجه خاص منحاً من الأرض المشترطة بشرط أداء الخدمة العسكرية ، وبذلك خُلقت طبقة من صغار الملاك الوراثيين العسكريين . ولم يلبث صاحب الأرض الكبير أن ظهر رويداً رويداً مع استتباب الأمن والنظام من جديد . فعندئذ يتحمل الغنى على كاهله التزامات الفقير ، فيدفع عنه الضرائب مقابل استيلائه على محصولاته وبذلك يحيله إلى مستأجر أو إلى مولى أرض . وقد يخفق المحصول أحياناً ، وعندئذ لم يكن مالك الأرض الصغير ليستطيع أن يعيش كرجل حر . أو لعل قروياً تقياً يقضى نحبه تاركاً للكنيسة ما ملكت يداه . وذلك فضلا عن أن الكنيسة كانت شأن النبلاء تحاول استثمار أموالها فى الأرض الزراعية . وهكذا ظهر أغنياء أرض عظام جدد ، منهم العلمانى ومنهم الكنسى ، وهم قوم كانوا من الثراء بدرجة خطرة ، وكان تدخلهم ووساطتهم يفسدان نظام الضرائب . فكان الأباطرة عبثاً ما يضعون التشريعات المضادة لهذه الحال . لذا قرر رومانوس الأول فى تشريعات الشفعة التى أصدرها أنه لا يجوز لغير الفقير شراء أرض الفقير ، كما أن المشترى

ينبغى أن يكون عضواً فى مجتمع القرية وأن يكون أصحاب الحق الأول فى الشراء[1] من ذوى القربى . ومع أن الأباطرة الذين أعقبوه كرروا أوامره ووصاياه[2] ، فإن الأمر كان ميئوساً منه ، وذلك لأنه فى أيام العسرة لم يكن أحد غير الأغنياء يملك المال الجاهز لدفع الضرائب التى كانت الدولة تطلبها بلا رحمة . كانت حلقة خبيثة مفرغة ، لا مناص لها من أن تؤدى إلى تناقص عدد صغار الملاك مع تقدم الزمن بالقرون . وحاول الإيسوريون إلغاء نظام موالى الأرض (serfdom) ، ولكن اضطر المقدونيون إلى إعادة ما للنظام من حقوق قانونية .

ويعطينا قانون الفلاح الصادر فى القرن الثامن صورة لحياة المجتمع[3] . وتحف بالقرية البساتين وحدائق الكروم ، من حولها السياجات وفى خارجها الحقول المزروعة ، وليس لها سياجات ولكنها تابعة مع ذلك للملاك من الأفراد . وفى الحلقة الخارجية توجد المراعى وهى ملك مشاع للجميع . ولكنها لو أخليت مما بها من شوائب وعوائق ثم زرعت ، انتقلت ملكيتها إلى يد فالحها . وكانت تفرض عقوبات فادحة على كل من ألحق الضرر عن عمد أو إهمال بممتلكات القرويين. فكان سارق جرس الماشية يعد مسئولا عما يحل بتلك الماشية من ضرر ، كما كان سارق كلب الغنم مسئولا عن القطيع بأكمله . والرجل الذى كان يسمح لسائمته بالدخول إلى المناطق المحصودة قبل أن تختزن جميع محصولات جيرانه ، كان يعرض نفسه للغرامة ، وذلك لأن السائمة قد تشرد فتؤذى الجيران . واتخذت التدابير للحيلولة دون كل نوع من أنواع الحوادث الطارئة ، وكان المعيار الذى يقاس عليه هو مدى الضرر الذى ينزل بزراعة المجتمع ككل كامل . وفى حياة القديسين مايكمل الصورة . وكان الإحساس بالالتزامات نحو

---

(١) انظر Jus Graeco-Romanum ، جـ ٣ ص ٢٣٤ ع ع ، ٢٤٢ ع ع .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٢ ع ع ، ٣٠٦ ع ع .

(٣) انظر النص بكتاب أشبرنر المذكور آنفا .

الجيران قوياً على الدوام . وعندما وقع فيلاريتس فى أخريات القرن الثامن فى عسر مالى ، مدّ له جيرانه جميعاً يد العون ، وعندما اضطر أن يأدب المآدب للبعثة الإمبراطورية أمدوه بالطعام[1] . وكانت الخدمة العسكرية عبئاً ثقيلا وبخاصة فى نواحى الثغور حيث كانت تحشد فرق خاصة من المايشيا — فى حالة الغزو ، ولذلك ما يبرره تماماً — وذلك لأن الغزاة غالباً ما كانوا يجتاحون الناحية مدمرين محصولات السنة وحاملين معهم الماشية والأغنام . ولكن كان فى الإمكان التملص من الخدمة العسكرية ولو فى أرض تقوم الملكية فيها على الخدمة العسكرية . وكانت الأصوات تجأر دائماً بالشكوى من الضرائب العالية ، غير أن جابى الضرائب كان يعامل الناس معاملة مودة وإخاء فى أوقات المجاعة حيث يمد الناحية بالطعام . وكانت المحافظة على النظام جيدة . فهناك شرطة للقضاء على اللصوص . ولم يكن بد من حمل جوازات السفر لمن شاء سفراً فى مناطق الثغور[2] . ولم يكن أحد عدا بعض النبلاء ورجال الكنيسة يملك إلا النزر اليسير من الثراء . فإن القديسة ثيودورا السلانيكية ، ابنة قسيس القرية بآيجينا ، قد حسدها الناس على زيجتها الكريمة السعيدة يوم تزوجت رجلا سرعان ما مات بعد الزواج مورثاً إياها ٣٠٠ نوميسماتا (٤٣٢٠ فرنكاً ذهبياً) وتسعة أرقاء[3] . وكان الخوف من الغزو سبباً فى هجران السكان المناطق الريفية ووسمها بميسم الفقر . وكانت الدولة تستخدم إجراءات شديدة لاجتذاب قُطّان جدد إلى الريف . حدث فى القرن التاسع أن القديسة أثاناسيا من آيجينا ، وهى أرملة وسيمة ولكنها تقية ، وجدت نفسها — ويا لشدة رعبها — تُجبر على الزواج من مهاجر متبربر

(١) انظر حياة فيلاريتس (Vita Philaretis) بمواضع متفرقة .

(٢) المصدر نفسه بمواضع متفرقة منه .

(٣) حياة القديسة ثيودورا السلانيكية «Vita S. Theodorae Thessalonicensis» نشره كورتز ص ١ ع ع .

همجى[1] . ومع ذلك فإن كثيراً من النواحى وبخاصة الجزائر الإيجية ظلت مهجورة طويلا . فإن من الممكن تماماً حدوث قصة القديسة ثيوكتستى من لسبوس التى سطرت فى القرن العاشر ، على الرغم مما فيها من المشابهة المثيرة للرِّيَب بقصة القديسة مريم المصرية . فإنها ظلت تعيش عارية لا يزعجها شىء عدة سنوات على سطح إحدى الجزر الإيجية ، بعد أن نجت من قبضة الغزاة البحريين من العرب ، ثم عثر عليها فى النهاية بعض اليوبوبيين الذين نزلوا الجزيرة لممارسة بعض الألعاب الرياضية . فتحدثوا بأنبائها إلى راهب من پاروس ، فأعاد هذا بدوره القصة على مسامع نيقيتاس الحاكم فى إحدى الليالى وقد عاقته إحدى العواصف بنفس الجزيرة وهو فى طريقه إلى كريت[2] ليقوم بمهمة سياسية .

ولم يكن السفر فى أرجاء الإمبراطورية يلقى الكثير من التشجيع ؛ ذلك أن المجتمعات المستقرة كانت أسلس قياداً وإذعاناً لما يفرض عليها من ضرائب ، وكانت الهجرات الوحيدة التى توافق عليها السلطات هى الهجرات الجبرية التى كان يؤخذ بها الأرمنيون إلى أوربا أو الصقالبة إلى آسيا لعزل العناصر غير الطيّعة . بيد أن رجالا من المغامرين مثل باسيليوس المقدونى كانوا يتمكنون من شق طريقهم إلى القسطنطينية ؛ وكان يسمح عن طيب خاطر لمن تبدو عليهم مخايل الذكاء من الشبان أن يجوسوا خلال الإمبراطورية بحثا عن خير المعلمين ؛ كما أن سفر الحجيج إما إلى الأرض المقدسة أو حتى لمشاهدة مجموعات الآثار المقدسة بالقسطنطينية كان مسموحا به دائما[3] . وكان التقاضى أمام الحاكم يستدعى دائما جلب الزوار إلى العاصمة ، وكان المحسنون

---

(١) حياة القديسة أثاناسيا من أيچينا « Vita S. Athanasiae Aegineticae » ، منشورة فى .A.S.Boll أغسطس ١٤ مج ٣ ص ١٧٠ ع ع .

(٢) حياة القديسة ثيوكتستى من لسبوس « Vita S. Theoctistae Lesbiae » فى .A.S.Boll نوفمبر ٩ ص ٢٢١ ع ع .

(٣) كيكومينوس : « Strategicon » ص ٧٨ .

البررة من الأباطرة مثل رومانوس الأول يعمدون إلى بناء دور الضيافة لنزولهم(١). فإن قامت الرحلة من المناطق الساحلية مثل طرابيزون أوسلانيك تمت فى العادة بحرا . ومع ذلك فقد كانت هناك طرق جيدة ، تهتم الدولة بحسن صيانتها اهتماما كبيرا لسبب هام هو قيمتها الحربية ، وربما كانت تُخلى من حركة مرور المدنيين إذا كان أحد الجيوش مارًا بها(٢) . وكانت نفقات صيانة الطرق تسدد من ناحية عن طريق بوابات المكوس ؛ ولم يكن يعفى من سداد تلك المكوس إلا موظفو الحكومة والسفراء الأجانب وطائفة معينة من علية النبلاء . وكان هناك طريقان رئيسيان يوصلان القسطنطينية إلى الشرق ، أحدهما وهو الطريق العسكرى الذى يمر من دوريلايوم ، ويتفرع شرق نهر « هاليس » وله ذراع يسير مارًا « بسباستيا » إلى أرمينية ، وينقلب الآخر جنوبا ويؤدى إلى قيصرية وكوماچينى أو من خلال تيانا إلى البوابات الكيليكية وسوريا ؛ أما الآخر وهو طريق الحجيج فكان أقصر قليلا ولكنه أوعر وأكثر مشقة . وكان يبدأ مسيره إلى الشمال قليلا مارًا بأنقرة ثم ينحرف جنوبا إلى تيانا . فأما فى أوربا فكان الطريق الوحيد ، إن سمحت الظروف باستخدامه ، هو طريق إجناتيا القديم (Via Ignatia) الذى يمتد من ديراخيوم إلى سلانيك ويمتد بعد ذلك إلى القسطنطينية . وقلما كان طريق بلجراد — صوفيا — أدرنة يقع تماما فى يد بيزنطة .

وإذا راعينا ما كان عليه البيزنطيون من تباين فى صلات الدم واختلاف فى وسائل العيش ، والقرون الطويلة المتقلبة التى مرت على عمر إمبراطوريتهم ، فربما كان من التسرع أن ننسب إليهم أية خصائص قومية . ومع ذلك فإن سمات بعينها تبدو طوال التاريخ البيزنطى بإصرار تستحق معه أن تنعت بأنها هى

---

(١) ليوفانيز كونتنيواتوس ص ٤٣٠

(٢) انظر رامسى «Historical Geography of Asia Minor» بمواضع متفرقة ، وبخاصة ص ١٩٧ — ٢٢١ .

المزاج البيزنطى . وأول ما يسترعى الأنظار منها هو الإحساس الدينى . ذلك أن العالم المسيحى بأكمله فى العصور الوسطى كان غارقا لأذنيه فى التدين ، غائصا للأذقان فى اهتمامه بمستقبل النفس البشرية . ولكن البيزنطى كان متدينا بحدة وشدة صارمة ندر أن وجدت ببلاد الغرب . وكان يطالب بالدقة والإحكام فى ناحية اللاهوت ، ولكنه كان فوق هذا أشوق إلى الاتصال الشخصى والخبرة الذاتية . كانت إمبراطوريته دولة ذات طابع لاهوتى . فكان الهدف من فخامة البلاط وروعته رفع قدر وكيل الله فى الأرض ، فكأنها كانت جزءا من عبادة الله كصلوات الكنيسة سواء بسواء . فأما الحفلات والكرنفالات التى تملأ بالحيوية والحبور السنة البيزنطية ، فإنها وإن أتاحت للناس مباهج وملذات دنيوية ، إلا أنها كانت كلها أشياء عارضة فى الطقوس والصلوات السرمدية . وقد ضاع تماما الاتجاه الوثنى البسيط الذى كان يخامر الإغريقى القديم عن المسرة واللذة ، فإن إحساسا ساميا بالديانة غطى على مباهج الحياة . ووجد الشعراء البيزنطيون مجالهم الطبيعى للتعبير عن أنفسهم فى التراتيل الدينية وصوغ الأناشيد فى صفة جلال الله أو وصف الاتحاد الباطنى مع الله . وحتى أشد الكتاب إمعانا فى النزعة الدنيوية مثل پسللوس كانوا يرون الدين شيئا مسلما به ويفترضون مقدما بأن الحياة على الأرض شىء غير هام نسبيا معتذرين عن إظهارهم الاهتمام بالعلوم الوثنية ، على حين أن خصوم الدين : وهم العقليون مثل قسطنطين الخامس الذى لم يكن ليرضى بأن يمنح الرسل أنفسهم لقب القديسين[١] ، والداعرون مثل ميخائيل الثالث والإسكندر — كانوا جميعا يعبرون عن التماسهم الخلاص عن طريق الطقوس الساخرة والقداس التهكمى الذى يقدمونه للشيطان[٢] (Black Mass) . ذلك أنهم لم يكونوا بمستطيعين أن يتحرروا تماما من الجو المحيط بهم .

---

(١) انظر « Vita S. Stephani » M.P.G. مج ١٠٠ ص ١١٤٨.

(٢) انظر ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، ص ٣٧٩ .

ومع أن الأصل فيما يحيط بحياتهم من أبهة كان هو طاعة الله وإظهار الخشوع له ، إلا أن البيزنطيين كانوا يعجبون إلى أقصى حد بكل من تخلى عن ملذات الحياة وأعد نفسه للأبدية بالتأمل وإذلال الجسد . ومن ثم ازدحمت الأديرة بالرجال والنساء . فبعد تشبع النفس بهموم تدبير شئون البيت وبعد امتلاء القلوب بلهب الحياة العملية ولذعاتها وبعد توتر الأدمغة بإجهادات السياسات العليا ، كان مما يملأ الأنفس مسرة ودعة أن تستسلم إلى السلام فى الدير ، وأن تحصن النفس فى جو من الهدوء والجمال . بيد أن حياة الأديرة لم تكد تكون من الصرامة بالدرجة الكافية . فإن الرهبان كانوا طبقة تتلقى من الناس احتراماً عميقاً ، وكانت الرغبة فى معاشرتهم من علائم نعمة الله على الإنسان — وكان مثل هذا اللون من المزاج مما رفع كثيراً محبة الناس لرومانوس الأول[1] ؛ هذا إلى أن ألكسيوس الأول كان كلما خرج للقتال يصطحب معه فى خيمته على الدوام راهباً إرضاء منه لوالدته[2] ؛ ولكن ثمة أقوام كانوا يتلقون توقيراً أعظم كثيراً ولهم نفوذ أكبر كثيرا وهم النساك الذين كانوا يعيشون فى عزلة وفقر داخل كهوف أو فوق عمدان . ولا تزال بين أيدينا الآن تراجم حياة هؤلاء القديسين المنكرين لذواتهم وهى توضح النفوذ والسلطان الهائل الذى كانوا يستمتعون به . فإن لوقا المقدس الأصغر أوشك أن يكون صاحب السلطة الرئيسية العليا ببلاد اليونان إبان القرن العاشر ؛ فإن الحاكم العسكرى كان لا ينقطع البتة عن زيارته فى كهفه والتماس نصيحته[3] والعمل بها . وكان القديس نيقون الملقب « اندم ياهذا Metanoeite » يتسلط عن البيلوبرنيز قبل ذلك بقليل[4] ، وحدث بعد ذلك بفترة وجيزة أن القديس نيلوس

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٣ — ٤٣٤ .

(٢) أنّا كومنينا ص ٢٣ .

(٣) انظر « حياة القديس لوقا Vita S. Lucae » فى M.P.G. مج ١١١ ص ٤٦٥ ع ع .

(٤) انظر حياة القديس نيقون « Vita S. Niconis Metanoeite » فى « Neos Hellenomnemon » مج ٣ ص ٧٤ — ٧٥ .

تسلط على إقليم كالابريا بل كان له فيما بعد نفوذ على روما لعهد أسرة أوتو(١) . وبلغ من قوة القديس نيقيفوروس المليطى أن جعل نيقيفوروس الثانى يلغى الضريبة المفروضة على زيت الكنيسة(٢) . وكان قديسو العمدان الذين يقضون حياتهم على قمم الأعمدة يلقون إعجاباً خاصاً من الناس . وقد ظهرت منهم سلسلة مديدة وقورة بدأت بسميون فى القرن الرابع ثم تتابعت(٣) . وكان للقديس دانيل العمودى عمود يعيش عليه بالقسطنطينية فى القرن الخامس وكان محبوباً حباً خاصاً بالبلاط الإمبراطورى . وكلما هبت عاصفة أرسل الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى رسله فى التو ليسألوا عن حاله ، وأخيراً حمله بعد جهد عظيم بذله لإقناعه أن يسمح بإقامة سقف صغير من فوقه . حتى إذا كشفت غلطة فى بناء العمود ، هُدد المهندس المعمارى بالموت جزاءً له(٤) . وكان شافياً عظيما وبلسما للسقام مثل القديس سمعان الصغير الذى حدث بعد أن قال قبل الأوان وهو فى سن الثانية « إن لى أبا ولكن ليس لى أب وإن لى لأما ولكن ليس لى أم » ، إنه ذهب ليعيش على صخرة كالمئذنة قرب أنطاكية(٥) . وكان القديس أليبيوس البافلاغونى والقديس لازاروس الغاليسيوتى يحكمان أديرة من فوق أعمدتهما ؛ وقد أصيب الأول منهما بالفالج بعد أن وقف على قدميه مدة ثلاث وخمسين سنة واضطر إلى الرقود(٦) . وفى القرن السابع قضى القديس ثيودور السيكيوتى مدة الصيام الكبير فى قفص ، ولكن تلميذه أرسينيوس عاش أربعين سنة

(١) انظر حياة القديس نيلوس « Vita S. Nili » فى M.P.O. مج ٧٩ .

(٢) انظر حياة القديس نيقيفوروس المليطى « Vita S. Nicephori Milesii » نشرها دليهاى ص ١٤٤ .

(٣) انظر دليهاى فى (Les Saints Stylites)

(٤) انظر حياة القديس دانيل العمودى « Vita S. Danielis Stylitae » فى دليهاى المرجع السابق ص ٤٤ — ٤٦ ، ص ٥٣ .

(٥) دليهاى بالمرجع السابق ٦٤ .

(٦) المرجع نفسه ف ٨٢ ع ع ، ف ١٠٨ ع ع .

على عمود قرب دمشق[1] . وكان القديس ثيوحولوس وهو مراسل لثيودور الاستوديوى يصور صوراً جريئة على قمة عموده[2] . ولم يخل الأمر من ناسكة عمود من النساء[3] أو اثنتين . وكان آخر العموديين البارزين وهو القديس لوقا يعيش فى عهد رومانوس الأول الذى كان حكمه عصراً ذهبياً للقديسين . وكان عمود القديس لوقا قائما بخلقيدونية ، كما أن قربه من العاصمة جعله أنفع الشافين للسقام . فشفى على يديه خادمان للإمبراطورة صوفيا ، وهما الساق والرجل الذى يوقد الأتون الذى يسخن حمامها ، بل لقد أبرأ داءاً قديما للأمير ثيوفيلاكتوس الذى أصبح بطريقا بالتعيين[4] . وكان معاصره القديس باسيليوس الأصغر يلقى أيضا حظوة لدى بلاط آل ليكابينى ، فنصح للإمبراطورة هيلينا بالطريقة التى تستطيع بها الحصول على ابن وريث[5] .

ثم يصبح القديسون من الندرة بمكان بعد القرن العاشر ، وإن لم يبرح هناك نساك عموديون فى القرنين الحادى والثانى عشر ، وحتى بعد ذلك كان من الممكن الفوز بالشهادة ونيل القداسة بالذهاب ، كما فعل القديس نيقيتاس الصغير فى القرن الرابع عشر ، إلى ديار الأتراك المسلمين حيث أحدث شغباً فى شهر رمضان[6] . ولم تكف الأديرة يوماً عن استهواء أفئدة الناس . فإن أميرات بيت كومنينى كثيراً ما عبرن عن توقهن إلى الانسحاب إلى الدير وإن قل منهن من نفذت ذلك ؛ كما أن الأرامل الكثيرات اللاتى اتجهن إلى

---

(١) المرجع نفسه ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) انظر ثيودور الاستوديوى ، الرسائل «Epistolae» ف M.P.G. مج ٩٩ ص ٩٥٧ .

(٣) انظر هامش دليهاى فى « Analecta Bollandiana » مج ٢٧ ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٤) انظر حياة القديس لوقا العمودى « Vita S. Lucae Stylitae » نشرها فار فى « Patrologia Orientalis » مج ١١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٩ — ١٠ .

(٥) انظر حياة القديس باسيليوس الأصغر « Vita S. Basilii Minoris » ص ٧٦٢ — ٧٦٣ .

(٦) انظر مقال دليهاى « Le Martyre de S. Nicetas le Jeune » فى مجلد لتخليد شلومبرجر ص ٢٠٥ وما يليها .

طريق الدير لم يفعلن ذلك عن رغبتهن الخاصة عادة ، بيد أن الإمبراطورة الأخيرة هيلينا ختمت أيامها برغبتها الخاصة تحت اسم الراهبة هيبوميني[1] .

وكان من الممكن أيضاً لذوى النشاط الجم والأثر القوى الفعال من الرجال الذين لا يشاءون أن يباعدوا نهائياً بين أنفسهم وبين العالم أن يُقْسموا أيمانات جزئية أو موقتة ينذرون بها أنفسهم للزهادة حيناً من الدهر . وكان نيقيفوروس فوقاس موضع الإعجاب الكثير لامتناعه عن تناول اللحم ، وعندما خرج عن قاعدته ليلة زفافه إلى ثيوفانو تحت إغراء الطمع فى العرش الإمبراطورى والولع بالإمبراطورة . كان فى ذلك ضربة خطيرة لمقامه بين الناس[2] ؛ ومع أنه كان يبقى على جسمه وثيابه من الأدران ما كفل له التوقير وما جلب عليه اشمئزاز ليودبراند[3] السفير الإيطالى ، فإن خرقه لنذره أضاع عليه إلى الأبد محبة القسطنطينية .

ومما كان يزيد فى حب الأباطرة جميعا تقريبا لمعاشرة رجال الأديرة اهتمام هؤلاء الأباطرة باللاهوت . وكانت الأبحاث الدينية الموضوع الرئيسى للحديث فى كثير من مآدب الأباطرة . وكان مما بُغت به كِنَّاموس وأسقف نيوبتراس وصدمت له نفساهما جزعا شديدا أن أندرونيكوس الأول سألهما أن يخوضا فى موضوع آخر ، قائلا إن الدين موضوع ممل جدا[4] . وكان أندرونيكوس مستحقاً للمصير الرهيب الذى ألمّ به بعد ذلك بقليل .

وكانت هذه النزعة الدينية مصحوبة بقدر موفور من الخزعبلات . وأكبر شاهد على حب البيزنطيين لما لديهم من آثار مقدسات ، فخارهم العجيب

---

(١) فرانتز ص ٢١٠ .

(٢) كدرينوس ج ٢ ص ٣٥١

(٣) ليودبراند « Legatio » ص ١٧٧ .

(٤) نيقيتاس ص ٤٣٠ — ٤٣١ .

بالمجموعات الضخمة التى اجتمعت لهم بالقسطنطينية . ولم يكن ينقضى قرن دون أن تضاف فيه آثار مقدسة جديدة . وبدأت القديسة هيلينا الفكرة فوضعت أساس مجموعة القصر فى عهد قسطنطين . وأضاف هرقل إلى المجموعة كثيرا من أدوات آلام الصلب المقدسة ، صونا لها من قبضة الفرس والعرب ، بعد أن كانت محفوظة بمدينة بيت المقدس — وهى خشب الصليب والدم المقدس وتاج الشوك والحربة والرداء غير المخيط والمسامير ؛ وكانت الجثث المقدسة تتقاطر من قبل على المدينة ؛ فأحضرت هيلينا جثة القديس دانيال ؛ ووصلت جثث القديس تيموثى والقديس أندراوس والقديس لوقا فى عهد الإمبراطور قسطنس ، وأحضرت جثة صموئيل فى عهد أركاديوس وأشعيا فى أيام ثيودوسيوس الثانى ، واجتلبت جثث الأطفال الثلاثة فى حكم لاوون الأول والقديسة آن فى حكم يوستنيانوس ومريم المجدلية ولازار فى حكم لاوون السادس . وأضاف رومانوس الأول إلى المجموعة تمثال الرُّها ، ونيقيفوروس فوقاس شعر يوحنا المعمدان كما نقل يوحنا جيمسكى (تزيمسكيس) نعلى السيد المسيح . وحفظ رداء إيليا فى الكنيسة الكبرى الجديدة ، ووضع خبز المعجزة تحت عمود قسطنطين ، بينما كان فى الإمكان مشاهدة آثار العذراء فى معظم الحالات بكنائسها بكل من بلاخرناى وخلاكوبراتيا[١] . ولم يكن لمتاحف الآثار المقدسة من ضريب فى العالم ؛ وعلى الرغم من كراهية الدولة للغرباء الذين ليس لوجودهم بالمدينة مبرر ، فإن الحجاج الذين يرغبون فى العبادة هناك كانوا يلقون على الدوام المساعدة والتشجيع . وقد دلت قصة النزاع الذى استحكم حول مسألة عبادة الصور كم كانت الصور المقدسة عزيزة محببة إلى قلوب البيزنطيين . بيد أن الأشياء الدينية كانت هى الأخرى ذات قيمة عملية عالية . فلم يكن كثير

---

(١) انظر إبرسولت فى « Les Sanctuaires de Byzance » ، وانظر ريالت « Exuviae Sacrae » بمواضع متفرقة .

من النساك والرهبان بذوى الاقتدار وحب فى الشفاء من الأمراض ، بل إن البيوت المقدسة المسيحية استعادت نفس الخصائص النافعة التى كانت تمتاز بها أسلافها الوثنية . فلم يعد الرجال والنساء يهرعون إلى معابد أسكليبيوس أو لوكينا إلتماسا للشفاء من آلامهم . بل أخذوا بدلا من ذلك يتزاحمون على كنيسة القديس داميان والقديس قوزماس بوصفهما الأطباء المجّانيين (Anargyri) . وكانت الأضرحة المقدسة لكبير الملائكة ، ميخائيل ، منتجعات للعلاج والشفاء وبخاصة كاتدرائيته بخوناى (Chonae) ، وذلك على حين أن القديس ديوميد كان يضارعه فى كفايته العلاجية أو يكاد[١] . وكان الرجال يلجئون إلى القديس أرتيميوس إلتماساً لشفاء شكاتهم الجنسية ، بينما تذهب النساء لشريكته القديسة فبرونيا[٢]. وحتى كان فى إمكان القديسين أن يحموا مدينة من الأخطار . فإن القديس ديمتريوس أنقذ سلانيك بشخصه مرتين[٣] ، وذلك على حين كانت القسطنطينية تحت رعاية العذراء ؛ وتمكنت الرُّها أن ترقد طويلا فى اطمئنان وسلام اعتمادا على وعد المسيح بأنها لن تقع فى أيدى أعدائها[٤]. ومع ذلك فإن ذلك الوعد قد ذهب.

وكانت للخرافات والخزعبلات ناحيتها القائمة . فإن الأبالسة والشياطين كانوا فى زعمهم بكل مكان . فإن الشيطان فى صورة كلب هاجم الأسقف پارثنيوس من أهل لاميساكوس[٥] . بل إن يوستنيانوس الأعظم نفسه قد باع روحه ، وكنت تستطيع أن تراه طوال الليل يجوس خلال القصر حاملا

---

(١) انظر إبرسولت فى المصدر السابق وريانت فى المصدر السابق بمواضع متفرقة .

(٢) انظر « Miracula S. Artemii » فى Zapiski ، المعهد التاريخى الفنسى بمدينة بطرسبرج مج ٩٥ بمواضع متفرقة .

(٣) انظر « Miracula S. Demetrii » فى M.P.O. مج ١٠٦ بمواضع متفرقة .

(٤) انظر « Chronicle of Joshua the Stylite » نشره وترجمه رايت ص ٧٨ .

(٥) انظر « Vita S. Parthenii » فى A.S. Boll فبراير ١١ — ص ٣٩ .

رأسه على كفه[1]. وكان يوحنا النحوى بطريق القرن التاسع المؤمن بتحطيم الصور منغمسا فى أعمال الشعوذة والسحر ويعقد الجلسات التى يتخذ فيها من الراهبات وسيطات[2] . وكان الناس يزعمون أن فوطيوس حصّل ما حصله من علمه الهائل بإنكاره المسيح[3] . وقد لعن البطريق قوزماس فى القرن الثانى عشر الإمبراطورة برثا داعياً عليها بأن لا تلد غلاماً قط[4] . وكان معاصره ميخائيل سيكيديتس يستطيع أن يجعل الأشياء تختفى عن النواظر ، وكان يقوم بالملاعيب والمقالب بمساعدة الأبالسة[5] . وكانت النيازك والكسوف — فيما يعتقد القوم — تتنبأ مقدماً بالكوارث والملمات . وكان ثمة رجال يستطيعون قراءة المستقبل ؛ وكان الرهبان المجانين والأطفال الملهمون يتعرفون على الدوام على من تخبئ لهم الأيام منصب الإمبراطورية . وكان التنجيم علماً . فكان العلامة لاوون الفيلسوف فى القرن التاسع يعرف معنى النجوم ؛ وإن تعلق الناس بالأمل فى أن مآثره العظيمة الأخرى — التى تجلت يوم تنبأ بحدوث مجاعة بسلانيك واتخذ العدة لدرء خطرها مقدما ، — لم تكن نتيجة لسحره بل لدعواته وصلاته[6] . وهناك عراف أخبر لاوون الخامس وميخائيل الثانى وتوماس المغتصب بما ينتظرهم من مستقبل زاهر وما تخبئه لهم الأيام من عراقيل ، على حين أن لاوون الخامس علم بقرب منيتــه من كتاب للتنبؤات والصور الرمزية[7] . وقد أطلق لقب الحكيم على الإمبراطور لاوون السادس لما حدس به من تخمينات . فإنه عرف بالضبط كم قُدّر لأخيه الإسكندر أن يحكم[8] ، وهناك مجموعة

---

(١) بروكوبيوس « Historia Arcana » ص ٨٠ — ٨١ .
(٢) ميخائيل سيروس ص ١١٤ — ١١٥ ؛ ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ١٥٦ .
(٣) چورچيوس موناكوس كونتنواتيوس ٦٧٠ ع ع .
(٤) نيكيتاس ص ١٠٧ .
(٥) المرجع نفسه ص ١٩٣ — ١٩٤ .
(٦) ثيوفانيز كونتينيواتوس ص ١٩١ .
(٧) انظر جنيسيوس ص ٨ ، ٢١
(٨) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٣٧٩ .

من الأشعار التى تنسب إليه والتى تمعن قدما فى أستار الغيب والمستقبل والتى تنبأت بكارثة ١٢٠٤ وظهور إمبراطورية آل باليولوجوس المبتعثة[1] وكانت هناك تنبؤات أخرى كثيرة عن سقوط المدينة . وكتب أبولونيوس الطيانى الساحر الكبير الذى جعلوا منه معاصراً لتأسيس القسطنطينية قائمة بجميع الأباطرة الذين سيتولون الحكم فيها ودفنها فى عمود قسطنطين[2] . ومع ذلك فقد كان يحدث بين الفينة والفينة أن تخطئ التنبؤات . فإن كاتانانكس الأثينى كان محبوبا جداً من الشعب لعهد ألكسيوس الأول ، ولكنه عندما تنبأ بوفاة الإمبراطور لم يمت عند ذاك إلا أسد القصر الأليف . ثم حاول بحث ذلك مرة ثانية ولم يمت فى هذه المرة إلا الإمبراطورة الأم[3] وكانت الأحلام والرؤى هى التى توجه الحوادث وترشدها : فإن لاوون الخامس رأى فى منامه أن ميخائيل العمورى سيقتله[4] . وامتنع يوحنا الثانى عن تتويج ابنه الأكبر بسبب أحد الأحلام[5] . وحدث ذات مرة أن أم يوحنا كانتاكوزينوس كانت واقفة ذات ليلة فى الشرفة بمنزلها الريفى تشهد طلوع القمر فحذرها شخص كالأشباح بأن ابنها فى خطر[6] . وكان المعتقد أن لكل إنسان « قريناً » أى شيئاً من الجمادات ترتبط به حياته (stoicheion). وهكذا أمر الإسكندر بأن توكل عناية كبيرة بخنزير برى من البرونز موجود بالسرك كان يعده قرينه الذى هو به مرتبط[7] : وذلك على حين أن راهباً

---

(١) فى « Monuments de la Langue Néo-Hellénique » ج ٥ ص ١ . ع . ع
(٢) انظر « Scriptores Originum Constantinopolitani » (طبعة تويبنر ص ١٩١ ، ٢٠٦ .
(٣) أنّا كومنينا ص ١٤٩ — ١٥٠ .
(٤) جنيسيوس ص ٢١ .
(٥) كِنّاموس ص ١٥ .
(٦) جريجوراس ج ٢ ص ٦١٩ .
(٧) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٣٧٩ .

حكيما أبلغ رومانوس الأول أن عموداً معينا كان هو القرين الذى ترتبط به حياة سمعان (سيميون) قيصر بلغاريا . وانتزع تاج العمود فتوفى القيصر العجوز على الأثر[1] . ولقيت تماثيل أخرى التدمير مصيراً لأسباب مدهشة من هذا القبيل . وفى ١٢٠٤ دمر الأهالى وقد استبد بهم الغضب ، تمثالا عظيما للربة أثينا إذ خيل إليهم أنها تشير إلى اللاتين أن يقبلوا من الخارج من الغرب[2] .

واكتسب البيزنطيون سمعة سيئة لما اتصفوا به من المفاسد والتآمر والقسوة فضلا عن الخرافات . وأبلغ شاهد على ذلك ندرة الأباطرة الذين ماتوا موتة طبيعية . وليس فى الإمكان إنكار أن الطموح الشخصى كان يلعب دوراً عظيما فى حياة كل سياسى ذائع الصيت تقريبا ، ولكن ينبغى أن لا يغيب عن بالنا أن من قل إقدامه قلما أتيحت لحياته فرصة خلود الذكر . وكان هناك بالتحقيق شخصيات من أمثال يوستينوس الأول وإيرينة والقيصر بارداس وباسيليوس الأول أو كيريولاريوس فى كل جيل تقريباً ، وهم المتآمرون المجردون من كل رادع أو ضمير وشرف وإن ندر أن يتجردوا من الوطنية . بيد أنه لا بد أنه كان هناك أيضاً نفر من أمثال كبير الأمناء ثيوفانيز فى بواكير القرن العاشر ، وهم من خدام الدولة المخلصين المجردين من كل هوى وغرض والذين لا نسمع عنهم إلا القليل . أما مدى استشراء الفساد فيهم فأمر لا نستطيع البتّ برأى فيه . وقد حدث فى بعض الحين كعهد لاوون السادس مثلا أن الفساد صار على التحقيق واسع الانتشار ؛ ولكن ليس ثم من داع يدعو إلى الظن بأن سلطان المال كان فى عهد ثيوفيلوس أو باسيليوس الثانى يلعب دوراً بالغ الكبر . وبالغ القوم أيضاً فى القساوة . فإن سكان القسطنطينية كانوا من الفظاعة بمكان ، ما أثير غضبهم واندلعت

---

(١) المرجع السابق ص ٤١١ – ٤١٢ .

(٢) نيقيتاس ص ٧٣٨ – ٧٣٩ .

أحقادهم شأن كل دهماء تسكن الأقاليم الجنوبية . فربما لقى المخلوعون من الأباطرة والوزراء الذين فقدوا منزلتهم عندهم ألواناً من العذاب المبرح الذى لا سبيل إلى وصفه . وغنى عن البيان أن صوراً من أمثال سحل ميخائيل الشماع من مقصورة إستوديوم المقدسة فى الشوارع وهو يصيح ويصرخ ، وأن نتف لحية أندرونيكوس الأول ونزع أسنانه وفقء عينه وقطع يده ثم تمزيقه إرباً فى حلبة سباق الخيل ، — ليست من الصور التى يلذ للناس تقليب الفكر فيها . بيد أن الجمهور الغاضب لا يتذكر قط اسم الرفق أو الرحمة .

على أن البيزنطيين كانوا فى لحظات هدوئهم أقل وحشية . وكثيرا ما كان السبيل إلى العرش منثورا بأشلاء القتلى ، ولكن ليس دائما ولا فى جميع الحالات . وكانت أحب عقوبة تفضل السلطات إيقاعها بالآثمين هى مواراة الشخص فى أحد الأديرة ابتغاء إنقاذ روحه كآثم . وقلما لجأوا إلى عقوبة الإعدام . أما بتر الأعضاء وهو العلاج المألوف لديهم للجريمة ، فإنه وإن ملأ عقولنا العصرية بالرعب ، إلا أنه كان بديلا من الموت ملؤه الإنسانية ؛ والراجح أنه كان أفضل من السجن أو الغرامات التى تترك المجرم فقيرا مُعوزا . وهناك حالات كثيرة خففت فيها رحمة السلطات العقوبات عن الآثمين حتى من كان منهم جديرا تماما بعقوبته . فإن الإمبراطورة ثيودوسيا لم تقبل أن يحرق ميخائيل العمورى حيا ، وإن اتهم صراحا بالخيانة العظمى لزوجها لاوون الخامس[1] . وقد عدت العقوبات التى وقعت على المتآمرين من آل دوقاس فى ٩١٣ نكالا صارما صارخا ، وذلك لأن كثيرا من المشتركين فيها أعدموا[2] ؛ وصار كل فرد بالمدينة فى حزن شديد من جراء حب قسطنطين الثامن لسمل الأعين ، حتى وإن اعترف الجميع بأن الضحايا آثمون إثما قاطعا . أما هو

---

(١) جنيسيوس ص ٢٠ .

(٢) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٣٨٥ .

فكان يرى فى عقوبته تلك جزاء أخف من عقوبة الإعدام[1]. وإذا قورن البيزنطى بالرومانى من حيث مسراته كان أفضل منه كثيرا : إذ لم يحدث قط أن قُذف شخص فى حلبة سباق الخيل إلى الأسود الضارية ؛ وكانت أحب تسلية إليهم هي سباق المركبات وليس صراعات المجالدين . ولا يغرب عن البال أنه ليس من الممكن أن تصدر المؤسسات الخيرية ودور الصدقات والملاجئ والمستشفيات عن شعب مجرد من الرحمة . أما نقائص البيزنطيين فيلوح أنها خفة الأحلام وتقلب الأهواء وإعواز فى الولاء الشخصى وامتزاج نفوسهم بمرارة ونزعة كلبية خالية من الإحسان تجعل حتى أعظم كتابهم كشفا لخلجات نفسه أمثال بسللوس وأنّاكومنينا أو فرانجيس مُنفّرًا غير جذاب بدرجة ما . فكأن العيب ليس فى الحط من قيمة الحياة البشرية بل فى الحط من الطبيعة البشرية .

بيد أنهم كانوا يتصفون بسجايا طيبة كثيرة . فإنهم كانوا يحسون فخارا إمبراطوريتهم وحضارتهم . وكانوا يحبون العلم ويتعشقون الجمال . ويعلون بأذواقهم الفكرية صعدا حتى يبلغوا بها مرتبة الأنفة والغطرسة . فكان التعليم لا المولد جواز الدخول إلى حظيرة المجتمع البيزنطى الراقى . وكان الجهل بالثقافة هو الذى أوقع رومانوس الأول وأصدقاءه فى هاوية احتقار أرقى الأوساط لهم ، وذلك على حين أن البطريق نيكيتاس فى القرن الحادى عشر كان يلقى السخرية من لهجته السلافونية[2]، وكان السياسى مترجريتس يُعامل بغير احترام فى القرن الثالث عشر لأنه كان يتحدث بصوت أجش ريفى[3]. وكان البيزنطيون يستحسنون كل ذى عقل حسن التدريب يستطيع التعبير عن نفسه برقة مقتبسا من آداب السابقين الكلاسيكية ؛ وقد وصل كثير منهم إلى تلك

---

(١) زوناراس ج ٣ ص ٥٧٠ .

(٢) جليكاس ص ٥٢٧ – ٥٢٨ .

(٣) أكروبوليتس ص ١٣٠ .

الحال . ولم تكن ثقافتهم قائمة على الحذلقة والكتب بصورة مطلقة . فإنهم كانوا شديدى الاهتمام بشئون جيرانهم والرغبة فى الاطلاع عليها وتقصيها ، كما كانوا على استعداد للاقتباس من علوم العرب ومن تسليات الغرب ولهوه .

وكان حبهم للجمال أعمق من هذا كثيرا . إذ كان الجمال البشرى يروقهم ويستدعى إعجابهم . وقد حدث فى القرن السابع أن الجند أرادوا أن يعينوا أرمنيا هوميزيزيوس إمبراطورا على البلاد لفرط جمال صورته(١) . ولم ينقذ الإمبراطورة السخيفة زوية من احتقار الناس إلا حسن طلعتها(٢). فإنها كانت حتى وهى فى الستين من عمرها تبدو كطفلة غريرة بشعرها الذهبى وبشرتها الناعمة البضة ، كما أن الأردية البسيطة البيضاء التى ترتديها كانت مثار الإعجاب الكبير من الجماهير . وكانوا يحبون المناظر الجميلة . إذ أن الحدائق والبساتين والأزهار كانت مناط بهجتهم وسرورهم — ولا أدل على ذلك من الحماسة التى توصف بها حدائق ديجينيس أكريتاس — وكانوا لا ينفكون يبنون أديرتهم فى مواقع تطل على أبدع المناظر وآنقها . وتعكس مبانيهم وأقمشتهم وكتبهم نفس الحنين الشديد إلى الجمال ، بيد أنه جمال لا يتصل تماما بهذه الدنيا . فلقد كان للجمال لديهم معنى عميق . فهو شىء كان يعينهم فى تأملهم الصوفى ، وهو جزء من مجد الله جل وعلا . وكانت الحياة لديهم جهمة قبيحة ؛ بيد أن العابد المصلى : المواطن الواقف فى رحاب كنيسة القديسة صوفيا أو الناسك الواقف على جبل آثوس كانوا جميعا بمنآة منها بأجمعها . فإن فن المعمار البشرى الذى صورته يد الإنسان بتلك الكاتدرائية وفن العمارة الربانى الذى أبدع الجبل كانا يرفعانه رفعا من جو هذا العالم الدنيوى ويقربانه من الله والحقيقة الصادقة . وكان الجمال عند البيزنطى صنوا للدين يسير معه جنبا إلى جنب ، فيعود ذلك عليهما بأعظم البركات.

---

(١) ثيوفانيز ص ٣٥٢ .

(٢) پسللوس : « Chronographia » ج ١ ص ١٠٢ ؛ ج ٢ ص ٤٩ .

ولن يستطاع فهم الترابط الوثيق بين الجمال والدين ، على وجهه الأكمل إلا إذا تذكرنا خلفية الحياة البيزنطية وأساسها الذى تستقر عليه : فلقد كان البيزنطيون يعيشون فى عالم ملوه الشدائد لاسبيل إلى الإطمئنان إليه أو الاعتماد عليه . فمن وراء الحدود كان البرابرة يروحون ويغدون ويتجولون ، وما أسرع ما ينقضون على البلاد على حين غرة مخترقين الولايات أو مندفعين على صفحة البحر ، فتصل جموعهم إلى أبواب العاصمة نفسها . ألم تلتمع أمام تلك المدينة الصامدة على الخطوب نيران حراس الهون والفرس والبلغار ، ثم ألم تُغطّ سفن العرب والروس صفحة الماء عند أسفل أسوارها ؟ وكم من عدة ضخمة من السلاح والقوة أوشكت على أن تبلغ النجح قبل مجىء قراصنة البنادقة وقبل مجىء الأتراك . وقد كان كل مواطن مكلفا عند بواكير القرن الثامن أن يحتفظ لديه بمؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، — إذ ما أكثر الأخطار التى كانت تحدق بالدولة آنذاك [1] ! . . .

فلاعجب إذن والأخطار وعدم التحقق من الغد تتناوش البيزنطى من كل جانب ، أن يوشك أن يرتاب فى كل شىء وأن تكون أعصابه من الاضطراب بحيث تنقلب أسرع من البرق إلى نار الغضب الهائج أو انفعال الرعب الشديد . ولا عجب إذن أن لم يجد محيصا من التماس راحة النفس فيما وراء العالم من غيبيات وفى الاتحاد الكامل بشخص الله والأمل البراق فى حياة سرمدية . لقد عرف الوجود حزينا كسيفا . وزالت من نفسه كل آثار ما كان لديه — وثنيا — من الضحك الساذج والسعادة البسيطة . وكانت النكتة البيزنطية حمضية لذاعة المذاق ؛ وكانت فكاهتها لا تجد مركبا للتعبير إلا التهكم والسخرية . ولعمرى لقد كانت الحياة تبدو لعينه سخرية مريرة . فإن هذه الإمبراطورية العظيمة مَعقِد الرجاء الأخير للحضارة فى عالم كالح الوجه

---

(١) ثيوفانيز ص ٣٨٤ .

حافل بالأعاصير ، لم تفتأ على الدوام ترنح أمام ضربات البرابرة ولا تكاد تستفيق حتى تتلقى صدمة جديدة قاصمة . وظلت المدينة العظيمة قرونا عديدة صامدة لا يقوى على اختراقها أحد ، فكانت من ثم تبدو لعين الأجنبى رمزا للقوة الخالدة وللثراء الأبدى . بيد أن البيزنطيين كانوا يعلمون علم اليقين أن النهاية ستنزل بهم يوما ما ، وأنه لا بد أن ينجح أحد هذه الهجمات . فإن النبوءات المكتوبة فى كل أرجاء القسطنطينية على الأعمدة أو كتب الحكمة إنما تتحدث عن القصة نفسها دون تغيير : عن الأيام التى لن يكون بها أباطرة ، وعن آخر أيام المدينة ، آخر أيام الحضارة :

الفصل التاسع

التعليم والعلوم

كان الحصول على قسط موفور من التعليم المثل الأعلى لكل بيزنطى. وكان إعواز المرء فى التدريب والتثقيف العقلى (apaideusia) يعد نكبة ونقصاً ، بل يكاد يُحسب جريمة كبيرة. وكم كان الجهال يلقون من التهكم والتعيير الكثير المتواصل : — فيوجه من ذلك نحو الإمبراطور الغليظ ميخائيل الثانى الذى كان ضحية لما لا يكاد يحصر من ألوان الهجاء[1] المسطر ، وإلى نيكيتاس البطريقى السلاڤى الذى كان قسطنطين السابع يهزأ منه[2] ، وإلى الفيلسوف الإيطالى يوحنا إتالوس الذى لم تذهب عن لسانه قط اللكنة الإيطالية[3] ، وإلى قسطنطين مارجاريتس الذى بلغ من سوقية حديثة — أن تظن أنه تربى على الشعير والنخالة[4] ، وذلك على حين يزجى كتاب من أمثال أنّا كومنينا ألوان الثناء على كل ذى عقل جيد التدريب جيد الامتلاء بالعلم.

ولم يداخل التغيير مادة التعليم ولا طريقته طوال عصور التاريخ البيزنطى. فكانت المادة الأولى التى تُعلّم للصبى حين يناهز السادسة هى الأجرومية أى « طبع لسانه بالطابع الهلينى » . وكان هذا يتضمن فضلا عن القراءة والكتابة والأجرومية (النحو) والصرف بمعناهما العصريين ، معرفة بالآداب الكلاسيكية القديمة وتعقيبات على تلك الآداب الكلاسيكية ، وبخاصة هوميروس الذى لم يكن بدٌّ من أن تستظهر مؤلفاته. فإن سينيسيوس من

---

(١) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ٤٩

(٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس "De Thematibus" ص ٥٤ .

(٣) أنّا كومنينا ص ١٣٣ . (٤) آكروپوليتا ص ١٣٠

القرن الخامس يتحدث عن مقدرة ابن أخيه الصغير على ترديد أشعار هوميروس (وكان يحفظ خمسين سطراً فى اليوم[1]) ، وذلك بينما أجاد بسللوس فى القرن الحادى عشر حفظ الإلياذة بأكملها عن ظهر قلب فى سن مبكرة جداً[2] . وكانت نتيجة ذلك أن كل بيزنطى كان يستطيع التعرف على أى اقتباس من قصائد هوميروس أنى وجدها . فإن أنا كومنينا التى تقتبس فى كتابها ألكسياد ستا وستين اقتباساً قلما صدرت واحدا منها بعبارة : « كما يقول هوميروس » ؛ إذ لم تكن هناك ضرورة لذلك . وكان القوم يقرءون قصيد شعراء آخرين بل حتى يحفظونه ، بيد أن واحداً منهم لم يرزق مثل تلك المنزلة الرفيعة الخالدة . فإذا بلغ التلميذ الرابعة عشرة انتقل إلى علم البيان . وكان ذلك ينطوى على تعلم النطق الصحيح ودراسة المؤلفين مثل ديموسثنيز وكثير غيره من الناثرين . ثم يجىء بعد علم البيان العلم الثالث وهو الفلسفة والفنون الأربعة وهى الحساب والهندسة ، والموسيقى والفلك التى لا بد من دراستها ؛ وربما أضيف لها دراسة الحقوق والطب وعلم الطبيعة . وكان التعليم الدينى يسير جنباً إلى جنب مع التعليم العلمانى ، ولكنه كان على الدوام منفصلا عنه يقوم بتلقينه رجال الأكليروس . وكان الأطفال يحفظون الكتاب المقدس أتم الحفظ ؛ وهو يأتى بعد هوميروس كمصدر رئيسى للإشارات والاقتباسات فى الأدب البيزنطى[3] .

ويجوز أن يكون المعلمون موظفين ببعض المدارس أو الجامعات أو يكونوا مربين خصوصيين . فإن كل ما يتعلق بالمؤسسات التعليمية

---

(١) انظر بينز : " Byzantine Empire " ص ١٥١ – ١٥٢ .

(٢) بسللوس " Chronographia " جـ ١ ص ٥٥ .

(٣) انظر الفصل الذى عقده بكلر عن التعليم فى : " Anna Comnena " ص ١٦٠ ع ع .

بالقسطنطينية يكاد يغشاه شيء من الغموض(١) . وكان تعلم مبادئ القراءة فى بواكير أيام الإمبراطورية يتم فيما يحتمل على يد أحد الرهبان ، ولكن سرعان ما كان التلميذ يذهب إلى إحدى المدارس ، حيث كان يتلقى جميع الشطر الباقى من تعليمه العلمانى . فقد أنشأ قسطنطين مدرسة فى الرواق (Stoa) ثم نقلها قنسطنطيوس إلى الكاپيتول . وحظر جوليان الكافر على المسيحيين التعليم فيها ؛ ومع أن الحظر أُلغى بعد ذلك ، إلا أنه يلوح أن أهم معلمى القرن الخامس كانوا من الوثنيين . وعين ثيودوسيوس الثانى فى المدرسة عشرة نحويين من اليونان ومثلهم من اللاتين وخمسة سفسطائيين من اليونان وثلاثة من اللاتين واثنين من رجال التشريع وفيلسوفاً واحداً . وقد أُلحقت بالمدرسة مكتبة عامة أسسها جوليان تحتوى على مائة وعشرين ألف مجلد(٢) . وقد أحرقت هذه المكتبة إبان حكم باسيلسكوس فى ٤٧٦ . وكانت هناك جامعات أخرى خارج القسطنطينية – فثمة جامعة أنطاكية التى كان يُعلم فيها ليبانيوس وجامعة الإسكندرية موطن هيپاتيا(٣) ، وبيروت بما حوت من مدارس للحقوق ، وأثينا التى اشتهرت بفلسفتها وغزة التى ذاع صيتها فى علم البيان .

ولا يكاد اسم المدرسة يذكر بعد يوستنيانوس . فإننا نعلم أن حميته على المسيحية وعلى فرض الوحدة والتناسق على التعليم ، قد دفعته إلى إغلاق

---

(١) انظر برييه : « L'Enseignement Supérieur à Constantinople » فى مجلة « Byzantion » مج ٣ ص ٧٣ – ٩٤ ؛ ومج ٤ ص ١٣ – ٢٨ ؛ وانظر شيميل : « Die Hochschule von Konstantinopel » بمواضع متفرقة .

(٢) كدرينوس ج ١ ص ٦١٦ .

(٣) هيپاتيا أو إيپاتيا (٣٧٠ – ٤١٥ م) فيلسوفة يونانية ولدت بالإسكندرية ودرست الأفلاطونية الحديثة بأثينا . وخلفت أباها ثيون أستاذة للفلسفة بالإسكندرية . واتهمها كيرلس أسقف الإسكندرية غيرة منها ، بالسحر والوثنية وأوعز الى غوغاء من الرهبان بقتلها . [المترجم]

مدرسة أثينا بمصادرته موارد الأموال الموهوبة لها ، كما أنه حرم تعليم القانون إلا فى القسطنطينية وروما وبيروت ، واشترط أن يكون جميع أساتذة الجامعة من المسيحيين . ثم عاد فى أخريات عهده فقطع مرتباتهم . ويقال إن فوقاس أغلق الجامعة نهائياً . وقل انتشار التعليم إبان ظلمات القرن السابع . ثم أصبح الغلمان إبان القرون التالية يتلقون العلم فى الأغلب الأعم على يد معلمين خصوصيين . فإن كلا من ثيودور الاستوديوى والبطريق نيقيفوروس قد تعلما أولا على يد النحويين الخصوصيين ، ثم ذهبا فيما بعد إلى أحد المعاهد اللاهوتية الملحقة بالكنائس[١] . وقد تعلم أنانياس الشيراكى (الذى عاش قرابة ٦٠٠ — ٦٥٠) على يد معلم من أحدث طراز يدعى تيخيكوس البيزنطى ، تعلم الفلسفة بأثينا ثم استقر بطرابيزون ، حيث كانت مكتبته الضخمة مسرحاً آخر لأبصار الناظرين[٢] . على أن الكنيسة كانت فى نفس الحين تستولى على التعليم . فإن هرقل أنشأ مدرسة تحت إشراف الكنيسة فى خلقوبراتيا ، وكان هناك مدارس ملحقة بدير الاستوديوم وكنيسة الأربعين شهيداً ومدرسة كبيرة بكنيسة الرسل المقدسين كان الطلاب يتلقون فيها أثناء القرن الحادى عشر تعليما علمانياً عاماً جداً[٣] . وحتى الشبان الذين كانوا يذهبون إلى طرابيزون لتلقى العلم على تيخيكوس كان يرافقهم هناك شماس من أتباع البطريق .

ومما زاد مصائب الإمبراطورية وبالا إشراف الكنيسة وعملها على تضييق دائرة التعليم . فإن التعليم العلمانى بما له من ماض وثنى كان يعامل بشىء من الارتياب . ألا ترى إلى پاخوميوس كيف يقارن فى القرن الثامن بين علم

---

(١) انظر « Vita Theodori Studitae » فى .M.P.G مج ٩٩ ، ١١٧ ؛ وانظر إجناتيوس : « Vita Nicephori » نشرها دى بور ص ١٧٠ .

(٢) انظر « أنانياس الشيراكى » ترجمة كونيبير فى .B.Z مج ٦ ص ٥٧٢ — ٥٧٣ .

(٣) انظر پسللوس فى .B.G.M مج ٥ ص ٤٢٠ .

اللاهوت الصائب الحق وبين العلم المدنس « الذى يُضل كثيراً من الناس[١] » ، ويشبه البطريق نيقيفوروس العلم الأول بسارة والعلم الثانى بهاجر[٢] . [زوجتى إبرهيم عليه السلام] . وجاءت متاعب الكنيسة أثناء فترة تحطيم الصور فزادت الشكوك تأججاً . بيد أن الأمور كانت أكثر استقراراً عند حلول القرن التاسع كما أن السلطات الكنسية كانت أقل ظِنة وارتياباً . ودعا تحسن العلاقات مع العرب إلى دراسة علوم الإسلام . ومن ثم حدث انتعاش عظيم فى العلوم : وإن كان رواده الأوائل ، وهم رجال من أمثال فوطيوس ويوحنا النحوى يعتبرون عند العامة من السحرة . وأسس القيصر بارداس عم ميخائيل الثالث ووزيره ، جامعة جديدة تابعة للدولة أقامها فى الماجناورا . وكان على رأسها أستاذ الفلسفة الملقب (Oeconemicos Didaskalos) وتحت رياسته أساتذة الأجرومية والهندسة والفلك . وعين فى ذلك المنصب لاوون الفيلسوف الذى كان يُعلم بالمدرسة الملحقة بكنيسة الأربعين شهيداً[٣]. بيد أن حزباً فى الكنيسة يمثل أعداء فوطيوس العالم ظل معادياً لتلك الجامعة . وكتب أحد تلاميذ لاوون وهو راهب يدعى قسطنطين قصيدة ضد أستاذه أودعها السم الزعاف وشرح فيها أخطار « الهللينيةْ » ، وهو الاسم الذى كان يطلق على ثقافة الإغريق الوثنية[٤] .

وفى القرن العاشر ظل يجوز لمؤلف كتاب « الفيلوباتريس » أن يسخر من كل دارس للأفلاطونية[٥] ، بل لقد حدث أنه فى القرن الحادى عشر نفسه جاز للجندى العجوز كيكومينوس أن يصرح بأن كل ما يحتاج إليه أحد

---

(١) باخوميوس فى .M.P.G مج ٩٨ ص ١٣٣٣ .

(٢) انظر « Vita S. Nicephori » فى .M.P.G مج ١٠٠ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٣) انظر ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ١٨٩ — ١٩٢ .

(٤) انظر فى .M.P.G مج ١٠٧ ، ٦١ — ٦٢ .

(٥) انظر رايناخ : « Cultes, Mythes et Religions » ج ١ ص ٣٨٣—٣٩٢.

الصبيان هو العلم بالكتاب المقدس وبقدر يسير من المنطق والاستدلال النظرى[1] . ومع ذلك فقد كان العلم يزداد طوال تلك المدة ذيوعاً وانتشاراً . بل الحق أن الذى حدث فى عهد قسطنطين السابع أن البلاط كاد يصبح أكاديمية لدراسة التاريخ . وكان قديس القرن العاشر المولود فى أسرة من الطبقة العليا أو الوسطى يُعَلَّم كيف « يطبع لسانه بالطابع الهلينى » كجزء من طبيعة الأشياء ، وإنْ حَمَلته التقوى وهو فى سن مبكر على التخصص فى اللاهوت . ومع ذلك فإن الجامعة التى أنشأها بارداس حُلَّت فى زمن ما . ولعل ذلك كان من عمل باسيليوس الثانى ، الذى زعم كما زعم مؤلف « الفيلوباتريس » أن الإفراط من التعليم لن يعود على الدولة بشىء فضلا عن كونه إسرافاً كبير النفقة . وعندما كان پسللوس ومعاصروه من المولودين فى أوليات القرن الحادى عشر يرغبون فى الحصول على نصيب من التعليم ، لم يكن أمامهم من سبيل سوى تعليم أنفسهم بأنفسهم ، أو أخذ العلم عن مربين خصوصيين أو فى مدارس الكنيسة[2]

على أن الإمبراطور رومانوس الثالث الذى كان يُزهى ويفاخر بثقافته لم يقم بأى شىء لعلاج هذا الداء . ولكن قسطنطين التاسع جزع للحالة التى آلت إليها المعارف القانونية — حيث كان المحامون جميعا دون استثناء تقريبا ممن علموا أنفسهم بأنفسهم ، وبدرجة يعتورها النقص من جميع نواحيها — فأسس مدرسة للحقوق فى ١٠٤٥ ، اضطر جميع المحامين إلى الدراسة بها قبل ممارستهم وظيفتهم ؛ وأقام فى الحين نفسه كرسيا لأستاذية الفلسفة بما فى ذلك علم اللاهوت والدراسات القديمة (الكلاسيكية) . وكان عميد هذه الجامعة هو أستاذ القانون (Nomophylax) . وعيَّن قسطنطين فى ذلك المنصب قاضيا ممتازا هو يوحنا كزيفيلين ، على حين أصبح پسللوس أستاذاً للفلسفة . ويلوح أن

---

(١) انظر كيكومينوس فى « Strategicon » ص ٤٦ ، ٧٥ .

(٢) پسللوس فى .B.G.M مج ٥ ، ١٤ ، ٩١ ، ١٤٧ .

هـذا التنظيم دام حتى ١٢٠٤ . وزادت وسائل التعليم يسرا عندما أعاد ألكسيوس الأول تأسيس مدارس الأيتام . وكانت جامعات الدولة ومدارسها تابعة للإمبراطور رأسا . فهو الذى كان يعين المعلمين ويدفع مرتباتهم ويعزلهم، وربما فتش على الفصول بين حين وآخر مختبرا تلاميذها ومستمعا إلى ما يلقى بها من محاضرات[١] — وهنالك صورة لا تزال باقية تمثل ميخائيل السابع وهو يصغى إلى محاضرة يلقيها پسللوس[٢] . وكان ألكسيوس نفسه ينصح بدراسة الكتاب المقدس فوق كل شىء ؛ ولكن الناس أقبلوا فى عهد آل كومنينى على الدراسات الكلاسيكية كما لم يقبلوا عليها من قبل أبدا . ومع ذلك فإن من العسير معرفة إلى أى حد كان التعليم متغلغلا فى المجتمع وطبقاته الدنيا . والمعروف أن الشاعر المعدم پرودروموس كان يدرس الأجرومية وعلم البيان، وفلسفة أرسطو وأفلاطون ، ولكنه يشكو من أن النبرات الخشنة التى تملأ ميدان السوق قد قضت على كل حديث رشيق ، وأنه ليس للفقراء مكتبات يستطيعون الانتفاع بها[٣]. والواقع أنه يبدو أن عدم وجود المكتبات كان من الصعوبات المستمرة ، فمنذ ٤٧٦ لم تكن هنالك مكتبة عامة . أجل إن الأديرة والكنائس غالبا ما كانت لها مكتباتها ، ولكن لو اتخذنا من مجموعة الكتب الموجودة بمؤسسة القديس كريستودولوس بمدينة پاتموس مثالا لتلك المكتبات فإنها كانت فى معظم أمرها مكتبات لاهوتية . فإن ٣٣٠ كتابا فى پاتموس كان منها ١٢٩ كتابا فى الطقوس الدينية وخمسة عشر كتابا علمانيا ليس غير[٤] . أجل إنه كانت لديهم على التحقيق مكتبات خاصة كبيرة ، لا مراء أن العلماء كان

---

(١) انظر نيومان فى : « Weltstellung des Byzantinischen Reichs » ص٦٧.

(٢) انظر : « Neos Hellenomnemon » مج ١٢ ، ٢٤١ .

(٣) انظر مقال عن پرودروموس فى .M.P.G مج ١٣٣ ص ١٢٩١ ع ع ؛ ١٣١٣ ع ع ، ص ١٤١٩ — ١٤٢٢ .

(٤) ديل : « Études Byzantines » ص ٣٠٧ ع ع .

يسمح لهم بارتيادها ؛ وكان هناك العدد الجم من النساخين ــ ومعظمهم من العلمانيين ، وإن اشتغل بالنسخ أيضا عدد معين من الرهبان . وكانت الكتب الجميلة الرواء من صادرات بيزنطة ؛ ولكن الكتب ظلت مع ذلك غالية الثمن. فقد حدث عند مطلع القرن العاشر أن أريثاس أسقف قيصرية المحب للكتب دفع أربعة نوميسمات ــ أى ما يعادل بالقيمة الشرائية العصرية اثنى عشر جنيها لشراء طبعة جيدة من هندسة إقليدس[١] .

وقد قلّب النهب الذى أُعمل فى المدينة فى ١٢٠٤ نظام التعليم بأكمله رأسا على عقب . وكانت الحركة الهللينية قد بلغت القمة ؛ وقد ذهب ميخائيل أكوميناتوس من توه إلى أثينا بحثا عن ماضيها الكلاسيكى المجيد ، وفى نفس الحين كان القسيس العظيم يوستاثيوس من سلانيك قــد فرغ وشيكا جدا من تعقيباته على الشاعر پندار . وها قد تفرق العلماء ، وتبددت الأموال المحبوسة عليهم كما ذهبت كتبهم طعمة لنيران اللاتين . غير أن البحث العلمى بقى مع ذلك نابضا بالحياة وسرعان ما تركز حول بلاط نيقية القائم بالمنفى . وهناك استقر العلامة بليميداس ؛ وكان أبوه طبيبا بالقسطنطينية تقاعد فى بروسة فى ١٢٠٤ . وقد لقى بليميداس نَصَبا كبيرا فى الحصول على معلمين يعلمونه أثناء الفوضى التى عمت البلاد بعد سقوط المدينة ، ثم انتهى به المطاف إلى تلقى معظم ما جمع من العلم من ناسك معتزل فى الجبال البيثينية يدعى پرودروموس ، علمه الحساب والهندسة والفلك . وفى ١٢٣٨ طاف فى أرجاء العالم البيزنطى بأكمله ليجمع المخطوطات معتمدا فى ذلك على خطابات تعــريف حَمَّله إياها إمبراطور نيقية[٢] . وبفضل جهوده إلى حدٍ كبير ارتقى التعليم بنيقية إلى مستوى عال . وهناك تعلم باخيمير وأكروبوليتا ثم جلسا للتعليم ؛ ثم إن بلاط نيقية احتضن

(١) انظر التعقيب على مخطوط فى مكتبة بودليان (بأكسفورد) .

(٢) انظر بليميداس : « Autobiography » (نشرة ترويتز) ص ٢٧ ع ع ، ٣٥ ع ع.

العلوم وناصرها بإخلاص وحمية وبخاصة فى عهد إيرينة زوجة يوحنا ڤاتاتزيس وابنها ثيودور . وحدث ذات مرة أن إيرينة سبّت أكروبوليتا وقالت إنه مأفون ، لأنه قال بأن سبب الخسوف هو وقوع القمر بين الشمس والأرض ، ولكنها اعتذرت له فيما بعد قائلة لزوجها - وقد نصحها بألا تقلق من جراء ما قالت لأن أكروبوليتا كان بعد غلاما - « ليس من الصواب توجيه مثل تلك اللفظة لأى إنسان يعمل على تقدم النظريات العلمية[1] » . وعلى الرغم من هذا الاتجاه يبدو أنه لم تكن بنيقية أية مدرسة منظمة ولا جامعة . ولعل الحكومة لم تكن لتستطيع أن تتحمل نفقات الجامعة .

ومن العجيب أن أيام آل باليولوجوس يوم كانت بيزنطة تلفظ أنفاسها الأخيرة ببطء ولكن بصورة محققة لا مجال فيها لشك ، كانت على النقيض من حالتها المتدهورة سياسيا ، أشد عصور العلوم البيزنطية ازدهارا . ذلك أن البيزنطيين من أبناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر وقد تناوشتهم الخطوب من كل جانب واسودت آفاق المستقبل أمامهم ، التفتوا بأبصارهم إلى أمجاد الماضى وهم أشد ما يكونون تلهفا إليها . فإن ممن امتلأت عقولهم بعلوم الأقدمين الكلاسيكية فضلا عن جميع دراسات اللاهوتيين المسيحيين ، كتّاب من أمثال السياسي ثيودورميتوخيتس أو نيقيفوروس جريجوراس أو آخر الشخصيات العظيمة وهم جميستوس بليثون وچناديوس وبيساريون . وكان أساتذة الزمان وهم بلانودس وموسخوبولس أو تريكلينيوس يحيطون بشطر ممتاز من العلم بفقه اللغة والأدب . وكان خريسولوراس الذى بهر بعلمه تلاميذه بإيطاليا ، أسوأ من يمثل التعليم البيزنطى فى ذلك الزمان . ولم يُحرم الفكر الغربى أيضا من دارس يدرسه . فإن أكنديئوس وكيدونيس قد تأثرا جميعا بفلسفة توماس الأكوينى (أكويناس) الكلامية[2] . بل إنه حتى سلانيك نفسها كانت تعقد

---

(١) أكروبوليتا ص ٦٨ .

(٢) توماس أكويناس : فيلسوف انجليزى ظهر فى القرن الثالث عشر وفلسفته الكلامية =

بها حلقات للمطالعة تناقش فيها خير المؤلفات الأدبيـــة ؛ وقد اشتهرت طرابيزون بدور أبحاثها الفلكية . وقد تلقى أطباؤها الكبار من أمثال جورج خونيادس وجورج خريسوكوكيس العلم ببلاد فارس واجتلبوا إلى بلادهم أسرار المعرفة الشرقية[1] .

وما نستطيع أن نقطع فيما إذا كانت هناك مدارس تابعة للحكومة فى عهد آل باليولوجوس أم لم تكن . وقصارى القول أن اليونانين فى كل أرجاء الأرض وبخاصة أبناء قبرص ، كانوا لا يزالون يحبون الشخوص إلى القسطنطينية لتلقى علومهم[2] ؛ ولكن الراجح أنهم كانوا يضطرون إلى الدراسة فى الأكاديميات الخاصة التى ينشئها مختلف المعلمين . وربما واصلت مدارس الكنيسة عملها ، بيد أن خطتها الدراسية كانت عند ذاك مقصورة على علم اللاهوت دون غيره . ومع ذلك فإن مجال التعليم كان شديد الاتساع دون أدنى ريب ؛ كما أن الرحالة الأجانب كانوا يحسون أروع الانطباعات لنقاء اللغة اليونانية التى يتحدث بها سكان المدينة المتناقصون عددا فى عشية سقوطها نفسها .

أما عن وسائل تعليم البنات فذلك أمر لا نعلم عنه شيئاً على الإطلاق . أجل ظهرت فى التاريخ البيزنطى نساء عالمات كثيرات ، يتراوحن بين الأستاذة هيباتيا أو أثينايس زوجة ثيودوسيوس الثانى التى درست كل العلوم ونظمت الشعر وألقت الخطب ، وبين كاسية منشدة التراتيل وذات النكتة البارعة التى كلفها رد فاهت به عرشاً خسرته ، إلى المؤرخة العظيمة أنّا كومنينا أو الأميرات المثقفات الأخريات من بنات بيتى كومنينوس وباليولوجوس . ولا شك أنه كان هناك طبيبات ؛ كما يلوح أن معظم

= (أو المدرسانية Scholastic) هى الفلسفة الشائعة ببلاد الغرب فى القرون الوسطى . (المترجم)

(١) بابادوبولوس فى « مدرسة طرابيزون » (باليونانية) فى Neos Poimên ١٩٢٢.

(٢) مثل « Vita S. Gregorii Sinaitia » نشره بوميالوفسكى بمواضع متفرقة .

السيدات المراسلات فى كتب الرسائل العظيمة كن أشخاصاً نلن قسطاً جيداً من التربية . على أن أم بسللوس لم تتلق شيئاً من التعليم ، وإن عدّت ذلك حيفاً وقع بها وعائقاً معطلا لها . ولا يذكر أى كتاب من كتب التاريخ البيزنطى اسم مدرسة واحدة للبنات . ولعلنا تكون عادلين إذا قلنا إن بنات الطبقة الموسرة كن على الجملة يتلقين نفس التعليم الذى يتلقاه إخوتهم الصبيان، وإن تعلمن على يد معلمين خصوصيين بالمنزل ؛ بيد أن ذلك التعليم كان عند الطبقات الوسطى مقصوراً فى العادة على معرفة الكتابة والقراءة دون غيرهما[1] .

وكان التعليم يُعد من الأمور المرغوب فيها إلى الدرجة القصوى ؛ على أن قدراً كبيراً من العلم البيزنطى قد يبدو لنا إما عجيباً أو فجيجاً . واللغة اليونانية كانت والحق يقال تُعلَّم تعليما وافياً . وكانت أعمال المؤلفين الكلاسيكيين تقرأ وتقدر سواء أكانوا من الناثرين أم الشعراء . وتبين قائمة قراءات فوطيوس فى النثر مجالا متسعاً اتساعاً خارقاً يمتد بين هيرودوت وسنيسيوس مع تعقيبات تتجلى فيها الألمعية والذكاء[2] : وذلك على حين أن أنَّاكومنينا كانت من جودة المعرفة بالشعر والشعراء بحيث كانت تقتبس من التراجيـديات ، وإن نسبت إلى الشاعرة صافو بيتا ينسب عادة إلى ألكايوس[3] . بيد أن البيزنطيين كان يخامرهم حب قبيح للاختصار والتنقيح والشروح . وقد صحح كوميتاس فى القرن العاشر أشعار هوميروس[4] وضبطها ووضع فيها علامات الترقيم والفواصل من جديد ، على حين أن

---

(١) انظر بكلر بالمرجع السابق ص ١٨٤ .

(٢) فى M.P.G. مج ١٠٣ ص ٤١ ع ع

(٣) أنّا كومنينا ، ص ٤١٥ .

(٤) انظر « Greek Anthology » (سلسلة لويب مج ٥ ص ١٤٢ .

قسطنطين هرمونياكوس قام فى القرن الخامس عشر باختصار الإلياذة[1] ، كما أن تيقيتاس أستاذ القرن الحادى عشر كان لا يتمالك نفسه أن يرى المجازات والاستعارات فى كل سطر كتبه هوميروس[2] . وكان پسللوس يفاخر بأنه أعاد علم التحليل النحوى (Schedography) سيرته الأولى ، وهو [البعبع] المخيف لدى أنّا كومنينا — وكان قوامه التحليل النحوى الدقيق لقطع أدبية مختارة — وبذلك يرفع الأجرومية ، فى رأى أنّا ، على الأدب ، كما أنه ظل يلقى إقبالا شديدا من الناس حتى عصر آل باليولوجوس . وكتب موسخوبولس معجماً حاويا لهذه التحاليل النحوية[3] . وكان البيزنطيون يجدون مشقة فى دراسة الشعر الإغريقى من حيث أنهم كانوا ينطقون حسب النبرة المكتوبة كما كانوا مضطرين إلى تعلم النطق القديم لكى يقدّروا ما فى الشعر من إيقاع ووزن موسيقى وبحور .

وكانت دراسة اللاتينية تقضى نحبها حتى فى أيام يوستينيانوس نفسه ، وإن كان هو نفسه ممن يتكلمون اللاتينية . فإذا وافى القرن الثامن إذا « لغة الرومان » هى اليونانية . ولم يعد أحد بالقسطنطينية تقريبا ينطق باللاتينية ، فى حين أن أحداً فى روما حتى فى عهد جريجورى الكبير لم يكن ليتحدث باليونانية . وفى القرن التاسع لم يكن فوطيوس العالم الضليع نفسه يعرف اللاتينية . ومع ذلك فإن الحروف اللاتينية كانت لا تزال تستخدم على العملة ، حتى فى عهد الإسكندر ، وكانت الصيحات اللاتينية المحرفة والمبتذلة يُصاح بها فى الاحتفالات الرسمية[4] . ثم حدث فى القرن العاشر نهضة فى الدراسات

---

(١) انظر كرومباخر « Geschichte der Byzantinischen Litteratur » ص ٨٤٥ ع ع .

(٢) پسللوس فى .B.G.M مج ٥ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٣) انظر كرومباخر بالمرجع السابق ص ٥٩١ .

(٤) مثل كتاب قسطنطين بورفيروجنيتوس « De Ceremoniis » ج ١ ص ٣٧٠ .

اللاتينية ، اتفق موعدها مع نهضة فى دراسة اليونانية بروما - فإن الأسماء اليونانية مثل ثيوفلاكتوس وثيودورا انتشرت وشاعت هناك . حتى إذا أقبل القرن الحادى عشر لم تكن المعرفة باللاتينية شيئا غير مألوف بالقسطنطينية . وكان رومانوس الثالث يتكلم اللاتينيـــة[1] ؛ وكان پسللوس يدعى أنه يتكلمها[2] ، كما أن معرفتها كانت إجبارية على كل أستاذ للقانون بجامعة قسطنطين التاسع[3]. وقد كُتبت رسائل الكسيوس الأول إلى مونتى كاسينو بلغة لاتينية مذهلة الركاكة - ولعلها لم تكن إلا مسودات لم تهذب . ويظهر أن آنا كومنينا لم تكن تعرف اللاتينية مطلقا ولا عرفها أيضاً بكل تحقيق ابن أخيها عمانوئيل الأول ، وإن كانت أمه هنغارية . بيد أن زوجته وهى أميرة فرنسية من أنطاكية كانت تعرف اللغتين جميعاً ، فضبطت له ترجمانا حاول أن يغشه[4]. وبطبيعة الحال اقتضى الفتح اللاتينى قسراً زيادة معرفة الناس باللاتينية ؛ كما أنه حدث فى عهد آل باليولوجوس أن كثيرا من اليونان مثل لاوون الكورنثى ترجم المؤلفات الإغريقية إلى اللاتينية - وبخاصة منها ما تعلق بسير القديسين.

أما اللغات الأخرى التى كانت تدرس فكانت قليلة[5] . أجل ربما كان هناك كثير من علماء العربية ؛ كما أن البلاط كان له المترجمون الذين يخدمون غاياته الدبلوماسية واحتياجاته . ومن الجلى أنه كان هناك بالقسطنطينية أعداد كبيرة ممن يجيدون العربية وأرمنيون لا جدال فى أنهم كانوا يتذكرون لغتهم القومية . بيد أن اللغويين من أمثال القديس كيرلس المبشر الذى كان يعرف العبرية دون أدنى ريب ، والذى علم نفسه لغة الخزر

(١) پسللوس (Chronographia) جـ ١ ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه فى .B.O.M مج ٥ ص ٤٩٢ .

(٣) نيومان بالمرجع نفسه ص ٦٧ .

(٤) نيقيتاس قونياتس ص ١٩١ .

(٥) تذكر آنّا اسم يونانى كان يعرف الفرنسية النورماندية (آنّا كومنينا ص ٣٤٣) .

وكان أول من بدأ الدراسات الصقلبية — كانوا ولا مراء فى النادرين القليلين . وقد ورثت بيزنطة عن بلاد الإغريق القديمة صلفها وتعاليها على العالم المتبربر . بل لقد بلغ الأمر بآ"نا أنها تعتذر عن إدخالها أسماء بربرية فى تاريخها[1]. والبيزنطى وإن كان شديد الحمية فى رغبته فى الاستطلاع ، إلا أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على اعتبـــار الألسن المتبربرة مادة تليق بالتضلع العلمى الجدى .

وكذلك التاريخ فإنه لم يكد يكون مادة للتضلع العامى . بل كان على النقيض من ذلك بناء على ما نشهد من عدد المؤرخين ، بل وأكثر من ذلك من عدد مدونى الأخبار الشعبيين ومن كثرة الطبعات التى صدرت من مدونات الأخبار المروية (chronicles) ، — كان موضوعا يثير اهتماما عظيما بين الناس . فلقد كان البيزنطيون يحبون أن يقرءوا عن الأمجاد السالفـــة للإمبراطورية ، وكان أحب كتب الأخبار إلى قلوب الناس يمتد فى أعماق الماضى حتى إلى خلق آدم وحواء وتتضمن قصة طروادة . وكانت للأباطرة السالفين والقديسين الدارجين صورة مشرقة النصاعة أمام نواظرهم . ومن أشد اللحظات تحريكا للعواطف أثناء استرداد القسطنطينية فى ١٢٦١ تلك اللحظة التى وجد فيها ميخائيل باليولوجوس بكنيسة صغرى أمام الأسوار جثمان سلفه العظيم باسيليوس جلاد البلغار . وعندئذ أعيد دفن الإمبراطور الذى طالت فى أدراج الموت رقدته بين حماسة الجماهير الماثلة[2] . كما أن قسطنطين الحادى عشر استطاع والمدينة تتردى فى هوة السقوط أن يستثير أبناء وطنه إلى بذل جهد أخير بالحديث عن جرأة وإقدام أجدادهم الإغريق القدماء والرومان[3] .

---

(١) آنّا كومنينا ص ١٦٤ .

(٢) باخيمير ج ١ ص ١٢٥ .

(٣) فرانجيس ص ٢٧١ — ٢٧٨ .

وكانت الفلسفة على الدوام موضوعاً محبباً إلى قلوب البيزنطيين . فكان آباء الكنيسة الكبار يعرفون تمام المعرفة الفلاسفة الوثنيين ويدينون بالشيء الكثير للأفلاطونية الحديثة . وأصيبت المعرفة فى القرنين السابع والثامن باضمحلال أفضى إلى نقص المقبلين على الدراسات الفلسفية — وإن قرأ الراهب قوزمة (قوزماس) فى ٧١٠ فلسفة أرسطو وأفلاطون[١] — ولكن حدثت نهضة فى القرن التاسع . وكان لاوون الفيلسوف مغرماً بأرسطو بصفة خاصة ، ولكن قرئت تحت إشرافه ورعايته مؤلفات كل من أفلاطون وأبيقور وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة[٢]. وحدث فى القرن الحادى عشر انتعاشة عظيمة للفلسفة الأفلاطونية يتزعم حركتها بسللوس : وإن كان ادعاؤه أنه هو وحده الذى أعادها ينطوى على شيء من الادعاء الصلف[٣] . وبذل رومانوس الثالث ورجال بلاطه قصارى جهدهم لكى يفهموا أفلاطون — ولكن دون أن يحرزوا أى نجاح فيما يقول بسللوس ، كما أن الصورة التى صور بها الإمبراطور نفسه فى شكل ماركوس أوريليوس جديد كانت والحق يقال صورة مستوجبة للرثاء . وكان يوحنا ماوروبس أسقف يوخائتا ، المعاصر لبسللوس ، من المولعين بالفلسفة الأفلاطونية[٤] : وذلك على حين سمح يوحنا الإيطالى (إتالوس) تلميذ بسللوس لمذهب فيثاغورس أن يجترفه أمامه إلى مهاوى الزندقة الصارخة[٥] . وفى القرن التالى أظهر ميخائيل أكوميناتوس تفضيلا لمذهب الرواقيين على المذهب الأرسطوى[٦] . وكانت دراسة الفلسفة الإغريقية قد أصبحت عند ذاك جزءاً من تربية الأفراد معترفاً به ؛ وكثيراً ما أضيف

---

(١) انظر « Vitae S. Joannis Damasceni » فى .M.P.O مج ٩٤ ، ٤٤١ .

(٢) انظر قصيدة قسطنطين فى .M.P.O مج ١٠٧ ص ٦١ ع ع .

(٣) بسللوس فى .B.G.M مج ٥ ص ٥٠٨ ع ع .

(٤) نفس المؤلف (Chronographia) ج ١ ص ١٤٧ ؛ وانظر الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٥) أنظر أنا كومنينا ص ١٣٢ ع ع .

(٦) انظر ميخائيل خونياتس (Epistolae) . نشر هذه الرسائل لمبروس ج٢ ص١٢٠–١٢١ .

إلى ذلك على عهد آل باليولوجوس دراسة مذاهب فلسفة العصور الوسطى الكلامية [المدرسانية] ببلاد الغرب . على أن أحداً من فلاسفة بيزنطة لم ينتج شيئاً جدياً يتسم بالأصالة حقاً عدا آخر من ظهر فيهم وهو جورج چيمستوس پليثون ، وهو آخر من ظهر بين عظماء فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكان ما أظهره نحو المسيحية من عدم اهتمام عوناً قوياً لفكره الحر . وذلك أن الكنيسة وإن لم تظهر استهجاناً للدراسات الفلسفية ، إلا أن الجمع بين أى نظام فكرى فلسفى وبين الاستمساك بالعقيدة السلفية الصحيحة غالباً ما كان أمراً عسيراً إلى حد ما .

وظل اللاهوت علماً قائماً بذاته تحت إشراف الكنيسة . بيد أنه كان علماً شديد التعقيد ، كما أن علماء من أمثال يوحنا الدمشقى أو فوطيوس أو مارك الأفيسوسى وبساريون — كانت دقتهم شديدة وعلمهم غزيراً هائلا . وكان المتعلمون يحبون أن يأخذوا بطرف فى دراسة اللاهوت — ولا بد أن فوطيوس قد حصل على علمه الغزير كإنسان علمانى — وبخاصة الأباطرة بوصفهم الرؤساء الأعلين للكنيسة ؛ على أن هؤلاء الأباطرة الهواة قلما كانوا رجال لاهوت على قدر كاف من الإلمام . بل الحق أن الإيسوريين ورطوا الإمبراطورية فى زندقات بشعة . فإن يوستنيانوس وهرقل قد ضلا سواء السبيل على الرغم من تقواهما ، كما أن عمانوئيل الأول حاول أن يظهر براعته الفائقة فى (Holosphyrism)[1] ، على حين أن كثيراً من آل باليولوجوس قد غررت بهم أخطاء اللاتين وأوقعتهم فى الضلالة . حتى لقد أظهر العالم ثيودور فاتاتزيس جهلا محزناً فى التفريق بين نوعى العبادة : السجود (Proskunêsis) والتهجد[2] (Latreia) . وكان الأحكم والأرشد بهم إظهار الإعجاب بعلم اللاهوت من بعيد . فإن أنَّا كومنينا وَجِلَت وَجَلا

(١) نقيتاس قونياتس ص ٢٧٨ — ٢٨٤ .

(٢) ثيودور لاسكاريس "Opera" نشره فيستا ص ٩٩ .

عميقاً حين وجدت أن أحب ما كانت تقرأ أمها مؤلفات الكاتب المتصوف ماكسيموس المعترف[1] الذى عاش فى القرن السابع .

وعِلم البيزنطيين بالرياضيات وإن كان مصدر فخار لهم ، لم يكن فى الراجح ليزيد على ما كان لقدماء الإغريق . وقد غل أيديهم فى الحساب أرقامهم القبيحة . وكان الإغريق قد تقدموا فعلا بقدر ما أمكنهم كلما استخدموا حروف الأبجدية بدل الأرقام من غير الطريقة العشرية . وتُرك للعرب أن يخطوا الخطوة التالية . وإذا انتقلنا إلى الهندسة وجدنا البيزنطيين يروون الحكايات الطوال عن أنهم يفهمون الاستدلال الهندسى أحسنَ من العرب ، مع أن العرب أيضا كانوا يدرسون إقليدس . فإن تلميذ لاوون الفيلسوف الذى أخذ أسيراً فى بغداد أذهل علماء بلاط الخليفة العالم المأمون بتمكنه من تلك المادة وتضلعه فيها[2] . على أن هندسة إقليدس ظلت لديهم كما ظلت لدى العالم كله حتى العصور الحديثة أقصى حد للمعارف الهندسية .

ولم يستطع أحد من الشعوب أن يعلو على الإغريق القدماء فى فروع أخرى أيضاً من العلوم . فإن بطلميوس ظل حتى آنذاك متسلطاً على الفلك : على حين أن أنّاكومنينا كانت تعتقد فيما يظهر فى نظرية الأفلاك الدوارة التى تجعل من الأرض مركزاً لمجموعة من الكرات الأرضية يجمعها مركز واحد واتخذتها وسيلة التفسير لهذا العالم — وهى فكرة أعلنها أناكسيمندر فى القرن الخامس ق . م[3] . أجل حدث بين الفينة والفينة ثورات على نظرية بطلميوس . فإن قوزمة الملاح الهندى كتب مذكراته عن التجارة الهندية لكى تساعده على إثبات أن الأرض مستطيلة ومسطحة حقاً ، وأنها مثل غرفة الطابق الأرضى سقفها هو السماء وجنة الخلد فيها هى الطابق الأول — وقديماً

---

(١) أنّاكومنينا ص ١٣٥ .

(٢) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ١٨٩ ع ع .

(٣) بكلر بالمرجع السابق ص ٢١١ ع ع .

استخدم موسى نفس هذه الصورة فى تخطيطه شكل الهيكل . والشمس فى تلك النظرية أصغر كثيراً من الأرض ، ويحجبها ليلا جبل مخروطى مرتفع فى الطرف الغربى . ويحف المحيط من حول الأرض ومن ورائه الأرض التى يسكن فيها القوم الذين هم بمنأى من الطوفان(١) .

وكانت معرفة البيزنطيين بالجغرافيا لا بأس بها أجل إنه لم تبق من خرائطهم خريطة واحدة — وليس عدلا أن نحكم عليهم من خريطة الفسيفساء المرسومة فى القرن السادس لتمثل فلسطين والتى عُثر عليها قرب مادابا ، وإن كانت لتلك الخريطة ذاتها مزاياها . ومما يدعو إلى الدهشة أن قسطنطين بورفيروچنيتوس لم تبدر منه إلا أخطاء جغرافية قليلة ، وإن غلب عليه الغموض فى كثير من المواضع . أما أنّا كومنينا فعامرة الوطاب بالمعلومات الصحيحة عادة والمتعلقة بالرياح والتيارات السائدة . وهى تنبئنا أن ألكسيوس الأول أمر بصنع خريطة للبحر الأدرياتى عليها حدود ذلك البحر ومعالمه(٢) . وكانت ظواهر الطبيعة تفهم فهماً غير محكم . فإن كيكومينوس يحاول تفسير الرعد ويدرك أن الرعد والبرق يحدثان فى وقت معاً(٣) ؛ كما أن أكروبوليتا عرف سبب الخسوف والكسوف(٤) ؛ ولكن القوم كان يشيع بينهم بصفة عامة اعتبار هذه الأشياء تحذيرات أو عقوبات آتية من السموات العلا — وحتى ألكسيوس الأول الذى كان يعتقد حقا أن المذنّب شىء « يعتمد على بعض الأسباب الطبيعية » ، إلا أنه استشار العرافين عندما ظهر أحد تلك

---

(١) قوزمة الملاح الهندى (Cosmography) ، بمواضع متفرقة .

(٢) أنّا كومنينا ص ٣٤٠ . .

(٣) كيكومينوس : "Strategicon" ص ٨٣ .

(٤) أكروبوليتا ص ٦٨ .

المذنبات فى السماء — بصورة جعلت التفسير الحقيقى لتلك الظاهرة يلوح لهم كأنما هو شىء خلقى وليس شيئاً طبيعياً[١] .

وفى ميدان الكيمياء كانت المساهمة الوحيدة الكبيرة لبيزنطة هى النار اليونانية ، وهى ذلك السائل القابل للاشتعال الذى كان يمكنها من درك النصر فى معاركها[٢] . بيد أن سر تركيبها احتفظوا به دفينا لدرجة لم يمكن معها جعله نقطة بداية لتجارب أخرى جديدة . فأما الميكانيكا فقد كان لنبوغ البيزنطيين العملى فيها مجال أرحب . وكان ما أحرزوا من جلائل الأعمال فى فن العمارة جسيما ضخما ، وبخاصة من حيث البلوغ بالقباب مرتبة الكمال . وقد واصلوا وطوّروا طريقة الرومان فى توصيل المياه وفى صرف المجارى منتجين كثيرا من آيات الهندسة الممتازة . وإن الساعات واللعب والأسود التى تزأر والعرش المحلق فى الهواء ، تلك الأمور التى كانت تملأ زائر القصر من المتبربرين بالروعة ، كانت جميعا أمثلة على براعتهم الميكانيكية الآخذة فى التقدم .

وكان الطب مادة تثير لدى البيزنطيين أعظم اهتمام . فلم يكن تعلم الطب مقصورا بحال على من ينتوون ممارسة الطب مستقبلا ، وهى حال كانت نتيجتها أن بعض الهواة من أمثال پسللوس وأنّا كومنينا كانوا مقتنعين بأن معلوماتهم لا تقل عن معلومات المحترفين ؛ وذلك على حين أن عمانوئيل الأول استطاع أن يطبب ضيفه الإمبراطور كونراد[٣] . وكانت حرفة مكتظة بمحترفيها . وكان السوداويون المرضى بالوهم من أمثال رومانوس الثالث لا يصنعون شيئا دون استشارة الأطباء[٤] ؛ بيد أن كيكومينوس يقول إنهم جميعا بمثابة تهديد إيجابى كما أنهم يوهمون الناس بالمرض ليغتنوا . وهو يقول خذ الفلفل للكبد

---

(١) أنَّا كومنينا ص ٣٠٨ .

(٢) أنظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

(٣) انظر كونراد فى "Letter to Wibald" فى "Epistolae" لويبالد ص ١٥٣ .

(٤) پسللوس : "Chronographia" جـ ١ ص ٥ .

واحتجم ثلاث مرات فى السنة ، وإذا شعرت بالمرض فاسترح وامتنع عن الطعام وتدفأ ، وعندئذ تستطيع الاستغناء عنهم[1] . ومن المحقق أن صحة ثيودور الثانى وأعصابه قد حطمها إكثاره من العناية الطبية[2] . ولكن الطب عند البيزنطيين جدير بالإعجاب لما ينطوى عليه من سداد بصيرة أكثر منه صحة نظرية . فإن النظرية الطبية لم تتقدم كثيرا عن أيام أبوقراط . وكان أساسها هو أمزجة الجسم الأربعة : الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، والدرجات الأربع : الجاف والرطب والحار والبارد ؛ وكان كل شىء يعتمد على قيام التناسب الصحيح بينها . وجميع من ألف فى الطب عنـــد البيزنطيين مثل أوريباسيوس ، وآئتيوس وبول الأيچينى وسمعان ست وأجابيوس الكريتى — كانوا جميعاً يعملون على هذا الأساس ؛ وكانت التقاويم الشعبية المتعلقة بالتغذية وهى التى تنصح للناس فيما يتعلق بما يمكن أكله فى كل موسم من مواسم السنة ، تقوم على تفسير فجيج لتلك الدرجات ، وكان أهم ما تولد عنها من نتائج هو إيجاد استعداد لداء النقرس ، وهو مرض شائع فى بيزنطة شيوعا مستوجبا للأسى[3] . على أنه يلوح أن العلاج الطبى كان شيئا معقولا كأى شئ آخر معروف بأوربا حتى العصور الحديثة نسبيا ، وربما كان الاحتجام والكىّ علاجين شديدين إلى حد ما دون أن ينتجا على الدوام الفائدة السعيدة المرغوبة ، ولكن بُذلت فى حالة النقرس محاولات معقولة لإزالة الأحماض ، فاستخدم التدليك ؛ وكانت الراحة والدفء المتعادل الحرارة توصف فى جميع حالات المرض ، كما أن عقاقير الأعشاب كانت

---

(١) كيكومينوس "Strategicon" ص ٥٣ .

(٢) ثيودور فاتاتز "Epistola" رقم ٧٠ .

(٣) انظر چانسلم (Les Calendriers de Régime) فى : (Mélanges Schlumberger) جـ ١ ص ٢١٧ ع ع ع .

توصف وتعود بالنفع[1] . وتوصى أنّا كومنينا بالقيام بالتمرينات المنتظمة درءاً للإصابة بالمرض ، ولعلها فى هذا تكرر أحسن آراء زمانها – وإن كان وصفها الخارق فى إشراقه ودقته لمرض أبيها الأخير ووفاته ليدل على اهتمام غير عادى وموهبة خارقة فى المسائل الطبية[2] . بيد أن الطب البيزنطى كان يصل إلى ذروته ويتجلى فى أعظم صوره فى تنظيم المستشفيات هناك . فلم يكن لدى الجيش خدمة طبية تمتاز بالكفاية فقط ، بل إن المؤسسات الخيرية العظمى كانت بها عنابر للمرضى عالية الكفاية ملحقة بها . وكان يشرف على مستشفى دير الإله القاهر (بانتوقراتور) التى أغدق عليها الهبات يوحنا الثانى فى ١١١٢ ، عشرة أطباء من الذكور وطبيبة ومعهم اثنا عشر مساعدا من الرجال وأربع مساعدات من النساء ، فضلا عن ثمانية من المعاونين الإضافيين واثنتين من النساء مع ثمانية من الخدم الرجال وخادمتين وثلاثة جراحين واثنان من أطباء الباثولوجيا (علم الأمراض) للقيام بالتشخيص فى غرفة خصصت للتشاور . وكانت مستشفيات أخرى أصغر شأناً منظمة على هذا النحو وعلى معيار أصغر . على أن التمريض كان يقوم به بالفعل نزلاء المؤسسة الأصحاء – وذلك لأن المؤسسات كانت تلحق دائما بأديرة الرجال أو النساء أو بيوت الفقراء . ولسنا نستطيع أن نقدر عدد تلك المستشفيات ، بيد أن المتقين من الأباطرة والنبلاء غالباً ما جرت عادتهم برصد الأموال لمثل تلك المؤسسات ؛ ومع أنه لا مجال للشك أن أعداداً ضخمة من الدهماء كانوا يقاسون ويلات الأمراض فى أكواخهم دون أن يهتم بهم أحد ، إلا أن كل إنسان كانت أمامه فرصة الدخول إلى ظلال الرحمة بالمستشفى . والراجح أن النساء الطبيبات لم يكنّ يشتغلن إلا بالمستشفيات فقط . وكانت سيدات الطبقة

---

(١) بكلر بالمرجع نفسه ص ٢١٥ ع ع .

(٢) المصدر نفسه بالموضع المذكور .

الراقية يعالجهن الخصيان فى الأغلب الأعم ، كما أنهن كن يرتدن كثيراً من أديرة النساء(١) .

وفى هذا كله كان الطب شيئاً يمثل طراز العلوم البيزنطية . وذلك أن حب البيزنطى للنظريات العلمية والثقافة ، كان شيئاً عقيما وإن كان أيضا عظيما وموضع مفاخرة شديدة منهم . وكان موضع نبوغهم هو ناحية الكفاية العملية ، – على غير المنتظر .

---

(١) انظر أيكونوموس "La Vie Religieuse dans L'Empire Byzantin" ص ١٩٣ ع ع ، وانظر أيضا بنى فى "V. V." مج ١١ ملحق ؛ وانظر أيضا عرض ونقد "Typikon" فى B. Z. مج ٨ ص ٥٧٤ .

الفصل العاشر

الأدب البيزنطي [1]

كانت تحد من الأدب البيزنطي قيود من نوع القيود التي كانت تحد العلوم البيزنطية . فقد أعوزه ضرب معين من التلقائية الخلاقة . وعلى حين أن النبوغ البيزنطي وجد لنفسه في ميدان الفن وسيلة تعبير وافية وفاخرة ، فإنه لم يزدهر في الأدب إلا في النقيضين على خط مستقيم : المسائل الأخروية المتعمقة وحسن التصرف من الناحية العملية . ولم يبلغ المؤلفون البيزنطيون قط مرتبة العظمة إلا في التراتيل الدينية والمؤلفات التي تبحث في مذاهب المتصوفة من ناحية وفي المؤلفات التاريخية الواضحة السبيل والتراجم القويمة المنهج . ومع أن بيزنطة لم توفق إلا إلى إنتاج عدد قليل من المؤلفات الأدبية الخالدة ، فقد كانت تستطيع أن تفاخر بوجود سلسلة طويلة من الكتاب المقتدرين الأذكياء تفوق كثيراً عدد من ظهر لدى أي شعب آخر معاصر .

وكانت صعوبات اللغة تعوق الأدب البيزنطي منذ عهوده الأولى . وكانت هناك أشكال ثلاثة للإغريقية ، معروفة بالقسطنطينية هي الرومية (Romaic) ، وهي الإغريقية المتداولة بين طبقات الشعب بالسوق والميناء ، وهي لغة مقتضبة مطبوعة بالإهمال ، لها مجموعة ألفاظ مخلطة وأجزومية بسيطة ساذجة ، ثم اليونانية التي تتحدث بها الطبقات المتعلمة ، وهي اللغة التي كانوا

---

(١) انظر كرومباخر "Geschichte der Byzantinischen Litteratur" وهو الكتاب الأساسي في تلك المادة . فهو يورد طبعات المؤلفات البيزنطية التي نشرت حتى عام ١٨٩٧ . ويمكن العثور على ما نشر بعد ذلك في ثبت المراجع بمقالة ديتريتش عن الأدب البيزنطي في الموسوعة الكاثوليكية مج ٣ ، وفي ثبت المراجع بكتاب "Cambridge Medieval History" مج ٤ .

يكتبون بها أدبهم ، ويُشدد الضغط على الكلمات فيها حسب النبرة واللهجة ، كما أن معظم حروف الحركة وإدغام حرف العلة المتجاورين فيها كانت تتخذ صوت حرف ياء (Iota) طويلة . وكانت هذه اللغة تختلف من زمان لآخر ، فهي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر أقرب شبهاً إلى الإغريقية الفصحى الكلاسيكية منها في الثامن أو التاسع ، كما أن لغة إغريقية ممتازة كان يتحدث بها المجتمع الراقي في عهد آل باليولوجوس . وأخيراً كانت هناك الإغريقية الكلاسيكية القديمة بما طبعت عليه من عتيق النطق المشدد الضغط ، وهي التي كان كل متعلم يدرسها بعناية فائقة . وكان على كل أديب أن يقرر أي لغة يشاء اختيارها . ولم تكن هناك صعوبات كثيرة من ناحية النثر حتى القرن السابع . وكانت قواعد اللغة ومفردات ألفاظها قد بلغت من الانحطاط منزلة لا تسمح للكتابة المتقنة أن تُعد كتابة كلاسيكية ، ولكن الطريقة الجديدة في تشديد الضغط على مخارج الحروف استلزمت في الشعر قواعد جديدة للعروض ، اتبعها الشعراء في القرن السادس . بيد أن التفاعيل الكلاسيكية ، وأخصها بحر الخبب (iambics) الذي كان يكتب مع مراعاة دقيقة للأوزان الكلاسيكية ، ظلت تنتج طوال عمر الإمبراطورية بأكمله . وكان ثيوفانيز مُدَوِّن الأخبار في القرن التاسع أول كاتب استعمل بصورة قاطعة اللغة المتكلمة ، وهي لغة بسيطة ولكنها ليست رشيقة جداً ومملوءة بكلمات من أصول مُختلطة ، منها اللاتينية ومنها السلافية ومنها الشرقية . وبعد ذلك بقرن من الزمان صنف قسطنطين السابع الكتب بلغة الكلام ، بيد أنها لغة لا شك أن أي فرد من قدماء الإغريق كان يفهمها أكثر . وبعد النهضة الكلاسيكية العظيمة التي تمت في منتصف القرن الحادي عشر ، أصبحت الإغريقية الكلاسيكية الوسيلة الوحيدة تقريباً التي يستخدمها الكتاب الذين أوتوا أي حظ من الثقافة ؛ وفي ذلك ما فيه من قضاء على شخصية الكاتب الحرة وتعبيره الذاتي ؛ وذلك لأنه كان يكتب على الدوام بلغة لا تختلف عن لغته

إلا قليلا . ولم تنجب بيزنطة كاتباً كدانتى يكون داعية لتبرير استخدام اللغة الدارجة ، وذلك لأن اللغة الدارجة الحقة وهى الرومية ، كانت تنكرها ولا تكاد والحق يقال تفهمها الطبقات المتعلمة ، كما أن لغة المتعلمين الدارجة قد حال بينها وبين فصم علاقتها بنموذجها العتيق وإبراز شخصيتها واضحة كثرة النهضات الكلاسيكية .

وكان الذى كابده النثر أقل مما كابده الشعر . فعند ما أسس قسطنطين العاصمة الجديدة ، كان آباء الكنيسة الأول وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة لا يزالون ينتجون مؤلفاتهم متمشين مع التقاليد الكلاسيكية التى لم يشذ عنها أحد . وقد أخذت أفكار هؤلاء الفلاسفة تتسم بالغموض والإغراب فى الخيال . بيد أن رجالا مثل بروكلوس وفرفورى كانوا لا يزالون كتاباً أوتوا رشاقة التعبير وقوة العبارة . وذلك على حين كان آباء الكنيسة الأول فى أوج ازدهارهم . فلئن كان المؤرخ أو الدارس اللاهوتى وحدهما هما اللذان يقرآن بتعمق فى هذه الأيام ما سطره القديس باسيليوس أو القديس جريجورى من نيسا (Nyssa) أو القديس جريجورى النازيانزى ، فإن الأدب الإغريقى يستطيع مع ذلك أن يفاخر بهم ؛ وذلك أن الحكمة العملية للقديس باسيليوس والأفكار الصوفية التى خلفها القديس جريجورى النيسى والتسامى الشديد للقديس جريجورى النازيانزى قد عبروا عنها جميعاً فى قدر معين من العظمة والجلال . فلو قورن بهم يوسيبيوس من قيصرية ، وهو اللاهوتى الذى ترجم لحياة قسطنطين ، لبدا لعين القارىء غير صقيل الديباجة إلى حد ما ، وإن كان كاتباً ذا جدارة كبيرة ؛ على أن عظات يوحنا كريسوستوم فى القرن التالى تعد من أبدع ما سطر فى اللغة اليونانية من نثر فنى بيانى . وفى ذلك القرن نفسه ظهر العمل المجهول مؤلفه والذى ينسبه بعضهم إلى ديونيسيوس الأريوباجيتى ، وهو كتاب كان له أثر عظيم فى عالم النصرانية ؛ فقد كان

محاولة للمزج بين المذهب الصوفى فى الأفلاطونية الحديثة وبين العقيدة المسيحية ، وهو مدبج تدبيجاً بديعاً فى لغة إغريقية يمكن نسبتها بحق إلى القرن الأول .

ولم يخل القرنان السادس والسابع من كُتّاب دينيين عظماء ، مثل لاووتديوس البيزنطى والمتصوف مكسيموس المعترف ، الذى كانت مؤلفاته أعسر من أن تفهمها أنّا كومنينا ، وإن لم تكد أمها تقرأ شيئاً غيرها . بيد أن اللاهوت أخذ آنذاك يصبح جدلياً ، كما فقد بشكل ما جذالته القديمة . فإن عظماء رجال اللاهوت من أنصار عبادة الصور ، وهم يوحنا الدمشقى وثيودور الاستوديوى والبطريق نيقيفوروس ومن ورائهم فوطيوس عدو روما ، كانوا من شدة الانشغال بتجميع نقاط الجدل اللازمة لأعمالهم اللاهوتية بحيث حرموا القدرة الخارقة التى وهبها الآباء الأوائل . ثم ران الإهمال والخمول على علم اللاهوت قرنين من الزمان بعد فوطيوس ، حتى ظهر فى عهد آل كومنينوس شخص عظيم يناهض مذهب البوجوميل هو يوثيميوس زيجابينوس ، كما ظهر رجلا اللاهوت العالمان بطبيعة البشر فى أخريات القرن الثانى عشر ، وهما يوستاثيوس الثيسالونيكى (السلانيكى) وميخائيل أكوميناتوس من خوناى . وفى عهد آل باليولوجوس لقى علم اللاهوت قوة دافعة جديدة دفعته أثناء اشتباكه فى الخصومة مع طائفة الزهاد الصامتين (الهسيخاست)[1] والنزاع مع روما . ولو تأملت الطرفين المتنازعين فى النزاع الأخير وهما مرقس الإفيسوسى وچناديوس فى ناحية وبيساريون فى الناحية المقابلة ، لم تجدهم إلا رجالا جدليين من النوع العقيم ؛ على أن النزاع مع طائفة الزهاد الصامتين (الهسيخاست) تمخض عن نخبة من أجود الأعمال فى المذهب التصوفى الشرقى ، وهى مؤلفات بالاموس ونيقولاوس ساباسيلاس .

---

(١) الزهاد الصامتون أو الهسيخاست (Hesychast) : فرقة من الكنيسة اليونانية نشأت إبان القرن الرابع عشر . وهى شيعة باطنية تؤمن بأن النفس يكمن فيها نور إلهى مقره المعدة . وقد انقرضت هذه الطائفة سريعاً جداً . (المترجم)

على أن القرن السادس الذى شهد اضمحلال اللاهوت ، كان أيضا مسرحاً لنهوض التاريخ العلمانى . وكان أول مؤرخ عظيم بعد تأسيس القسطنطينية هو واضع سيرة حيلة قسطنطين ، وهو يوسيبيوس اللاهوتى من قيصرية ؛ بيد أن مؤرخى القرن الخامس لم يكن فيهم مؤرخ واحد به ذرة من امتياز . ولكن بدأت بعصر يوستينيانوس حقبة جديدة . فإن بروكوبيوس ، وإن كان كتابه المعنون « التاريخ السرى » إنما هو مجموعة شتى من الخوض فى السير والأعراض ، ينبغى أن يوضع بسبب ما سطره عن حروب الأباطرة فى مصاف عظماء المؤرخين فى جميع العصور . فقد كانت لغته قوية رصينة ، وحكمه على الأشياء نفاذاً وأوصافه ناصعة مشرقة . فأما معاصره المتأخر أجاثياس ، وهو أيضاً مؤرخ مرموق الجدارة فكان على نقيضه تماما . فإنه كان شاعراً وكثيرا ما كان حبه للألفاظ يطغى ويغشّى معانيه بغشاوة كالضباب أحيانا . وشهد حكم يوستينيانوس أيضاً بزوغ صنف جديد من الكتابة التاريخية . فإن يوحنا مالالاس الأنطاكى كتب أول تلك المدونات الأخبارية البسيطة التى كانت تبدأ عادة بآدم وحواء ، وهى المدونات (chronicles) التى كانت موضع ابتهاج القارئ البيزنطى المتواضع . ومالالاس هذا شخص متعصب دينيا ، ميال للجدل والاستطراد وغير دقيق فى غالب الأحيان ، ومع ذلك فإنه يعمد أحياناً إلى إلقاء أضواء جانبية قيمة وناصعة على حياة عصره اليومية ، كما أن عمله يكشف عن أولى مراحل التسليم بما للغة الكلام من حقوق .

وكان أهم مؤرخى أخريات القرن السادس وأوليات السابع ، وهم الجندى مناندر ، بروتكتور وإيفاجريوس المؤمن بالخرافات ومؤلف أخبار باسكال ، خلفاء لمؤرخى يوستينيانوس يحملون لواء الجدارة . ثم يخمد من بعدهم صوت التاريخ البيزنطى قرنين كاملين : حتى سطر الراهب ثيوفانيز فى القرن التاسع مدونته الأخبارية المسهبة باللغة الدارجة الشعبية . وكان ثيوفانيز يكتب

متأثراً بتحيز الرهبان القاطع ، بيد أنه كان يحتفظ لنفسه بحكمه على الأشياء ، ولا يزال عمله هو المرجع الثقة الوحيد عن القرون السابقة لعصره . وكان معاصره نيقيفوروس البطريق مؤرخاً أقل جدارة بالإعجاب ـ ذلك أنه شاء لمدونته الرواج وسعة الانتشار أكثر من أى مدونة أخرى ، ولذا لم يدرج فيها إلا ما ظن أنه يسلى الجمهور أو يملؤه بالتحمز إلى الاتجاه الصائب . والمؤلفات الثانوية التى ظهرت فى القرن التاسع مثل القطعة المجهولة المؤلف المكتوبة عن لاوون الأرمنى تبين أن التاريخ لم يكن يهمل آنذاك ، وأنه كان إبان القرن العاشر يلقى تشجيع البلاط ورعايته . وقد أظهر قسطنطين السابع اهتماما شديدا بتنقيح مدونة ثيوفانيز الأخبارية حتى تساير العصر ، وعندما أخفق چينيسيوس الذى نصبه لهذه المهمة دون إتمام العمل على الوجه الوافى ، نهض هو نفسه بتحرير المصنف المسمى « تتمة ثيوفانيز Theophanes Continuatus » ، وأضاف إليه ترجمة لجده باسيليوس الأول حافلة باللباقة وجودة السبك . وقد اقتبس مؤلفو هذا المصنف معلوماتهم إلى حد كبير مما وضعه مدون أخبار ظهر فى القرن التاسع هو چورچ الراهب وعن مدوّن علمانى للتاريخ ظهر فى أوائل القرن العاشر هو سمعان المستشار ـ وهما كاتبان وضعا تحت أنظار دارسى التاريخ البيزنطى العصريين عددا من المسائل لا حصر له . ولا شك أن مؤلَّفى قسطنطين عن « إدارة » الإمبراطورية وما بها من « المراسم » ليسا من الصقل بحيث يرتفعان إلى منزلة الأدب الكريم ، على الرغم من قيمتهما التاريخية الهائلة .

ومنذ تلك اللحظة لم ينقطع فيض المؤرخين ومدونى الأخبار ، اللهم إلا إبان حكم باسيليوس الثانى ، وهو إمبراطور كان يحتقر الأدب بجميع أنواعه . وأجدر هؤلاء بالذكر هم لاوون دياكونوس فى أواخر القرن العاشر ، وهو مؤرخ لعل تاريخه عن عصره الذى عاش فيه خير مثال مسطر لتدوين التاريخ عند البيزنطيين ـ فإنه يمتاز بالحكمة والإشراق وأنه مكتوب بطريقة كلاسيكية

لا أثر فيها لادعاء ولا تصنع (وإن سمى البلغار باسم الويسيين والروس إسكيذيين) : وميخائيل پسللوس فى منتصف القرن الحادى عشر ، وهو أحدث الكتاب البيزنطيين عقلية وروحا وأقربهم إلى العصريين ، وهو شخص كلبى ساخر مسلّ ومثقف ورشيد ، بيد أنه ميال إلى مدح نفسه كما أنه مراء ومتصنع إلى حد ما : وميخائيل الأتالياتى معاصره الذى تعد روايته الصادقة والأكثر أمانة فى النقل مرجعا نافعا يصحح أخطـــاء الغير : والقيصر نيقيفوروس برينيوس وزوجته الخارقة لكل مألوف ، أنّا كومنينا ، وليدة الغرفة الأرجوانية ، التى تظل رغم ما تقدم من تفصيلات وما تظهره من استحياء ، أعظم مؤرخة ظهرت فى الدنيا بين النساء : وكينّاموس الذى هو أقل منها تدفقا ولكنه لا يكاد يكون أقل منها سعة معلومات : ومنهم مدونو الأخبار كيدْرينوس وزوناراس وجليكاس ، ويضم الأول مدونة الأخبار الباكرة التى دبجها أسكيليتْزس ، ويسطر الثانى مدونة أخبارية بذل فى تدبيج أسلوبها جهدا واعيا ، بينما أظهر الثالث فى مدونته كلفا بالإرشاد والتعليم وغراما بالتاريخ الطبيعى : ومنهم نيقيتاس أكوميناتوس من خوناى ، وهو مؤرخ عهد السقوط الذى حدث فى ١٢٠٤ ، كما أنه أشد مؤرخى بيزنطة اعتدالا ونزاهة . ثم تتواصل السلسلة فى عهد أباطرة نيقية وآل باليولوجوس — وهم چورچ أكروبوليتا الذى يشمل مؤلفه معظم القرن الثالث عشر حتى استرداد القسطنطينية وچورچ باخيمير وهو لاهوتى متحمس ، أوصل تاريخ الإمبراطورية إلى ١٣٠٨ ، وتشع من دون لغته المفتعلة المصطنعة المتقعرة وهى اللغة المفروضة قسرا على كل أديب فى ذلك الزمان ، النكتة البارعة الحقة والتلقائية الفطرية : وفيهم نيقيفوروس جريجوراس الذى بدأ تاريخه بعام ١٢٠٤ ولكنه ركز اهتمامه على عصره (١٣٢٠ — ١٣٥٩) : والإمبراطور يوحنا كَنْتَاكيوزينوس الذى يعد كتابه « الدفاع apologia » على الرغم مما يشيع فيه من تحيز ، سفراً جيد السبك يمكن الاعتماد عليه : ثم

يجيء فى النهاية مؤرخو عصر النزع الأخير للإمبراطورية وهم خلقونديلاس وفرانجيس رجل البلاط المخلص ، ودوقاس المتواضع وكريتوبولس ذو الميول التركية والمقلد الممتاز من حيث أسلوبه لنموذجه المحتذى ثوكيديديس .

ولا شك أن مؤرخى بيزنطة لا يقلون عن مؤرخى أية أمة أخرى حتى عصرنا هذا الحديث . وقد بزوا بأشواط بعيدة معاصريهم فى الغرب من حيث الأسلوب والحكم على الأشياء واللباقة والقدرة على النقد . وكانوا يجمعون معلوماتهم بعناية ويتوفرون على دراسة أعمال أسلافهم وسابقيهم . بل الحق إن أسكيلتزس يبدأ حديثه بنقد موجه للمؤرخين جميعاً منذ أيام ثيوفانيز — فبعضهم فى رأيه شديد التحيز وبعضهم الآخر شديد الضيق فى أفقه ونطاق نظرته .

وكان كتاب السير والتراجم أشبه الناس بالمؤرخين تماماً ويفوقونهم عدداً أو يكادون . وتكاد معظم هذه التراجم أن تكون خاصة بالقديسين دون غيرهم . فمنذ كتب أثاناسيوس تاريخ حياة القديس أنتونى ، لم يبق ناسك ولا بارز بين رجال الكهنوت إلا كتبت عنه ترجمة لحياته ، وهى تختلف المرتبة عادة تبعاً لمنزلة بطلها . وهناك تراجم قليلة للقديسين ترجع إلى القرون الأولى وذلك عدا عدة سير قصيرة دونها كيرلس من إسكيذوبوليس فى القرن السادس ولاووندبوس من نيابوليس فى القرن السابع ، بيد أن الاضطهاد الذى صحب تحطيم الصور هو الذى أنتج أول محصول ضخم من التراجم . وكان الشهداء المتواضعون من عباد الصور والبطارقة المستمسكون بسنة السلف ، بل حتى الإمبراطورة التقية ثيودورا نفسها يجدون بين المعجبين بهم المخلصين لدينهم من يتطوعون لتسجيل أعمالهم . وسرعان ما تزايد عدد التراجم التى ظهرت ؛ فأخذ أصحاب التراجم يتحدثون عن النساك العموديين وعن نساء يضربهن أزواجهن ، كما يتحدثون عن أساقفة وبطارقة سواء بسواء . وبعض هذه المؤلفات ذات قيمة أدبية عالية مثل ترجمة حياة البطريق

يوثيميوس المجتزأة ، أو حياة القديس سمعان الأصغر التى سطرها فى القرن الحادى عشر نيقيتاس إستيثاتوس الذى أورد المراجع التى عنها استقى أخبار ما روى من أحداث[1] ، وهم راهبة الدير أو غيرها من أصدقائه . وفى القرن العاشر جمع سمعان ميتافراستس معظم تراجم القديسين ورتبها فى صورة تقويم كنسي . على أن الحذر لم يكن رائده دائماً فى تحريره لها . فإنه فى حياة القديسة ثيوكتستى أورد فقرة تقول إن مجد الإمبراطورية اندثر بموت لاوون السادس : وهو أمر استاء له باسيليوس الثانى كل الاستياء حتى لقد حاول أن يدمر الطبعة بأكملها[2] . ثم يقل الإقبال قليلا على كتابة سير القديسين بعد القرن الحادى عشر . ثم تردنا السير المختصرة بعد ذلك فى خطب التأبين التى يلقيها الأصدقاء على جثمان الراحلين من الكبراء . ومعظم ما تبقى من هذه الخطب ، مثل خطبة ثيودور الاستوديوسى على قبر أمه وخطبة الأسقف المحب للكتب أريثاس من قيصرية على جثة البطريق يوثيميوس ، أو الخطب الكثيرة التى ألقاها بسللوس على أمه وعلى المشرع زيفيلين والسياسى ليخوديس والبطريق ميخائيل كيرولاريوس . إنما هى قطع ممتازة من الأدب البيانى .

أما السير الذاتية والمذكرات فأندر من التراجم . والترجمة الذاتية الرفيعة الوحيدة هى ترجمة نيقيفورس بليميداس ، وهو العالم العظيم بالإمبراطورية النيقية ، مع ماعرف عنه من سوء الطبع وشراسة الخلق . وتكاد تواريخ بسللوس ويوحنا كنتاكيوزينوس أن تكون فى عداد المذكرات ؛ وينبغى أن يلحق بهما وصف يوحنا كامينياتس لمغامراته عند نهب العرب لسلانيك فى ٩٠٤ ، وهى قصة جيدة السبك مشرقة الديباجة فظيعة الأحداث ، صادرة عن

---

(١) مثال ذلك : "Vita S. Symeonis Novi Theologii" ص ١٦٠ ، ١٦٢ .

(٢) كيكليلزى "Symeon Metaphrastes in Georgian Sources" (بالروسية) فى مطبوعات أكاديمية كييف جـ ١ ص ١٧٢ — ١٩١ .

قسيس عنيد جاهل : ومنها تصانيف الجندى العجوز كيكومينوس ، وهى خليط قوى وصريح من النصائح والنوادر المنقولة عن خبرته وخبرة أصدقائه وأسلافه .

وفيما عدا هذه الأنواع قلّ أن وجدت مؤلفات نثرية بيزنطية لها أية قيمة . أجل كان هناك رسالة أو رسالتان شبه علمية أو شبه وصفية مثل رسالة قوزمة الملاح الهندى ومختلف الكتيبات العسكرية والقانونية والإدارية ، وكلها مكتوبة بكفاية ووضوح . وكانت لديهم عدة مؤلفات وصفية منها كتاب عن المنشآت والمبانى (De Aedificiis) تأليف بروكوبيوس ، وكتاب « الوطن » (Patria) وهو بيان به وصف آثار القسطنطينية ، وهو كتاب جرى العرف على نسبته خطأً إلى كودينوس أو الكتاب الصغير الذى ألفه نيقيتاس أكوميناتوس عن التماثيل التى دمرها اللاتين فى ١٢٠٤ ، وكانت هناك مؤلفات موسوعية مثل المعجم (Lexicon) الذى ألفه سويداس ، وثم تعقيبات كثيرة على الآداب الكلاسيكية ،أو كتاب فوطيوس الثمين المسمى « دار الكتب » (Bibliotheke) وهو يضم مجموعة من التعليقات على المؤلفين الناثرين الكلاسيكيين والبيزنطيين ، الذين قرأ لهم فى إحدى السنوات . بيد أن هذه المؤلفات جميعاً وإن بذل فى تدبيج أسلوبها شىء من الجهد ، كانت تهدف أساساً إلى غرض تعليمى وإرشادى أكثر منه أدبى . بل إن الهجاء نفسه كان نادرا . وهناك محاورة أو اثنتان من النوع اللوقيانى[١] المتنحل مثل محاورة « حب الوطن » (Philopatris) ، ومحاورة تيماريون (Timarion) الأجدر بالإعجاب ثم « زيارة مازاريس للجحيم » — والأولى إنتاج من القرن الثانى عشر يتسم بالحيوية والذكاء ويحتوى وصفا مشرق الديباجة للسوق السنوى العظيم الذى يقام بسلانيك ،

(١) نسبة إلى لوقيان (Lucian) من أهل ساموساتا عاش حوالى سنة ١٢٠ ميلادية — ألف نحو ثمانين قطعة أغلبها فى صورة حوار . (المترجم)

والأخيرة عمل من إنتاج القرن الرابع عشر يتجلى فيه شيء من التكلف والجهد .

ولا يكاد يكون للرواية القصصية عند البيزنطيين وجود . أجل إن هناك قصة رومانسية نثرية أو اثنتان مثل قصة سِنْتيباس الفيلسوف التي ترجمها ميخائيل أندريوبولوس عن السريانية عند قرابة القرن الثاني عشر وقصة ستيفانيتس وإكنلاتس التي ترجمها سمعان ست عن العربية قبل ذلك بقليل — و الأصل في كلتيهما قصة هندية — هي : — كتاب السادة الحكماء السبعة وكتاب مرآة الأمراء . بيد أن القصة البيزنطية الوحيدة العظيمة هي الرومانس الدينية والخلقية : « بَرلام وجوزافت » — وهي أيضاً قصة من أصل هندي ، قُلب فيها اللاهوت البوذي إلى لاهوت مسيحي . ولقد كانت هذه القصة المسهبة الجيدة النسيج التي قد تكون فعلا من إنتاج مؤلفها التقليدي الذي أجمع عليه التواتر وهو يوحنا الدمشقي كانت بجدارة من أذيع الكتب صيتاً وانتشاراً بين القراء في العصور الوسطى بالبلاد الشرقية .

على أن أوفر فروع الأدب النثري البيزنطي كثرة هو الرسائل . فإن هناك مجاميع وافرة مستفيضة لا يزال كثير منها غير مطبوع من مراسلات البارزين من « الرومان المتأخرين » : ما بين أباطرة وبطارقة وأساقفة ورجال سياسة ، ويمتد أمدها الزمني بين عهد الآباء العظام في القرن الرابع وعلماء البلاط في القرنين الرابع عشر والخامس عشر — أي منذ أيام القديس باسيليوس أو يوحنا كريزوستوم (فم الذهب) إلى عهد نيقيفوروس جريجوراس وجناديوس . ومن بين الرسائل ما هو أوراق حكومية بحت ، ومنها أخرى تعالج الشئون الإدارية للكنيسة ، وما لا يحصر من رسائل التعزية والنصح والحث وشذرات شخصية من الأخبار والخوض في سير الناس . والرسائل المطولة مكتوبة بعناية بأسلوب يكون في العادة جزلا وبيانياً ، وكثيراً ما تكون القصيرة منها بسيطة وذات طابع مباشر وودية حميمة .

وغني عن البيان أن الرسائل لا تعد ذات أهمية كأدب عظيم ، ولكنها تكاد كلها تُظهر فى أحسن الصور موهبة البيزنطى فى التعبير العملى عن الذات ؛ كما أن كثيراً منها مثل التى دبجها السفير لاوون خويروسفاكتا فى مؤخرات القرن التاسع أو نيقيفوروس جريجوراس فى القرن الرابع عشر لها أهمية اجتماعية عظيمة ، وذلك على حين أن تلهف البيزنطيين على الرسائل وعنايتهم بها جعل الخلف يُحس بشكر لهذه النزعة لا يقدر لما عادت له على التاريخ من مزايا .

فأما الشعر ففيه يتجلى إعواز البيزنطيين إلى العبقرية الأدبية الخلاقة بصورة أبرز وأوضح . ذلك أن عدد الشعراء البيزنطيين صغير نسبياً ؛ ومع أن ذوق بيزنطة وثقافتها الواعية صانت مستوى شعرهم من الإسفاف الحق ، إلا أنهما تضافرا كذلك مع مشكلة اللغة على بث العقم فى تلقائية الإنتاج الشعرى وترقرق النضرة فى الشاعرية . والشعر الوحيد الذى تهيأ له أن يخترق هذا الحاجز ويبلغ مرتبة العظمة بفضل ما يتسم به شعور البيزنطيين الدينى من الحدة والقوة الأصيلة ، هو الشعر الدينى . ومنبت صيغة ذلك الشعر شأن العقيدة التى يتغنى بها سواء بسواء — هو الشرق السورى .

وكان هناك شعراء بين آباء القرن الرابع نخص بالذكر منهم جريجورى النازيانزى . وفى القرن الخامس كانت الإمبراطورة يودوكية زوجة ثيودوسيوس الثانى مؤلفة ترانيم ذات مواهب لا يستهان بها ، بيد أن التربية الكلاسيكية التى أخذها بها أبوها الأستاذ الوثنى لاووندبوس كانت تتسلل خفية إلى أشعارها مفسدة عليها إخلاصها الدينى . وكان أعظم كُتاب التراتيل البيزنطيين يعيش فى القرن السادس ، وهو الشماس رومانوس ، وكان يهودياً من بيروت اعتنق النصرانية . ففى موشحات ترصيعية(١) يبدو إيقاعها

---

(١) الموشحات الترصيعية (acrostic) قصيدة إذا جمعت أوائل حروف أبياتها كانت اسماً أو جملة . (المترجم)

المتنوع القائم على تشديد التوكيد مُعقداً أكثر من حقيقته مع استعمال المحاورة غالباً ليتغنى بها فى تناوب صوتى ، فضلا عن ترديد المرجّعات[1] ، — وصل رومانوس إلى مزيج من بساطة اللغة وفخامة الخيال ليس لها من نظير فى الشعر الدينى . وفى قريب من ذلك الوقت نفسه كُتبت قصيدة « أكاثيستوس Acathistus » وهى ترتيلة عظيمة مجهولة المؤلف فى مدح العذراء . والشاعر الدينى البيزنطى الثانى فى الأهمية وهو أيضاً سورى اسمه يوحنا الدمشقى يتسم شعره بنزعة تصوفية ، إذ أن الشغل الشاغل الذى تعلق به قلب رومانوس ، هو مجد السيد المسيح ، أى عظم الفرق بين جلاله وعظمته وبين آلامه — على أن البساطة كانت فى زمانه آخذة فى الزوال . وقبل زمانه بقليل افتتح أندريا كبير أساقفة إقريطش شكلا جديداً من أشكال الشعر الدينى ، هو القانونات وهى أشعار غنائية ذات تفاعيل مختلفة تُجمع معاً فى وحدة واحدة مطولة . وقد تفوق يوحنا فى هذا الفن ، فأفسد بذلك شعره : هذا إلى أنه قضى على عمل معاصره قوزمة الأورشليمى . والراهبة كاسية فى القرن التاسع — وكانت مرشحة للزواج من الإمبراطور ثيوفيلوس ولكنها لم تحظ بالقبول — خير مثال على من جاء بعد ذلك من مؤلفى التراتيل . ويتجلى فى ترانيمها حاسة معينة من الجمال والأصالة والتقوى الصادقة ، بيد أنها تبدو للقارئ قطعاً من النصوص الجامدة أكثر منها انبجاسات من الشعور الوجدانى التلقائى . ثم يجىء دور شعراء الإمبراطورية فى العصر المتأخر . وهم رجال من أمثال يوحنا موربوس فى القرن الحادى عشر وثيودور ميتوخيتس فى الرابع عشر . ويتجلى فيهم جميعاً بلا استثناء ضرب من الإلهام العلمى الأكاديمى لا الانفعالى الوجدانى . بيد أن هناك عدداً ضخماً من التراتيل البيزنطية لا يزال حبيساً فى أضابير دور الكتب الأوربية ينتظر من ينفض عنه الغبار وينشره ، حتى أننا لا نستبعد أن يؤدى

---

(١) المرجعات هى اللازمات (ج . لازمة) التى يرددها جماعة المرتلين المسماة بالكورس . (المترجم)

البحث فيه إلى الكشف عن شاعر ديني آخر عظيم . وإن الدراما الدينية التي ألفها خريستوس باسخون التي كانت تُنسب قبلا إلى جريجوري النازيانزي والتي يختلف التقدير في تاريخها الآن بين القرنين الرابع والثاني عشر ، ما هي إلا مؤلف ممل من مقاطع بحور الغمب ، ولكنها تصل في بعض لحظاتها إلى ذرى عاطفية رفيعة ، كما أن بعض فقراتها منقول عن رومانوس مؤلف التراتيل[1] أو لعله هو الذي نقل عنها .

وكان كتاب التراتيل البيزنطيون يؤلفون بأنفسهم ألحانهم ، التي لاتزال هي وبعض الأنغام الشعبية المنقولة بالتواتر ، تؤلف الموسيقى البيزنطية الوحيدة التي بقيت لنا حتى اليوم . على أن كلا من التدوين الموسيقى البيزنطي العتيق والتدوين المتقن المضبوط الذي أدخل في القرن الثالث عشر لا يزالان إلى حد ما من المسائل التي احتدم فيها الخلاف . وكانت موسيقى التراتيل من النوع الشكلي والتناوبي ، الذي ينبغي أن يُتغنى به غير مصحوب بآلات موسيقية ، شأن موسيقى الكنيسة الأرثوذكسية بأجمعها[2] .

وعلى حين صيغت التراتيل البيزنطية في قالب القانونات ، فإن الشعر البيزنطي العلماني كان يقع في ثلاثة بحور شعرية رئيسية ، وهي الغمب الكلاسيكي ، وهو مقصور عادة على شعر الحِكَم والأمثال ، ثم يليه الشعر الغمبي الثلاثي الأوزان ذو المقاطع الاثني عشر ، ثم يجئ بعد ذلك ما يسمونه الشعر السياسي ، وهو ذو الفواصل ذات الخمسة عشر مقطعا ويبدأ خارج نبرة التأكيد . ولم يزدهر فن الشعر الغنائي نتيجة لما يُسمى بالاتجاه الموضوعي للكتاب البيزنطيين . وكان أقرب الأشياء إلى الشعر الغنائي هو شعر الحِكم

---

(١) انظر كوتاس : "Le Théâtre à Byzance" ص ١٩٧ ع ع . إن السيدة كوتاس تعتقد أن المؤلف هو النازيانزي .

(٢) انظر المقالات التي كتبها تليارد في B.Z. في المجلدات ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ . وتوشك جمعية الماجناجريكيا البيزنطية بروما أن تصدر كتاباً هاما عن الموسيقى البيزنطية جمعه رهبان جروتا فِرّاتا .

والأمثال ، الذى وجدت فيه رشاقة العاطفة العلمانية البيزنطية وغرورها أنسب سبيل للتعبير عن نفسها . وقد كتب چورچ من أهل بيسيديا فى القرن السابع وهو أول من أدخل الغمب ثلاثى الأوزان ، ــ مقطعات من شعر الحكم تتناول أحداث زمانه الكبرى ، ومنها ما هو مطول تطويلا تجاوز الحد . ثم إن ثيودور الاستوديومى كتب طائفة مسلسلة من مقطعات شعر الحكم والأمثال حول حياة الدير وأحداثها ، كما كتبت كاسية كثيراً من مقطعات شعر الحكم الرشيقة وشبه الدينية . بيد أن القرنين العاشر والحادى عشر كانا ربيع ازدهار شعر الحكم . فلم يقتصر الأمر إذ ذاك على جمع المجموعة الأدبية البالاتينية ، وهى التى كان قدر كبير من محتوياتها من تأليف مؤلفين بيزنطيين ، بل إن مؤلفى شعر الحكم والأمثال فى ذلك الزمان كان فيهم كثير من أكفأ الشعراء البيزنطيين منهم : قسطنطين الرودسى ويوحنا چيومتروس وخرستوفر الميتيلينى ويوحنا موروبوس . ثم تدهور شأن شعر الحكم بعد ذلك ؛ ولم يكتب ثيودور برودوموس فى عصر آل كومنينى ولا عمانوئيل فيليس فى أوائل عهد البيت الباليولوجى إلا أشعاراً لا تتجاوز قيمتها الجدارة التاريخية . وكان شعر الحكم ينفلت أحيانا إلى شعر وصفى ، وهو صنف وجد فيه الشعراء البيزنطيون أيضا وسيلة سهلة للتعبير ، ذلك أنهم فى تحدثهم بأمجاد القسطنطينية أحسوا بشىء من التوقير الذى أضفى على ترانيمهم شعوراً متصفا بالأصالة . إذ لا شك أن وصف بولس داعية الصمت[1] لكنيسة آياصوفيا ووصف قسطنطين الرودسى للصور الفسيفسائية بكنيسة الرسل المقدسين قد كتبا بإحساس حق من الشعور بالجلال والرهبة . وقد أفضى ما ران على البلاد من الرعب والحزن إلى إضفاء مسحة من تلك الحدة نفسها على أشعار يوحنا چيومتروس

---

(١) داعية الصمت : Silentiary – الموكل بمراعاة الصمت فى البلاط البيزنطى أو من يدعو إليه بدوافع دينية . (المترجم)

التى كتبها وصفاً للكوارث التى حلت بالإمبراطورية فى النصف الثانى من القرن العاشر . بيد أن الشطر الأعظم من الشعر البيزنطى إنما هو منتجات جافة يراد بها التعليم والتثقيف ، وذلك مثل مؤلفات فقه اللغة التى وضعها يوحنا تزيتزيس أو مؤلفات يوحنا كامايتروس فى علم التنجيم ، وكلاهما من أبناء القرن الثانى عشر ، أو المؤلفات العلمية التى دبجها عمانوئيل فيليس : أو أشعار البلاط مثل قصائد الاستجداء التى وجهها ثيودور برودوموس إلى مختلف أعضاء من الأسرة الكومنينية ، والنقوش المنمقة التى نظمها ثيودور ميتوخيتس على شواهد قبور بعض الراحلين من أمراء البيت الباليولوجى ، أو ذلك الوصف الوافى الذى وضعه ثيودوسيوس الشماس لحروب نيقيفوروس فوقاس . وقد انقرض شعر الملاحم أو كاد بعد الشاعر المصرى نُونّس ، وهو آخر مؤلف استخدم الشعر السداسى الأوزان ، وقد كتب فى أوائل القرن الخامس ملحمة مغربة الخيال حول الأسفار التى قام بها ديونيسوس ببلاد الهند ، كما دبج بعد تنصره ملحمة أخرى متسمة بالرصانة القاطعة ترجم بها إنجيل القديس يوحنا . وكتب جورج لابيثيس فى القرن الرابع عشر ملحمة رمزية طويلة ، بيد أن طابعها الخلقى والتهذيبى وأسلوبها المسهب النابض بالوعى الذاتى جعل قراءتها من الصعوبة بمكان كبير .

والقصيدة الكبيرة الوحيدة الممتازة حقاً التى ظهرت ببيزنطة إنما هى من نوع الرومانس الشعبية . والكثير من الشعر الشعبى البيزنطى يتصف بالسذاجة والفجاجة . وإن ما يسمى بنبوءات لاوون الحكيم لا تستحق فى ميدان القصيد إلا اسم النّظم : على أن المدونتين الأخباريتين التافهتين اللتين كتبهما ماناسيس وإفرايم (وقد كتبتا على التعاقب فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر) لا يمكن أن ينعتا بهذا الوصف . على أن القصص الرومانسية تبدو أحياناً فى ثوب من القوة والحياة الحقيقية . وقد ظهرت فى وقت ما من

القرن العاشر ملحمة شعبية طويلة كتبت « بالنظم السياسى » فى عشرة أجزاء تتحدث عن سيرة حياة مقاتل على التخوم الشرقية هو ديجينيس أكريتاس . وهى فى رأى بعض الناس نظير لقصة « أنشودة رولان (Chanson de Roland . وربما كانت هذه الملحمة الغربية أحفل باللمسةالدرامية ، بيد أن ملحمة ديجينيس أكريتاس أعظم الجهدين بصورة مطلقة ، وذلك من حيث نصاعة أوصافها ورقة ما فيها من تحليل للنوازع النفسية . وربما جاز لها أن تدعى عن جدارة بأنها أفخر « أنشودة رومانسية Chanson de geste » دبجتها يراعة كاتب فى يوم من الأيام . فإن واحدة من القصص الرومانسية التى جاءت بعدها لم تصل قط إلى مثل هذا المستوى الرفيع . وجاءت النهضة الكلاسيكية فى القرن العاشر فأدخلت القصص الرومانسية الإغريقية القديمة كنموذج يحتذى من ناحية ، كما أن قصص الفروسية الرومانسية الغربية أصبحت معروفة ببيزنطة من الناحية الأخرى . وكان نتيجة ذلك بث الوعى الذاتى فى « الأنشودة الرومانسية » البيزنطية . وروايات القرن الثانى عشر الرومانسية مثل « كاليماخوس وكريسورهوى » (Callimachus & Chrysorrhoë) — أو « بلثاندروس وكريسانتزا » (Belthandrus & Chrysantza) مكتوبة حول موضوعات غربية فى محاولة مفتعلة لاصطناع اللغة الكلاسيكية ، وذلك على حين أنه حتى شعراء القسطنطينية من أمثال ثيودور برودروموس وديوثاسيوس ماكريبوليتس ، حاولوا غير موفقين إنشاء القصص الغرامية ذات التفاعيل الشعرية . وظهرت للروايات الرومانسية الفرنسية اقتباسات شعبية — فإن رواية « فلور وبلانش فلير » تظهر تحت اسم « فلوريوس وبلاتزيا فلورا » ، كما أن قصة « رينار الثعلب » تولد عنها عدد كبير من القصائد الدائرة حول الحيوانات ببلاد المشرق . غير أنه حدث والإمبراطورية فى سنواتها الأخيرة أن ظهرت طرازات جديدة من الشعر الشعبى . وأغانى الحب الرودسية التى ظهرت فى القرن الرابع عشر كانت استهلالا لطبقة

جديدة من الشعر الغربي ؛ ولبعض هذه القصائد مسحة تلقائية من السحر والجمال . وهناك أيضاً قصائد تروى القصص الفاجعة الكبيرة المتعلقة بانهيار الإمبراطورية — وهي مراثٍ قيلت في سقوط القسطنطينية وأثينا وطرابيزون . وهي بما اجتمع فيها من إخلاص صادق تكوّن أنشودة وداع عجيبة لذلك الأدب البيزنطي الشديد الغرور .

والأدب البيزنطي يقف بمعزل إلى حد ما عن التيار الرئيسي للأدب في العالم . والمؤلفات اللاهوتية الأولى التي ظهرت فيه حتى عهد يوحنا الدمشقي ، كان لها أثر عميق في الفكر الغربي ؛ كما أن مؤلفاتها التاريخية كانت للناس نموذجاً يحتذى في مضمار تدوين الأخبار تدويناً مقترناً بالعناية ، صانه وحافظ عليه الصقالبة طويلا وخاصة منهم الروس . ومع ذلك فإن الأجيال التالية تحس بالشكران نحو بيزنطة لا من أجل ما أظهرت من أعمال خلاقة بل لما قامت به من صيانة للقديم ومحافظة عليه . فنحن لأدباء بيزنطة مدينون ، لا من أجل ما أحرزوا من انتصارات في ميادين الأدب مطبوعة بالأصالة ، بل لأنهم حافظوا بكل عطف ومحبة على الكثير الجم من كنوز الماضي الكلاسيكي ومن التقاليد الكلاسيكية للفلسفة والتأمل الفكري والرغبة في الاستطلاع . ومع ذلك فإن تلك الانتصارات الأدبية قد قامت بالفعل في التراتيل الدينية وفي المدونات التاريخية وفي ملحمة شعرية شعبية كبيرة واحدة .

الفصل الحادي عشر

الفن البيزنطي[1]

ربما جاز أن تُغمز العبقرية البيزنطية في ناحية الأدب بأنها تعوزها الأصالة والقدرة على الابتداع . على أن حالها في مضمار الفن مختلف جداً ؛ ومع ذلك فكلاهما كان موجوداً بوفرة . وفي مضمار الفن ومنتجاته خلّفت بيزنطة للعالم أفخم ما لديها من تراث وأدومه على الدهر .

والفن البيزنطي أصدق مرآة للكيان المركب الذي كانت تتألف منه الحضارة البيزنطية ، فهنا يمكن التعرف على جميع العناصر : الإغريقي الروماني منها والآرامي والإيراني — وهي تنهض بنسب متفاوتة ، ولكنها ممتزجة على الدوام امتزاجاً تاماً يخلق منها كُلاً متكاملا : أي شيئاً فريداً في بابه وأصيلا في نوعه رغم تنوع مصادره وأصوله . وقد بثّت اسم بيزنطة الخوف في قلوب مؤرخي الفنون العصريين . وكما أن المؤرخين السياسيين ينزعون في هذه الأيام بعناية وحرص إلى تسمية تلك الدولة باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو بالرومانية المتأخرة لا باسم البيزنطية ، فكذلك فنها الذي يستتر وراء اسم الفن المسيحي الشرقي أو المسيحي المبكر . وعندي أن مثل هذه التحوطات غير ضرورية ، بل هي مضللة . ولقد كان ذلك الفن بطبيعته فن

---

(١) انظر دالتون : « Byzantine Art and Archaeology and East Christian Art » ؛ وانظر ديل في « Manuel d'art Byzantin » وانظر كونداكوف في : « Histoire de L'Art Byzantin » ؛ وانظر بريه « L'Art Byzantin » ؛ وانظر بايبه « L'Art Byzantin » وانظر مقال ميليه « L'Art Byzantin » في كتاب « Histoire de L'Art » تأليف ميشيل مج ١ ، ٢ — وكلها مؤلفات عامة . ومن الفترة المبكرة انظر ستريزى جوفسكى « Origin of Christian Church Art » وتيلر في « L'Art Byzantin » مج ١ .

القسطنطينية فى عصر الإمبراطورية ، وقد ظلّ متشحاً بخصائصه الأساسية ما امتد لحكم الأباطرة لواء على ضفاف البوسفور . وكان من حيث الجوهر فناً دينياً ، ولكنه لم يكن تبعاً لذلك فناً مسيحياً . بل الأحرى أن يقال إنه ثمرة لذلك العصر الدينى الذى انتصرت فيه المسيحية . وربما تهيأ لنا أن نشهد خصائصه فى فن الكنائس قبل قسطنطين ، بيد أن تلك الخصائص ظاهرة كذلك فى الفن الذى حاول به دقلديانوس أن يشد من أزر تأليه العظمة الإمبراطورية. ومزج قسطنطين بين هاتين الديانتين ، حيث جعل نفسه ظل الله ونائبه فى الأرض ، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً صار الفن الذى يمجد الدولة يمجد فى ثنايا ذلك إله المسيحية ، بيد أنه كان فناً مبعثُ الإلهام فيه وجدان عبادة ذات عمق وتسام يكاد يتسم بلمسة تصوفية بدلا من تلك الرمزية التى اختصت بها المسيحية التى قصرت نفوذها على الفن الكنسى .

وعندما أشرف القرن الثالث على ختامه لم تعد للفن الإغريقى الرومانى أية قدرة على الاستمرار . فإن النزوع الإغريقى القديم نحو مجاراة الطبيعة بصورة مرتبة ترتيباً رشيقاً يتجلى فيه الذوق السليم ، — كانت قد امتدت إليه يد التنميق والتزيين فى العصر الهللينستى ، بل زاد التنميق فى عهد الرومان مع إتقان وزيادة فى التفاصيل بل وزيادة فى الحجم ، جرت بها العادة وجعلت كل عمل فنى حدثاً جليلا يحتاج إلى جهد خاص ومهارة ممتازة . واجتلب القرن الرابع رد فعل من الشرق . فإن ديانات من أصل سورى أو سورى مصرى شرعت تزداد انتشاراً بين الناس فى كل أرجاء العالم . وكان أتْباع تلك العقائد ومريدوها ينزعون بالفطرة منازع التخفى ويتسمون أساساً بالسخط على العالم المحيط بهم ، فهم قوم كان السرور والرضى المتجلى فيما كان للهللينستيين من نزوع إلى مجاراة الطبيعة[1] شيئاً ليس له عندهم أى

(١) النزعة الطبيعية : (Naturalism) محاولة تحقيق الإخلاص المطلق للطبيعة بتمثيل الحياة أو الأشياء الطبيعية تمثيلا حرفيا لا مثالية فيه : وهى بمعنى آخر المذهب الواقعى المنطوى على التمشى مع الطبيعة ومجاراتها . (المترجم)

معنى . وكانت الطبيعة قبيحة فى نظرهم فى غالب الأحيان وكانوا على استعداد لمواجهة قبحها . وقد استغنوا عن رقة الرسم وتوازن التركيب ؛ ذلك أنهم كانوا يتطلبون فناً يتحدث إليهم مباشرة دون أى تساهل أو تسوية ، ويستثيرهم إلى حالة حدة الانفعال بدلا من أن يهدئ من جأشهم ويستميلهم إلى حالة من الارتياح الجسّانى . ولم يكن محيص من أن يؤدى انتصار المسيحية إلى زيادة قوة هذه الفكرة الآرامية عن الفن . فلا يمكن أن يصور المسيح كما كان أبولّو يصور ، فإنه هو الإله الذى قاسى العذاب ، وهو الحكَم العظيم ، وهو المخلّص . وينبغى لكل عابد يعبده أن يُحِسّ به على الفور متمثلا فى أحد هذه الأدوار ؛ وينبغى أن ترتسم على وجهه بقوة خطوط الآلام التى كابدها وخطوط الجد والصرامة أو الإحسان والخير الإلهى . لقد كان الدين يتطلب أخذاً بالمذهب الانطباعى (impressionism) لم يكن معروفاً فى العالم اليونانى الرومانى .

وفوق هذا أسهم الشرق أيضاً بعنصر آخر . ذلك أن الفكرة الجديدة عن السيادة قد جاءت من فارس ، من الساسانيين منطبعة بطابع فيه قدر من الجلال والعظمة أكثر بساطة ومباشرة مما أثر عن روما من مُحكم العظمة والفخامة . وقد مهدت العقيدة الميثرائية لها السبيل ، وهى الدين المنبعث من إيران الذى يعبد الشمس المكللة بهالات المجد . وكان للميثرائية أو المزدكية التى منها اشتقت ، — كان لها فنها الخاص ، وهو ليس ذا نزعة طبيعية متسمة بالجمال كالفن الهلينستى ، ولا هو ذو طابع واقعى مصطبغ بالعاطفة كالفن الآرامى ، بل هو فن رمزى لنماذج لعلها جاءت أصلا فيما يلوح من مرتفعات التركستان . وقد كان هذا الفن القائم على النماذج والتصميمات يؤثر بالفعل فى الفنانين الآراميين بالشرق الأدنى ، ويعوض بطريقة ما عن إهمالهم لحاسة الإنشاء والتصنيف عند الإغريق .

وقد ظهر « الفن الجديد » مؤلفاً من هذه العناصر جميعها ، عند بداية

القرن ذاتها . فإن التماثيل التى تمثل حكومة دقلديانوس الرباعية ، حل فيها محل طريقة تصوير الإمبراطور فى القرون السابقة يوم كان الإمبراطور لا يُرسم إلا فى صورة بدنية رائعة ، تمييزاً له عن صور أى فرد من أفراد رعيته ــ حل فيها فن رمزى غير شخصى يؤكد توكيداً مباشراً عظمة روما الصارمة القائمة قبالة البرابرة وجهاً لوجه . وأتمت المسيحية الحركة وأوصلتها إلى نهاية الشوط . فإن الجمهور المسيحى كان يطالب بالفن الذى يتجاوب معه بطريقة عاطفية مباشرة ، ولا ينشد فيه التزام الإبداع الفنى ، وذلك بنفس الطريقة التى كانت تطالب بها السلطات الإمبراطورية أن تكون الصور التى تمثل السيادة الرومانية رمزاً معنوياً بدلا من أن تكون صوراً قوية المماثلة لمختلف الأباطرة غير المخلدين . على أن الفنيين الهللينستيين وقد استنفدوا كل سر من أسرار الأصول الفنية لفنهم قد واجهتهم مشكلة جديدة ، هى مشكلة المواءمة بين أصولهم الفنية وبين مقتضيات العالم الجديد . ولعلهم عمدوا أخذاً بسُنن الحُصفاء الخبيرين بشئون الدنيا إلى النزول عن طيب خاطر عن طريقة رسمهم القديمة المحكمة المشابهة للحياة بكل ما فيها من أضرب التراكيب التشريحية الدقيقة والمبالغ فيها فى الحين نفسه ، فضلا عن نبذهم منوالهم الماهر فى التصغير وتخليهم عن ثروتهم الكاملة من التفصيلات ، ــ لكى يجربوا التجارب فى لُجة وجهة النظر الفنية الجديدة . وفى الحين نفسه وجد الفنان الشرقى الغشيم فى البلاط ظهيراً له ونصيراً . ولم يكن قادراً على تقديم مثقال ذرة من الأصول الفنية القديمة ، وذلك بينما كانت شئون الدنيا تدفع الفنان الحصيف إلى نبذها ظهرياً ، فضلا عن أن الطلب على تلك الأصول الفنية أخذ يتناقص . وهكذا حدث انقلاب أثناء القرن الرابع ، خرجت منه القسطنطينية قصبة للعالم الجمالى الجديد .

ومع ذلك فإن الروح الهللينستية وإن دُحرت إلا أنها لم تمت . ذلك أن صورها الفكرية كانت عميقة التمكن والتأصل الفطرى فى دم الإغريق .

وقد حدث بين الفينة والفينة طوال حياة الإمبراطورية البيزنطية ، أنها كانت تنفلت فتُرجع الفن البيزنطى أدراجه نحو النزعات الطبيعية الواقعية القديمة .

كان « الفن الجديد » مباشراً ومستقيما وخالياً من كل التواء ؛ بيد أنه لم يكن بسيطاً . ذلك أن العبادة وبخاصة عبادة الإمبراطور ينبغى أن تمتاز بالفخامة على نحو ما . وأحرز الفنان البيزنطى الفخامة المرغوبة بوسائله وما توافر له من مواد . وأخذ المصور البيزنطى يعمل على بلوغ القدرة على التصرف فى اختيار الفسيفساء : (السليزلى) ، بدلا من أن يهتم بالأصباغ والألوان فى عمل اللوحات (البانوهات) أو الصور الجصية على الجدران (الفريسكوهات) . وإنه ليستعمل خلفية من الذهب حتى فى تصويره للبانوهات ، وشاع استعمال الذهب فى المخطوطات المحلاة بالصور . وكانت التماثيل تنحت من الرخام السماق ومن البرونز الملون أو المموه بالذهب . وكانت خيوط الذهب تلعب أعظم دور فى الأقمشة والحرائر والديباج الموشى . وكان هذا الولع بالمواد الثمينة حائلا دون اعتماد القوم فى التماس الفخامة على مجرد ضخامة الحجم . فلقد كانت هذه المواد من الندرة وباهظ النفقة بمكان عظيم . والواقع أن الفنان البيزنطى كان يعمل عادة على معيار صغير ما لم تكرس موارد الدولة المالية جميعاً للمساعدة ، كما حدث يوم شيد يوستنيانوس كنيسة أياصوفيا منفقاً فيها فيما يقال ٣٢٠,٠٠٠ رطلاً من الذهب[1] . وكثيراً ما أحرز فنه أعظم درجة من الاتزان الكامل فى أصغر منتجاته حجماً أى فى نحائت صغيرة على حجر الصابون أو نقوش غائرة (bas-reliefs) على العاج أو فى لوحات الصور الصغيرة المصنوعة من الميناء — حيث كان الاتزان يتجلى فى جزالة التكوين أو التلوين المتجاوب مع بساطة الرسم .

---

(١) أى ٣٤٥,٦٠٠,٠٠٠ من الفرنكات الذهبية (حوالى ١٤ مليون جنيه) — وهو كما هو واضح مبالغة كبيرة (Scriptores Originum Constantinopolitani) (طبعة تويبنر) ، ١٠٢٠ .

وتتجلى فى فروع الفن البيزنطى المختلفة كل من العناصر الشرقية والهلينستية بنسب متفاوتة . فلقد غزت الروح الهلينستية التصوير والنحت المرة بعد المرة . ومع ذلك فإن فن العمارة عرف منذ زمن مبكر العناصر التى يتألف منها أسلوبه الخاص وتطور من ثم تطوراً طبيعياً طبقاً لقواعد الخاصة .

والحق أن فن العمارة البيزنطى يقف بمعزل عن كل ما عداه من فنون. إذ يلوح أن المصور والمثّال قد خطوا فى القرن الرابع خطوة إلى الوراء من حيث الأصول الفنية ، وذلك على حين واصل المهندس المعمارى تقدمه باطراد فى نهج المهارة فى أصول فنه .

والفضل الأكبر الذى أسهمت به بيزنطة فى فن المنشأة المعمارية هو سر موازنة القبة فوق مربع ، وهى الثمرة التى تمخضت عنها حاجات العالم الجديد . وخير مجال نستطيع أن نشاهد فيه التطور عن كثب هو عمارة الكنائس ، وذلك لأن الكنائس هى العمائر الوحيدة التى لا تزال موجودة بوفرة . إذ أن المبانى الكبيرة ذات الطابع العلمانى بالإمبراطورية قد اندثرت . ولقد كان المسيحى الأول شأنه فى ذلك شأن الوثنى يكتفى فى إقامة شعائر دينه بقاعة بسيطة . وكان لما يجد بين يديه من باسليقة(١) صحن داخلى بسيط لا يتجاوز فى بساطته صحن أى معبد فى العصر الكلاسيكى . ولكن حدث رويدا رويدا وبخاصة فى القرن الرابع ، أن الكنيسة اقتبست شعائر المراسم التى تتبعها الدولة . فكما أن الأسر الحاكمة الجديدة للأباطرة أنصاف الآلهة كانت تتطلب قصورا بها قاعات للعرش وقاعات للثياب مع جناح للحريم خاص بالإمبراطورة ، فكذلك أصبحت الكنيسة بما لها من شعائر ، غير

---

(١) الباسليقة basilica : ومعناها الأصلى القصر الملكى ، وهى قاعة متسعة مستطيلة ذات مجموعتين من الأعمدة ولها فى العادة حنية (قَبّاً apse) شبه مستديرة ، وكانت تستخدم دوراً للقضاء أو التجارة ، ثم أطلقت على الكنائس الكبرى المتخذة من تلك القاعة .
(المترجم)

راضية عن الصحن الداخلى الذى لا يداخله أي تقسيم . لذا أخذت تطالب بنظام أكثر تعقيداً ، دون التضحية بوحدة التصميم الهندسى . وكان أن وضعت فوق وسط قاعة الكنيسة قبة خيلت للرائى أنها مقسمة من الداخل ؛ هذا إلى أنها أضفت عليها طابعاً أعظم من الفخامة . بيد أن مشكلة المشاكل كانت فى طريقة تثبيت تلك القبة . وكان طراز القبة المبنية فوق الرّوْطن[1] كتلك القائمة فوق هامة البانثيون بروما ، معروفا منذ زمن بعيد لأهل الفن المعمارى ؛ ولكنها هنا لم يكن بد من أن توضع فوق مربع . وكانت أبسط الطرق لبلوغ هذه الغاية هى إنشاء رفرف بارز (كابولى) ليحمل القبة ؛ بيد أن هذه الفكرة كانت فجيجة وكانت عرضة لإنتاج شكل إهليلجى أى قطْعٍ ناقص . حتى إذا استشرف القرن الخامس على بدايته كان القوم قد وصلوا إلى طرائق مرضية أكثر .

والباحثون فى خلاف حول صاحب الفضل فى الوصول إلى حلولِ هذه المسألة : فمن قائل إنهم مترحلو ناحية آلتاى إيران ومن قائل إنهم مهندسو إيطاليا المعماريون — والواقع أن أحدا من هذين الرأيين ليس بمقنع إقناعاً تاماً . وعندى أن النظرية الأولى بعيدة الاحتمال ، وأن فى الإمكان إظهار عدم أرجحية الثانية ، وذلك أن القبة غادرت إيطاليا مع البلاط الإمبراطورى إلى القسطنطينية ، حيث صارت فى إثر الرعاية الإمبراطورية للعمارة . فأما مصدر الإلهام فيها فينبغى أن لا نبت فيه حتى الآن برأى ؛ بيد أن المعماريين الذين بلغوا بأصولها الفنية مرتبة الكمال هم من اليونان والأرمن ، وكان الأولون أعنى اليونان هم البنائين الذين يجدّ فى طلبهم آل ساسان عواهل الفرس[2] . وكان لإنشاء القبة طريقتان . فإما أن تستخدم

---

(١) الروطن (rotunda) قاعة مستديرة تعلوها قبة . (المترجم)

(٢) انظر فوستوس البيزنطى ترجمة لانجلواه ، ٢٨١ . يقول القائد الفارسى لجنده قبل خوضه معركة مع اليونان والأرمن المتحالفين ، بأن يأسروا أكبر عدد يمكنهم أسره من اليونان ، لكى يبنوا القصور الفرس .

الاكتاف الكروية (pendentives) ، وهى مثلثات ترتفع من أركان المربع وتنحنى للداخل لكى تجتمع فى دائرة ، أو الأركان المحرابية[1] (squinches) وهى قبوات حنوية[2] (apsidal vaults) صغيرة عبر زوايا المربع إما فى صورة رَقَبَة مربعة أو على نفس مستوى العقود (البواكى) الرئيسية المتحملة . وكانت الأكتاف الكروية معروفة قبل عصر قسطنطين . ويوجد بمدينة جراش بشرق الأردن مثال مبكر لهذه الحالة كما أن فى الإمكان ترسم بعض آثارها بآسيا الصغرى . وأشهر مثال لها فى القرن الخامس هو قبر « جالا" بلاسيديا » برافنَّا ، وفى القرن السادس كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية. أما الأركان المحرابية فكانت وسيلة متأخرة عن ذلك قليلا . ومن المحتمل أن منبتها هو بلاد الشرق ؛ وإن كانت الأمثلة الأولى التى يمكن تحديد تاريخها بيقين مطلق إيطالية : ومنها كنيسة التعميد بنابُلى والسان ڤيتالى برافنا (وهى من القرن السادس) . بيد أنها لم تبلغ الذروة من الإتقان إلا فى القرنين العاشر والحادى عشر ، وذلك فى مبان من أمثال الكنيسة الكبرى بدير لوقا المقدس بفوكيس[3] .

وفى نفس الحين أدخل التعديل على هيئة الباسليقة . وقد ظهر فيها من قبل على الدوام ضربان رئيسيان . فكان للباسليقة الهللينستية سقف مسطح مكسو بالخشب ولها ثلاثة أو خمسة أجنحة وأروقة أضيف إليها فيما بعد طابق علوى فوق الأجنحة الجانبية . وكانت الباسليقة الشرقية ذات سقف مقبو وجدرانها صماء خالية من النوافذ . بيد أن القبة استلزمت إجراء تغييرات فى تصميم المبانى . وكان « الطرد » (Thrust) الواقع على الجدران الجانبية وهى

---

(١) الاسقنشة : باكية (عقد) أو أى نوع آخر من الدعامة تمتد عبر زاوية داخلية . (المترجم)

(٢) القبوات الحنوية تتكون الواحدة منها من حنية يعلوها قبو . (المترجم)

(٣) فوكيس ولاية ببلاد اليونان الوسطى . (المترجم) .

الجدران الشمالية والجنوبية فى الكنائس ذات القبلة الشرقية يقضى بالضرورة بتقوية هذين الجدارين ، وبخاصة أنه حدث مع استخدام القبة ، أن أصبح الارتفاع مرغوبا فيه أكثر من الطول . وكانت العواضد التى يستخدمها مهندسو العمارة القوطيون فكرة غريبة على الروح البيزنطية ، التى ظلت من التمسك بالأساليب الكلاسيكية بحيث أصرت أن يكون تصميم المبنى كاملا فى حد ذاته من الناحية البنائية ؛ حتى إذا تم تكييف القبة وفق المربع ، أصبح أحدث التصميمات طرازا هو الكنائس ذات المربع الواحد أو ذات الغرفة الكثيرة الأضلاع . وهناك كان « الطرد » يوزع بالتساوى فى جميع الاتجاهات.
وفى الإمكان رؤية هذا الطراز فى أفضل صوره فى الكنيسة المثمنة للقديسين سرجيوس وباكوس بالقسطنطينية (وهى التى يسميها الأتراك كتشوك أياصوفيا) التى بنيت فى صدر عهد يوستنيانوس . ومن قبل ذلك هدت التقوى أو المهارة مهندسى العمارة إلى محاولة وضع تصميم المبانى على شكل صليب . وهناك كنائس ذات سراديب للدفن مشيدة على هذا الشكل ، كما أن قبر « جالا بلاسيديا » بنى على شكل صليب له أذرع متساوية الطول وقبة فوق نقطة التقاطع . ومن الكنائس التى تعد المثل الكامل لذلك الطراز كنيسة الرسل المقدسين التى شادها يوستنيانوس وثيودورا بالقسطنطينية ولها قبة وسطى وأخرى فوق كل ذراع . وقد اقتبس شكلها بناة كنيسة القديس مرقس بالبندقية . وأخيرا وفق المعماريان أنثيميوس من تراليس وإيزيدور المليطى إلى الجمع فى كنيسة أياصوفيا[1] بين هذه الطرز الثلاثة وأعنى بها طراز الباسليقة والمربع والصليب . فإن بها صفا طويلا من الأعمدة يحافظ على الشكل الداخلى للباسليقة ، ومع ذلك فإن النسب الخارجية إنما هى فى الواقع نسب المربع ، بينما يقابل الضغط الجانبى (side-stress) بأجنحة عرضية (transepts) عالية ذات عواضد (: دعامات) تكللها نصف قبة.

---

(١) انظر ليثابى (Lethoby) وسوانسون (Swainson) فى : « The Church of Saint Sophia »

وقد انهارت القبة الوسطى الأولى بسبب زلزال حدث فى ٥٥٨ ، كما سقطت الثانية بالمثل فى ٩٨٩ ، وعندها بنى القبة الراهنة أرمنى يدعى تيريداتس وهو مهندس الكاتدرائية الكبرى بمدينه آنى(١) .

وظلت كنيسة القديسة صوفيا ذروة المجد التى أحرزها فن العمارة البيزنطى . فإنه حتى البيزنطيون أنفسهم كانوا يعدونها كذلك ، بل ظلوا طويلا يتخذونها مثالم المحتذى . بيد أن فن العمارة البيزنطى لم يعدم التقدم . وكنتيجة محققة أو تكاد لنفس مشكلة « الطرد » انتهى الأمر رويداً رويداً بأن تطور طراز التصميم المسمى باسم الصليب اليونانى . فهنا تكون الأجنحة العرضية مرتفعة ذات قبو شبه اسطوانى ومُسقفة عادة مثل إيوان (nave) الكنيسة ومكان جوقة المرتلين ، بجملون منخفض ، وزوايا الصليب تشغلها غرفات أنخفض قليلا ، حيث تستخدم الموجودة منها فى الطرف الغربى كأجنحة جانبية للإيوان ، بينما تظل الشرقية منها منفصلة لتكون غرفة لمنضدة القربان ومقصورة للمواعين المقدسة التى تتطلبها الشعائر . وإن البساطة والتوازن التام اللذين يتجليان فى التصميم ربما جعلاه مثار الإعجاب الشديد من حيث العمارة .

ومن المحتمل أن الصليب اليونانى نشأ بأرمينية . وزادت فتوح العرب من أهمية أرمينية . فإن قيام الحروب إلى الجنوب بعيداً عنها وضعها على مفرق أكثر الطرق التجارية أمنا بين الشرق والغرب ، كما أن الأرمن أخذوا يلتمسون حظهم فى الإمبراطورية زرافات متزايدة العدد فى كل آن . وساعدهم موقعهم الجغرافى على تقبل الفكْرات الفنية الآتية من كل من بلاد الشرق والغرب ، وذلك فضلا عما وهبوه من ذكاء ومهارة بقدر مكنهم من إجراء التجارب على تلك الفكرات . ويظهر الصليب ببلاد اليونان فى أخريات

---

(١) انظر « History » لأسوغيك (Asogbic) ترجمة دولورييه وماكلر Dulaurier & Macler جـ ٢ ص ١٣٣ .

القرن الثامن فى مدينة سكيبرو بولاية بؤوتيا ، وهى على علاقات وثيقة بالشرق ؛ وأشهر أمثلته هو الكنيسة الجديدة التى أمر ببنائها باسيليوس الأول فى الأطراف المحيطة بالقصر[١] . فإن تلك الكنيسة التى دمرها الأتراك كانت فى الراجح المبنى الكبير الوحيد المشيد على شكل صليب يونانى . إذ أن العادة جرت آنذاك بأن تكون الكنائس البيزنطية صغيرة الحجم . حيث غلب على القوم الاتجاه إلى الرشاقة والخفة ؛ فلم يزد ثمة شىء إلا الارتفاع وحده . وفى بعض الأحيان كان المعماريون يستخدمون منذ القرن السادس بقصد تخفيف الأثر حنية ثلاثية فى الطرف الشرقى هى الحلية الثلاثية الأوراق المسماة تريكورا أو تريفويل (trichora or trefoil) . وقد أصبحت تلك الحنية بعد ذلك أشيع استعمالا . وأخذت الأعمدة تحل محل الأكتاف التى كانت تسند القبة ؛ وربما جاز إقامة القبة نفسها على رقبة عالية . وربما وضعت على أذرع الصليب أنصاف قباب ؛ وحلت منحنيات محل الخطوط المستقيمة بالجملون . وأدى الاتصال بالغرب إلى ظهور أبراج الأجراس بين الفينة والفينة وبها الأجراس التى حلت محل النواقيس الخشبية (simandra) التى كانت تدعو المستمسكين بالعقيدة الصحيحة إلى الصلاة . وعلى هذا النحو من التحوير أو التنقيح ظل الصليب اليونانى ولا يزال إلى اليوم أساساً لكل الهندسة المعمارية الكنسية الأرثوذكسية تقريباً ، بيد أنه لم يبلغ من الشيوع فى القسطنطينية أبدا مبلغ شيوعه فى الولايات ، التى يبدو أن مهندسى العمارة فيها كانوا إلى حد كبير من الأرمن .

ومن العسير أن نتناول بالكلام أشكال المبانى العلمانية لقلة ما تبقى منها . وكانت قاعات القصور مثل قاعة الطعام الذهبية (Chrysotriclinus) أو قاعة الاستقبال ذات العقود الثلاثة (Triconchus) فى القصر الأكبر مشيدة شأن الكنائس المعاصرة لها بالقباب والحنيات وغرف القربان (narthexes)

---

(١) انظر إبرسولت (ebersolt) (Le Grand Palais) ص ١٣٠ – ١٣٥ .

وحليات الورقات الثلاث (Trefoils)[1] . وكانت تعلو البيت الريفى المثالى الذى يعيش فيه ديچينيس أكريتاس قباب ثلاث ، كما أن قاعة الاستقبال الكبرى فيه صممت بشكل صليب[2] ؛ ولا تزال لكثير من غرف المنازل القديمة بمنطقة الفنار (Phanar) اليوم حنيّات ، كثيراً ما تكون على شكل حلية ذات ثلاث ورقات (Trefoilapses) . على أن وحدة الكنيسة لا يمكن أن تتأتى لمنزل كامل . ذلك أن القصر الأكبر كان والحق يقال مجموعة ضخمة من القاعات والأروقة والكنائس والحمامات وغرفات الحرس ، فضلا عن غرفة للسلاح ومكتبة وأجنحة بها شقق سكنية ومتحف ، — وقد جمعت كلها دون أية وحدة فى التصميم ، فى مجموعات رئيسية ثلاث . وكانت الأحياء السكنية الراقية تبنى عادة من بيوت ذات طابقين ، يكون الطابق الأول منها حاوياً للغرف الرئيسية . وكانت غرف الطابق الأرضى أنخفض وغالباً ما كانت تطل على ساباط[3] (ممر أعمدة مسقف Arcade) يواجه فناءاً داخلياً . وقلما زادت المبانى ارتفاعاً عن طابقين ، إلا أن تكون أبراجاً عسكرية . وكان قصر ديچينيس أكريتاس يفاخر الدنيا بطوابقه الأربعة[4] ، ولكن لا يغربن عن البال أنه لم يكن بد لكل شىء يتعلق به أن يكون معجباً وأخاذاً ! ! . . . فأما التحصينات وسقايات الماء والقناطر فقد كانت تؤخذ عن النماذج الرومانية نقلا أو مع شىء من التطوير ، كما أن السرك (Circus) وإن كان أطول من معظم المدرجات المسرحية الرومانية ، إلا أنه كان بالمثل رومانى التصميم . وكان ما بالقسطنطينية من صهاريج للمياه بنيت تحت الأرض فى القرنين الخامس والسادس فريداً فى بابه بدرجة أكبر . وكانت

---

(١) انظر إيرصولت بالمصدر نفسه ص ٧٧ ع ع ، ١١٠ ع ع .

(٢) ديچينيس أكريتاس ص ٢٢٦ ع ع .

(٣) الساباط (arcade) صف من العقود مفتوح أو مغلق وقائم على عمد . (المترجم) .

(٤) ديچينيس أكريتاس ص ٢٢٦ .

الظاهرة الغالبة فيها هي العدد الذى لا يحصى من الأعمدة الجيدة التشكيل التى كانت تحمل السقف .

وكانت الأبواب كلها تقريباً مربعة القمة . وربما كانت النوافذ فى المبانى العلمانية مستطيلة أو ذات عقد مقوس . ولكنها كانت فى القاعات والكنائس مستديرة القمة كلها تقريباً ، وكلها مستطيلة وضيقة ، رغبة فى التخفيف من ضوء الشرق الساطع . وكانت تعقد عادة ثلاثاً ثلاثاً تجمع فى فجوة ، مع وجود مصاريع رخامية أو خشبية فى أسفل ، فضلا عن قمرات مستديرة فى غالب الأحيان مصنوعة من الزجاج أو المايكا أو المرمر المصوغ فى حليّات من الجبس أو الرخام فى الجزء العلوى .

وكانت المواد التي تستخدم تختلف باختلاف المناطق . فالأقاليم التى تكثر بها الحجارة تكسى فيها الحوائط بالأحجار المشغولة مع وضع كسارة الحجر فى الداخل . وقد بنيت القسطنطينية بصفة رئيسية من الطوب الأحمر ، وإن استخدم الحجر غالبا فى طبقات متبادلة مع الطوب رغبة فى زخرفة ظاهر المبنى . والغالب أن الحجر الذى يستخدم فى الجدران الخارجية كان يُشكل أو ينحت . وكان ذلك شائعاً بصفة خاصة بأرمينية وبالنواحى التى تغلب عليها المؤثرات الشرقية مثل بلاد اليونان . وخير مثال لذلك كنيسة العاصمة « المتروبوليس » الصغيرة بأثينا . وكانت الجدران الداخلية للمبانى الهامة تكسى بمواد زخرفية ، كأن تصفف فى شكل منظم ألواح من الرخام المتنوع الألوان ، كما توضع أعلى ذلك فصوص الفسيفساء . وقد أصبح من المألوف فى الأحياء الفقيرة وبالقسطنطينية لعهد البيت الباليولوجى يوم شحّت الأموال — أن تزين الجدران بأسرها بالصور الجصية الجدارية (frescoes) . وأصبحت العمدان وقد زادت حولها من الأثقال عما كانت عليه فى العصور الكلاسيكية — أقوى وأصلب ، وبخاصة من حيث تيجانها . وكانت هذه التيجان تنحت فى العادة نحتا دقيقا متقنا . وقد بقيت هناك أشكال معدلة

للعمود الكورنثى المنحوت على هيئة ورقة السنط « الأكانثوس » ، بيد أن تصميمات الشبيهة بالسلال وأشكال الحيوانات والجامات المستديرة الميداليونات) الحاوية للطغراءات المسيحية البسيطة شاع استخدامها .

وانتصر الشرق فى فن النحت أيضاً ؛ وهنا حل بهذا الفن انقلاب لا تطور . ذلك أن فن النحت الكلاسيكى ذى الأبعاد الثلاثة كان شيئا غريبا ودخيلا على الآراميين . فإن الآرامى كان يرى الأشياء مسطحة وذات بعدين اثنين ، ويحس بها من الناحية التصويرية لا النحتية . لذا وجب لديه أن ينظر إلى التماثيل من وجه واحد فقط ؛ ولم يكن ثمة شىء يستطيع تمثيل البعد الثالث سوى التظليل . واتفق أن صادف بروزه على المسرح وورود عناصر فنية بنماذج من إيران . وأخذت الخطوط المنحوتة التى تمثل الثياب تسير وفق نماذج هندسية بدلا من المنحنيات المتمشية مع الواقع (الطبيعية) والمعروفة فى الفن الهلينستى . وغالبا ما كانت تماثيل الفن الجديد غير سارة للعين أو تكاد . فإن حب الآرامى للمؤثرات الحسية يدفعه إلى المبالغة فى قسمات الوجه ، وكانت الثياب تكسو الأجسام بطريقــة هندسية . وكان المنظر فى مجموعه غير شخصى تماما ، كما كان على الرغم من فجاجته يترك فى النفس أثرا قويا جدا . وكان يتناسب وظروف العالم الجديدة . والتمثال الموجود ببارلتا والذى يرجع إلى أواخر القرن الرابع يعد طرازا يمثل مرحلة الانتقال . فهنا يتجلى التمثال أمام الأعين بصورة إجمالية ، كما أن التمثال هنا صورة دون أدنى ريب ؛ ولكن من الجلى أن صانعه يريد له أن ينظر من الأمام ، وهو لا يتفق البتة مع المذهب الواقعى من حيث الزى العسكرى ، كما أن الوجه بسيط مع المبالغة فى حدة الخطوط الموصلة من الأنف إلى الفم ابتغاء جعله يبدو رمزاً للجلال الصارم . وهو يكاد يكون عملا يعبر عن الولاء لعقيدة عبادة الإمبراطورية .

ولكن سرعان ما انتهى الأمر بأن أصبحت كل محاولة لعمل التماثيل.

ذات الأبعاد الثلاثة نادرة جداً . فالفنانون المسيحيون لم يأخذوا أنفسهم بذلك الفن إلى أى مدى . ذلك أنه فن لا يحظى بتقدير الشرق ، كما أن المسيحى الشرقى بدأ منذ وقت مبكر يرى أنه (أى فن صنع التماثيل) هو نفس الشكل المجسد الذى حرّمه يهوه (يهوڤا) . فلم يبق له إلا ناحية واحدة فقط يتجلى فيها هى بعض صور الأباطرة غير الشخصية إلى حد ما ، التى كانت تصنعُ بالقسطنطينية وتقام بها فى بعض الأحايين احتفاءً بالجلالة الإمبراطورية أو يبعث بها إلى مجتمعات تدين بالتبعية مثل روما ، حتى يكون الإمبراطور حاضراً معهم فى جميع مداولاتهم ومباحثاتهم . وسرعان ما أصبح فن النحت فن حفر بارز خفيف البروز لا يخرج عن كونه أحد أفرع التصوير ، مع اتخاذ الظلال بديلا من مؤثرات اللون . وإن فراويز الأبواب وجوانب منابر الكنائس أو منصاتها أو النواويس فى الأزمان الباكرة ، لتنحت من الخشب أو الحجر حسب أصول فنية تصويرية ذات بعدين . ولكن الفنان حاول فى البداية أن يحتفظ بقدرته على إبراز خلفية بأن كان يعمد إلى ملئها ملئاً تاماً رأسياً مستقيما خلف الموضوع الرئيسى فيخرج الشكل فى صورة المنظور عند الصينيين أو يكاد . ثم عاد فأقلع فيما بعد عن تلك المحاولة غير الناجحة .

وأنجح أنواع الحفر البارز هى التى كانت تُصنع على معيار أصغر ، وهى نحاتات صنعت من المعادن ومن حجر الصابون ولكن غالبيتها من العاج[1] . وكان العاج المنحوت و « شكمجيات » الجواهر أو علب الآثار المقدسة واللوحات القنصلية ذات الطيتين[2] وأغلفة الكتب والسجلات التعبدية ذات الطيتين وذات الطيات الثلاث تصنع طوال تاريخ الإمبراطورية بأكمله . وكانت المؤثرات الفنية الشرقية هى السائدة المتغلبة فى السنوات الخمسمائة

---

(١) انظر إبرسولت (Ebersolt) : «Les Arts Somptuaires de Byzance» .

(٢) ذات الطيتين (Diptych) هى هنا صورة ملونة أو حفر على لوحتين تربطهما مفصلات . (المترجم)

الأولى المنتهية بالقرن التاسع – فكانت للتماثيل رءوس كبيرة معبّرة ، سيئة التناسب وسيئة الرسم فى الغالب ؛ حتى إذا جاءت النهضة الكلاسيكية التي حدثت فى القرنين التاسع والعاشر دخل على الفن ملكة الإنشاء والتصنيف مع مراعاة الرشاقة دون القضاء على بساطة المدرسة الشرقية وقوتها . وإلى هذه الفترة تعزى خير المنحوتات البيزنطية الصغيرة وهى « شكمجية » الفيرولى المحفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت ولوحة رومانوس ويودوكيا فى قاعة المداليات (Cabinet de Médailles) . وإن الأخيرة لهى والحق يقال من مفاخر الصنعة البيزنطية الرائعة ، وقد صيغت صياغة يتجلى فيها الوجدان والمهارة ، وهى جيدة فى رسمها مثيرة للإعجاب فى صنعها . ثم ما لبث الحفر على العاج أن اضمحل بعد القرن الحادى عشر ؛ إذ يبدو أن النحاتين قد فقدوا الذوق والقدرة الفنية ؛ وسرعان ما أدى فقر الإمبراطورية المتزايد إلى جعل اقتناء مثل تلك السلع الغالية فوق الطاقة المالية للناس . وكانت نحائت العاج تزين فى العادة بالذهب ، بل يلوح أنها كانت ملونة فى الغالب .

والناظر إلى النحت الزخرفى المعمارى فى تشكيل الأبواب وتيجان الأعمدة يتجلى له من تنوع تصميماته اختلاط أصوله . إذ لا يخفى أن ورقة السنط (الأكانثوس) وصور الحيوانات المطابقة للطبيعة تُنْمى إلى الهللينستية الخالصة ؛ ثم إن التصميمات الهندسية التى غالباً ما تفيض بالرشاقة الهللينستية تعيد إلى الذاكرة النماذج الإيرانية ؛ فإن السطح العادى كان يُزين على طريقة المأساة الصارمة عند الآراميين ، بطُغراء قائمة بمفردها للمسيح . وإنك لتعثر على جميع هذه الطرز من القرن الخامس فصاعداً ، وهى حاوية لأصول فنية دامت محتفظة بمستوى متعادل إلى حد ما . ومع ذلك فإن الطريقة ألم بها بعض التغير الطفيف . وكانت أولى وسائل معالجة هذا النحت الزخرفى هى الشغل المثقب ، الذى بلغ ذروته فى القرن الخامس ، والطراز الذى يمثل ذلك الشغل هو تاج العمود الثيودوسى أو تاج الأكانثوس (السنط) ، حيث

تبرز الورقة باهتة اللون من فوق خلفية سوداء عميقة التثقيب . ثم عاد الشغل المخرم فتخلف الشغل المثقب فى القرن السادس وفيه كان التصميم يبرز كنوع من أشغال المشبكات (lacework) ، منفصلا انفصالا ظاهراً عن الخلفية . على هذا المنوال صنعت تيجان الأعمدة الشبيهة بالسلال بكنيسة القديسة صوفيا وجميع تيجان الأعمدة بكنيسة القديسين سرجيوس وباكوس . ثم فقد فن النحت المخرم أهميته بعد القرن السابع ، وإن لم يُنبذ البتة نبذاً تاماً ، حيث يمكن مشاهدته مجتمعاً مع الفصوص فى أشغال القرن الرابع عشر مسرا . وذلك أن النحت التطريزى (Embroidery sculpture) صار أكثر أنواع النحت استعمالا فى القرون المتأخرة ، أى من القرن السابع فصاعداً . وهنا كان التصميم يُنفذ على الحجر المستوى السطح فى صورة أشرطة وأربطة متشابكة ، وهى تحيط فى الغالب بأشكال هندسية أو لوحات (پانوهات) عليها أشكال حيوانات أو حليات بشكل الورود (rosettes) . وتيجان الأعمدة المنحوتة بهيئة الحيوان منقورة بهذا النوع من الأشغال . وكان الشكل الرابع هو المسمى بالشامبلڤى (Champlévé)[1] وفيه تملأ الثقوب التى تكوّن الخلفية بمادة بنية مُحمرّة مصنوعة فى معظم أمرها من الشمع الذى يوضح التصميم ويبرزه . وقد أصبح هذا هو الطراز الشائع فى قرابة القرن العاشر ، وهو يُمثّل خير تمثيل فى كنيسة القديس ثيودور الصغيرة بأثينا .

وقد فاز التصوير إلى حد ما[2] فى نفس الحلبة التى خسر فيها النحت الحر معركته وانتصر فيها الشرق ومؤثراته . وكان التصوير الهللينستى قد

---

(١) الشامبلڤى : ضرب من أشغال الميناء يتم بوضع مساحيق زجاجية فى مسارب مشقوقة فى أساس معدنى . (المترجم)

(٢) انظر موراتوف (Muratov) : La Peinture Byzantine ؛ ابرصولت La Miniature Byzantine ؛ ڤان برخم وكلوزوت van Berchem & Clouzot : Mosaïques Chrétiennes .

اعتراه الانحلال فأصبح لا يعدو مِلاحة رشيقة . وأدخل الفنان الآرامى عنصراً جديداً هو استقامة نظرته وعمق إحساسه . وكانت الصدمة نافعة ، خاصة وأن المؤثر الهللينستى لم يقض عليه قط قضاء تاماً . فظل الطرازان عائشين جنباً إلى جنب ، وكل منهما يكبح أخطاء الآخر . ولم تستطع طريقة الرسم الآرامية المقترنة بالإهمال أن ترضى الجمهور ، ولكنه كان يتطلب مع ذلك قدراً من العاطفة لم يكن فى وسع الهللينستيين تقديمه ، وكان يحب أن يحس على الفور الفحوى الروحى للصورة . كما أن المادة التى كانت تصور بها آنذاك الأشغال الهامة ، زادت من قوة النصر الآرامى . وقد فاقت الفسيفساء بما قُيض لها من فخامة أىَّ وسط تصويرى آخر ، مع العلم أنه يكاد يكون من المحال فى الفسيفساء إظهار الجلاء[1] والقَتَمَة فى الصورة (chiaroscuro) بطريقة رقيقة . فلا بد أن يكون الرسم واضحاً جلياً ، وأن تكون الألوان متضادة متباينة والتصميم خالياً من كل تعقيد وتوافه لا لزوم لها . وكان من الطبيعى أن تسير الصور الجصية الجدارية فى إثر خطوات الفسيفساء . ولم تتم الغلبة للأصول الفنية الهللينستية إلا فى الصور الصغيرة وفى المخطوطات المحلاة بالصور ، وبالتالى لم يتجلّ استمرار تيار النفوذ الهللينستى إلا فى المخطوطات ، كما أن ذلك النفوذ قد أظهر تأثيره المحسوس عن طريق المخطوطات ، وذلك أن فنانى الفسيفساء والصور الجدارية الجصية جعلوا مصدر إلهامهم صوراً مصغرة رقيقة وصغيرة وسهلة الحمل .

بيد أن المدرسة الهللينستية ظلت حتى فى مضمار الفسيفساء ــ بما أتيح لها من الفنانين الممتازين على كل من عداهم ــ صامدة طويلا فى الميدان ، وإن كيفت نفسها قليلا لمطالب الزمان . وفى مبانى القرن الخامس مثل مقبرة « جالاّ بلاسيديا » أو كنيسة القديس چورچ بسلانيك ، ــ كانت الموضوعات

---

(1) الجلاء والقتمة : هما ما ينشأ من فعل النور أو الظل فى النموذج فيغير نصوع الناصع أو دكنة الأدكن . (المترجم)

تعالج بطريقة فياضة متمشية مع الطبيعة . وقد تملأ الخلفية مؤخرة الصورة ملئاً تاماً أحياناً ؛ وذلك لأن الفنانين شأن فنانى النقوش البارزة ، لم يكونوا يطيقون أن يتركوها خالية غير مملوءة . ولكن تمشيهم مع الطبيعة كانت تخالطه بالفعل طريقة الإيرانيين فى التمشى مع الطبيعة . ذلك أن الطواويس والجريفونات التى أخذت موضوعاتها ترحف إلى فنهم كان مصدر الإلهام فيها هو الشرق القصى ؛ كما أن إيران التى كانت تعتمد فى فنها على الفنانين الأرمنيين . كانت تلقن الناس كيف يستخدمون الحيوانات كوحدة زخرفية وليس كصورة . وذلك دون التضحية بالدقة فى الرسم . حتى إذا وافى القرن السادس إذا بالمؤثر السامى (Semitic) يشتد قوة . ذلك أن صور يوستنيانوس وثيودورا وحاشيتهما فى كنيسة سان ڤيتالى برافنا تتسم بتوخيها أسلوباً مرعباً من نوع معين وبصلابتها مع قوة تأثيرها . ولعل فسيفساءات كنيسة أياصوفيا من نفس ذلك الطراز . ومع ذلك فإن الفكرات الهلينستية دامت بسلانيك مدة أطول . فإن زخارف القرن السادس بكنيسة القديس ديمتريوس تحتفظ بالشىء الكثير من قديم التمشى مع الروح الطبيعية . وإن صورت البانوهات التى تمثل الأشخاص فى مواجهة تامة مع مراعاة نفس الخطوط الجامدة القوية الموجودة بكنيسة سان ڤيتالى .

وفى الحين نفسه كانت فسيفساءات الأرضية التى تنطوى بطبيعتها على طراز من الزخرفة أكثر حليات ، تسير فى نفس تيار التباعد عن روح الفنون الهلينية . أجل ظلت الطيور والأشجار واقعية متمشية مع الطبيعة ، بيد أن الأفكار الفنية العادية ذات الطبيعـــة الزخرفية كانت تحيط بها ثم ما لبثت أن حلت محلها بالتدريج . وهى أشد ما تكون شيوعاً بسوريا وفلسطين ، والظاهر أنها فى جل شأنها من صنع أبناء الإسكندرية والأرمن . وطبيعى أن الأولين أعنى السكندريين واصلوا الاحتفاظ بما لهم من ميول ونزعات هلينستية . فإن خريطة الإسكندرية المصورة على الفسيفساء فى

القرن الخامس والموجودة بمدينة جرآش يتجلى فيها الطابع الهللينستي واضحاً مميزاً ؛ وخريطة فلسطين ومصر بمدينة مأدبا بموآب والمصنوعة فى القرن السادس غير محددة الشكل والمعالم إلى حد أكبر وإن حوت مع ذلك قدراً معيناً من الرقة . وكان الأرمنيون يعملون طبقاً لمزيجهم الإيرانى الخاص الذى يجمع بين النموذج والتمشى مع الطبيعة . وفسيفساءات الأرضية تغدو نادرة بعد القرن السادس . وبدلا من ذلك تكسى الأرضية بتصميمات هندسية صارخة مصنوعة من الرخام الملون .

والظاهر أن تحلية المخطوطات بالصور كانت فى الأصل فناً إسكندرانياً . وكانت النماذج الإسكندرانية تنتقل من موطنها إلى الخارج كما كانت تحاكى فى كل أرجاء العالم اليونانى الرومانى . وظلت هذه النماذج تعد كلاسيكية حتى القرن السادس . وإن لفيفة[1] يوشع (Joshua Roll) من القرن الخامس وهى التى ليس لدينا منها إلا صورة ترجع إلى القرن العاشر ، تحاول استخدام فن المنظور وإظهار الأشخاص فى جميع أنواع الاتجاهات والأوضاع ؛ والصور مموهة فقط بألوان مجردة ، كما أنها مدرّجة تدريجاً رشيقاً . فالإلياذة الموجودة بمتحف الامبروسيانا[2] ، التى ترجع إلى نفس ذلك العهد تعد كلاسيكية تماماً فى طريقة المعالجة . وفى المؤلفات التى ترجع إلى القرن السادس ، وبخاصة منها المؤلفات العلمانية تتجلى التقاليد الإسكندرانية . فإن كتاب (الطبيب) ديوسقوريدس الذى زُين بالصور لجوليانا أنيقيا حوالى ٥١٢ لا تتبدى فيه المؤثرات الشرقية إلا من حيث وجود حليات فى حواشى الصحيفة[3] : بل إن مخطوطات الطوبوغرافى المسيحى قوزمة الملاح الهندى والتاجر الأخلاقى

(١) Vatican, Palat. Gr. ,No 431.

(٢) Milan, Ambrosiana ,No. F 205.

(٣) Vienna, National Library, Med. Gr. ;No. 1.

النزعة ، وقد نقلت كلها فى الراجح عن أصل سُطر فى القرن السادس ، — وردت فيها صور الموضوعات غير الدينية بطريقة كلاسيكية ، على حين أن الصور الدينية لها طابع شرقى قوى[1] . بل الواقع الذى لا شك فيه أن التحلية بالصور الدينية قد غلبت عليها آنذاك تماماً الروح الشرقية . وغالباً ما كانت الثمار التى ظهر إنتاجها فاخرة ممتازة . فإن لكل من الانجيل[2] المحفوظ فى روسانو وسفر التكوين[3] الموجود بمدينة فينا خلفية من اللون الأرجوانى الخالص ، كما أن حروف الأخير كُتبت بمداد من خالص الفضة ، وغالبا ما كانت النماذج الزخرفية رقيقة وفخمة وفاخرة . بيد أن تصوير الشخوص كان فجيجا وقبيحاً غليظا ؛ وكان الرسم المنظور الرأسى يستخدم عادة بغير نجاح فى تصوير الخلفيات ..

وهكذا بلغ فن التصوير البيزنطى فى القرن السادس مرحلة قلقة فى تكوينه وتركيبه الذى أصبح فيه العنصر الغالب هو العنصر الشرقى . وفى القرن السابع أحدثت الفتوح العربية انقلابا . فاقتطعت الولايات السامية من جسد الإمبراطورية ، بينما زادت التأثيرات الأرمنية نموا وقوة . وفى نفس الحين وجـد المسلمون وهم على ما هم عليه من كراهية لفن تمثيل الأجسام بالصور ، وجدوا بإيران أثناء تقدمهم شرقاً ، فنا زخرفيا يناسبهم بصورة رائعة . فاتخذوه لأنفسهم قُنْية وبعثوا فيه من روحهم حياة . ومن ثم صار الفن الأرامى بما فيه من صور أشخاص صماء حادة — الملك الخالص الوحيد لرهبان بيزنطة . وكان القرن السابع من شدة الاكتظاظ بالأحداث بحيث لم ينتج ثماراً فنية كثيرة . والمجاميع الهامة الوحيدة من الفسيفساء قد أقيمت

(١) مثلا Vatican, Gr رقم ٦٩٩ .

(٢) فى روسانو بكلابريا .

(٣) فينا ، المصدر نفسه Theol. Gr. ، رقم ٣١

بالبلاد الإسلامية بقبة الصخرة ببيت المقدس وبفناء المسجد الأموى بدمشق . وقد استخدم الخلفاء الأول الفنانين والمماريين اليونان ، بيد أنه يبدو أن هذين الموضعين كليهما من صنع عمال وطنيين . فالأولى منهما تتكون من ورق شجر جزل مكدّس بعضه فوق بعض ومن حلية هندسية دسمة ، مصدر الإلهام فيهما إيرانى واضح تماما ؛ فأما المسجد الأموى ففيه سلسلة فاخرة من المناظر الأرضية والأشجار والتلال والبيوت ، وهى مرتبة فى تصميم فياض إنسيابى ملون ألوانا زاهية ومرسوم برشاقة تامة . بيد أن مجاراة الطبيعة هنا ليست هللينستية فى شىء ؛ والنموذج هنا وليس الإنشاء هو المقصد الأساسى من العمل . والمجموعتان تمثلان أقصى مستوى بلغه الفن السورى قبل أن يطول الزمن بالإسلام هناك فتمتد يده إليه بالعقم[1] .

وكان لحركة تحطيم الصور فى القرن الثامن أثر أعمق أو يكاد على فن التصوير. وكان الأمر من الناحية الفنية كفاحا بين الطابعين الآرامى والايرانى مع تدخل الطابع الهللينستى بينهما وخروجه من الأمر منتصرا عليهما جميعا ، ولكن مع حصوله على أعظم الفائدة من كل من الخصمين . وكان المرسوم الذى يحظر عبادة الأيقونات معناه أن فن التمثيل التشكيلى الدينى فقد كل رعاية علمانية كان يلقاها وأصبح مسلكا خفيا يواريه عن الأنظار الرهبان المضطهدون . فكأنه قد قضى عليه والحالة هذه ألا يكون حظه من النجاح إلا قليلا . وشجعت السلطات الإمبراطورية بدلا منه فنا قائما على النماذج قوامه الأشكال الهندسية ، فضلا عن تلك التصميات الانسيابية السيالة للطيور والأوراق التى كانت تُبهج فؤاد الإيرانى والأرمنى . بيد أنه لم يكن فى الإمكان القضاء على تصوير الأشخاص ؛ وكل ما فى الأمر أنه اصطبغ

---

(١) انظر التحليل التفصيل للآنسة ڤان برخيم (van Berchem) لهذه الفسيفساءات فى كتاب 252—149 (Early Moslem Architeuse)تأليف كريسويل (Creswell) .

بالصباغ العلمانى . وطوّر الفنانون زخارفهم من الطيور والحيوانات والأشجار وحولوها إلى مناظر صيد اعتبرها أباطرة تحطيم الصور غير الأتقياء زخارف صالحة لتزيين الكنائس . بيد أن البيزنطى كان شرقيا بقدر جعله يعشق القصص . فإن لم يجز له أن يروى أقاصيص دينية ، ولم يجز له أن يرسم المسيح على الصليب أو القديسين وهم فى انتظار الاستشهاد ، فإنه انقلب راجعا إلى المصـــدر الآخرَ للأساطير لديه : وهو الرطازات (الميثولوچيا) الكلاسيكية . وجلب القرن التاسع معه نهضة كلاسيكية ؛ قوبلت فى مضمار الفن باشتياق . ولكن لم يكن بدٌّ من أن تخرج إلى النور جميع النظريات الهللينستية القديمة عن التصوير . فلم تعد أشكال الأشخاص تصور بعد ذلك وهى واقفة تلك الوقفة الجامدة التامة المواجهة بل أخذت تنثنى فى أوضاع رشيقة ، وعاد فن المنظور إلى الصورة مرة أخرى . ولكن تلك الروح الهللينستية الحديثة (Neo-Hellenism) ازدادت ثراء بما أضيف إليها من نماذج الشرق من الطواويس إلى أوراق الشجر المجدولة . ولم يبق من هذا الفن العلمانى شىء يستحق الذكر . فنحن لا نعرفه إلا عن طريق الأوصاف ، مثل أوصاف القاعات التى شادها ثيوفيلوس وزينها فى القصر الكبير[١] أو أوصاف فسيفساء الغرفة الكبرى لديچينيس أكريتاس — وإن شيدت تلك الغرفة بعد انتهاء حقبة تحطيم الصور — كما نعرفه أيضا فى صور موسى وشمشون وقد زج بها إلى جوار صور أخيل أو الإسكندر[٢] . ولعل مخطوطه الصيد والقنص (Cynegetica) لأوبيان المحفوظة بالبندقية تعطينا فكرة لا بأس بها عن هذا الطراز العلمانى . وهنا تكاد الموضوعات تكون مشابهة لتلك التى دونت عن قاعة ديچينيس ، كما يزيدها بهاء مناظر الصيد مرسومة فى حليات زخرفية مستديرة (medallions) .

---

(١) ثيوفيلوس كونتنيواتس ١٤٠ وما بعدها ؛ ايبرصولت : "Le Grand Palais" ص ١١٠ فما بعدها .

(٢) ديچينيس أكريتاس ٢٣٠ — ٢٣٢ .

وكانت نتيجة انتصار عبادة « الصور » إعادة الدين إلى حظيرة الفن . بيد أن رعاة الفنون ولاسيما فى القسطنطينية كانوا يميلون إذ ذاك إلى الطراز الهللينستى الحديث . ومن ثم وجب على المصورين الدينيين أن يكيفوا أنفسهم وفق جمهور هللينستى النزعة ، مثلما كيّف المصورون الهللينستيون أنفسهم قبل ذلك بأربعة قرون وفق جمهور دينى . وأوتى ذلك المزيج الفنى (synthesis) نجاحاً عجيباً ، وكان القرنان العاشر والحادى عشر أبدع فترة لفن التصوير البيزنطى ، مثلما كانا أعلى أيام النحت البيزنطى كعباً . ولا يزال فى الإمكان التعرف على العنصرين الهللينستى والآرامى ، ولكنهما تقاربا جداً . ويتجلى فى المصورين الدينيين من أمثال الفنانين الذين زخرفوا كنيسة القديس لوقا بولاية فوكيس ، تلك الكنيسة المقامة فى أخريات القرن العاشر ، يتجلى فيهم حمية القرون الباكرة وشدتها ، ويتصف الرسم والتلوين بنفس الجرأة والقوة ولكن زالت منهما الفجاجة القديمة . فإن الأوضاع تختلف كما أن الجمود القديم تحول إلى مهابة . ومن الكتب التى من نفس الطراز سفر المزامير المحفوظ بالمتحف البريطانى والذى أتمه فى ١٠٦٦ ثيودور من قيصرية[١] . والشخوص هنا جيدة الرسم ، ولكن الفنان يحس بها إحساساً عميقاً كما أنه لم يضف إليها خلفية ينصرف إليها انتباه المشاهد . غير أن القسطنطينية نفسها كانت تفضل أن تجد فى المزيج الفنى الذى بين يديها شذى هللينستيا أقوى . وهناك سفر مزامير يرجع إلى القرن العاشر موجود بالمكتبة الأهلية[٢] بباريس ويكاد يعود هو وسفر مزامير باسيليوس الثانى بالبندقية[٣] إلى النزعات الهللينستية التى رانت فى القرن الخامس . ولعلهما مقتبسان عن مشق اسكندرانى قديم . وليس هناك من شىء يدل على أثر الكنيسة إلا قدر معين من الوضوح

---

(١) المتحف البريطانى (Add. No. 19352) .

(٢) المكتبة الأهلية Paris, Bibl. Nat. ,Gr. No. 20 .

(٣) البندقية ، مكتبة القديس مرقص . باليونانية رقم ١٧ .

وعدم الالتواء فى الإنشاء . ثم إن التقويم الكنسى الشهير المحفوظ بالفاتيكان(١) والذى تم وضعه فى عهد باسيليوس الثانى يتجلى فيه اختلاط الأصول والمصادر أكثر من هذا قليلا — وهو اختلاط أوتى نجاحاً أكثر ، وإن أفسد تأثيره الحسن وجود قدر معين من الرتابة فى الصور . وفيه يقف الشخص الرئيسى بارزاً كما يكون قوياً فى بعض الأحيان ، ومن ورائه خلفية بسيطة من فن العمارة العادى أو منظر عام للطبيعة . والرسم بسيط ولكنه رشيق وقوى التأثير ، والتلوين دسم ولكنه متدرج . وكل صورة محوطة بإطار له حواف أنيقة من مختلف الرسوم . وفى الإمكان رؤية نفس المزيج الفنى (synthesis) على صفحة الفسيفساء ، وذلك بكنيسة نياموني بجزيرة خيوس كما يشاهد على صورة أكمل بكنيسة دافنى بأتيكا ، وكلا المبنيين من القرن الحادى عشر . وكلاهما يعوزه ما فى فسيفساءات كنيسة لوقا المقدس من قوة ووجدان ، وفى كنيسة دافنى تبدو أجسام القديسين الذاوية ووجوههم الشفيقة الرقيقة أرشق وأرشق وأضعف وأضعف بالموازنة إلى المسيح القاهر الشاخص بالقبة ، حيث أطلق أحد المقتدرين من فنانى الأديرة العنان لفكرته عن عظمة الله الرهيبة ، دون أية مراعاة للذوق القسطنطينية .

وتواصل تأثير المؤثرات الهللينستية إبان القرن الثانى عشر ، ولكن ذلك تم على حساب القوة والوحدة . فإن الفسيفساءات التى نفذها لعمانوئيل الفنانون اليونانيون بكنيسة الميلاد ببيت لحم من النوع المزخرف ولكنها ضعيفة ؛ أما تلك التى صنعها أساتذة الفن من البيزنطيين لحكام صقلية النورمان فهى عظيمة فى دسامتها وفخامتها ، ولكنها عارية من كل قوة روحية بشكل عجيب ؛ فصورة المسيح الأعظم بمونريال يعوزها أن تكون لها حتى ولو نصف دلالة صورة المسيح الموجودة بدافنى . وفسيفساءات البندقية وتوركيلو بها هذا

(١) الفاتيكان باليونانية رقم ١٦١٣ .

العيب نفسه . أجل إن المهارة والقيمة الزخرفية موجودتان ، ولكن تعوزها الحدة التي يتحلى بها الفن البيزنطي الأول .

ولم يكن للفتح اللاتيني على الفن البيزنطي ذلك الأثر القتال الذي يزعمونه أحياناً . أجل إن سقوط المدينة نجم عنه تشتت السكان ، وتوقفت أعمال المدارس وتقاليدها . هذا إلى أن الظروف السياسية كانت إبان القرن الثالث عشر أبلغ تقلقلا من أن تسمح للفن بالازدهار ؛ ومنذ تلك اللحظة كانت الإمبراطورية حتى بعد استرداد القسطنطينية أفقر من أن تستطيع إرواء غلتها من المواد القديمة . فإن الفسيفساء وهي وسيلة الفن المحببة في القرون الأولى كانت قد أصبحت عالية النفقة آنذاك . ولذا دلفت الصور الجصية الجدارية أماما إلى المقدمة وحلت محل الفسيفساء . أجل إن تصوير الصور الجدارية الجصية كان يمارس منذ أقدم العصور ، بيد أنها كانت تستخدم بديلا للفسيفساء عند المجتمعات الفقيرة أو في الأجزاء غير الهامة من الكنيسة أو القصر . وكانت تتبع دوماً نفس أسلوب الفسيفساء المعاصرة لها ، اللهم إلا في بعض الأماكن المتوارية النائية مثل الكنائس الصخرية بقبدوقية ، التي ظل قائماً فيها ومحتفظاً بكيانه تقليد متوارث آرامي صارم ولكنه قوي الأثر . ففي تلك الأيام صارت الصور الجصية الحائطية (الفريسكوهات) أهم فرع من فروع التصوير . وتمخضت الأصول الفنية لتصوير الصور الجصية الحائطية عن إدخال إمكانيات جديدة . فإنه كان يسمح بإظهار قدر معين من الانفعالات يكاد يصل إلى مرتبة التأثر العاطفي ، وهو أمر كان مستحيلا أو يكاد في حالة الفسيفساء . وكان بيزنطيو الحقبة الباليولوچية من الأنصار المتحمسين للمذاهب الكلاسيكية ؛ وعندئذ جددت النزعات الهلينستية نشاطها وحيويتها مرة ثانية . فعاد إلى الظهور كل من الرسم المنظور وتصوير الشخوص المعقد والخلفيات . ولكن الذي عاد كان الهلينستية مجردة من روح طربها بالحياة . وكانت القوة موجودة ولكنها في الغالب قوة مبلبلة ، كما أن النزعات الصوفية،

الصارمة لدى الأرثوذكس كانت لا تزال تطل برأسها على الدوام فى صورة قدر معين من الصلابة والتوتر . وكانت نتيجة ذلك إنتاج فن وثيق القربى بفن مصورى سينا (Siena) (بتوسكانى بإيطاليا) . بل يحتمل أنه كان متأثراً بهم ، وذلك أن الشرق والغرب كانا آنذاك على اتصال وثيق . بيد أن التواريخ المسجلة على بعض صور الجدران الجصية من ذلك الطراز فى الكنائس الجانبية للقديس ديمتريوس بسلانيك تكاد تكون أقدم من أن تنطبق عليها تلك الحال[1] . وربما تيسر لنا أن نشهد الأصل المشترك للتصوير الإيطالى والبيزنطى المتأخر متمثلا فى أرمينية القيليقية ، التى لديها مخطوطات من القرن الثالث عشر محلاة بالصور تجمع بين الجزالة والقوة وبين انفعال إنسانى رشيق لم تعرف بيزنطة له مثيلا . وفى الحين نفسه عادت التحلية بالصور عند البيزنطيين فاتجهت إلى النماذج الهللينستية القديمة : أى إلى الأسلوب السكندرى فى القرنين الرابع والخامس ، مشوباً بقليل من الزخرفة التى ظهرت فيما بعد .

وقد تسلل ذلك الانفعال حتى إلى الفسيفساء النادر الذى كان يقام عندئذ . ولو أنك اطلعت على كنيسة الخورا (Chora) بالقسطنطينية لوجدت المجموعة الضخمة من الفسيفساءات التى أقامها ثيودور ميتوخيتس ، لا يتجلى فيها فقط رغم كل مالها من جلال وروعة – ما للروح الهللينستية من ضعف ، بل هى أيضاً تعبر عن العواطف الإنسانية أكثر مما تعبر عن القوة الروحية التى كانت للفن فى الأيام الخوالى .

على أن صفة الانفعال دامت ؛ ولكن المعركة القديمة بين الهللينستى والشرقى ما لبثت أن شبت نارها من جديد رويداً رويداً . وواصلت العاصمة إكبابها على فنها المركّب ، غير أن الفن البيزنطى بالأقاليم انقسم إلى مدرستين

---

(١) عام ١٣٠٤ م – انظر ' East Christian Art ' تأليف دالتون (Dalton) ص ٢٥٥ .

تسميان عادة باسم المقدونية والكريتية . وكانت الأولى التى انبثقت من الجبل المقدس «أثوس» تتطور – وإن أخذت تتأثر فى سنة ١٣٠٠ بالنفوذ السينى (Siena) أو شبه السينى – تتطور على أساس ما للأديرة من صرامة واستقامة . وهى وإن أظهرت ضرباً من الإحساس بالمأساة البشرية ، فإن جرأتها وتحررها جعلتها مناسبة للمتسعات الفسيحة وصيرتها ذات طابع غير شخصى ؛ وكانت المدرسة الكريتية أوثق صلة بإيطاليا وبخاصة البندقية . وهى وإن ظلت بيزنطية من حيث الأساس وهلينستية فى تدريجات اللون وفيما يبدو فيها من تحفظ ، إلا أنها اكتسبت مسحة من السحر والألفة . وقد بلغت من القوة إبان القرن السادس عشر بحيث طردت المدرسة المقدونية من جبل أثوس نفسه . ولكن الإمبراطورية كانت قد سقطت عند ذاك ولفظ الفن العلمانى آخر أنفاسه وحملت الكنيسة على عاتقها عبء الهيمنة على الفن الكنسى ، وتحديد الكيفية والمكان الذى يرسم فيه كل قديس وكل منظر مقدس .

وكانت أيقونات[1] اللوحات (البانوهات) هى وحدها التى تسمح للفنان بمتسع يتقلب فيه فنه ، وقل إن وجد منها الآن شىء يرجع إلى تاريخ أقدم من القرن السادس عشر[2] . ولا شك أنه كان هناك كثير منها نقش منذ الأيام الأولى للإمبراطورية ، وقل إن بقى إلى الآن لوحات مصغرة من الفسيفساء . على أن اللوحات الخشبية المصورة ولوحات القنبس[3] الأكثر ندرة كانت فيما يرجح شديدة التعرض للتلف

(١) الأيقونة عند الكنيسة اليونانية : صورة تمثل المسيح أو أحد القديسين (المترجم)

(٢) لا تزال لدينا إلى اليوم عدة صور للعذراء ، لعل أحسنها صورة « مولاتنا » التى صورها ڤلاديمير فى القرن الثانى عشر والمحفوظة الآن بموسكو . وتنسب غالبية هذه الصور إلى مرقاش القديس لوقا .

(٣) القنبس هو القماش الذى يصنع من نبات القنب ويرسمون عليه ، والقنب أيضا شراع السفينة . (المترجم)

وكانت الفنون الصغرى ببيزنطة[1] تتبع بقدر ما تسمح به طبيعتها طرائق التصوير والحفر البارز. وقد أحرز البيزنطيون قصب التفوق فى كل ضرب من ضروب الفنون الزخرفية. وكان العمل فى المواد الثمينة كالذهب أو الميناء أو الحرير يناسبهم مناسبة تدعو إلى الإعجاب، وذلك لأن ما طبعوا عليه من تحرر كلاسيكى وبساطة دينية جريئة كان يضفى على الشيء فى مجموعه قيمته الزخرفية الكاملة، وكان يجعل الشيء فخما فاخراً دون إثقاله فوق ما يطيق. والمنحوتات المعدنية تكاد تكون فرعاً من فن النحت. وكانت الحرائر والديباج الموشى والمطرزات الأرجوانية أو الرصائع[2] (الأبليكات) الغنية بخيوط الذهب، ترسم نماذجها عادة داخل جامة مدورة (ميداليونة)، والنماذج تمثل صورة شكلية أو حيوانا، وهى تتكرر بعد ذلك إلى جوار الأولى تماما فى ميداليونة مماثلة تتجه إلى الجهة المقابلة.

ومعلوم أن الحرير جاء أولا عن طريق فارس. فكان من الطبيعى إذاً أن يكون للتصميات والرسوم القائمة على موضوعات ساسانية فارسية الغلبة والسيطرة السريعة، وخاصة أنها كانت تناسب هذا النوع الفنى السائد (genre). وظل الديباج البيزنطى الموشى على الدوام شديد المماثلة لفن النماذج الإيرانى، وإن داخلته الرشاقة الكلاسيكية أحيانا فعدلت من الرسم.

وانتصر الشرق أيضا فى فن النقش بالميناء. وكانت بيزنطة هنا السباقة الرائدة؛ أجل وجدت أمثلة نادرة ترجع إلى العصور الرومانية بمصر، غير أن فن الفصوص المتحاجزة (Cloisonné) يكاد يكون من ابتكار الصناع البيزنطيين وحدهم. والأصول الفنية لهذا الفن متعبة جدا؛ فإن خطوط

(١) ابرصولت: (Les Arts Somptuaires de Byzance).

(٢) الرصائع هى التى يسميها السيدات عندنا بالأبليكات (Appliqué) وهى أشكال تنفذ أو تركب فوق سطوح مواد أخرى إما أن تكون من المعادن أو من الخرمات (الدانتلا) أو ما أشبهها. (المترجم)

القاعدة — وهى فى كل الحالات تقريبا من الذهب ، وهو أنسب المعادن للصهر على درجات الحرارة العالية — تلك الخطوط التى تحجز بين قطع الألوان المختلفة كانت تحول دون عمل أى رسم يتسم بأى قدر من الرقة ، وخاصة أن القطعة بأكلها لم يكن من الممكن البتة أن تزيد طولا أو عرضا عن بضع بوصات . وكانت النماذج بالضرورة هى الزخرفة التى تعتمد عليها قوة التأثير . على أن البيزنطى المتدين بفطرته كان يأبى أن لا يجعل الفن فى خدمة الأغراض المسيحية . فأدخل أشكالا لشخوص ترسم عادة على أبسط هيئة ممكنة وتقوم على خلفية كان يتوخى فيها البساطة . وكان استعمال الأسلوب الهلينستى ضربا من المحال . ومع ذلك فالذى حدث فى القرن الحادى عشر يوم كان الفن البيزنطى فى ربيع ازدهاره ، أنه بلغ من إتقان الصناع لأصولهم الفنية أنهم لم يستطيعوا فقط أن ينتجوا فى تلك الفصوص المتحاجزة صوراً لأشخاص فيها شىء من المماثلة البعيدة غير الدقيقة ، بل أنتجوا أيضا ، كما حدث فى التاج الذى أهداه قسطنطين التاسع لأندريو ملك المجر أشكالا لشخوص راقصة تتسم برقة خارقة(١) . ولكن مادة الميناء غدت فى السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية شأن جميع المواد الفنية الفاخرة — من باهظ النفقة بحيث لا يمكن الإكثار من استخدامها .

وكانت أشغال النل(٢) (Niello) والأشغال الدمشقية فى تطعيم المعادن تصنع كلها بالقسطنطينية . وكانت تصميماتهما مماثلة لتصميمات الميناء المعاصرة لها .

ومن العسير التحدث عن الزجاج والخزف البيزنطى(٣) ، إذ لم يبق منهما

---

(١) بمتحف بودابست . وهناك لوحة بلندن بمتحف فيكتوريا وألبرت .

(٢) النل (Niello) طريقة لتزيين المعادن بالحفر فيها وملء الخطوط المحفورة بمزيج أسود هو النل . (المترجم)

(٣) انظر رايس : «Byzantine Glazed Pottery» .

وبخاصة الأخير ، إلا نماذج قليلة جدا تعد فى حكم النادر . ويلوح أن الأصول الفنية لصناعتهما كانت منحطة لدرجة مدهشة ، وكان المصدر الرئيسى للإلهام فى الحلية المنقوشة عليهما إيرانيا أو عربيا . فقد وجدت ببلغاريا فى كنيسة باتلينا التى يرجع عهدها إلى القرن العاشر أيقونة خزفية للقديس ثيودور مصنوعة من عدة قراميد ملونة (tiles) . والإلهام فيها بيزنطى جلى لا خفاء فيه . غير أننا لانعرف أية أيقونة خزفية من أصل بيزنطى عدا هذه .

ومن العسير علينا أن نوفى الفن البيزنطى حقه فى مثل هذا المقام الضيق . وهو فن قد شرع أخيرا ينال حظه الواجب من التقدير بعد أن طال العهد بإهماله واحتقاره ، ولا ننس أن همة رجال البحث الحديث أخذت توسع مجال دراسته وفهمه . فنحن نكتشف فى كل يوم صورا جدارية جصية كانت مجهولة من قبل ، كما أن بعض مجاميع الفسيفساء قد أزيل عنها الطلاء الذى توارت وراءه أمدا طويلا . وقد أخذ كل من المؤرخين والمؤلفين فى فنون الجمال يركزون التفاتهم عليه تركيزاً لم يأتوا مثله من قبل أبدا . ولن تنقضى بضع سنين حتى نصبح أقدر كثيرا على تقدير مدى الدين الضخم الذى يدين به عالم الجمال لفنانى بيزنطة .

الفصل الثانى عشر

بيزنطة والعالم المجاور لها

كثيرا ما يفترض أن الدور الذى لعبته بيزنطة فى تاريخ العالم دور سلبى، حيث أقامت ما يقارب الألف سنة الحصن المنيع للمسيحية الواقى لها من المسلمين، الفارسى منهم والعربى والتركى، وصانت للنهضة الأوربية كنوز الأدب والفكر الكلاسيكى. ويغيب عن الناس أن الإمبراطورية ظلت طوال عمرها كله ذات أثر فعال فى حضارة العالم: وأن أوربا الشرقية مدينة بحضارتها كلها تقريبا لمبشرى القسطنطينية ورجال السياسة فيها، وينسون فوق هذا أن أوربا الغربية ظلت مدينة لها على الدوام بالفضل العميم مدة طويلة من الزمن قبل أن انطلق علماؤها وهى على فراش الموت حاملين معهم مخطوطاتهم وفلسفتهم الأفلاطونية الحديثة إلى إيطاليا، على حين أنه حتى الإسلام نفسه كان متعرضا لتيار متواصل من الفكرات ينساب إليه من ضفاف البوسفور.

وقد ظلت القسطنطينية حتى الفتح اللاتينى عاصمة الحضارة الأوربية لا ينازعها فى ذلك منازع. وربما تظاهر الغربى من هؤلاء باحتقار البيزنطى بحجة أنه رخو قد أفسده الترف وماهر ماكر حرم كل شهامة الفروسية، بيد أن ثراء القسطنطينية وما بها من وسائل الترف والجمام جعلتها مدينة من مدائن الخرافة والأحلام، التى كانت تتراءى للناس بفرنسا واسكنديناوة وانجلترة. فأما فى أوربا الشرقية وعن كثب من بوابات المدينة ذاتها، فكان التأثير أقوى قوة لا سبيل معها إلى قياس. وكانت أوربا الشرقية تقع قريبا من وديان آسيا المظلمة التى كانت تنساب منها أفواج من الناس إلى العالم الممدن شعبا بعد شعب. بل إن شبه جزيرة البلقان نفسها

ترادفت عليها صدمات الغزوات القوطية والهونية والآفارية ، فمحت كل آثار الحضارة الرومانية القديمة محواً. حتى إذا انتهى المطاف بامتلاء البلاد بالصقالبة ، لم يجد هؤلاء أية تقاليد محلية ولا جلبوا أية ذكريات قومية. وكل ما حدث هو أنهم شهدوا فى ركن شبه الجزيرة مدينة ضخمة مشرقة لا تقهر ويبدو لهم عمرها الصغير نسبيا فى واقع الحقيقة ، شيئا مديدا لا سبيل إلى مقاسه ، يمتد فى آفاق التاريخ إلى ماض سابق على كل ما لهم من وعى. فأصبحت مدينة الأباطرة (Tsarigard) مرادفا لديهم للفظة الحضارة .

اعترف صقالبة البلقان منذ بواكير القرن السابع بسيادة الإمبراطور هرقل عليهم . بيد أن الإمبراطورية شُغلت عن كل شىء ، أثناء القرنين التاليين لما ران عليها من فوضى ، ولما تعرضت له من هجمات المسلمين الضخمة ولما فرق شملها من اضطهادات دعاة تحطيم الصور . فلم تستطع بيزنطة أن توجه إلى الصقالبة أى التفات يزيد عن مجرد الالتفات العملى الذى تقتضيه شئون الدولة إلا فى القرن التاسع . وفى ذلك الحين نفسه كان قد ألم بالصقالبة تغييرات عديدة . ففى أخريات القرن السابع عبرت الدانوب[1] قبيلة هونية أجرية (Hunno-Ugrian) تسمى البلغار . ولعلهم لم يكونوا كثيرى العدد جدا ، ولكن كانت لهم قدرات على التنظيم كانت تعوز الصقالبة . فأخذوا يشيدون رويدا رويدا مملكة قوية احتلت جميع الأجزاء الداخلية من شبه الجزيرة ، فما وافى عام ٨٠٠ حتى تمكنت قبضتهم من ترنسلفانيا وسهل الأفلاق (Wallachia) . وقد التحموا بجيوش الإمبراطور فى حروب عديدة ، وتمكن أميرهم الخان كوروم فى ٨١١ من قتل الإمبراطور نيقيفوروس الأول فى إحدى المعارك . ولكنهم كانوا حتى ذلك الحين من عدم

---

(١) عن البلغار انظر زلاطارسكى (History of the Bulgarian Realm) (بالبلغارية) ، وانظر أيضا رانسيمان فى (The First Bulgarian Empire) حيث نجد قائمة كاملة بالمراجع .

الاستقرار بحيث لا يمكن أن تبلغهم أية حضارة . على أن الخان كوروم (حوالى ٧٩٧ — ٨١٤) وابنه أمورتاج (٨١٥ — ٨٣٣) كانا مع ذلك من مدبرى الدول ذوى الاقتدار . فأخذ اليونان والأرمن يتوغلون فى البلاد إبان حكمهم المستقر المنتظم . ذلك أن الخانات كانوا يريدون أن ينشئوا لأنفسهم مساكن ملكية ؛ فوفد اليونان والأرمن لأداء تلك المهمة . وفتحت البلاد منافذ فيها للتجارة اقتنصها تجار الإمبراطور متلهفين . وحدث أثناء الحـــروب أن وقعت إلى حين بأيدى البلغار قلعتا أدرنة وميسمبريا الحصينتان ، وكان الأسرى والسلع المغنومة فى القتال خير لسان أظهر القوم على مدى موارد الحضارة البيزنطية وثرائها . على أن الخانات كانوا مرتابين أول الأمر ، وكانت آية انزعاجهم اضطهادهم لكل بادرة تظهر للنسيحية. ثم أخذ امتزاج العنصر البلغارى بالصقلبي يزداد شيئا فشيئا ؛ وما لبثت المملكة البلغارية المتحدة أن وجدت جاذبية القسطنطينية لها قوية ولا سبيل إلى مقاومتها . وأخيراً فى ٨٦٥ قرر الخان بوريس حفيد أمورتاج ، بدافع من حاجاته السياسية المباشرة من ناحية ومن السياسة البعيدة النظر من ناحية أخرى أن يعتنق المسيحية . وبادرت الحكومة الإمبراطورية بلهفة إلى إرسال البعوث من المبشرين . فتقاطر البيزنطيون إلى قصر بليسكا . وبعد تعميد بوريس — تحت اسم ميخائيل واتخاذ ميخائيل الثالث شبينا وأبا روحيا له — أخذ يعابث روما فترة من الزمن ، لعله يجد فيها صيغة للمسيحية أنسب له ؛ على أن عناد روما وشدة أخذها بأسباب النظام تفرّه . فانكفأ منقلبا إلى الولاء لكنيسة القسطنطينية ؛ وشجعه البطريق فوطيوس على إقامة كنيسة تابعة له ذات استقلال ذاتى مع استخدام اللغة البلغارية فى طقوس الصلوات .

وساعد على الاستقرار النهائى للكنيسة البلغارية قيام حركة تبشيرية

معاصرة بدأتها بيزنطة[1] . وعند نهاية القرن الثامن بالضبط تمكن شرلمان بمساعدة البلغار العاملين معه فى الجناح المقابل من القضاء على المملكة التى أقامها الآفار بسهل الدانوب الأوسط قبل ذلك بما يربى على قرن من الزمان . على أن الفرنجة لم يغنموا من وراء ذلك النصر إلا النزر اليسير . وبعد ذلك بنصف قرن غلب على ذلك السهل مملكة المورافيين الصقلبية العظيمة . وفى ٨٦٢ رأى روستسلاف الملك المورافى أن ملكا عظيما مثله ينبغى أن يكون مسيحيا ، وأرسل إلى القسطنطينية يطلب منها النصح والإرشاد . واختار بارداس وصى العرش والبطريق فوطيوس لمهمة التبشير صديقا لهما ، هو قسطنطين المقدونى أو كيرلس وهو لغوى ضليع ، كان يعالج دراسة فقه اللغة السلافونية واخترع أبجـــدية تلائم الاحتياجات الصوتية للألسن السلافونية . وانطلق كيرلس وشقيقه ميثوديوس إلى مورافيا وأسسا كنيسة كان الكتاب المقدس وطقوس الصلاة فيها باللغة القومية . بيد أن الكنيسة المورافية كانت من الحداثة بحيث لا تستطيع الوقوف على قدميها بمفردها فإن القسطنطينية كانت على بعد سحيق ، كما تفصلها عن مورافيا المملكة . البلغارية . حتى إذا وجد كيرلس فى الأقطار المجاورة مسيحيين لاتينيين ، رأى أن يضعها تحت رئاسة كرسى روما البابوى . وتقبل البابا العظيم نيقولاوس الأول الهدية بسرور وغبطة . بيد أن روما لم تحب يوما وجود طقوس للصلوات تقام باللغة القومية . فبعد وفاة كيرلس والبابا العظيم نيقولاوس أخذ مَنْ عقبه من البابوات فى إقامة العراقيل أمام شقيقه ميثوديوس ، كما أن أساقفة ألمانيا اللاتين أخذوا يواصلون الائتمار به بلا كلل ، حتى ثبطت همة إسفاتوبلك العاهل المورافى خليفة روستسلاف . ومات ميثوديوس ودب الاضمحلال إلى عمله . وعندئذ أبعد أهم تلاميذه من مورافيا بنصيحة القسس اللاتين ، على حين بيع أتباعه الأقل أهمية بيع

(١) انظر ديفورنيق : (Les Slaves, Byzance et Rome) بمواضع متفرقة ؛ وانظر أيضا رانسيمان فى المصدر السالف ذكره ص ٩٩ ع ع .

الرقيق بأسواق النخاسة بالبندقية ، حيث اشتراهم السفير البيزنطي وأرسلهم إلى القسطنطينية . وهناك استقبلهم فوطيوس باغتباط وكلفهم بإنشاء معهد لاهوتى للمبشرين السلافونيين (الصقالبة) . وفى الحين نفسه وصل التلاميذ المنفيون إلى بلغاريا ، حيث أحسن بوريس (بوغريس) كذلك استقبالهم واستخدمهم فى طبع كنيسته بالطابع السلافى . وبفضل مساعدته ورعاية الإمبراطور والبطريق بدأت كنيسة بلغاريا المستقلة الناطقة باللغة القومية .

وبذلك فقدت مورافيا ثمار الجهود التى بذلها الأخوان المقدونيان . وسرعان ما لقيت جزاءها بعد ذلك على جحودها بالفضل . فإن المجريين الوثنيين غزوا وادى الدانوب عند نهاية القرن وقضوا على المملكة المورافية . فكأن بلغاريا هى التى حفظت عمل كيرلس وحالت دون ذهابه بددا ، كما أن البلغار الذين هم من أصل فنلندى – أجرى (Finno-Ugrian) ، أحرزوا إكليل المجد حيث كانوا الدولة الكبرى الأولى الممدنة بين الصقالبة .

كانت حضارتهم حضارة بيزنطية خالصة ، رغم أنه كانت لها أبجدية خاصة . وكان سمعان (ابن بوريس) الذى أطلق على نفسه لقب قيصر(Tsar) والراعى الأكبر للثقافة الجديدة ، قد تلقى تعليمه بالقسطنطينية ، حيث تعمق فى دراسة أعمال ديموستينيس ويوحنا كريسوستوم (ذى الفم الذهبي) . وتقاطر المترجمون إلى بلاطه لينقلوا إلى السلافونية مدونات التاريخ اليونانى والعظات والروايات الرومانسية اليونانية ؛ وكانت مبانيه فى بريسلاف الفاخرة عاصمته الضخمة ، صورة تماثل بل تطاول بطموحها أمجاد القسطنطينية وأبهتها – وإن كشفت الحفائر الحديثة عن عمل يغلب على تصميمه الطابع الإيرانى ، شأن معظم الفن البلغارى المبكر – ولا شك أن ذلك يرجع إلى حد كبير إلى وجود العمال الأرمنيين ، وذلك لأن الأرمن كانوا يفدون فعلا إلى بلغاريا فى حشود كبيرة : وإن كان المؤرخون البلغار المحدثون يرون فيه آثاراً لبواكير الفن البلغارى الأولى التى حملها معهم البلغار الرحل حول الشاطئ الشمالى للبحر الأسود أثناء هجراتهم .

وابتدأ القيصر سمعان طرازاً جديداً نقله عنه خلفاؤه والصربيون جيرانه وظل متوارثاً حتى أيام الكوبرنجر فرديناند . فإنه كان يحلم بأن يتربع على دست الملك بالقسطنطينية كوريث للقياصرة أجمعين . فتوج نفسه إمبراطوراً وجعل على كنيسته بطريقاً ، ثم انقض على أسوار القسطنطينية . ولكن عبثاً ما حاول . على أن ابنه بطرس (٩٢٧ — ٩٦٩) عمد إلى الزواج من أميرة بيزنطية — وإن احتفظ باللقب الإمبراطورى والمنصب البطريركي . وبذلك وقعت الحكومة — شأن الثقافة — تحت ظل النفوذ البيزنطى .

وعندما استردت بيزنطة كامل قواها عند نهاية القرن العاشر ، وجهت جل عنايتها إلى سحق إمبراطورية البلغار الحديثة النشأة ؛ وكانت تلك عملية بطيئة مضنية لأن البلغار حاربوا بشكيمة قوية بقيادة القيصر صموئيل ؛ ولكن الأمر انتهى بأن تم الفتح على يدى باسيليوس الثانى جلاد البلغار . ومع أن بلغاريا هوت آنذاك وصارت إحدى المقاطعات ، فقد بقيت لها لغتها واحتفظت بنظام كنيستها — وهى النواة التى تقوم عليها الدولة المستقلة الجديدة عندما تسنح الفرص . وفوق هذا فإنها استهلت مدنية جديدة تدين بكل شىء أدباً كان أم فناً ، للقسطنطينية أو للأرمن ، ولكنها فى حد ذاتها سلافونيـــة .

وقد اعتنقت بلاد الصرب المسيحية أثناء بعوث التبشير التى قام بها الأخوان المقدونيان . ولمـــا لم تكن مندوحة لها من أن تكون العدو الألد لبلغاريا ، فإنها سرعان ما وقعت تحت نفوذ القسطنطينية ، على أنها كانت فى البداءة من شدة الفقر بحيث لم تتهيأ لها حضارة مستقرة . فأما الولايات السربية الكرواتية الواقعة وراء ذلك إلى الغرب فكانت تشخص بأبصارها نحو البحر الأدرياتى . وكانت هى أيضاً من أبناء كيرلس الروحيين . وإن لم يبق على الولاء لمبادئ كيرلس إلا راسكيا (الجبل الأسود) . ورأت كرواتيا التى برزت كقوة عسكرية عظيمة عند نهاية القرن التاسع بقيادة

ملكها توميسلاف ، أن مطامعها فى إقليم دالماتيا تحتم عليها الحصول على رضاء روما . ولذا فإن كرواتيا انضمت فى المجامع الدينية التى عقدت باسبلاتو فى ٩٢٤ ، ٩٢٧ إلى طقوس الصلوات اللاتينية هى والولايات الدائرة فى فلكها . ومن ثم كان لحضارتهم لون لاتينى دالماتى لا أثر فيه للطابع البيزنطى إلا فى المقام الثانى .

ومما ساعد على سقوط الإمبراطورية البلغارية الأولى ظهور الزندقة البوجوميلية التى أنشأها القسيس بوجوميل والتى تأثرت دون أدنى ريب بزنادقة الطائفة البولصية (Paulician) الأرمنية . كانت عقيدة مثنوية ، لا تستصوب العمل والنسل على السواء وتتخذ منهجاً من المقاومة السلبية لا جدال فى أثره القتّال على الدولة . وقد أنتجت أدباً قومياً من الأساطير وحكايات « النبرى » ، منها ما هو قومى وأكثرها من أصل يونانى أو أرمنى أو شرقى . وقد تمكنت السلطات الإمبراطورية من إخماد تلك الحركة فى بلغاريا فى غضون قرن من الفتح . بيد أنها انتشرت غرباً حتى بلاد الصرب واستقرت متمكنة من بلاد البوسنة وكرواتيا . وظلت عقيدة البوسنة السائدة حتى مجىء الأتراك .

وشهد القرن العاشر حركة تبشير عظيمة ثانية . فإن الروس كانوا شأن البلغار شعباً صقلبياً تسيطر عليه أرستقراطية أجنبية(١) . وقد ظلت بيزنطة حيناً من الدهر على اتصال بالفرالدوقين النورسيين أصحاب نوفجورود وكييف ، اللذين كانوا يرسلون سنوياً أساطيل صغيرة إلى القسطنطينية بغية

---

(١) عن الروسيين انظر : "History of Russia" تأليف سولوفيف (بالروسية) ؛ وانظر اسبنسكى "Russia & Byzatium" (بالروسية) ؛ وكلوشفسكى فى : "History of Russia" ترجمة هوجارث ؛ وچليرينسكى (History of the Russian Church) (بالروسية) ؛ وليب فى : Kiev, Rome et Byzance ؛ وفاسيليف فى مقالته : « هل كانت الروسيا القديمة تابعا من توابع بيزنطة ؟ » بمجلة (Speculum) مج ٧ ص ٣٥٠ ع ع .

التجارة أو الإغارة أحياناً ، فاكتسبوا بعض الحقوق التجارية بتلك العاصمة . وعند منتصف القرن كانت أولجا الغراندوقة الأرملة قد اعتنقت المسيحية وزارت مدينة القسطنطينية . وبعد ذلك بقرابة خمسين عاماً أو تزيد فى ٩٨٩ وافق حفيدها ڤلاديمير الأكبر على أن يتعمد هو وشعبه فى مقابل حصوله على يد أنّا شقيقة الإمبراطور . ومنذ تلك اللحظة أخذ نفوذ بيزنطة ينتشر فى الروسيا بسرعة . فَمُنِح الروسيون كلا من الأبجدية وطقوس الصلوات التى وضعها كيرلس ، فأحسنوا الانتفاع بهما كل الإحسان . فإنهم أنتجوا بمعزل عن الشعوب السلاڤونية أدباً لا يقتصر على الترجمات ؛ على أن مدوناتهم التاريخية مثل تلك التى تسمى باسم مدونة نستور ومدونات نوفجورود ، إنما هى « مؤلفات » تاريخية جديرة بالثقة والاعتماد ؛ وقد أحرز فنهم ذو الأصل البيزنطى ملامح وقسمات خاصة اتّسم بها ترجع إلى حد كبير إلى وجود مؤثرات من الشرق . ولا شك أن كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بكييف وهى بيزنطية فى تصميمها الرئيسى وفى فسيفسائها تتسم بملامح تربطها ربطاً وثيقاً بكنائس جورجيا (الكرج) مثل كنيسة موكْوى الأبازجية الصغيرة ؛ وما عتم هذا التفاعل بين الفكرات أن أنتج بالتدريج طرازاً روسياً وطنياً . ومن العسير علينا تحديد إلى أى مدى كانت الحضارة الروسية للقرون الوسطى تستطيع أن تتطور . ذلك أن البلاد شديدة الاتساع والترامى ؛ كما أن المغول وفدوا عليها فى عهد مبكر جداً من القرن الثالث عشر ، قاضين على نمو البلاد وقالبين اتجاهاتها رأساً على عقب . حتى إذا عادت الروسيا من جديد سيرتها الأولى إذا هى قطر شرقى . وحتى الكنيسة نفسها ، وقد انقطع عنها فيض الإلهام البيزنطى الفكرى الفعال ، سرعان ما انحدرت فى مهاوى السلبية المستسلمة . فحجب النساء فى أجنحتهن ، ورانت الجهالة والأمية على جميع الطبقات حتى الأرستقراطية . ولم يعد شىء يُذَكِّر الروسيا بفضل بيزنطة عليها ورعايتها لها إلا شكليات ومرعيات جوفاء فضلا عن

أبجدية كيرلس . وأدخلت أسرة رومانوف على البلاد غشاءً مخلطاً من الحضارة له طابع بيزنطى وغربى وهيأت للبلاد عظمة سطحية ؛ بيد أن الشرق قدر له أن ينتصر للمرة الثانية . ولا يزال الحكم الاستبدادى نفسه متسما بطابع غير شخصى ومشوباً بالقسوة يمكن لستالين مثلما مكن چنكيزخان من ناصية الحكم من بحر البلطيق إلى المحيط الهادى .

والواقع أن أحداً من أبناء بيزنطة الروحيين لم يُمكَّن من بلوغ مرحلة النضج بسلام . فإن بلغاريا والصرب نهضتا فى أخريات القرن الثانى عشر وأسست كل منهما إمبراطورية ، دامت الأولى منهما زهاء قرنين حتى سقطت أمام الأتراك ، وطال عمر الثانية قرناً آخر حتى حولتها معركة كوسوڤو إلى حال من التبعية لم تلبث أن صارت إلى عبودية[1] . وطورت كل منهما حضارتها البيزنطية . وتاريخ بلغاريا لعهد أسرة آسن (Asen) يغشاه الغموض ؛ فأما أدبها فلم يبق منه إلا النزر الطفيف ، كما أن ما سجل عنها فى الخارج إن هو إلا جذاذات مضطربة لا تغنى . وقد هدد قياصرة بلغاريا مدينة القسطنطينية أكثر من مرة أثناء عهد الإمبراطورية اللاتينية . ولكن طغى على قوة البلغار الانتعاش الذى حدث لعهد آل باليولوجوس وظهور الصرب كمنافس لهم . وكان من دواعى ضعف استقلالهم وجود إمبراطورات من أصل بيزنطى أو صربى ، لهن نفوذ قوى فى شئون الحكم . ومع ذلك فإنهم أنتجوا فناً ، يتجلى فى كنائس ترنوڤو وفى الصور الجصية الجدارية فى بويانا ، وهو فن بيزنطى الأساس ، بيد أنه أوتى طابعاً خاصاً تفرد به هو بساطة الشكل وحرارة التلوين .

وكانت الإمبراطورية الصربية أكثر أبهة وفخامة . والواقع أن القيصر

---

(١) انظر ما كتبه ميلر فى (Cambridge Medieval History) مج ٤ ص ٥١٧ — ٥٩٣ ، وانظر مراجعه ص ٨٧١ — ٨٧٦ ؛ وانظر L'Art Byzantin chez les Slaves, Premeir Recueil Uspenski .

استيفن دوشان كان فيما يحتمل أقوى عاهل بأوربا أثناء القرن الرابع عشر ؛ حتى لقد لاح من الأمور التي لا يتطرق إليها الشك أن القسطنطينية أصبحت في قبضة يده أو تكاد . وقد طبع الطابع الإمبراطوري بسهولة تامة على نظام الحكم البلغاري المنظم . ولكن الصرب كان لها نُظام قومي من الممكن إطلاق اسم الإقطاعي عليه ؛ فلم يكن حكم العاهل الصربي مطلقاً على أتباعه بحال . وهكذا لم يحدث قط أن تغلغل الطابع البيزنطي بشدة في الصرب . على أن تيار المؤثرات البيزنطية لم ينقطع يوماً عن الفيض . فإن أميرات بيزنطيات عديدات تزوجن من صربيين ، هذا إلى أن كثيراً من البعثات الدبلوماسية البيزنطية كانت تسافر إلى البلاط الصربي — ذلك البلاط الذي يصوره السفراء والأميرات بأنه جهنمي في قلة جمامه وشدة صرامته[1] . وعندما أصدر استيفن دوشان مجموعة من القوانين ، كانت غالبيتها الكبرى مقتطفة على التحقيق من الكتب القانونية البيزنطية وإن كان الأساس فيها إلى حد كبير هو النظام الإقطاعي الصربي . وكان فن التصوير الصربي بيزنطياً بنصه وفصه ، هذا بينما طَوّر فن العمارة الصربي خصائص قومية . ذلك بأن قرب دالماتيا ووجود ملكة لاتينية هي هيلينا ابنة الإمبراطور اللاتيني وزوجة استيفن أوروش الأول ، أضفت عليه في القرن الثالث عشر لوناً إيطالياً قوطياً . وعادت بالمثل العليا البيزنطية والملكات البيزنطيات فتسلطت من جديد على البلاد في القرن الرابع عشر ، وهو العصر الذهبي للصرب ؛ على أن المهندسين الصربيين المعماريين احتفظوا لأنفسهم بطائفة معينة من الفكرات . ولكن كلا من بلغاريا والصرب — شأن زميلتهما الروسيا لم تتح لسيرة حياتهما الفرصة اللازمة لبلوغ حد النضج الكامل . فسرعان ما أنزلهما

---

(١) انظر لاسكارس "Byzantine Princesses in Medieval Serbia" (بالصربية) ، بمواضع متفرقة وخاصة ص ١٣٢ — ١٢٥ ، وفيه ينقل بيان جريجوراس عن سفارته ؛ أما وصف ميتوخيتس لسفارته فيرجع إليه في .B.O.M مج ١ ص ١٥٤ — ١٩٣ .

الأتراك منزلة العبودية وتحطمت حضارتهما - سوى ما تمكنت الكنيسة بقوة التماسك من صيانته والاحتفاظ به ، وهى تكافح بتواضع ما لا حصر له من الصعوبات .

فليس من العدل إذن أن نحكم على أعمال التبشير البيزنطية استنادا إلى الحالة الراهنة للأقطار البلقانية . وذلك أن أقطار البلقان لم تتمكن إلا مؤخرا من النهوض من تحت كَلاَكِلِ الكابوس الذى ناء على صدرها أربعة قرون من الليل البهيم الطويل . والأحرى بنا أن نقارنها كما كانت قبل الفتح التركى ، بالغرب فى القرن الرابع عشر - كأن نقارن مثلا بين كنيسة سالسبورى بالكنيسة الصربية الكبيرة فى جراتشينيتسا . فربما حلقت الأولى منهما برشاقة إلى عنان السماء ؛ فأما الثانية فهى بما أفرغ عليها من بساطة التصميم والاقتصاد الشامل فى توازنها وتوزيع الضغوط بها والزخرفة الجزلة المتحفظة فى داخلها ، تنطق بأنها من عمل شعب لا يقل فى روحانيته بل هو أكثر حصافة وثقافة .

فأما الأقطار الأوربية الأخرى المجاورة فإن التأثير البيزنطى بها لم يبلغ البتة حد الإثمار التام . فإن ما أدركه من نجاح مبكر ببلاد المجر وكرواتيا سرعان ما حل محله نجاح الغرب وروما . فأما ولايتا الأفلاق والمولداف فلم تظهر بهما الدول المستقرة إلا إبان فترة اضمحلال بيزنطة . وهناك أخذ النفوذ يعمل عمله بصورة غير مباشرة مستطرقا من خلال البلغار والصربيين بل وربما استطرق لمسافة أعظم من خلال الروسيين إلى اللّتوانيين ، وبذا عاد أدراجه إلى الدانوب - على أن مسألة الأثر اللّتوانى وأصله لا تزال موضع الجدل والأخذ والرد . ولم يحدث إلا فى عهد الترك وحدهم أن حكام الإمارات الفنَاريين (Phanariot) أضفوا على هؤلاء الأقوام لونهم المنطبع بالطابع البيزنطى السطحى والمحرف[1] .

---

(١) انظر يورغا : "Geschichte des Rumänischen Volkes"

واستهلت بيزنطة عهد بعوث تبشيرية أخرى لم توفق إلى النجاح . فإن الخزر أصروا بعناد على أن اليهودية عقيدة أحسن من النصرانية ، ولم تغن فتيلا جهود القديس كيرلس الذى تعلم الخزرية والعبرية تهيؤاً لتلك الغاية ، فلم يستطع أن يصرفهم تماما عن رأيهم[١] . وقد تنصر إلى فترة قصيرة فى القرن العاشر شعب الآلان النازلون على المنحدرات الشمالية لجبال القوقاز . ولكنهم سرعان ما وجدوا النصرانية غير مستساغة ، فأبعدوا عن ديارهم جميع القساوسة[٢] .

على أن الشعوب الواقعـــة إلى الجنوب تماما من القوقاز ، وهم الأرمن والجورجيون (الكرج) والألبانيون ، كانت علاقتها ببيزنطة عجيبة إلى حد ما . والواقع أن أثر الأرمن على بيزنطة ربما كان أعظم من أثر بيزنطة على أرمينية[٣] . وقد اجتلب القديس جريجورى المنير المسيحية إلى أرمينية من الشرق اليونانى أثناء القرن الثالث . وقبل فوز الكنيسة بالنصر أو إنشاء القسطنطينية كانت المسيحية هى العقيدة الرسمية للدولة الأرمنية ، وإن أصيبت فى البداية ببعض النكسات . وكان الأرمن شديدى الفخار بمسيحيتهم العريقة ، وعندما لم يؤخذ رأيهم تماما بالمجلس الكنسى العالمى الرابع المنعقد بخلقدونية ، رفضوا قراراته . لذا ظلوا منذ ذلك التاريخ موسومين بالانشقاق ومرتبطين فى أذهان الأرثوذكس بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفزيائيين) . لذلك كانت

---

(١) انظر (Vita Constantini) (بالسلافونية) نشرة ميكلوسش ودملر ص ٢١٩ ، ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢) انظر مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٤٣ .

(٣) وعن أرمينية انظر تشامش : "History of Armenia" وانظر ادونتس : (History of Armenia) (بالروسية مخطوط ، قام كونيبير بترجمة أجزاء منه بمكتبة لندن) وانظر لورنت : (L'Arménie entre Byzance et Islam) وانظر سترزيجوفسكى Baukunst der Armenier und Europa ؛ وانظر ماكلر : « فى تاريخ كمبردج للعصور الوسطى » جـ ٤ ص ١٥٣ — ١٨٣ وانظر كذلك المراجع ص ٨١٤ — ٨١٨ .

حالة الشك والارتياب متبادلة بين الإمبراطورية وأرمينية ، وزاد فى أوارها ارتباط الأرمن بالمدنية الفارسية — فكانت الأسرة الملكية الأرمنية العظيمة الأولى وهى الأرشكية فرعا من الأسرة المالكة البارثية ؛ وكانت أرمينية هى معترك القتال المألوف بين الطرفين أثناء الحروب التى شنها الأباطرة على الساسانيين ، كما كانت جيوش الطرفين تجتاح أراضيها باستمرار . وعن هذه العلاقة الفارسية اكتسب الفن الأرمنى والعمارة الأرمنية بوجه خاص سمات ساسانية اختمرت هناك وتطورت ، ثم كانت تحمل غرباً بين الفينة والفينة لكى تنفخ فى فن الإمبراطورية حياة جديدة .

وبعد سقوط آل ساسان سيطر العرب على أرمينية مدة قرنين من الزمان . ولم يُفد الأرمن شيئاً من الحضارة العربية كما لم يفيدوا من القسطنطينية إلا قليلا . وعندئذ انطلق كثير من الأرمن يلتمسون الثراء داخل الإمبراطورية ، ولكن قل منهم من عاد إلى وطنه . ولم تعد العلاقة وثيقة بين أرمينية والعاصمة إلا فى القرن التاسع . ونشأت أسرة مالكة وطنية عظيمة على منحدرات جبل أرارات ، هى أسرة الباجراتيين (Bagratids) الذين كانوا يرجعون أنسابهم إلى داود وبثشيبا ، وكانوا يقولون إن مريم العذراء ابنة عمهم . وبسطوا ضرباً معيناً من الزعامة على الإمارات الصغرى التى كانت تعمر الوديان الأرضية . وقد اعترفت كل من بغداد والقسطنطينية بلقب ملك الملوك الذى كانوا به يتلقبون ؛ وما لبثوا بعد نكسة أصابتهم فى القرن العاشر أن أخذوا يخلصون أنفسهم رويداً رويداً من ربقة العرب . وساعدهم كثيراً فى النهوض بذلك العبء زيادة قوة الإمبراطورية فى ظل الأسرة المقدونية التى كانت هى الأخرى تدعى الانتساب إلى الباجراتيين .

وكان القرن العاشر العصر الذهبى لأرمينية . ففيه تم لها إقامة أبدع مبانيها بمدينتى أختامار وآنى ، وفى إبانه ظهر أعظم مؤرخيها وهما يوحنا الجاثليق وتوماس أردزرونى . غير أن من العسير علينا أن نقرر إلى أى مدى كانت

تلك الحضارة متأثرة بالبيزنطية . وكان الأرمنيون لا يبرحون يتقاطرون على الإمبراطورية زرافات ووحدانا ، ولكن من بقى منهم بأرمينية كانوا ذوى نزعة قومية قوية ، يكرهون اليونان الميالين إلى الانشقاق وجميع ما يصدر عنهم من أعمال . وليس أدبهم بعد القرن الرابع مديناً بأى شىء للأدب اليونانى. فقد اخترع لهم أبجديتهم أرمنى هو القديس ميزروب — وإن أقامها فعلا على أساس يونانى ، وكان مؤرخوهم الأوائل مثل فوستوس البيزنطى وأناناياس الشيراكى من حيث الأسلوب ومادة الموضوع تغلب عليهم الوطنية والسذاجة . وكان لكنيستهم نظامها الخاص برئاسة كبيرها الجاثليق ، وهو بطريق يخلفه فى العادة ابن أخيه . والمعروف بجلاء أنه حتى كتاب العصر الذهبى لم يكونوا يعرفون شيئاً من اللغة اليونانية . ومع ذلك فقد كان للقسطنطينية جاذبية وإغراء لا سبيل إلى مقاومته . فإن ألمت بالقوم أزمة كان الملجأ الطبيعى الذى إليه يُهرعون هو القسطنطينية . والقسطنطينية هى الموئل الذى يرجو فيه المغامرون من أبنائهم أن يجمعوا الثروات . وإلى القسطنطينية كان يفد امراؤهم ، وينالهم العزة والكرامة من استقبالهم بالبلاط . وكان أمراء أقرب الولايات إلى الإمبراطورية مثل أمير طارون يتخذون لأنفسهم قصوراً بالقسطنطينية ينفقون عليها الأموال ، وكان الكثيرون منهم يتخذون لهم زوجات من البيزنطيات . وكان أمثال هؤلاء الأمراء والمغامرين سرعان ما ينبذون عن عواتقهم طابع الكنيسة الأرمنية .

بيد أن الأرمنيين النازلين بوديان الأرارات كانوا ذوى نزعة قومية عنيدة . وبذلت بيزنطة كل وسيلة لإقرار سلطانها ؛ حتى لقد زوج الإمبراطور رومانوس الثالث ابنة أخيه زوية للملك يوحنا سمْبات من الأسرة الباجراتية . بيد أن الأرمن ظلوا رغم ذلك كله غير جديرين بالثقة ؛ وما لبثت الحكومة الإمبراطورية أن ارتأت فى النهاية أن أرمينية ينبغى أن تلحق بالدولة احتياطاً من هجوم السلاجقة المنتظر . وكان على طارون من

قبل ذلك أمراء بيزنطيون هم الأسرة الطارونية . ومن قبل ذلك فى ١٠٢٣ كانت ألحقت بالدولة إمارة ڤاسبوراكان الأردزرونية الواقعة على شواطئ بحيرة ڤان . وفى ١٠٤٤ خلع الملك جاجيك الثانى من آل باجرات عن عرشه أصبحت مملكته لواء (theme) من ألوية الإمبراطورية . وأعطى جاجيك بيتاً بالقسطنطينية ومزارع كبيرة بآسيا الصغرى ، حيث أحدث فضيحة بدعوته مرقص أسقف قيصرية لتناول الغذاء معه وقتله هو وكلبه بلفهما معاً فى جوالق ، لا لشيء إلا لأن الأسقف كان يخص الأرمنين بنفس الشعور الذى كان يخالج الإنجليز نحو الاسكتلنديين فى القرن الثامن عشر — فسمى كلبه « أرمنى »[1] .

واتبع البيزنطيون فى حكمهم بأرمينية سياسة التساهل والمراضاة . فسمحوا للأرمن بالاحتفاظ بكنيستهم ولغتهم . ذلك أن باسيليوس الثانى قد دلهم فعلا على تلك السياسة . ذلك أنه يوم كان بطرابيزون فى ١٠٢٢ دعا الجاثليق ليرأس حفلة مباركة المياه فى عيد الغطاس . وبعد ضم البلاد عاد الإمبراطور قسطنطين التاسع عندما دعا الجاثليق إلى زيارة القسطنطينية فعين ابن أخيه بوظيفة السنكلّوس (نائب الجاثليق) للكنيسة الأرمنية ، وبذلك اعترف بها رسمياً .

غير أن ضم أرمينية كان عبثاً لا طائل تحته . فلم تنقض ثلاثون سنة حتى انتقلت أرمينية مع أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى إلى أيدى الأتراك . ولم يلبث أهل أرارات أن حل بهم ما حل بشعوب البلقان بعد ذلك ببضعة قرون ، ولكن بصورة أدوم وأطول عمراً . فألقوا فى ربقة العبودية ، ولم يبق من شيء يحفظ جذوة روحهم حية إلا كنيستهم وحدها ، التى كانت تسيطر عليهم من الكنيسة المطرانية فى إتشميادزان ، التى لا يزال بها

---

(١) انظر (Matthew of Edessa) ترجمة دولورييه ص ١٥٣ — ١٥٤ .

إلى اليوم عظام شهدائهم وقطعة من الصليب الأصلي ولوح من فلك نوح .

ومع ذلك فإن حيوية الأرمن لم تسحق . فإنهم خرجوا من تلك الفوضى التي ألمت بهم بمملكة جديدة أنشئوها بكيليكيا ذات تبعية إقطاعية للإمبراطورية في القرن الثاني عشر ، ولكنها صارت في الثالث عشر دولة مستقلة ذات ثراء ضخم وقوة كبيرة . ومن العسير الإدلاء بتقدير عن الآثار المتبادلة بين الإمبراطورية وهذه الدولة الأرمنية . ولعلها كانت أقل من التأثير المتبادل بين أرمينية والصليبيين القادمين من الغرب . والواقع أن المملكة كانت في أيامها الأخيرة ملحقة تابعة لحكام قبرص الفرنسيين . والراجح أن أثر الفن الكيليكي الأرمني كان قوياً في التصوير البيزنطي والإيطالي .

أما الشعوب النازلة فيما وراء أرمينية مثل الألبانيين والجراكسة وقبائل القوقاز الذين يقول عنهم المسعودي المؤرخ العربي الذي ظهر في القرن العاشر ، إنه لا يعلم عددهم إلا الله وحده[1] — فلم تكن لبيزنطة معهم إلا معاملات طفيفة لا تذكر ، وإن دونت معظم أسمائهم في السجلات الديبلوماسية الإمبراطورية . وكان الشعب الوحيد الذي يلعب دوراً كبيراً في العالم البيزنطي هو أهل چورچيا[2] . فإن هؤلاء الكرج هم ومن تفرع منهم من فروع عديدة أمثال الأبازچيانيين والمنجرليين والأيبيريين اعتنقوا المسيحية بعد الأرمن بقليل ؛ كما أن القديس ميزروب نفسه ذا الذهن المبتكر استحدث لهم أبجدية . ولكنهم ظلوا على عكس الأرمن — على صلة تامة بالكنيسة الأرثوذكسية . وتاريخ چورچيا المبكر يغشاه الإبهام . فمنذ مطلع القرن الثامن اقتاد لاوون الإيسوري وهو شاب صغير بعثة سياسية مضى بها بين

(١) يقدر المسعودي في « مروج الذهب » ج ٢ ص ٢ — ٣ عددهم باثنين وسبعين .

(٢) انظر بروسيه "Histoire de La Céorgie" وانظر أيضاً "History of the Georgian People" تأليف ألن .

تلال چورچيا (الكرج) ومرت به هناك مخاطرات لا يصدقها عقل[١] .

ولعل الهدف من تلك البعثة هو جمع المجندين ؛ وذلك لأن الوظيفة الرئيسية للقوقاز فى نظر الدولة البيزنطية هى تزويده إياها بالجند المرتزقة . وبرزت چورچيا للعيان قطراً ممدّناً فى القرن التاسع ، يوم حكمت البلاد أسرة مالكة أبازچية من معاقلها على شواطىء البحر الأسود ، أحرزت قوتها فى البداءة باتباع سياسة التودد لبيزنطة ، ولكنها ما فتئت حتى انقلبت قرب نهاية القرن العاشر إلى التدخل فى الحروب الأهلية داخل الإمبراطوريّة بصورة قد لا يكون رائدها فيها على الدوام العون ولا الإخلاص . انغمر الأبازچانيون فى أوائل القرن الحادى عشر فى فرع كرجى من أسرة باجرات ، وهى أسرة بلغت أوج مجدها فى شخص الملكة تمار (١١٨٤ — ١٢١٢) ودامت حتى القرن التاسع عشر . وكان الجورچيون (الكرجيون) مستعدين دائماً لتقبل المؤثرات البيزنطية ، وبخاصة بعد تأسيس إمبراطورية طرابيزون ؛ وفى الإمكان تبين الفكرات البيزنطية فى فنى العمارة وتحلية الكتب بالصور لديهم . ولكن الفن الساسانى الأرمنى كان بالغ الأثر فى صوغ أسلوبهم . وإن كنائسهم السامقة وإن كانت أكبر عرضاً منها طولا مع تضييق النوافذ والقباب تحت أسقف مخروطية شديدة الانحدار ، لهى أشياء تنتسب إلى بلادهم لا ينازعهم فيها أحد ، وإن كان لها بعض الأثر فى الفن المعمارى لدى الروسيا فى تاريخها المبكر[٢] . ومع ذلك فإن الكرامة الروحية التى رزقتها بيزنطة كانت من الضخامة بحيث عمد كاتب ترجمة حياة الشهيد قسطنطين الأيبيرى الذى كان فى حقيقة أمره زنديقاً أرمنياً مدفوعاً بالرغبة فى تمجيد بطله والرفع من شأنه ، إلى تزييف خطاب تعزية من الإمبراطورة الأرملة ثيودورا إلى

---

(١) ثيوفانيز ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٢) انظر بالترو سالتس : "L'Art Mediéval en Géorgie" .

أقربائه بعد وفاته ، ناقلا نفس الرسالة التي كتبتها الإمبراطورة حقاً إلى شقيقتها صوفيا عندما استشهد زوج الأخيرة قسطنطين بابوتزيكوس في « عمورية » (Amorium) عام ٨٣٨[١] .

والدور الذي قامت به بيزنطة في تشييد صرح الحضارة الإسلامية كبير هائل . ذلك أن العرب الذين انبثقوا من الصحراء كانوا قوماً بسطاء ، قل فيهم من قرأ أو كتب ورانت عليهم الزهادة والنسك . وجميع أنواع الرفاهيات ورغد العيش التي احتازوها فيما بعد ، اقتبسوها عن الشعوب الخاضعة لهم ، ومنها ما أخذوه عن الحضارة الفارسية ولكن ما أخذوه عن الحضارة الهللينستية ، ذات الطابع السامي المسيحي والسائدة بسوريا ومصر كان أعظم وأكبر . وقد استمرت هذه الحضارة ، وهي حضارة بيزنطية الأصل فعلا ، تتلقى من بيزنطة بين حين وآخر فيضاً جديداً من الدم المنشط حتى بعد الفتح نفسه . فلم يقتصر الأمر بالمسيحيين النازلين في سوريا ، مثل مؤلف كتاب « أنصاب النصر الدمشقية » الذي ظهر في أخريات القرن السابع ، أن كانوا كثيراً ما يعدون أنفسهم رعايا للإمبراطور[٢] ، بل إن خلفاء بني أمية بدمشق وجدوا أنفسهم مضطرين إلى استخدام مهندسي العمارة اليونان ، والفنانين اليونان بل حتى رجال السياسة اليونان ، وهم من المسيحيين البارزين مثل يوحنا الدمشقي نفسه . ولم تكن المباني الإسلامية المبكرة ، مثل المسجد الأموي بدمشق أو قصر القلعة (Qlalat) الريفي بيزنطية في تصميمها ، بل وفي زخارفها بقدر ما يسمح به الدين ، بل الواقع الذي لاشك فيه أن سجلات دولة الخلافة ظلت تكتب بالرومية حتى أوائل القرن الثامن[٣] .

---

(١) انظر مقدمة بيترز لحياة القديس قسطنطين الأيبيرى "Vita S. Constantin" في A.S. Boll. ، ١٠ نوفمبر ص ٥٤٢ – ٥٤٥ .

(٢) انظر موضوع أنصاب النصر الدمشقية "Trophées de Damas" في موسوعة (Patrologia Orientalis) مج ١٥ ص ١٧٣ ع ع .

(٣) أيوفانيز ص ٣٧٥ – ٣٧٦ .

على أن نقل العاصمة الإسلامية إلى بغداد زاد من قوة المؤثر الفارسى على الإسلام وغلبته على المؤثر البيزنطى ، وإن كان الذى حدث هو أنه حتى بغداد نفسها قد شيد جزءاً منها مهندسون وبناءون من الروم . وكانت حركة تحطيم الصور مظهراً لأثر الإسلام فى بيزنطة ؛ كما أنه لا شك أن الدافع الذى حرك الإمبراطور ثيوفيلوس فى القرن التاسع هو الأقاصيص التى كانت تتواتر عليه عن فخامة بلاط العباسيين. بيد أن حكمه كان أيضاً عصر انتعاش فكرى بالقسطنطينية ، سارعت بغداد إلى تقليده متلهفة .

وعبثاً ما ألحت بغداد فى طلب كبار علماء الهندسة البيزنطيين مثل يوحنا النحوى للشخوص إليها لتعليم علماء المسلمين[١] . وإذا بمدارس القسطنطينية تغدو منذ تلك اللحظة قبلة أنظار الطائفة المفكرة الذكية من رجالات الإسلام . فبعد ذلك بقرنين من الزمان عدّ پسللوس بين تلاميذه بضعة نفر من العرب ، بل حتى شخصاً من بابل[٢] .

وكان لتبادل الفكرات على الحدود فيض لا ينقطع معينه . ولم يكن الزواج بين الطرفين من الأمور النادرة ، كما تدل على ذلك قصة ديچينيس أكريتاس : على حين يقال إن يوحنا جيمسكى كانت تربطه علاقة بسيدة مسلمة من أميدا[٣] . وفى هذا النوع من العلاقات كانت الحضارة الغالبة هى فيما يحتمل المسيحية لا العربية .

وتواصلت حماية الإمبراطور غير الرسمية لرعايا الخليفة المسيحيين . أجل إن هرون الرشيد ربما أرسل مفاتيح الناووس المقدس إلى شرلمان ، بيد أن ذلك كان الغرض منه تعكير صفو الإمبراطور نيقيفوروس لا عن إعجاب

---

(١) ثيوفانيز كونتنيواتوس ص ١٨٩ .

(٢) بسللوس فى .B.O.M مج ٥ ص ٥٠٨ .

(٣) ماثيو الرهاوى ص ١٥ — ١٦ .

بالعاهل الفرنجي ؛ كما أن مدلولات تلك الفعلة لم تلبث أن نسيت سريعاً والحق أن بغداد اتخذتها عادة أن توجه الضغط إلى القسطنطينية باضطهادها هؤلاء المسيحيين . وكان المسيحيون أنفسهم يقومون بزيارة البلاط الإمبراطورى ما أمكنهم ذلك . فإن ثيوفيلوس بطريق الإسكندرية قضى بضعة أسابيع فى ضيافة باسيليوس الثانى فى ١٠١٦ ، وقام بالوساطة بينه وبين البطريق سرجيوس[١]. وانضم البطارقة الشرقيون إلى كريولاريوس كما انضم أسلافهم إلى فوطيوس فى أثناء انشقاقه على روما . وفى ١٠٤٢ رأى قسطنطين التاسع أن يعيد بناء كنيسة الناووس المقدس الذى هدمه الحاكم بأمر الله الخليفة المجنون[٢] . على أن الحروب الصليبية جعلت مثل تلك الرعاية من المسائل الشاقة . فإن سوريا أصبحت آنذاك قطراً تحت الحكم المسيحي ، أفرادها والحق يقال من اللاتين الزنادقة ولكنهم من المسيحيين ما فى ذلك ريب . وبذل أباطرة أسرة كومنين قصارى جهدهم ؛ فإن عمانوئيل الأول قام بحركة تقرب وإظهار لمنزلته فزود جناح المرتلين بكنيسة الميلاد ببيت لحم بالفسيفساء وزين الناووس المقدس بالزخارف المذهبة ، وأرسل الفنانين للتصوير على جدران الكنيسة القوطية الصغيرة بأبى غوش[٣] . بيد أن قبضة المسيحيين اللاتين على البلاد كانت شديدة العمق ، وبعد ١٢٠٤ أصبحت كنيسة القسطنطينية ومعها الامبراطورية أضعف من أن تستطيع الإبقاء على الرّعاية القديمة . ومنذ تلك اللحظة صار نفوذ بيزنطة على بلاد الخلافة السابقة غير مباشر ونادراً ندرة شديدة .

(١) دوسيثيوس فى : "The Patriarchs of gerusalem" (باليونانية) ص ٧٤٦ .

(٢) انظر دكورث فى : "Church of the Holy Sepulchre" ص ٢٠٣ ع ع .

(٣) انظر (Corpus Inscriptionum Graecarum) ، ٨٧٣٦ ؛ وانظر فوقاس فى وصف الأرض المقدسة (Descriptio Terrae Sanctae) فى M.P.G. مج ١٣٣ ص ٩٥٧ ؛ لا شك أن الصور الجصية الجدارية الموجودة فى أبى غوش (بلد العنب) أعمال يونانية من القرن الثانى عشر لا تخفى على عين الخبير ، وإن لم يشر أحد إليها قط .

ومع ذلك فإن الدولة وجدت فى الأتراك ميداناً جديداً . ذلك أن السلاجقة كانوا همجاً متبربرين ومفسدين مدمرين[١] . وقد اعتنقوا الإسلام وتغشّوا بغلالة رقيقة من الثقافة الفارسية ، ولكن ذلك كان كل حظهم من الدنيا . وقد اضطروا كما اضطر العرب الأوائل من قبلهم إلى قبول المساعدة التى تمتد بها يد الروم فى كل النواحى المعقدة للحياة . وهم على عكس العرب لم يطوروا ألبتة أية ثقافة خاصة بهم . وكل ما أنتجه فنهم هو بضعة مساجد بمدينة قونية ، وهى من الأشغال اليونانية أو تقليد اليونانية وتشوبها بضع ملامح فارسية . على أنهم لم يغالوا فى الاضطهاد . بل الواقع أن المسيحيين غالباً ما كانوا يفضلون حكمهم على حكم الإمبراطور وذلك لأن ضرائبهم أقل من ضرائبه . وعند ختام القرن الثالث عشر كان مبشرو الدين المسيحى يخطون بنجاح كثير بين ظهرانيهم ، حتى بين أبناء بيوتات الأمراء منهم . فلو لم يأت الأتراك العثمانيون بعد ذلك ويشدوا أزرهم ويبعثوا فيهم الحيوية من جديد لجاز أن يصبحوا رعايا مسيحيين لإمبراطورية بيزنطية فقيرة ناهضة .

وكثيرا ما سميت إمبراطورية سلاطين آل عثمان باسم البيزنطية خطأً ، وذلك لأنه وإن كانت كل منهما إمبراطورية تُحكم بواسطة الجيش ، فإن العثمانيين لم يكن لديهم طول تاريخهم بأكمله سوى شىء واحد هو تنظيمهم العسكرى الفاخر . وكانت حكومتهم البيروقراطية مهزلة أى مهزلة فلم يستعيروا من بيزنطة شيئاً إلا العاصمة . بل إن أوتوقراطيتهم الدينية لم يكن مرجعها قسطنطين الرسول الثالث عشر بل خلفاء الإسلام .

ولا سبيل إلى نكران أثر بيزنطة فى نهضة العلوم الإيطالية فهو معروف مشهود . والدور الذى قام به رجال من أمثال خريسولوراس وجيمستوس بليثون

---

(٢) انظر مادة « السلاجقة » فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة) مع ما بها من مراجع .

فى رفع شأن دراسة اليونانية والفلسفة الأفلاطونية فى الغرب لما يجعل النهضة الأوربية بأكملها مدينة لبيزنطة بأكبر الدين . على أن ذلك التأثير لم يبدأ عند ذاك فقط ، إذ أنه كان يفعل فعله فى أوربا الغربية على فترات طوال تاريخ الإمبراطورية .

وجاء أثر بيزنطة من سبل منوعة . فإن فتوح يوستنيانوس وإن كانت قصيرة الأجل ، إلا أنها لم تزل من الوجود تماما . وإن ولاية رافنا لم تقتصر فقط على تزويد إيطاليا بصقع يمكن أن تدرس فيه الحضارة البيزنطية والفن البيزنطي والقانون الرومانى ، بل إن العلاقة المجددة مع القسطنطينية أثارت من جديد الاهتمام بالشئون اليونانية . وكان كثير من الرهبان الإيرلنديين فى القرن السابع يتكلمون اليونانية ؛ كما أن أسقف روان كان يرى أن اليونانية كانت تدرس بأبروشيته أكثر مما ينبغى ؛ وذلك على حين أن الملك إينا (Ina) ملك وسكس دعا إليه عالمين يونانيين من أثينا[1] . ولكن المنازعات التى نشبت حول تحطيم الصور مزقت تلك العلاقة . ففى البداءة تمخض اندفاع الفنانين الدينيين اللاجئين صراعا من الإمبراطورية إلى روما عن ثمار تجلت فى الفسيفساء والصور الجصية الجدارية فى كثير من الكنائس الرومانية[2] ؛ وبغض النظر عن اللاجئين وإنتاجهم الفنى ، فإن كل ما يمت لبيزنطة بعلاقة كان يلقى مقتا واستهجانا ببلاد الغرب التى لم يكن بها عند ذاك والحق يقال إلا أثر طفيف من المدنية . وجددت النهضة الكارولنجية (التى تمت على يد شرلمان) الاهتمام بالشرق الأدنى . فإن الخصى إليسايوس الذى ذهب إلى آخن (إكس لاشاپل) ليُعد الأميرة

---

(1) بيورى فى : « Later Roman Empire from Arcadius to Irene » ج ٢ ص ٣٩٢ – ٣٩٣ ؛ چيمس فى «Cambridge Medieval Learning & Literature, History» مج ٣ ص ٥٠٢ ع ع .

(٢) مثل كنيسة القديسة مارية فى كوسملدين .

روترود لتكون عروسا لقسطنطين الخامس بتعليمها اللغة اليونانية ، وجد من حوله هناك مجموعة من التلاميذ الشديدى الرغبة فى التعلم عليه(١) . كما أن رافنا كانت مصدرا لمعظم نماذج الفن الكارولنجى. أجل إن الولاية لم يعد لها عندذاك وجود : ولكن كان هناك سبيل جديد تسرى من خلاله الأفكار. فإن البندقية قد بدأت آنئا دورها كوسيط بين الشرق والغرب(٢). وكانت لغتها هى اللاتينية الشعبية ، كما أنها ظلت على صلة وثيقة بالأباطرة الغربيين ؛ غير أن صلتها بالقسطنطينية كانت أوثق . وكان فنها بيزنطيا — إذ أن كنيسة القديس مرقص هى صورة طبق الأصل من كنيسة الرسل الأقداس ؛ وكان لها على ضفاف البسفور بعثة تجارية تكاد تكون مستديمة ؛ وظل دوجاتها إلى عهد متأخر من القرن الحادى عشر يرسلون أكبر أبنائهم ليتموا تعليمهم تحت رعاية الإمبراطور .

وكان هناك أيضا اتصال آخر من ناحية الجنوب . فإن سردينيا(٣) كانت تقتبس تراتيل ثيودور الاستوديوى حتى فى أيام حياته نفسها ؛ ثم اتسع ذلك السبيل وتضخم بفضل إعادة فتح جنوب إيطاليا فى عهد باسيليوس الأول . وقبضت مدن الجنوب التجارية : نابولى وأمالفى وجايتا على تلك الفرص التجارية التى أتاحها ذلك الفتح . فأرسلت البعوث هى أيضا إلى القسطنطينية ، وعادت هذه محملة بالأفكار البيزنطية . وكان كبار حكامهم أيضا يرسلون أبناءهم حتى يصقلهم العيش فى البلاط الإمبراطورى؛ . ثم نهج نهجهم أمراء اللومبارد بالجنوب. وانتشرت بروما بدعة الأسماء اليونانية . وفى الشمال ظل الملك هيو ملك إيطاليا يخطب ود الإمبراطور بإرساله السفارات بعثة بعد أخرى. وإن الهزة التى ألمت بالسفير ليودبراند

(١) ثيوفانيز ص ٤٥٥ .

(٢) عن البندقية انظر أسماء المراجع فى : « Cambridge Medieval History » مج ٤ ص ٨٤٦ — ٨٤٩ .

(٣) انظر حياة القديس ثيودور الاستوديوى فى M.P.G. مج ٩٩ ص ٢١٥ .

عند زيارته للقسطنطينية وافتخاره بمعرفته باليونانية وإعجابه بكل شيء بيزنطي لهي أبلـغ دلالة على روح الزمان : وذلك على حين أرسل ديزيدريوس رئيس دير مونتي كاسينو إلى القسطنطينية يطلب أن تصنع له بها صحاف الذهب الخاصة بالدير[١] . ولكن تلك البدعة لم تنتشر كثيرا خارج إيطاليا ، ثم تغير الوضع فى أخريات القرن بسبب الفتح السكسونى. فإن بعض الإيطاليين الذين يحبون الدوران مع الدهر وجدوا الحكمة تقضى عليهم أن يوجهوا إعجابهم إلى الإمبراطور الشاخص عند بواباتهم . وعند ما زار ليودبراند القسطنطينية للمرة الثانية كمبعوث لأوتو الأول فى مناسبة اختيرت دون مراعاة اللباقة وجد استقبالا فاترا ، ثم عاد مصرحاً بأن كل شيء يتم بأرض وطنه بصورة أحسن كثيرا : وإن بذل قصاراه لتهريب قطع من الديباج الإمبراطورى الموشى عن طريق الجمارك . ولم تنقض بضع سنوات حتى عادت البدعة القديمة يوم تزوج أوتو الثانى من الأميرة ثيوفانو وليدة الغرفة الأرجوانية . وفى ركاب هذه الأميرة الواسعة الأفق تقاطر اليونان من الشرق ومن جنوب إيطاليا نحو الشمال وساروا فى إثر البلاط إلى ألمانيا . وهناك ملأت أنفس السكان خزيا بأخذ الحمامات وارتداء الحرير — وهى عادات فظيعة قذفت بها إلى قرار جهنم (حيث شهدتها هناك فى المنام إحدى الراهبات)[٢] — وذلك مثلما صعقت ابنة عمها مارية أرجيرا القديس بطرس دميان الطبيب بعد ذلك ببضع سنين بإدخالها الشوكة إلى البندقية[٣] واستخدامها فى تناول الطعام .

كان أوتو الثالث بن ثيوفانو فخورا بالدم اليونانى الذى يجرى

---

(١) Chronicon Monasterii Cosinensus, in Muratori, Rerum Italicarum Scriptores

(٢) انظر Vita Bernwardi فى التذييل فى M.G.H.Ss. مج ٤ ص ٨٨٨ .

(٣) انظر بطرس دميان فى M.P.L. (Epistolae) مج ١٧٥ ص ٧٤٤ .

عروقه فخراً باعثا على الضحك ، كان يحب التحدث بالرومية وإحاطة نفسه بما كان يعتقد أنه المراسم الإمبراطورية الحقة . وفى ظل رعايته وفدت على ألمانيا طائفة أخرى كبيرة من اليونان . وقد استقر الرهبان اليونان فى ريخنا على بحيرة كونستانس قبل نهاية القرن العاشر بمدة طويلة . وفى قريب من ذلك الوقت نفسه أسس شخص اسمه جريجورى ، قيل إنه من أقارب الامبراطورة ثيوفانو بيت « بيرتشيد » الدينى بالقرب من إكس لاشابل (آخن) ، كما أن رهباناً من اليونان شيدوا كنيسة القديس بارثولميو الصغيرة داخل كاتدرائية پادربورن . وبعد ذلك بقليل كان الرهبان اليونان الذين يحتمل أنهم كانوا يكسبون عيشهم كصناع — من كثرة العدد بحيث أعلن الأسقف جودهارد من هيلدزهايم ، أنه لا يجوز لهم أن يمكثوا فى مضايفه إلا ليلتين فقط — ذلك أنه كان يستهجن الرهبان المتجولين[1] . وفى الإمكان رؤية الأثر الذى تركه هؤلاء الفنانون البيزنطيون فى الزخرفات الجزلة لفن العمارة الألمانى المسمى بالرومانسكى .

على أن ذلك الأثر كان بفرنسا غير مباشر بدرجة أكثر . فإن الكاتدرائيات البيزنطية الكبرى بأكيتين (Aquitaine) لعلها مدينة بطابعها للمؤثرات البندقية أكثر منها للنماذج البيزنطية المباشرة . وهناك مشابهة قوية بين كنيسة القديس فرونت بمدينة پريچيو (Perigueux) وبين كنيسة القديس مرقص . وبلغ من تأثر هيوكابت عاهل فرنسا بزواج أوتو الثانى ، أنه طلب أن ترشح أميرة بيزنطية لتكون عروساً لولده روبرت[2] . ولكن أحداً لم يستجب لهذا الطلب . وظل التصاهر بين البلاطين نادراً ندرة تامة .

---

(١) انظر مونتز : Les Artistes Grecs dans L'Europe Latine, Revue de l'Art Chrétien مايو ١٨٩٣ فى أجزاء منه ؛ شلومبرجر : Epopée Byzantine جـ ٢ ص ٢٦٠ ع ع .

(٢) جربرت "Epistolae" نشر هافت ص ١٠١ — ١٠٢ .

أما مع انجلترة فكانت نواحي الاتصال قليلة[1] . ومع هذا فإن أحجار نورثمبريا المنحوتة فى القرن السابع بيزنطية بدرجة خارقة من حيث الإحساس والتنفيذ ، ثم إن صلاة التتويج الإنجليزية فيها طقس بيزنطى محض بشكل عجيب . ولعل فى إمكاننا تفسير هاتين الحقيقتين جميعاً إذا وضعنا فى حسباننا العلاقة الدائمة المتصلة التى كانت تربط انجلترة على عهد الأنجلوساسكون بروما وتربط روما بالشرق .

وجمعت الحروب الصليبية بين الغرب وبيزنطة جمعاً أوثق منه فى أى يوم مضى . بيد أن المدنية العربية كانت لدى الغرب بدعة لها طرافتها ، كما أنها أثرت فيه فى سوريا بصورة مباشرة أكثر . ولم تكن واحدة من الأميرات البيزنطيات اللائى تزوجن أخيراً فى ألمانيا ، مثل سيدات البيت الكومنينى أو الأميرة إيرينة أنجلا الملقبة « ملكة الرومان » والحسناء صاحبة المأساة الفاجعة ، لم تكن واحدة منهن تزاول التبشير لبلادها مثل ثيوفانو أو الأوليات من قرينات الأدواج . ذلك أن الغربى من هؤلاء كان لا ينظر إلى البيزنطى آنذاك إلا نظرة الكراهية المقترنة بالاحتقار بوصفه منشقاً ماكراً . وكان يفضل أن يتلقى مؤلفات بلاد الإغريق القديمة الكلاسيكية ، مؤلفات أرسطو أو جالينوس من يد العرب وليس بطريقة مباشرة من يونان القرون الوسطى . وحتى بعد الفتح الذى تم فى ١٢٠٤ لم يتعلم الأسياد اللاتين الغالبون إلا شيئاً قليلاً من رعاياهم الأكثر منهم تمديناً . لقد جاءوا ابتغاء النهب والتدمير ، ولم يحضروا ليتعلموا . وكان فردريك الثانى وحده هو الذى كان فى شعوره بالقلق أجنبياً غريباً عن جو الرضا الذاتى الذى كان يريم عادة على أوربا الغربية ، هو الشخص الوحيد الذى اقتبس عن بيزنطة بعض الفكرات والطرائق التى كانت تستخدمها الحكومة الإمبراطورية فى هيئتها القديمة — وذلك بسبب صداقته لبلاط ليقية .

---

(١) انظر دالتون : "East Christian Art" ص ٦٩ — ٦٧ .

ولم يشرع علماء الغرب فى إدراك مدى ضخامة كنوز العلم المخزّنة بالقسطنطينية إلا فى القرن الرابع عشر . وقد حاول پترارك عبثاً تعلم اليونانية — وكان معلمه هو بارلام الكالابرى الذى أشعل فيما بعد جذوة النزاع الذى دار حول طائفة المسيتشاست[١] . ولكن فى القرن الخامس عشر كان العلماء الذين رافقوا الأباطرة المتسولين من آل باليولوجوس إلى بلاد الغرب قوماً أكفاء يستطيعون الاضطلاع بعبء التعليم ، فالجماهير التى كانت تتلقف العلم بلهفة من شفتى عالم غير مكترث إلى حد ما مثل كريسولوراس ، خير برهان على هذه الحالة الجديدة . ولم تنقض بضع سنوات أخرى حتى أدى سقوط المدينة إلى دفع لاجئين جدد من العلماء إلى إيطاليا . وكان بيساريون الطرابيزونى هو نفسه — وقد أصبح الآن كاردينالا — راعيهم ونصيرهم ، وبفضل مساعدته تمكن رجال من أمثال لاسكارس ، وهو من الرواد الأول للطباعة وأرچيروبولوس وخلقوكونديلاس ، من تبوأ مقاعدهم فى الجامعات الغربية . فقد جاء أخيراً الوقت الذى عاد فيه الغرب إلى تقدير ما بذلته بيزنطة من جهود للمحافظة على قديم الكنوز بعد أن كادت يد الدمار تمتد إلى تلك الجهود فى ١٢٠٤ .

أما الشرق المسيحى ، فقد كانت القسطنطينية حتى ساعتها الأخيرة عاصمته مهما كان السيد الذى يسيطر عليه . وحتى رعايا إمبراطور طرابيزون أنفسهم كانوا يفدون إليها للاستقرار ، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وكان الروسيون يحجون إليها ، على حين يرسل إليها القياصرة أبناءهم لينهلوا من مناهل العلم بها . بل الواقع ، أنه حتى أعظم أغنياء القياصرة ثروة ، وإن لم يأبهوا بملوكهم اللوزينيانيين[٢] (Lusignan) إلا قليلا —

---

(١) جيبون : "Decline & Fall" نشره بيورى جـ ٧ ص ٣١٧ — ٣٢٠ .

(٢) اللوزينيانيين : أسرة من مدينة لوزينيان بفرنسا بإقليم بواتييه حكمت فى تلك الأيام قبرص وبيت المقدس . (المترجم)

كانوا يحسون بأنهم كالمنفيين . ومن هناك كتب ليبنثريتوس إلى صديقة نقفوروس جريجوراس رسالة مسهبة عن الحالة السيئة التى تردى فيها العالم اليونانى القديم فى القرن الرابع عشر . وحملته اللباقة والخوف من الرقيب على تجنب الإجابة عن سؤال جريجوراس له : كيف أطاق وقاحة اللاتين ؟ ، غير أن رأيه الحقيقى يتجلى بشكل محزن من خلال كل سطر من سطور الرسالة(١) . وحتى المدوّن التاريخى المتواضع ماخايراس نفسه صديق اللوزينيانيين ، قد أفزعه سقوط القسطنطينية وأظهر الأسى والعزاء للملكة اليونانية هيلينا باليولوجينا ابنة أخى الإمبراطور فى أثناء ذعرها من المأساة النهائية(٢) .

ذاك بأن الفاجعة كانت نهائية . ففى ٢٩ مايو ١٤٥٣ محيت حضارة بأكملها محوًا لا رادّ له ، بيد أنها ولّت وقد تركت تراثا مجيدا فى العلوم والفنون ، وذهبت بعد أن رفعت أقطاراً بأكملها من وهدة البربرية ومنحت أقطارا أخرى الرفاهيات والتهذيبات ، وظلت المسيحية الحصن الحصين للقوة والذكاء بها أمد قرون عديدة . فإن القسطنطينية ظلت أحد عشر قرنا مركزا لعالم النور . وبذا أُسدلت آنذاك غلالة كثيفة من الكرى على الألمعية اللماحة للإغريقى وعلى اهتماماته ونزعاته الجمالية ، وعلى ما للرومانى من ثبات متزن مطبوع بالكبرياء ومن كفاية إدارية ، وعلى الشدة المتسامية التى يتسم بها المسيحى القادم من الشرق ، وقد التأمت كلها فأصبحت كتلة حساسة مائعة . لقد أمست القسطنطينية قاعدة للقوة الوحشية والجهل المطبق والفخامة مع انعدام الذوق . ولم يبق لبيزنطة سوى أثر طفيف دام بضعة قرون أخرى فى القصور الروسية التى كان يحلق عليها النسر ذو الرأسين الذى كان على مفرق آل باليولوجوس — هناك فقط وفى ظلمات بعض القاعات المطلة على القرن الذهبى ، فهنا بين بيوت منطقة الفنار كان البطريق

(١) انظر جريجوراس فى : "Correspondence" نشره جياند ص ١٢٨٥ – ١٢٨٩ –

(٢) انظر ماخيراس ص ٦٨٢ .

يقيم بلاطه المتوارى فى سدفة الظلال ، وقد سمح له حسن التدبير السياسى من جانب السلطان الفاتح وجهود جورج چناديوس إسكولاريوس أن يحكم الشعب المسيحى الخاضع لولاية السلطان ويعطيهم قدرا معينا من الأمان . . . على أن النسر ذا الرأسين لم يعد يرفرف بالروسيا ، وقد ابتلعت منطقة الفنار غمرات القلق والخوف . ولذا فإن آخر بقاياه تلفظ آخر أنفاسها أو هى قد لفظتها فعلا .

لقد جرى كل شيء كما تنبأ به عرافو القسطنطينية ، أولئك المتنبئون الذين ظلوا يتكلمون بلا انقطاع عن مصير المدينة المحتوم الذى لا بد من وقوعه وعن آخر أيام المدينة . وقد عرف البيزنطى المكدود الروح أن المصير المحتوم الذى ظلت الأيام تنذره به طويلا واقع به لا محالة يوما ما . وماذا فى ذلك كله ؟ لم يكن ثمة داع للشكوى . إن هذا العالم مهزلة سخيفة ، تنوشها الآلام من كل أقطارها وتطاردها الذكريات والتوجسات المحزنة . أما السلام والسعادة الحقة فهما فيما وراء ذلك من دار الآخرة . ما هو الإمبراطور قرين الرسل ، بل ما هى القسطنطينية نفسها ، تلك المدينة العظيمة الحبيبة إلى إله المسيحية وإلى أمه العذراء ، بالقياس إلى المسيح القوى القاهر وإلى القصور الفاخرة بمملكة السماء ؟

ثبت بأسماء الأباطرة الرومان من قسطنطين الأول
إلى قسطنطين الحادى عشر

أسرة قسطنطين

قسطنطين الأول (الأكبر) توفى ٣٣٧ .
قنسطنطيوس ٣٣٧ – ٣٦١ إمبراطور بمفرده بعد ٣٥١
يوليانوس المرتد ٣٦١ – ٣٦٣ إمبراطور بمفرده
يوفيانوس ٣٦٣ – ٣٦٤ إمبراطور بمفرده
والنس ٣٦٤ – ٣٧٨

الأسرة الثيودوسية

ثيودوسيوس الأول (الأكبر) ٣٧٩ – ٣٩٥ إمبراطور بمفرده بعد ٣٩٢
أركاديوس ٣٩٥ – ٤٠٨
ثيودوسيوس الثانى ٤٠٨ – ٤٥٠ أنثيماس وصياً على العرش ٤٠٨ – ٤١٤
مرقيانوس ٤٥٠ – ٤٥٧

الأسرة اللاوونية

لاوون الأول ٤٥٧ – ٤٧٤
لاوون الثانى ٤٧٤

زينون ٤٧٤ – ٤٩١ الباسيليسكوس ، المغتصب ٤٧٥ – ٤٧٦

أنسطاسيوس الأول ٤٩١ – ٥١٨

أسرة يوستنيانوس

يوستينوس الأول ٥١٨ – ٥٢٧

يوستنيانوس الأول ٥٢٧ – ٥٦٥

يوستينوس الثانى ٥٦٥ – ٥٧٨ صوفيا وصيّة على العرش ٥٧٣ – ٥٧٤

طيباريوس وصياً على العرش ٥٧٤ – ٥٧٨

طيباريوس الثانى ٥٧٨ – ٥٨٢

موريقيوس ٥٨٢ – ٦٠٢

ثيودوسيوس الإمبراطور الشريك ٥٩٠ – ٦٠٢

فوقاس ٦٠٢ – ٦١٠

الأسرة الهرقلية

هرقل الأول ٦١٠ – ٦٤١

قسطنطين الثالث ٦١٣ – ٦٤١

هرقليون ٦٣٨ – ٦٤١

قسطنطين الثالث ٦٤١

هرقليون ٦٤١ مارتينا وصية على العرش ٦٤١

قسطنس الثانى ٦٤١ – ٦٦٨

قسطنطين الرابع ٦٥٩ – ٦٦٨

هرقليوس ٦٥٩ – ٦٨١

طيباريوس ٦٥٩ – ٦٨١

قسطنطين الرابع بوجوناتوس، الملتحى ٦٦٨ – ٦٨٥

يوستنيانوس الثانى رينوتميتوس، الأشرم ٦٨٥ – ٦٩٥

لاونديوس ٦٩٥ – ٦٩٨

طيباريوس الثالث، أبسيار ٦٩٨ – ٧٠٥

يوستنيانوس الثانى، رينوتميتوس ٧٠٥ – ٧١١

طيباريوس ٧٠٦ – ٧١١

فيليبيكوس البردانى ٧١١ – ٧١٣

أنسطاسيوس الثانى (أرتميوس) ٧١٣ – ٧١٥

ثيودوسيوس الثالث ٧١٥ – ٧١٧

الأسرة الإيسورية

لاوون الثالث (الإيسورى) ٧١٧ – ٧٤٠

قسطنطين الخامس ٧٢٠ – ٧٤٠

قسطنطين الخامس (كوپرونيموس، الزبلى) ٧٤٠ – ٧٧٥

لاوون الرابع ٧٥٠ – ٧٧٥

لاوون الرابع (الخزرى) ٧٧٥ – ٧٨٠

قسطنطين السادس ٧٧٦ – ٧٨٠

قسطنطين السادس ٧٨٠–٧٩٧ إيرينة وصية على

العرش ٧٨٠ — ٧٩٠
٧٩٢ — ٧٩٧

إيرينة	٧٩٧ — ٨٠٢
نيقيفوروس الأول	٨٠٢ — ٨١١
إستوراقيوس	٨١١
ميخائيل الأول (رانجاب)	٨١١ — ٨١٣
لاوون الخامس (الأرمنى)	٨١٣ — ٨٢٠

الأسرة العمورية

ميخائيل الثانى (العمورى) الألثغ	٨٢٠ — ٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢١ — ٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢٩ — ٨٤٢
ميخائيل الثالث (السكير)	٨٤٢ — ٨٦٧ ثيودورا وصية على العرش ٨٤٢ — ٧٥٦ بارداس وصياً على العرش ٨٦٢ — ٨٦٦
باسيليوس الأول	٨٦٦ — ٨٦٧

الأسرة المقدونية

باسيليوس الأول (المقدونى)	٨٦٧ — ٨٨٦
قسطنطين	٨٦٩ — ٨٨٠
لاوون السادس	٨٧٠ — ٨٨٦
الإسكندر	٨٧١ — ٩١٢

لاوون السادس (الحكيم) ٨٨٦ — ٩١٢

قسطنطين السابع ٩١١ — ٩١٣

الإسكندر ٩١٢ — ٩١٣

قسطنطين السابع (بورفيروجنيتوس) ٩١٣ — ٩١٩ مجلس الوصاية ٩١٣

زوية كاربوبسيناو صية على

العرش ٩١٣ — ٩١٩

رومانوس الأول (ليكابينوس) ٩١٩ — ٩٤٤

قسطنطين السابع ٩١٩ — ٩٤٤

كريستوفر ليكابينوس ٩٢١ — ٩٣١

استيفن ليكابينوس ٩٢٤ — ٩٤٥

قسطنطين ليكابينوس ٩٢٤ — ٩٤٥

قسطنطين السابع (بورفيروجنيتوس) ٩٤٤ — ٩٥٩

رومانوس الثانى حوالى ٩٥٠ — ٩٥٩

رومانوس الثانى ٩٥٩ — ٩٦٣

باسيليوس الثانى ٩٦٠ — ٩٦٣

قسطنطين الثامن ٩٦١ — ١٠٢٥

باسيليوس الثانى (جلاد البلغار) ٩٦٣ ثيوفانو وصية

على العرش ٩٦٣

نيقيفوروس الثانى (فوقاس) ٩٦٣ — ٩٦٩

باسيليوس الثانى ٩٦٣ — ٩٦٩

يوحنا الأول (جيمسكى) ٩٦٩ — ٩٧٦

باسيليوس الثانى (جلاد البلغار) ٩٧٦ — ١٠٢٥

قسطنطين الثامن ١٠٢٥ — ١٠٢٨

رومانوس الثالث (أرجيروس) ١٠٢٨ – ١٠٣٤
ميخائيل الرابع (البفلاجونى) ١٠٣٤ – ١٠٤١
ميخائيل الخامس (الشماع) ١٠٤١ – ١٠٤٢
زويةوثيودورا (وليدتا الغرفة الأرجوانية) ١٠٤٢ .
قسطنطين التاسع (مونوماخوس) ١٠٤٢ – ١٠٥٥
ثيودورا (وليدة الغرفة الأرجوانية) ١٠٥٥ – ١٠٥٦
ميخائيل السادس (استراتيوتيكوس) ١٠٥٦ – ١٠٥٧
اسحق الأول (كومنينوس) ١٠٥٧ – ١٠٥٩

أسرة دوقاس

قسطنطين العاشر (دوقاس) ١٠٥٩ – ١٠٦٧
ميخائيل السابع حوالى ١٠٦٠ – ١٠٦٧
ميخائيل السابغ (بارا بيناكس) ١٠٦٧ – ١٠٦٨ (يودوكيا مكرمبوليتسا) وصية على العرش ١٠٦٧ – ١٠٦٨
رومانوس الرابع (ديوجينيس) ١٠٦٨ – ١٠٧١
ميخائيل السابع ١٠٦٨ – ١٠٧١
ميخائيل السابع (بارا بيناكس) ١٠٧١ – ١٠٧٨
نيقيفوروس الثالث (بوتانياتس) ١٠٧٨ – ١٠٨١

أسرة آل كومنينوس

ألكسيوس الأول (كومنينوس) ١٠٨١ – ١١١٨
قسطنطين دوقاس ١٠٨١ إلى ما حولها – ١٠٩٠

يوحنا الثانى ١٠٩٢ — ١١١٨

يوحنا الثانى (كالويوهانيس) ١١١٨ — ١١٤٣

ألكسيوس ١١١٩ — ١١٤٢

عمانوئيل الأول ١١٤٣ — ١١٨٠

ألكسيوس الثانى ١١٧٢ — ١١٨٠

ألكسيوس الثانى ١١٨٠ — ١١٨٣ ماريـة الأنطاكية وصية على العرش ١١٨٠ — ١١٨٢

أندرونيكوس الأول ١١٨٢ — ١١٨٣

أندرونيكوس الأول ١١٨٣ — ١١٨٥

أسرة أنجيلوس

إسحق الثانى (أنجيلوس) ١١٨٥ — ١١٩٥

ألكسيوس الثالث ١١٩٥ — ١٢٠٣

ألكسيوس الرابع ١٢٠٣ — ١٢٠٤

اسحق الثانى ١٢٠٣ — ١٢٠٤

ألكسيوس الخامس (مورتزفلوس) ١٢٠٤

أسرة لاسكارس

(الإمبراطورية النيقية ١٢٠٤ — ١٢٦١)

ثيودور الأول (لاسكارس) ١٢٠٤ — ١٢٢٢

يوحنا الثالث (دوقاس فاتاتزيس) ١٢٢٢ — ١٢٥٤

ثيودور الثانى (لاسكارس فاتاتزيس) ١٢٥٤ — ١٢٥٨

يوحنا الرابع (دوقاس فاتاتزيس) ١٢٥٨

أسرة باليولوجوس

ميخائيل الثامن (باليولوجوس)	١٢٥٨ — ١٢٨٢
أندرونيكوس الثانى	١٢٧٢ — ١٢٨٢
أندرونيكوس الثانى	١٢٨٢ — ١٣٢٨
ميخائيل	١٢٩٥ — ١٣٢٠
أندرونيكوس الثالث	١٣٢٥ — ١٣٢٨
أندرونيكوس الثالث	١٣٢٨ — ١٣٤١
يوحنا الخامس	١٣٤١ - ١٣٤٧ (آن من سافوى وصية ١٣٤١—١٣٤٧)
يوحنا السادس (كانتاكوزينى)	١٣٤٧ — ١٣٥٥
يوحنا الخامس	١٣٤٧ — ١٣٥٥
ماثيو كانتاكوزينى	١٣٤٨ — ١٣٥٥
يوحنا الخامس	١٣٥٥ — ١٣٧٦
أندرونيكوس الرابع	١٣٧٦ — ١٣٧٩
يوحنا السابع	١٣٧٦ — ١٣٩٠
يوحنا الخامس	١٣٧٩ — ١٣٩٠
أندرونيكوس الرابع	١٣٧٩ — ١٣٨٥
عمانوئيل الثانى	١٣٨٦ — ١٣٩١
يوحنا السابع	١٣٩٠
يوحنا الخامس	١٣٩٠ — ١٣٩١
عمانوئيل الثانى	١٣٩١ — ١٤٢٥

يوحنا السابع	١٣٩٩ – ١٤١٢
يوحنا الثامن	١٤٢٣ – ١٤٢٥
يوحنا الثامن	١٤٢٥ – ١٤٤٨
قسطنطين الحادى عشر (دراجاسس)	١٤٤٨ – ١٤٥٣

ملحوظة ــ إن أسماء الملوك الأوتوقراطين قد رسمت دائماً بخط أكبر ، ولم ندخل فى القائمة اسمى قسطنطين الثانى وقسطنس الأول لأنهما لم يمارسا أبداً أية سلطة فعالة فى الشرق .

ملحوظة عن المراجع

يمكن العثور على خير مجموعة من أسماء مراجع التاريخ البيزنطي فى «تاريخ كمبردج للعصور الوسطى» "Camb. Med. Hist." مج ٤ ، وفى مقالة بيزنطة التي كتبها لكلرك ثم فى الموسوعة : "Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie" تصنيف كابرول ؛ وبخاصة عن المؤلفات العصرية فى "Histoire de L'Empire Byzantin" تأليف ڤاسيليف . أما القارئ العام فبحسبه المؤلفات المختلفة التي وضعها ديل وشلمبرجر فإن فيها الكفاية .

أما الدارس فننصح له بكتاب كرومباخر "Geschichte der Byzantinischen Litteratur" ، وكتاب رامساى "Historical Geography of Asia Minor" ، كما أن مؤلفات بيورى المختلفة ضرورية بصورة جوهرية .

والأرقام المذكورة بعد أسماء المراجع الموجودة فى الهوامش السفلية تشير إلى الصفحة المناسبة .

أما عن المؤلفين الإغريق فقد استخدمت لهم الطبعات الصادرة فى بون "Corpus Scriptorum Historiae Byzantinorum" ، وذلك فيما عدا ما أشرت إليه تعديلا لهذا عند ذكر الكتاب لأول مرة .

وقد استخدمت المختصرات الآتية : ص : صفحة

ص ص : صفحات

ع ع : فما بعدها

مج : مجلد

فهرس أبجدى

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ى)

معجم المصطلحات الواردة بالكتاب

A

Acathisius دستور الإيمان الرسمى (الأكثيستس)

Aerikon ضريبة الأريكون

Akritae بارونات الثغور

Allelengyon الالتزام التضامنى

Anargyri الأطباء المجانيون

Annus Mundi سنة التقويم العالمى

Aphthartocathartic heretic الزنديق الذى مصيره جهنم

Archontopuli كتيبة أبناء النبلاء

Arithmos السرية ، فصيلة وحدة

Art of pattern فن زخارف

Athonite الأثونيق

Aurum oblaticium ضريبة غير نظامية من الهبات

Autocrator اوتوقراطور — إمبراطور

Auxilia القوات المساعدة

Axial eidikai أكسياى أيديكاى

Axum أقشوم (اكسوم)

B

Banda فصيلة

Basilika الأوامر الإمبراطورية

Basileopator أبو الملك

Bas - relief النقش الغائر — قليل البروز

Bogomil طائفة البوجوميل (مذهب)

Boyards الحرس الملكى

Buccellarii مرتزقة الجرأيات . البوكلارية

Bucoleon قصر البوكليون (وهو القصر الكبير على ميناء البوكليوف).

Bulgar octonus ذابح البلغار ، جلاد البلغار

C

Caballarii الخيالة الثقيلة

Caesaropapism السيادة العليا الدينية للامبراطور ، السلطة الروحية للامبراطور

Cannons القانونات

Caput رأس

Catacombs السراديب

Cataphractic الخيالة الثقيلة (كاتافراكته)

Catasters السجلات

Cathisma المقصورة الامبراطورية بحلبة السباق

Chanson de geste أنشودة رومانسية — أنشودة مغامرات

Charioteer المتسابق

Charsianon خرشنة

Chartularius صاحب الخزانة — صراف

Christology علم طبيعة المسيح وشخصه

Chronicle مدونة إخبارية — مدونة أخبار مروية

Chrysotriclinus قاعة الطعام الذهبية

Cibyrrhaeot كيبورهيوت ، منطقة الشاطىء الجنوبى بآسيا الصغرى

Clissurae مناطق الثغور الأمامية

Cloisonée enamel الميناء ذات الأقسام المتحاجزة

Cluniac Reformers المصلحون الكلونيون (نسبة لدير كلونى بفرنسا)

Co-Emperor الامبراطور الشريك

Collegia النقابات

Colonus معمر الأرض فى إصلاح دقلديانوس

Comes قومس

Comes Rerum Privatarum القومس المشرف على أملاك الإمبراطور الخاصة

Comitatenses الردفاء — الرفقاء (الجند)

Psuedo comitatenses الشبيه بفرق الردفاء

Comitium المجلس

Commerciarii موظفو الجمارك

Commissariat الرئاسة القوميسرية — هيئة خدمة الجيش

Consistorium مجلس الدولة

Count = comes Sacrarum Largitioum القومس المشرف على الهبات المقدسة

Count of the Lamia القومس (الكونت) المنوط بالمناجم

Curatorii الخزنة

Curopalatis عميد القصر

Cynegetica كتاب الصيد

D

Damascene أشغال تطعيم المعادن الدمشقية

De cermoniis عن المراسم (كتاب)

De officiis عن الوظائف (كتاب)

Defensor Civitatis الحامى للمدينة

Dekarches جاويش — رئيس عشرة

Demarch ديمارخوس — محافظ حى — ناظر قسم

Demes أقسام المدينة وأحياؤها ـ ديمات

Deputati الفرسان

Despot—Despotate دسبوت — دسبوتية

Deuteras معاون ثان

Diaconicon مقصورة المواعين المقدسة بالكنيسة

Digest الموجز القانونى

Dikereaton ضريبة إضافية قدرها ١/١٢

Diocese أسقفية — قسم إدارى

Dioceses الأقسام الإدارية

Disabilities الحرمان من الحقوق

Diptych لوحة رسم أو نقش ذات طيتين بينهما رابط

Domestici جنود القصر وضباطه

Domesticus Scholarum رئيس حرس القصر

Drilled Work الأشغال المثقبة

Dromond الدرمونة — العدّاءة

Drouggoi دروجريات ، الكتيبة

Drungarius نائب الأميرال البحرى — قائد مويرة

Dunatoi الكبراء . ذوو المقدرة

Dux القائد العسكرى . الدوق

Dyarchy الحكم الثنائى ، الحكومة الثنائية

E

Ecloga الإكلوجة

Ecloga Legum إكلوجة القوانين

Ek prôsôpôn قائد إضافى . قائد النجدة

Ekthesis الوثيقة الحاوية للاعتراف الجديد

Embroidery Sculpture النحت التطريزى

Eparchikon Biblion كتاب الوالى

Eparchos الحاكم بالعاصمة — رئيس حكومة العاصمة

Epiboli الضرائب الجماعية

Epi tôn deēseon وزير التظلمات

Epi tôn eidikon الموظفون المنوطون بمصانع الدولة

Epiphany عيد الغطاس — التجلي

Epoptai جباة الضرائب بالمقاطعات

Exarch إكزارخ — حاكم مقاطعة — النائب الامبراطوري

Exarchate ولاية يرأسها إكزارخ

Ex cathedra صادر من كرسي الابروشية

Excubitors السيادبة

Ex Filio ومن الابن

F

Finno—Ugrian الهون (الفنلنديون الأجريون)

Fisc الصدقات ، بيت المال

Foederati جنود البرابرة الحالفون — فرق البرابرة الحالفون

Frescoes صور جصية حائطية

G

Genre ضرب فني سائد

Gladiators الجلادون

Gleba ضريبة الأملاك الخاصة

Great Drungarius الأميرال الأعظم

Gynaecea أقسام الحرم ، أجنحة الحريم

Gynaeceum مصنع النسيج يعمل فيه النساء

H

Henoticon رسالة الاتحاد لزينون

Hesychast أصحاب مذهب الزهد الصامت

Hetaeria جند كتائب المرافقة—كتائب الرفقاء

Hetaeriarch رئيس جماعات الجند

Hexabiblion الكتب الست

Hexameter الشعر السداسي التفاعيل

Hicanati فرقة الهيكاناتي

Hoc vinces بهذا يكون النصر لكم

Higumenes إيغومانوس

Holosphyrism الهولوسفيرية (الزلفة)

I

Iconoclasm عملية تحطيم الصور

Iconodules عباد الصور

Imperium السلطة الإمبراطورية

Indiction مرسوم إمبراطوري بربط الضرائب لفترات

Inter communication churches الكنائس المتجانسة التي يمكن الانتقال من إحداها للأخرى .

Isapostolos نظير الرسل

Iugum وحدة الضرائب Zengarion وسميت

K

Kapnikon ضريبة المنازل (الموقد)

Kathisma المقصورة الإمبراطورية

Kephaletion ضريبة الرؤوس

Komites قائد الفرقة (التورما)

Kritai القضاة

L

Largesse الصدقات

Laurae مجتمعات النساك

Legend الأسطورة

Lex de imperio القانون الخاص بسلطان الحكم

Limitanei قوات الحدود

Grand Logariastes المحاسب الأعظم

Logethete مراقب الحسابات

Logethete of the Dromus مراقب الخيل والبريد

Grand Logothete المستشار الأعظم

Logothete of the Course مستشار الإجراءات

Notitia Dignitatum التعريف بالرتب
Novels الإضافات القانونية الجديدة - ملاحق
Novellae القوانين المستجدة - المستجدات
Noxae deditio التعويض فى نظير الضرر
Numerus (numeri) الفرقة من الجند - الفصيلة - الكتيبة - السرية - كتائب المشاة

O

Oeconemicos Didaskalos أستاذ الفلسفة وهو رئيس الجامعة
Oecumenical مايتعلق بالكنيسة المسكونية
Optimati الجند المختارون
Orantes المصلون - المبتهلون
Orphanotrophus مدير ملاجىء الأيتام

P

Paedagogus المربى
Panhyperaebastus الجليل الأعلى
Pantocrator الإله القاهر
Papias كبير معاونى القصر
Paracoemomenus كبير الأمناء - كبير الحجاب - الحاجب الأعظم
In Partibus فى أجزاء ، فى مقاطعات
Patria Potestas السلطة الأبوية
Patronus راعى - حامى
Paulicians البولصيبيون ، طائفة من الهراطقة ينتسبون إليهم.
Penetes الفقراء
Pentarkhia الفرقة الخماسية
Pentekontarchia ملازم
Per Filium عن طريق الابن
Peratics البيراتيين الحرس المرابط
Philanthropia إعفاءات - ترضيات
Pierced work أشغال فن النحت المخرمة

Logothete of the Praetorium مستشار دار الوالى

M

Magister Officii كبير الوزراء - رئيس الديوان
Magister Officiorum كبير دواوين الموظفين ورئيس الإدارات كلها
Magisters السادة الأعيان
Magistri Militum الرؤساء العسكريون - رؤساء الجند
Magistri Scriniorum وزراء الدولة
Mardaites المردائية
Medallion الحليات الزخرفية المستديرة ، جامة زخرفية
Menologium تقويم كنسى
Menuthis عبادة الشيطان
Merarch آمر كتيبة
Mesê الشارع الرئيسى فى القسطنطينية
Moerarch قائد كتيبة
Moirai مويرايات ، سرايا
Monophysites المونوفيزيائيون - أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح
Monotheletism الإيمان بوحدة إرادة المسيح ، مذهب المونوثيليتية .
Mysticism التصوف - المستيقية
Mythology الرطازات

N

Narthexes غرفة القربان
Nave إيوان الكنيسة
Navigatium القوة البحرية
Niello النل (أشغال)
Nobilissimus الأشرف - أنبل النبلاء
Nomophylax أستاذ القانون

Podesta الحاكم البندقي
Politicals رجال الخدمة المدنية
Pontifex Maximus الرئيس الديني الأعلى – الحبر الأعظم
Porphyrogennetus وليد الغرفة الأرجوانية من الأمراء . سليل الأباطرة
Praefectus Praetorius الوالي البريتوري
Praeses الحاكم المدني ، الرئيس
Praetorian Prefects الولاة البريتوريون
Praetorium سجن الدولة
Prefect وال
Prefecture ولاية – إيالة – إمارة – لواء
Princeps الأمير – الامبراطور
Procheiros Nomos القانون الميسر
Pronia مئونة – ميرة
Pronoetés رئيس – مشرف
Protectores الحماة
Prothesis منضدة القربان
Protoasecretis الوزراء السكرتيريون الامبراطوريون
Protosebastus الجليل ، صاحب الصدارة
Provinces الولايات
Pulician أتباع بولص

Q

Quaestor – كويستور ، وزير الخزانة
Quietism مذهب التجرد النفسي
Quota الضريبة – المقرر – المعلوم

R

Rector الرئيس – رئيس الجامعة أو مديرها – الريكتور
Rosalia عيد الورود

S

Sacellarius وزير المالية – محاسب عام
Salic law القانون السالي
Scaramangion خلعة
Scholae كتيبة المدارس
Sebastocrator الحاكم الجليل
Sebastus الجليل
Secretikoi الإداريون (الموظفون)
Serfdom نظام موالي الأرض
Side aisle جناح جانبي بالكنيسة
Silentiary داعية الصمت في البلاط البيزنطي
Simandra النواقيس الخشبية المؤذنة للصلاة
Sol Infectus إله الشمس
Stoicheion شيء غير حي ترتبط به الحياة
Stratarchs رؤساء الجيوش
Strategi : generals القواد
Strategicon مركز القيادة
Strategos = strategus القائد
Stucco حلية جصية – حليات من الجبس
Stylite الناسك العمودي ، المتعزل
Suffragia انتخاب الحاكم ، الانتخاب
Symponus محكّم
Syntagma Canonum مجموعة القوانين الكنسية
Synthesis مزيج – تكوين مركب

T

Tabor جبل تابور
Tactica فنون الحرب – تاكيتكا
Tagmata فرق المدينة – فرق الحرس الامبراطوري الأربعة
Tagma الفصيلة
Tetrarchy حكومة رباعية

قاعة الاستقبال بالقصر الكبير Triconchus
آمر كتيبة – والى Turmarch
قائد فيلق (قائد كتيبة) Turmarchai
ولاية كبرى Turmarchy
إلهة الحظ Tyché

V

فصل – تابع اقطاعى – مقطع Vassal
مذبحة الفسبار الصقلية Sicilian Vespers
كتيبة الفستيانى Vestiantes
المندوب (وهو حاكم قسم إدارى) Vicar
نائب مقاطعة Vicarius
كتيبة المراقبة Vigla

Z

ضريبة الأرض الأساسية Zeugaratikion
كبيرة الوصيفات Zoste Patricia

فيلق – لواء ثغرى Thema
الوية الثغور Themata
مناطق عسكرية – مقاطعات حربية – الولايات الثغرية Themes
نظم الحكم فى حكومة كهنونية Theocracy
الرسالة العقيدية لليو الكبير Tomos
رسالة بابوية صدرت سنة ٩٢١ خاصة بشئون الزواج Tomus Unionis
محصل حلبة السباق Tôn Dromôn
مدير المزارع الامبراطورية Tuô angelôn
جابى الضرائب المركزى Tôn genikôn
صاحب أعطيات الجند Tôn stratiotkôn
حاكم ناحية Toparch
تورماى – الآلاى – فرقة Tourmai
الخيالة الخفيفة Trapazistes
جناح عرضى بالكنيسة Transept
النقباء Tribunes
الحلية المثلثة الأوراق Trichora or trefoil

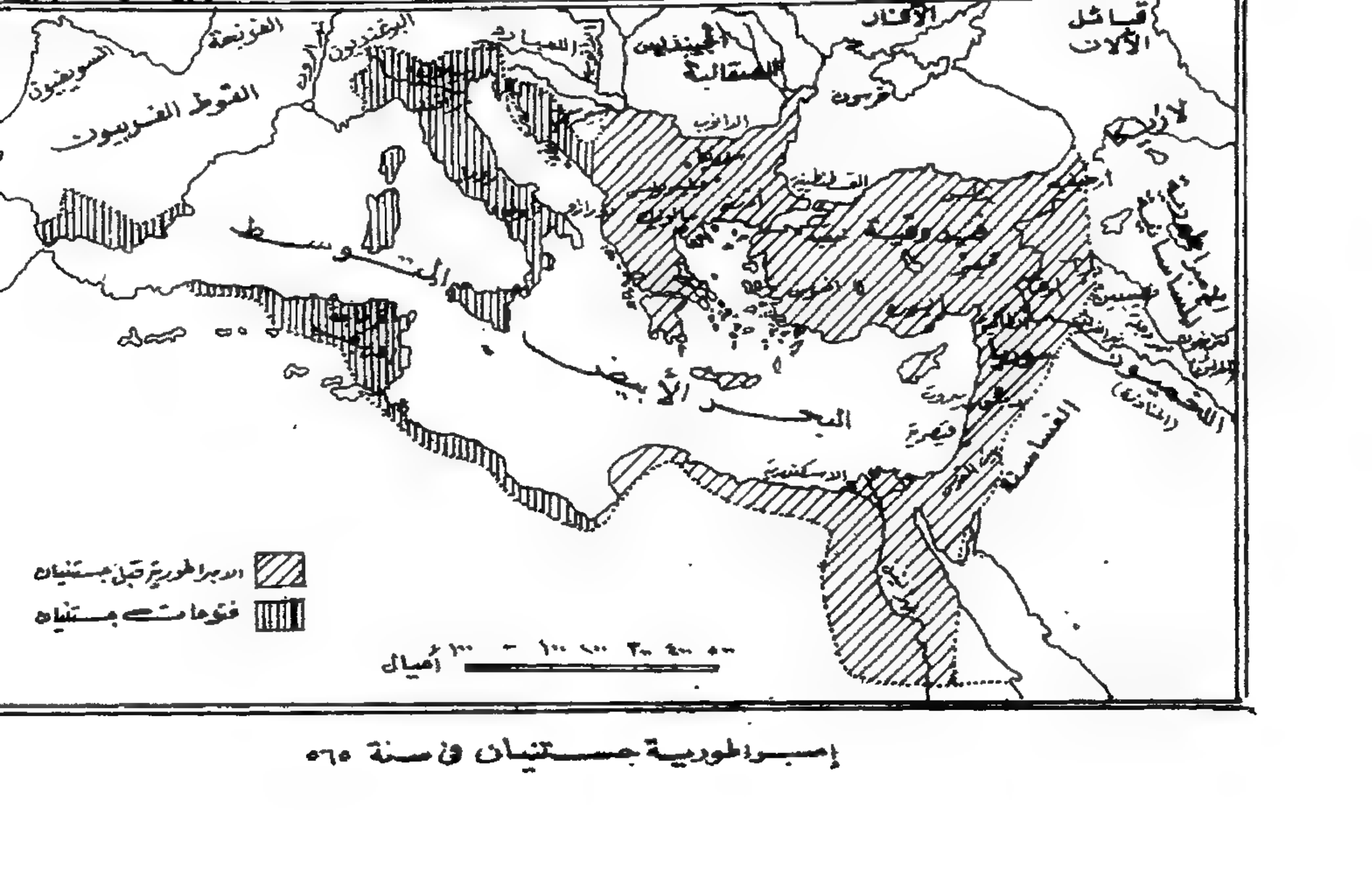
التعريف بالمؤلف

مؤلف هذا الكتاب سير ستيفن رانسيمان ، وهو يناهز اليوم الثامنة والخمسين من عمره ، ينتمي لأسرة إنجليزية عريقة : فوالده والتر رانسيمان أحد أعضاء وزارة تشمبرلن ، وجده لورد ركس فورد . وقد عشق رانسيمان الشرق وجاب أقطاره ، فزار مصر سنة ١٩٤١ ، وصوفيا وأقام باستانبول فترة من الزمان ، وعمل أستاذاً بكلية روبرت ، وهناك أتقن اللغات العربية والتركية والفارسية ، فضلا عن تضلعه فى اليونانية القديمة والحديثة واللاتينية ، وهو الآن زميل بكلية بمبروك بجامعة كمبردج ، وأستاذ غير متفرغ بجامعة لندن . وقد أصدر كتابه العظيم فى الحروب الصليبية فى ثلاثة أجزاء بين عامى ١٩٥١ — ١٩٥٤ . وله بحوث قيمة أخرى من أهمها دراسة فى الهرطقة المسيحية ، ومذبحة الصقلية ، وقد تعددت نواحى نشاطه ، فتولى بعض الوظائف السياسية ولكن التدريس بالجامعات المختلفة كان شغله الشاغل .

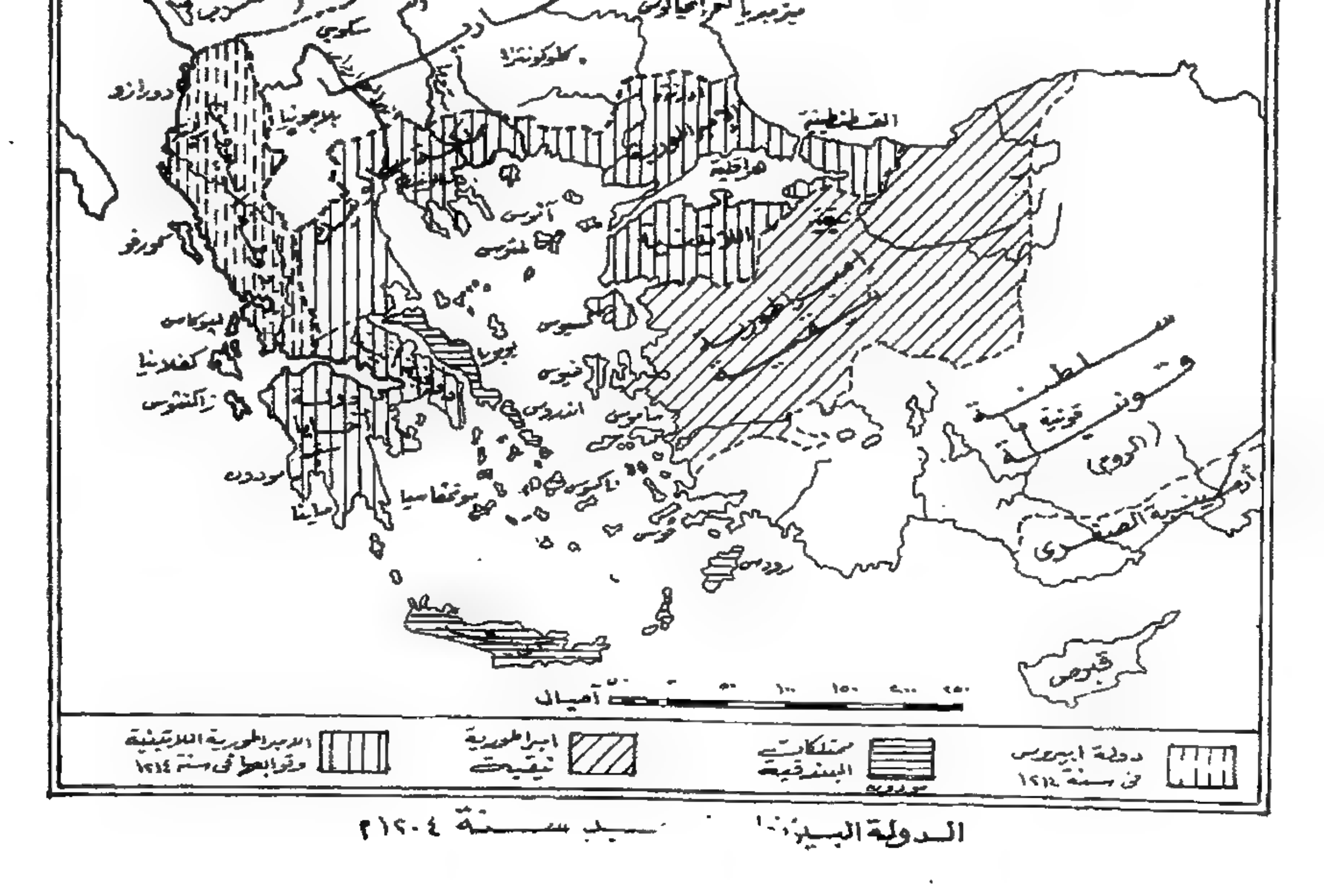
المترجم

فإنه ولد بالقاهرة وتخرج فى المعلمين العليا الأدبية (١٩٢٩)، واشتغل بالتدريس حتى رقي وكيلاً لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١). فمديراً للمركز الرئيسي للتدريب بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣). وشغف بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية منذ حداثته.

انضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر، حائز على جائزة الدولة التشجيعية في الترجمة عام ١٩٨١، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.



إمبراطورية جستنيان في سنة ٥٦٥



الدولة البيزنطية بعد سنة ١٢٠٤م



الإمبراطورية على عهد باسيل الثاني سنة ١٠٢٥

اقرأ فى هذه السلسلة

أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند راسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى • رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت • و • فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر • ج • فوربس
الأرض الغامضة	ليستردين راى
الرواية الانجليزية	والتر آلن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د• قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د• محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س • بى • كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د• عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول وادبنيت
فن الترجمة	د• صفاء خلوصى
تولستوى	رالف تى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفله
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقي	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ ج)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد ويونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الافلام	جوزيف . م . بوجز
خفايا نظام النجم الامريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب . ناش
انواع الفيلم الاميركى	ستالين جين . سولومون
رحلة الأمير رودلف ٣ج .	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج	عبد العزيز جاويد
الفيلم التسجيلى	محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	يالكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام
الحب	ه . ليوبوسكاليا
كنوز الفراعنة	ت . ج . هـ . جيمز
اطلالات على الزمن الآتى	د . السيد نصر الدين
الرواية اليوم	مالكولم براد برى
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة

السينما العربية	اعداد / مونى براح وآخرون
دليل لتنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى اوربا	بول كولز
صناع الخلود	موريس بيير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفريد ج · بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ) .	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار/ د· رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الازهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الاسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ جـ)	أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	أعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د· ابوار كريم الله
ماسترخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ · ج · ولس
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف · بيرتون

الحضـــارة الاسلامية	آدم متـــز
الطفـــل (٢ ج)	ارنولـد جـــزل
رسائل واحاديث من المنفى	فيكتـور هـوجو
الجـزء والكل (محـاورات في مضـمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبـرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	ســدني هـوك
فن الأدب الروائي عنـد تولستوى	ف · ع ادنيـكوف
ادب الأطفـــال	هادى نعمـان الهيتى
احمـد حسـن الزيات	د· نعمـة رحيم العـزاوى
اعـلام العـرب في الكيمياء	د· فاضل احمـد الطـائى
فكرة المسرح	جـلال العشرى
الجحيـــم	هنـرى باربوس
صـنع القـرار السـياسى	السـيد عليـوة
التطـور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسـكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د· روجـر سـتروجان
تربيـــة الدواجن	كـاتى ثيـــر
الموتى وعالمهم في مصر القـديمة	ا · ســبنسر
النحـــل والطب	د· ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهمـــوس
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د· ليونار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في الســنة	د· جـون شـندلر
الصـــحافة	بييـــر البيـــر
اثر الكوميـــديا الالهية لدانتي في الفـن التشـــكيلي	د· غبـريال وهبـــة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعـــدها	د· رمسيس عـوض
حركة عدم الانحياز في عــالم متغير	د· محمد نعمان جـلال
الفكر الاوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومـــر
الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شـــوكت الربيعي

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين أحمد حسين
صـور أفريقيـة	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى اليـاء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيـة	ويليـام بينـز
تربية أسماك الزينـة	دبفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جـون ر . بورر وميلتون جـولد ينجـر
الفكر التاريخي عنـد الاغريق	ارنولد توينبي
قضـايا وملامح الفن التشـكيلي	د. صـالح رضـا
التغذية في البلدان النامية	م.هـ. كنج وآخـرون
بـداية بلا نهـاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية	د. السيد طه أبو سـديرة
حـوار حـول النظـامين الرئيسـيين للـكون	جاليـليو جاليليـه
الارهـاب	اريك موريس وآلان هـو
اخنـاتون	سـيريل الدريد
القبيـلة الثـالثة عشرة	آرثر كيسـتلر
التـوافق النفسي	توماس ا . هـاريس
الدليـل البيليـوجرافي	مجمـوعة من البـاحثين
لغـة الصـورة	روى ارمـز
الثورة الاصـلاحية في اليابان	ناجـاى متشـيو
العـالم الثـالث غـداً	بـول هاريسـون
الانقراض الكبير	ميخائيل آلبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـود	فيكتـور مورجـان
التحليل والتوزيع الأوركسـترالي	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشـاهنامة (٢ جـ)	الفـردوسى الطـوسى
الحيـاة الكريمة (٢ جـ)	بيـرنون بورتر
كتـابة التـاريخ في مصر	جـاك كرابس جونيـور

عن النقد السينمائي الامريكي	ادوارد ميري
تراتيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
نظريات الفيلم الكبرى	ج. دادلي اندرو
مختارات من الادب القصصي	جوزيف كونراد
الحياة في الكون كيف نشات واين توجد	د. جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
مختارات من الادب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج	فرانكلين ل . باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف . س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س . م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون
الشارع المصرى والفكر	د. انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س ميس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس

المرأة الفرعونية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السى	روبرت لافو
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجمل تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	ديفيد بوشنبدر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت . ج . هـ . جميس
البرنامج النووى الاسرائيلى	د . ممدوح حامد عطية
بحثا عن عالم افضل	كارل بوبر
العلم وآفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوننا المتمدد	ايفرى شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نورمان كلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧١٠٩ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5219 - 6

تهدف الهيئة المصرية العامة للكتاب من مشروع الالف كتاب الثانى ان تواصل مسيرة المشروع الاول لتكوين مكتبة متكاملة للقارئ العربى فى شتى جوانب المعرفة عن طريق الترجمة والتاليف فضلاً عن إعادة طبع اهم الأعمال الفكرية والعلمية والادبية التى اسهمت فى تكوين الثقافة المصرية والعربية فى العصر الحديث والتى بات الاطلاع عليها اليوم متعذرًا لشباب هذا الجيل لقدم طباعتها.

وفى هذا الإطار يسعى المشروع إلى إلقاء الضوء على الحضارات العالمية المختلفة ومن بين الكتب التى صدرت فى هذا الميدان:

الحضارة الفينيقية	التجربة اليونانية
الحيثيون	حضارة الإسلام
موجزتاريخ العلم والحضارة فى الصين	

(انظر قائمة الإصدارات في اخر الكتاب)

ويرسم هذا الكتاب صورة عامة لحضارة الإمبراطورية الرومانية فى اثناء الفترة التى كانت عاصمتها مدينة القسطنطينية (اسطنبول الحالية) تلك الحضارة الإغريقية الرومانية المشربة بالطابع الشرقى. وهذا الامتزاج بين العناصر الحضارية الاغريقية والرومانية والشرقية هو الذى يعطى تلك الحضارة طابعها الخاص. وقد تحولت الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الى المسيحية وظلت القوة المدافعة عن تلك الديانة فى أوروبا لعدة قرون. كما إنها عاصرت مولد الإسلام وانتشاره ودخلت فى صراع طويل مع الدولة الإسلامية تخللته عملية تبادل ثقافى وتأثيرات مت

ويعرض هذا الكتاب للجوانب المختلفة للحضارة البيزنطية مثل ال وعلاقة الدولة بالكنيسة والأدب البيزنطى والفن البيزنطى والجهاز والتجارة والحياة فى المدن والريف وغير ذلك من جوانب حضارية هامة

مع تحيات الهيئة المصرية الع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب